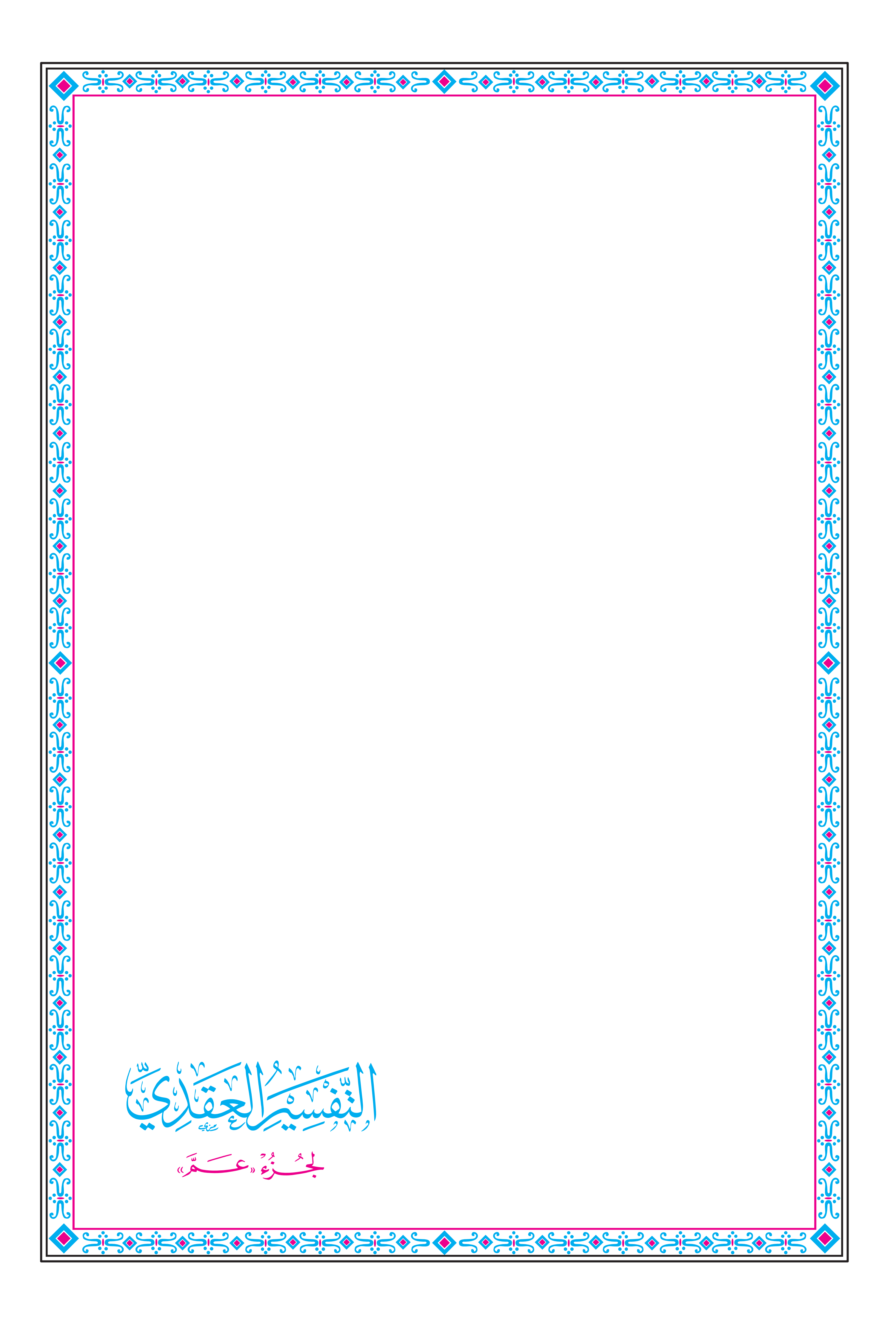


التفسير العقدي
لجزء «عمّ»





دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

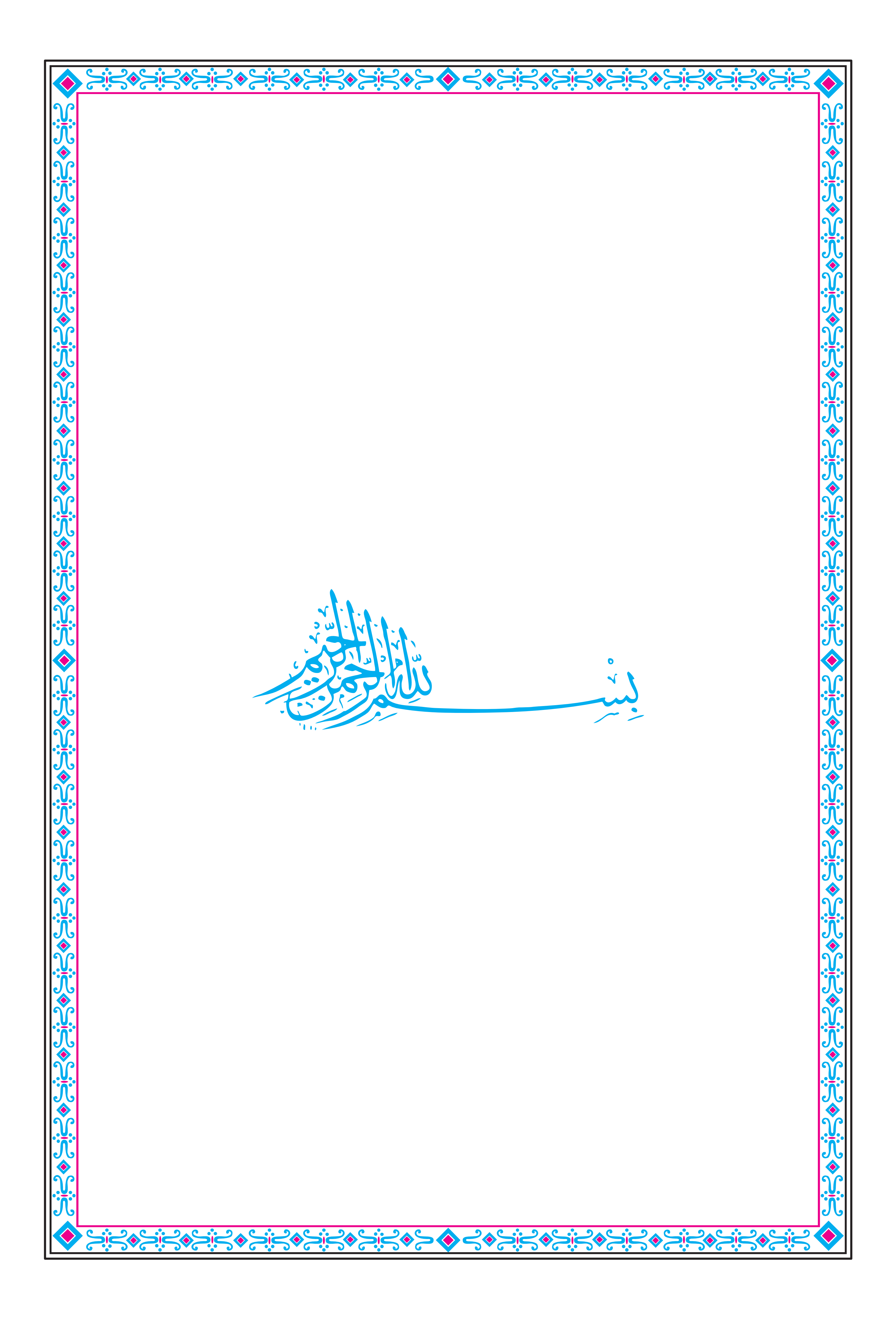
المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٥٧
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٣ - الرقم الإضافي: ٨٤٠٦ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - **الرياض** - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ - **الإحساء** - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - **جدة** - ت: ٦٨١٣٧٠٦ - ٠٥٦٣٤٧٦٣٨٨ - **بيروت**
هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - **القاهرة** - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨
تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - **الإسكندرية** - ٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:
aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com



تأليف

د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم



تأليف

د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة

الحمد للَّه رب العالمين، وصلىٰ اللَّه وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله محمدٍ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن اللَّه بعث نبيَّه محمدًا ﷺ بالهدىٰ ودين الحق، ليظهره علىٰ الدين كله. فالهدىٰ: هو العلم النافع. ودين الحق: هو العمل الصالح. وقد ضمَّن اللَّه ما أنزل علىٰ نبيِّه من البينات هٰذين الأمرين، فاحتوىٰ كتاب اللَّه ﷻ علىٰ كل ما يحتاجه الناس في أمر معاشهم ومعادهم؛ من العقائد، والشرائع، والأخلاق، والآداب، فكان فيه غنية وكفاية.

وقد جعل اللَّه كتابه آية خالدة، ومعجزة باهرة إلىٰ يوم القيامة. وفي الحديث الصحيح، أن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أني أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» متفق عليه(١).

فهٰذا القرآن العظيم فيه الخير، والبركة، والصلاح، والفلاح، والنجاح، لهٰذه الأمة، ولجميع العالمين، إلىٰ يوم القيامة.

وقد امتن اللَّه علىٰ عباده المؤمنين بإنزال هٰذا الكتاب، وامتن علىٰ نبيِّه بذٰلك وشرفه به؛ فقال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ

(١) صحيح البخاري (٤٩٨١)، صحيح مسلم (١٥٢).

إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣]، وأقسم اللَّه تعالىٰ به في غير ما موضع، في كتابه؛ تعظيمًا لشأنه، وتفخيمًا له، ولم ينزل اللَّه تعالىٰ كتابه لأجل أن يُترنم بذكره، ويُتغنىٰ به، فحسب ـ وإن كان هٰذا مرادًا مقصودًا ـ، ولٰكن أنزله ﷻ لما هو أعظم من ذٰلك؛ لتدبره وتعقله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢]، وقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وقال ﷻ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾ [الأنعام: ٩٢].

ففي القرآن العظيم بركة في تلاوته؛ لما يحدثه في نفس تاليه من السكينة والطمأنينة؛ لأنه أعظم ذكر للَّه، وقد قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

وكم من إنسان قلق، متوتر، فتح دفتي المُصْحَف، ورطَّب لسانه بتلاوة آي الكتاب، فانقشعت عنه سحائب الهموم، والغموم، وانجلت عن ناظريه الغشاوة، وعن أذنيه الوقْرْ، وعن قلبه الأكنة.

وهو مبارك أيضًا فيما تضمّنه من العلوم النافعة، وأعظم ما فيه من العلوم: العلم باللَّه ﷻ. فلا سبيل لنا إلىٰ العلم باللَّه تعالىٰ، إلا فيما أودعه في كتابه أو نطق به نبيه ﷺ، فقد تضمَّن من أسماء اللَّه الحسنىٰ، وصفاته العُلىٰ، الشيء الكثير، مما لا يخفىٰ، فيحصل للقلب من تدبر هٰذه المعاني الجليلة في أسماء اللَّه وصفاته، وأفعاله، ما يقع به تعظيم الرب وخشيته ومحبته ورجائه وسائر ما يتنعم به القلب من العبادات القلبية الباطنة.

وأودع اللَّه تعالىٰ فيه أيضًا من الشرائع العادلة مما يحتاجه الناس، في عباداتهم، وفي معاملاتهم، وفي معاشرتهم لأهليهم ما لا يبقىٰ معه إشكال، فلم يدع شاذَّةً ولا فاذَّةً إلا وترك لنا منها علمًا.

وهو مبارك أيضًا في موعظته؛ فإن في القرآن موعظةً لا توجد في غيره، وفيه تأثير علىٰ القلوب، لا يحصل إلا به، وربما تفنن الوعاظ والمربون بأنواع المواعظ والتأثيرات، وربما كان تأثيرها كبيرًا، لٰكنه آنِيٌّ، أما موعظة

القرآن فإنها باقية وثابتة ومؤثرة، فأعظم ما عالج به الإنسان قلبه كتاب اللَّه ﷻ؛ ولهٰذا عَتَبَ اللَّه تعالىٰ علىٰ المؤمنين في أول الإسلام ما أصابهم من فتور، فقال سبحانه: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

قال ابن مسعود: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا اللَّه بِهٰذه الآية إلا أربع سنين»[(١)].

فلابد أن يُحدث هٰذا القرآن خشيةً وخشوعًا في القلب، وكأن اللَّه يحضُّهم ويُحرضهم علىٰ تحصيل هٰذا الأثر، ثم قال: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد]، فحذر اللَّه تعالىٰ من مشابهة أهل الكتاب، الذين جعلوا كتاب اللَّه وراءهم ظِهريًّا، ولم ينتفعوا به، فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، فكتاب اللَّه بين ظهرانيهم، لٰكنهم لا يرفعون به رأسًا.

ثم أردف اللَّه تعالىٰ هٰذه الآية بقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد: ١٧]، فلفت الأنظار إلىٰ أن حاجة القلوب إلىٰ موعظة القرآن، أعظم من حاجة الأرض الميتة إلىٰ ماء السحاب، فلئن كان ماء السماء يُحيي الأرض بعد موتها، فيُنبت الزرع، ويدرُّ الضرع، فإن هٰذه القلوب أحوج إلىٰ ما أنزل اللَّه من كلامه، من الأرض الميتة إلىٰ المطر، والقرآن العظيم مبارك في آثاره؛ فإنه يُحدث آثارًا حميدةً في الحياة الدنيا، وفي الآخرة، علىٰ مستوىٰ الأفراد، وعلىٰ مستوىٰ الجماعات، وعلىٰ مستوىٰ الأمة بعمومها.

فالمرء إن اعتصم به، والتزم بهديه، أصلح اللَّه له حاله، ورُزق الحياة الطيبة، واطمأنت نفسه، وهدأ باله، وحَصَل له نعيم الدنيا المتمثل بلذة مناجاة اللَّه تعالىٰ.

---

(١) «صحيح مسلم» (٣٠٢٧).

والمجتمع إن التزم بتعاليمه، وحدوده، وُقي من الشرور، والآفات، وحُفظت الأسرة من الخلاف، والفرقة، والنزاع، ورُوعيت الحقوق، والذمم.

والأمة بمجموعها إن التزمت به حقق اللَّه لها النصر والتمكين:

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

فالقرآن العظيم هو عهد ما بيننا وبين اللَّه ﷻ إن نحن التزمنا به، وعظَّمناه، وقدَّمناه، وجعلناه إمامًا لنا، هدانا لأرشد أمرنا، وإن كانت الأخرىٰ، فليس وراء ذٰلك إلا الضلال، والخسار، في الدنيا والآخرة.

ولا شك أن تلاوة كتاب اللَّه، فهمًا، وتدبرًا، من أولىٰ ما يكون، فإنه لا يخفىٰ أن العلم الذي كان بين أيدي الصحابة رضي الله عنهم هو هٰذا العلم المنزل من السماء؛ «القرآن العظيم»، ولم يكن بين أيديهم شيءٌ من هٰذه الكتب المطولات، ولا الشروحات، ولا ما تمتلئ به رفوف المكتبات، وإنما كان أحدهم يُقبل علىٰ هٰذا الدين بكُليته، فيقرع سمعه القرآن، فيستحيل خلقًا جديدًا، فيستيقظ من غفلته، ويصحو من غفوته، ويعلم سر خلقه، وكينونته، فيعود خلقًا جديدًا، يُنشئه اللَّه نشأةً أخرىٰ.

وقد صنع اللَّه بأصحاب نبيه رضي الله عنهم من الكرامة والخير والتمكين ما لا يخفىٰ، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فكانوا في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، فبعث اللَّه نبيه ﷺ في هٰذه الأمة العربية، التي كان بعضها يأكل بعضًا، وينزو بعضها علىٰ بعض، ويقتتلون السنين الطوال، من أجل بيت شِعْر، أو

شطره، أو لأجل بعير، أو ماء، أو مرعىٰ، أو نحو ذٰلك، فجعل اللَّه تعالىٰ منهم أمةً قويةً متحابةً، وفتح بهم القلوب، قبل أن يفتح بهم الحُصون. وفي سُنيات معدودة طبَّق دين اللَّه تعالىٰ الأرض المعمورة، وكل هٰذا ببركة القرآن، تمثَّلوه فرفعهم اللَّه تعالىٰ به، ولن يُصلح آخرَ هٰذه الأمة إلا ما أصلح أوَّلها. ولذٰلك كان ينبغي لكل عاقل، لبيب، حازم، أريب، أن يتوجه إلىٰ النبع الأول؛ النبع الصافي، ويدع السَّواقي، يَبتدئ بما أنزل اللَّه علىٰ نبيه ﷺ من الكتاب والحكمة، فيَعمد إلىٰ الكتاب والسنة، يستقي منهما. فمن وجد ماءً جاريًا وله فروع، فالكسول يذهب إلىٰ أحد هٰذه الفروع الضحلة، فيملأ منها إناءه، ولٰكن صاحب الهمة يقول: ما لي آخذ من هٰذه السواقي التي فيها شوب، وكدر، وطين! بل أذهب إلىٰ هٰذه العين المتفجرة، المتدفقة، الصافية، فأستقي منها.

فلأجل هٰذا، رأيت عقد دروس في تفسير القرآن العظيم، حتىٰ نعيش في روضات أنيقات، من كلام اللَّه ﷻ، الذي به صلاح القلوب، وصلاح الحياة كلها، ورأيت التركيز علىٰ التفسير العقدي، فإنه أساس بناء هٰذه الأمة، وسبب صلاح القلب، واخترت لهٰذا «جزء عم»، آخر أجزاء القرآن العظيم؛ لما تضمنه من تقرير الاعتقاد في العهد المكي. فكل سور هٰذا الجزء نزل بمكة باستثناء سورتين، هما سورة البيِّنة، وسورة النصر. وما سواهما، فكله مكي. ويظهر فيه ملامح، وخصائص السور المكية من التَّركيز علىٰ مسائل الاعتقاد، والتوحيد، والمعاد، وأصول الإيمان. وما أحوجنا في هٰذا الزمان وفي كل زمان إلىٰ استحياء هٰذه المعاني وتقويتها في القلوب والنفوس.

وكان من توفيق اللَّه لي أن اشتغلت بتفسير هٰذا الجزء المبارك في دروس متتابعة في جامع أبي موسىٰ الأشعري بمحافظة عنيزة سنة (١٤ هـ)، ثم قام بعض الطلبة ـ جزاهم اللَّه خيرًا ـ بتفريغ هٰذه الدروس من محفوظاتها الصوتية والعناية بإخراجها، وتم نشرها علىٰ حلقات متتابعة في موقع العقيدة والحياة الإلكتروني، ثم أعدت النظر فيها، وهذبتها، حتىٰ استوت علىٰ هٰذه

الصورة.

فما كان من خيرٍ وصواب فمن اللَّه، وما كان من خطأ وزلل فمني ومن الشيطان. ورحم اللَّهُ عبدًا أهدىٰ إلي عيوبي ودلني علىٰ الصواب.

وقد سرت علىٰ الطريقة التالية:

أولاً: أبين مقاصد السورة، فإن اللَّه ما جعلها سورة مسوَّرة إلا ولها موضوع، أو موضوعات مترابطة.

ثانيًا: أقوم بتجزئة هٰذه السورة، إن كانت طويلة، إلىٰ أجزاء ذات رابط موضوعي، فكل طائفة من الآيات تكون متناسبةً فيما بينها عند التأمل.

ثالثًا: أشرع في التفسير التحليلي لهٰذه المقاطع، ببيان مفرداتها وما قيل فيها، وتراكيبها وما يفتح اللَّه تعالىٰ من علم وفهم.

رابعًا: أقوم باستنباط الفوائد العقدية، والإيمانية، والتربوية المميزة، من هٰذا المقطع.

وعلىٰ هٰذا النهج أسير بعون اللَّه تعالىٰ.

واللَّه المسؤول وحده أن يجعل عملي خالصًا لوجهه، نافعًا لعباده.

والحمد للَّه الذي بنعمته تتم الصالحات.

كتبه حامدًا لربه شاكرًا لأنعمه مصليًا مسلمًا علىٰ رسوله

د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي

❁ ❁ ❁

سورة النبأ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٥﴾:

هٰذه السورة العظيمة المسماة بسورة «النبأ»، وتُسمىٰ بسورة «عَمَّ»، لها مقاصد يمكن أن نلخصها في أمور ثلاثة:

الأول: تعظيم شأن القرآن.

الثاني: تقرير الإيمان باليوم الآخر.

الثالث: الدعوة إلىٰ التفكر في آيات اللَّه الكونية.

وقد استهل اللَّه ﷻ هٰذه السورة بصيغة الاستفهام ﴿عَمَّ﴾؟ وهي اختصار لـ«عن ماذا»، ومعناها: عن أيِّ شيء يتساءل المشركون؟ وقد وردت علىٰ صيغة الاستفهام الإنكاري، للنعيِ علىٰ فعلتهم، فكيف يسوغ أن يتساءلوا، وأن يختلفوا في أمر كهٰذا!

و﴿ٱلنَّبَإِ﴾ المقصود به: الخبر. وليس أيَّ خبر، بل الخبر الذي استطار واشتهر؛ وهو مأخوذ من النَّبْوة، وهي ما علا وارتفع من الأرض.

ثم فخَّم اللَّه شأن هٰذا النبأ، فوصفه بأنه ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾، والأمر كذٰلك.

وقد وقع الخلاف بين المفسرين؛ هل المقصود بالنبأ: القرآن؟ وهو قول مجاهد، أم المقصود بالنبأ: البعث بعد الموت؟ وهو قول قتادة.

ويُعزز القول الأول، أنه وقع الاختلاف منهم في القرآن؛ فتارةً يقولون: سحر. وتارةً يقولون: كِهانة. وتارةً يقولون: شعر. فينطبق عليهم أنهم قد

اختلفوا فيه. في حين أن البعث لم يقع فيه اختلاف بينهم؛ لأنهم قد أنكروه جملةً وتفصيلًا.

إلا أن القول الثاني ـ وهو أن النبأ العظيم هو البعث ـ أليق بسياق السورة؛ فإن سياق السورة ـ كما تقدم ـ يتعلق بأحوال الآخرة، والجنة، والنار، والفَصْل، والحساب.

ولو ذهبنا نُرجح بين القولين، لكان القول الأول أرجح؛ لأنه أعم، فإن القرآن يدخل فيه أمر البعث، فيكون متضمنًا له. ويكون اختلافهم في الواقع، في مفردات هٰذا الأمر، فهٰذا أولىٰ بالاختيار. وقد اقتبس الشيخ محمد عبداللَّه دراز رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه «النبأ العظيم» من هٰذه السُّورة.

ثم إن اللَّه عَزَّوَجَلَّ لمَّا ذكر تساؤل المشركين، أجاب عنه إجابةً مجملةً لا تفصيل فيها، فقال: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾﴾؟ ولم يذكر تفاصيل اختلافهم، والجواب عنهم، بل أعرض عن ذٰلك. وكأن الأمر من البيان، والوضوح، بمكان لا يستحق أن يُتنازل مع المخالف، ولا يُتحدث معه فيه. ففي هٰذا الإعراض تفخيم لهٰذا النبأ العظيم، وترذيل لهٰؤلاء المنكرين له.

ثم تأتي آيتان فيهما زجرٌ، وقرعٌ لهم ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾. ما أشدَّ وقع هٰذه الجُمل علىٰ القلوب!

وكلمة ﴿كَلَّا﴾ أحسن ما يُقال في معناها هنا أي: ليس الأمر كما يزعمون، وما يَدَّعون من إنكار البعث، أو الطعن في القرآن.

وأتىٰ بالتكرار في قوله: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾، للتأكيد. ولم يُبين اللَّه تعالىٰ ماذا سيعلمون، لٰكنه واضح من السياق، أنهم سيعلمون حقيقة هٰذا النبأ، وتحققه في الواقع، وذٰلك حينما يُعاينونه ويبصرونه، يقول اللَّه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس: ٥١ ـ ٥٢]، فهم سيعلمونه حينما يرونه عِيانًا بأبصارهم، ويعلمون أن وعد اللَّه حق.

۞ الفوائد المُستنبَطة:

الفائدة الأولى: عظم شأن القرآن، أو البعث، وأنه من أصول الإيمان.

الفائدة الثانية: سَفَه المُنكرين للأمور اليقينية.

الفائدة الثالثة: أن المُخالفين للرسل مختلِفون فيما بينهم، فليسوا علىٰ قلب رجل واحد، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة: ١٧٦].

فتجد كل من خالف الحق فِرقًا وشِيعًا وأحزابًا؛ لأن الحق واحد لا يتعدد، أما الباطل فشعب وظلمات، ولهٰذا تجد أن اللَّه دومًا يُوحد الحق ويعدد الباطل.

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ فالحق واحد، والسبيل واحدة، والباطل أشلاء.

الفائدة الرابعة: استعمال أسلوب التهديد في الموعظة الإيمانية، ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾، فلا بأس للداعية في بعض المواقف أن يُهدد المدعوَّ بعقاب اللَّه، وبشؤم صنيعه، وأن يُخوفه باليوم الآخر، ويقول له: ويلك، كما قال اللَّه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأحقاف: ١٧].

📖 ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾:

هٰذه الآيات استعراض مدهش لعجيب صُنع اللَّه، وبديع خلقه في الآفاق،

مما تخضع له الرقاب، وتخر له الجباه، ولا يملك هٰؤلاء المخاطبون إنكاره؛ فالاستفهام في قول اللَّه تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾، استفهام تقريري؛ لأنهم مُقرون بما فيه.

فابتدأ اللَّه ﷻ بالآيات الأرضية، ثم ثنَّىٰ بالسماوية، فقال أولًا: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾، فهٰذه الأرض التي تدبُّون عليها، وتمشون في أكنافها، وتسيرون في مناكبها، وتحرثونها وتزرعونها؛ ألم نجعلها لكم مهادًا؟.

ومعنىٰ ﴿مِهَـٰدًا﴾ أي: ممهدة مفروشة. فهم يمتهدونها، ويفترشونها، كما قال ﷻ في الآية الأخرىٰ: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: ٦١].

فاللَّه ﷻ بسط لنا هٰذه البسيطة، بحيث نطمئنُّ في السير عليها، وفي السُّكنىٰ فوقها، وفي الحرث، والزرع فيها؛ فهي آية قريبة جدًّا، نلامسها كل حين. وجواب هٰذا الاستفهام: «بلىٰ»؛ لأنه قد صُدِّر بالهمزة في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾: انتقل إلىٰ مظهر آخر من مظاهر آياته الأرضية، وهي هٰذه الجبال الراسيات، التي جعلها اللَّه ﷻ بمنزلة الأوتاد، كالأطناب للخيمة، فالخيمة لا تثبت إلا إذا دُقَّت أوتادها في الأرض، فكذٰلك هٰذه الأرض، لا تستقرُّ إلا بهٰذه الجبال، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء: ٣١].

والجبل علىٰ هيئة الوتد؛ جزء منه بارزٌ علىٰ وجه الأرض، وجزء غائر فيها. فدل ذٰلك علىٰ أن هٰذه الجبال المنظورة لها في جوف الأرض عُمْق وامتداد. وسبب تسميتها «أوتادًا» لأنها تمنع الأرض من الحركة، والاضطراب، والتزلزل، إلا ما شاء اللَّه. فاللَّه ﷻ بحكمته البالغة قد وزَّع الأثقال في الأرض، بحيث تمنعها من أن تميد وتضطرب.

كما أن هٰذه الأوتاد، والكتل الضخمة من الجبال التي إذا رأىٰ الإنسان

بعضها، يندهش من هولها، وعظمتها، لها ما يقابلها في أغوار البحار. بمعنىٰ أن اللَّه ﷻ كما جعل هٰذه المرتفعات الشاهقة فوق الأرض، قابل ذٰلك بخلق البحار والأودية، والأغوار.

واللَّه ﷻ يذكر الأرض، والسماء، والجبال، مقترنةً في غير ما موضع في كتابه؛ منها قوله ﷻ: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وسيأتي ـ إن شاء اللَّه ـ في سورة «سبح»، ذكر هٰذا الاقتران.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾﴾: وهٰذه نقلة من الآفاق إلىٰ الأنفس. وكلها آيات للَّه ﷻ، قال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

فقوله تعالىٰ: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ المراد بالزوجية: الذكورة، والأنوثة. فإن اللَّه ﷻ قد ركّب نظام الخلق، وجعل سِرَّ التكاثر علىٰ هٰذه الزوجية. وهٰذا ليس عند بني الإنسان فقط، بل حتىٰ عند الحيوانات، والحشرات، والنباتات، وغيرها من المخلوقات. فالتزاوج يحصل به التناسل، والتكاثر، وحفظ النوع، وهو آية عظيمة، فاللَّه ﷻ خلقنا من نفس واحدة؛ وهو آدم؛.

ثم إن اللَّه خلق من ضِلعِه الأيسر أُمَّنا «حواء»، فنام آدم نومةً في الجنة، فاستيقظ فإذا هي إلىٰ جواره، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ؛ فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ؛ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ**» متفق عليه[(١)].

(١) صحيح البخاري (٣٣٣١)، وصحيح مسلم (١٤٨٦).

واليوم يعمر الأرض من الآدميين، ما يزيد علىٰ ستة مليارات من البشر، مُختلفي الأجناس، والأعراق، والألوان، واللغات، كلهم يرجعون إلىٰ أب واحد، وأمٍّ واحدة. فهٰذه آية عظيمة! وإذا تفكر الإنسان في خلق الرجل، وخلق المرأة، وكيف جعل اللَّه ﷻ أحدهما يُكمل الآخر رأىٰ عجبًا؛ لما فتح اللَّه ﷻ علىٰ الناس العلوم الحديثة والبحوث المَخْبرية؛ زاد إيمان المؤمن ببديع صنع اللَّه.

فهٰذا التزاوج ينشأ عن التقاء حيوان منويٍّ من الذكر، وبُويضة من الأنثىٰ. وهاتان الخليّتان تختلفان عن سائر الخلايا، فكل خليّة من خلايا البدن، كما يقول المتخصصون في علم وظائف الأعضاء «الفسيولوجي»، تحمل ستة وأربعين مُورِّثًا، أو «جينًا»، المُسمىٰ عندهم بـ«الكروموسومات»، إلا الخليّة التناسلية، فإن في الحيوان المنوي ثلاثة وعشرين، وفي البويضة ثلاثة وعشرين، فإذا حصل التلقيح، والإخصاب، بإذن اللَّه، انضم هٰذا من الرجل، وهٰذا من الأنثىٰ، فحصل التلقيح. كما أن هٰذا التزاوج، ليس تزاوجًا حسيًّا فقط، بل تزاوج نفسي أيضًا؛ فإن الذكر يأنس بالأنثىٰ، والأنثىٰ تأنس بالذكر. ولهٰذا امتن اللَّه ﷻ علىٰ عباده بذٰلك، وجعل ذٰلك من آياته، فقال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، فهٰذا جانب روحي، وليس جانبًا ماديًّا، ولا يستغني عنه الإنسان.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾: هٰذا مظهر من مظاهر القدرة الإلٰهية، والآيات العظيمة في النفس، وهو هٰذا النوم الذي يُلقيه اللَّه ﷻ علىٰ أحدنا، فيدخل في حالة ليست كحالة اليقظة، وليست أيضًا كحالة الموت، بل هي حالة وسيطة، لا غنىٰ للإنسان عنها. وقد وصفها اللَّه ﷻ بأنها: سُبات.

وأحسن ما قيل في تعريف السُبات: أنه الرَّاحة، والسَّكْن. وقيل غير ذٰلك؛ فقيل: إن معنىٰ سُباتًا أي: موتًا. وقيل: قطْعًا للحركة.

وهٰذه المعاني تؤول في النهاية إلىٰ هٰذه المِنّة؛ وهي أنه يحصُل بِهٰذا النوم

الراحة، والسَكْن. ولو استرسل الإنسان في اليقظة لأضرّ به ذٰلك في بدنه؛ فالبدن يحتاج إلىٰ راحة، ولأضرّ به في نفسه؛ لأن النفس تُنهك، وتُرهق، ولأضرّ به في عقله؛ فإن العقل لا يُطيق إدمان التفكير، فلذٰلك ألقىٰ اللَّه ﷻ علينا هٰذا النوم، وحتىٰ لو لم نستدْعه، لاضطررنا إليه، وغلبنا.

و عَنْ أَبِىٰ مُوسَىٰ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّه ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «**إِنَّ اللَّه ﷻ لاَ يَنَامُ، وَلاَ يَنْبَغِىٰ لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ** ـ وفي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: **النَّارُ** ـ ، **لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**» رواه مسلم[(١)].

فسبحانه تعالىٰ وبحمده، هو الحي، القيوم، الغني بنفسه. أما الآدمي، فإنه ضعيف بطبعه يحتاج إلىٰ النوم. والنوم في حق اللَّه نقص، يُنزه عنه، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، لٰكن النوم في حق الآدمي كمال، ونفع، وحاجه وهو آية من آيات اللَّه، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣].

والنوم أخو الموت ـ كما قال النبي ﷺ[(٢)] ـ ، لٰكنه أخوه الأصغر؛ لأنه دون ذٰلك، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]، وأنت إذا أويت إلىٰ فراشك

---

(١) «صحيح مسلم» (١٧٩).

(٢) صحيح: أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١/ ٢٨٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٧٤٥)، من طريق محمد بن المنكدر عن جابر رضي الله عنه قال: سأل رجل رسول اللَّه ﷺ: أينام أهل الجنة؟ فقال: «**النوم أخو الموت، ولا يموت أهل الجنة**». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد: «رواه الطبراني في الأوسط والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح»، وقال الشيخ الألباني: «وبالجملة فالحديث صحيح من بعض طرقه عن جابر». راجع: «الصحيحة» رقم (١٠٨٧).

تقول: «**بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ**» متفق عليه(١).

إن علاقة الروح بالبدن، ليست علاقة متساوية، ولٰكن بين الروح والبدن أنواع خمسة من التعلقات نُدركها بالتتبع والاستقراء:

النوع الأول: علاقة الروح بالبدن في المرحلة الجنينية: وهي علاقة ضعيفة، إلىٰ حد أننا لا نذكر هٰذا التعلق، مع أننا نقطع بأن الجنين بعد أربعة أشهر تنفخ فيه الروح، فعن عبداللَّه بن مسعود رضي الله عنه: حدثنا رسول اللَّه ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذٰلك، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذٰلك، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ...**» متفق عليه(٢).

ولٰكن ما منا أحد يذكر ذٰلك الحال؛ من وجود روحه في بدنه.

النوع الثاني: تعلق الروح بالبدن في حال اليقظة، في الدنيا: ولا نحتاج إلىٰ وصفه، لأننا نعيشه.

النوع الثالث: تعلق الروح بالبدن في حال النوم في الدنيا: فإنها حال مستقلة، لا تُغادر الروح الجسد مغادرة تامة، بل لها فيه نوع تعلق. ولذٰلك نجد أن النائم أحيانًا يظهر عليه التبرم، بسبب الحرّ، أو بسبب الإزعاج، مع أنه ليس في وعيه، ويظهر عليه أثر البرد، فيقشعر بدنه، ويظهر عليه أثر الراحة والاستغراق؛ فيسترخي.

النوع الرابع: تعلق الروح بالبدن في الحياة البرزخية: وهٰذه حالة عجيبة، لا نُدركها الآن، ولٰكن الإيمان بالغيب يقتضي أن نؤمن بها؛ فإن روح الميت تُردُّ إلىٰ بدنه، حين يُوضع في قبره، فيأتيه الملكان، فيسألانه الأسئلة الثلاثة العظيمة، ثم يعقبها نعيم أو عذاب.

---

(١) رواه البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤).

(٢) صحيح البخاري (٣٢٠٨)، صحيح مسلم (٢٦٤٣).

فعن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَأَقْعَدَاهُ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هٰذا الرَّجُلِ ـ مُحَمَّدٍ ﷺ ـ؟ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُاللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ: انْظُرْ إِلَىٰ مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، أَبْدَلَكَ اللَّه بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ**، قال: النَّبِيُّ ﷺ: **فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا. وَأَمَّا الْكَافِرُ ـ أَوِ الْمُنَافِقُ ـ فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِي! كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لاَ دَرَيْتَ، وَلاَ تَلَيْتَ. ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلاَّ الثَّقَلَيْنِ**» متفق عليه[1].

وهٰذه حال لا يُدركها إلا المقبور؛ فهو الذي يُحسُّ بنعيم القبر، أو عذابه.

النوع الخامس ـ وهو أكمل أنواع التعلقات ـ: تعلق الروح بالبدن بعد البعث، إما في الجنة، أو في النار: فهٰذا التعلق تعلق وثيق، واتصال عميق. ولهٰذا يجد المؤمن غاية النعيم في الجنة، ويجد الكافر غاية العذاب في النار، لشدة التصاق روحه ببدنه.

ثم قال اللَّه ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾: لقد جعل اللَّه ﷻ هٰذه الحياة تتراوح بين ليل ونهار، بين ظلمة وإسفار. وما أحسن هٰذا التعقيب بعد ذكر النوم، فقد ذكر اللَّه مَحلّه، وظرفه، وهو الليل. فما أن تسقط الشمس في المغيب، حتىٰ يُقبل جيش الليل؛ يأتي هٰذا الجُند الظلامي، ويُغطي الأرض، ويُكنّها، ويَغشاها، كأنه لباس! أرأيت لو أخذتَ ثوبًا أسود، وغشّيْتَ به إنسانًا، فإنه لا يُبصر شيئًا؛ فهٰذا اللباس الليلي يَكسو اللَّه به الأرض، كل يوم، ويحصل من جَرّائه هدوء، وسكينة، وآثار حميدة، قد لا نُدرك جميعها. ولهٰذا امتن اللَّه علىٰ عباده فقال: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

فاللَّه ﷻ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ

(١) صحيح البخاري (١٣٣٨)، صحيح مسلم (٢٨٧٠).

ﵟٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُﵞ [الزمر: ٥]، وقال تعالىٰ: ﵟلَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَﵞ [يس: ٤٠]، ولو اختل هٰذا الميزان، لظهر أثر ذٰلك علىٰ الآدميين، واختلت مصالحهم.

حدثني بعض الناس، ممن عاش في منطقة قريبة من الدائرة القطبية في شمال إحدىٰ الدول الاسكندنافية، قال: «عملتُ في بلد لا نرىٰ فيه الشمس ستة أشهر، تأتي دقائق معدودة، ويرتفع قرص الشمس، ثم يسقط مباشرة، فنعيش في ظلام دامس، إلا ما يحصل بالإضاءة الكهربائية، حتىٰ إن أحدنا يستيقظ من النوم، ويُبصر ساعته، فيجد الساعة مثلًا، السادسة، فيسأل من حوله: الساعة السادسة، صباحًا أو مساءاً؟ لا يدري؛ لأن الزمن كله ليل! قال: إن حياة الناس في تلك البلدة، وهو ليس من أهلها، حياة كئيبة، يُحس الإنسان فيها بالانقباض، والتجهم في وجوه الناس».

إن من نعمة اللَّه ﷻ، علىٰ هٰذه البلاد، التي أنزل فيها القرآن، وجعلها مهبطًا للرسالة، ومنطلقًا للدعوة، أن جعلها بلادًا متوسطة، تتعاقب فيها الفصول، ويتعاقب فيها الليل والنهار، يَزيدان ويَنقصان، فهي سُرّةُ العالم، وقلب الدنيا.

وقوله تعالىٰ: ﵟوَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١ﵞ، معنىٰ معاشًا أي: تتعيّشون فيه، وتطلبون فيه رزقكم؛ تحرثون، وتتّجرون، وتعملون، لأن هٰذه الإضاءة الطبيعية الواسعة تمكننا من ذٰلك، ولو اجتمع كل من بأقطار الأرض علىٰ أن يُضيئوا الدنيا بما عندهم من آلات، ومولدات، لم يبلغوا نزرا يسيرًا من هٰذا الضوء الذي يجلبه اللَّه لنا في النهار.

وبعد ذكر هٰذه الأحوال البشرية الأرضية، نقلنا نقلة عُلوية،

فقال تعالىٰ: ﵟوَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ١٢ﵞ: فإذا البصر يشهق إلىٰ أعلىٰ، ليتأمل في هٰذا البناء المُحكم المتين، وهو السماوات. فالسماء مبنية، كما أخبر اللَّه ﷻ: ﵟوَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَﵞ [الذاريات: ٤٧]. وقال تعالىٰ: ﵟوَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَﵞ [الأنبياء: ٣٢]، فهي

سقف حقيقي، وعبّر في موضع آخر عن السماوات بأنها سبع طرائق، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، ففوقنا سبع سماوات.

ومعنىٰ ﴿شِدَادًا﴾ أي: متينة، محكمة، متماسكة، كما قال اللَّه ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]، أي: من ثُقوب، وصدوع. ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤] حاول مرة ثانية، وثالثة، ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤]، حسر البصر أن يجد ثُقبًا واحدًا، في هٰذا البناء المُحكم.

وهٰذه السماوات السبع، لا ندرك كيفيتها، هل المقصود بها ما يشير إليه علماء الفلك، أنها المجرّات، ويقولون: إن كل مجرة يتبعها قريب من مئة مليون نجم، وهٰذه النجوم أكبر من الشمس بآلاف المرات، أم أنها غير ذٰلك؟ اللَّه أعلم. لٰكننا نؤمن بوجود سبع سماوات، وأن المباشر لنا منها هي السماء الدنيا.

والبناء يدل علىٰ وجود نظام يحكمها، بحيث لا يَحيد جُرم سماوي عن مجراه قِيد أَنْمُلة، هٰذا هو الشد والإحكام والإتقان في بنائها.

ثم لمّا ذكر اللَّه ﷻ السماء، ذكر بعض آياتها، بل ذكر أعظمها بالنسبة لما تُدركه أبصارنا، وهي: الشمس. ووصفها بِهٰذا الوصف الجميل المُعبّر:

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾: فإن السراج يجمع وصفين: الإضاءة، والحرارة. فهو مَجلبة للنور ومَجلبة للدفء. وزاد ذٰلك بأن قال: ﴿وَهَّاجًا﴾ فهو يَتوهج ويتّقد.

شتان بين الشمس والقمر؛ فالقمر كوكب ذو جُرم بارد، كالمرآة، يعكس نور الشمس. فلذٰلك لا نجد من القمر دفئًا، وإن كُنّا نجدُ منه نورًا، لٰكنه دون إضاءة الشمس. أما الشمس فإنها تتوهج، وتبعث بالحرارة، ويترتب علىٰ ذٰلك، أي: الحرارة والإضاءة، أمور حيوية كثيرة جدًا، تتعلق بصحة الإنسان، وبنمو النبات، وغير ذٰلك مما نُدركه، وما لا نُدركه. ولا ريب أن العلوم

الحديثة؛ من علوم الفلك، وعلوم الأحياء، وعلوم وظائف الأعضاء، كشفت آفاقًا واسعة في هٰذا المقام، لٰكن القَدْر الذي بيّنه اللَّه لعباده كافٍ في إقامة الحجة، فإن الناس يُدركون ذٰلك، وهم يَتنعمون بضوء الشمس ودفئها، وبرؤية أثرها علىٰ النبات، والحيوان.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾: و﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ قيل فيها عدة أقوال: قيل: إن المراد بها: السحاب. وقيل: الرياح. وقيل: السماء. وأقربها الأول.

فهٰذه السُّحب التي تسافر إلينا من أماكن بعيدة، نشأت عن تسليط اللَّه لضوء الشمس، ووهجها، علىٰ المسطحات الهائلة من المحيطات، فتتبخر كميات هائلة من مياه البحار، وترقىٰ في طبقات السماء، ثم تتكثف، وينضم بعضها إلىٰ بعض، ثم يُرسل اللَّه الرياح كالقاطرات تَقْطرها، وتحملها إلىٰ بلد ميت، إلىٰ أرض قاحلة، كالمناطق القارّيّة، البعيدة عن مصادر المياه. يَسوقها اللَّه ﷻ، بِهٰذه الرياح، حتىٰ يُوقفها علىٰ المكان الذي أراد أن تُنزل فيه حمولتها، فحينئذ تُعتصر، فتُنزل عُصارتها في هٰذا المكان الميت، فيُحي اللَّه بِهٰذا الماء أرضًا ميتة. ولو اجتمع مَنْ بأقطار الأرض، علىٰ أن ينقلوا عُشْر مِعشار هٰذا الماء لم يتمكنوا.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَآءً﴾ هو ماء مطلق، ماء نقي، ماء طهور.

ومعنىٰ ﴿ثَجَّاجًا﴾ أي: غزيرًا، كثيرًا. فسبحان من حمل هٰذه الأطنان من المياه، بين السماء والأرض، ثم صبها حيث شاء.

وعلىٰ القول الآخر، بأن المراد بـ ﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾: الرياح. نجعل ﴿مِنَ﴾ بمعنىٰ «الباء»، فكأن التقدير: وأنزلنا بالرياح ماءاً ثجاجًا. لأن الرياح هي التي تسوق السحاب، لٰكن القول الأول أولىٰ. وأما من فسرها بالسماء، فإشارة إلىٰ عُلوّها، وكلُّ ما علاك فهو سماء لك.

وهٰذا السَّوْق لحكمة كما قال تعالىٰ: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ فتبارك اللَّه، أرض قاحلة غبراء، لا ترىٰ فيها أثرًا لحياة، يُصب عليها

ماء السماء، فإذا بها تُنبت أزاهير، وحُبوبًا، وثمارًا، وفواكه! فمن أودع الأرض هٰذه البذور وأنبتها؟ إنه اللَّه ﷻ.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾﴾: الحَبُّ: اسم جنس يشمل كل ما يخطر ببالك من أنواع الحبوب؛ من بُر، وشعير، وأرز، وغير ذٰلك. وكذٰلك النبات: يشمل كل نبات مما يأكله الآدمي، وتأكله الحيوانات. وكل هٰذا من جَرّاء سَوْق اللَّه لهٰذه المعصرات إلىٰ هٰذه الأرض.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾: الجنات هي: البساتين. وسُميت جنات؛ لأنها تُجِنُّ صاحبها، أي: تستره. ولهٰذا قال: ﴿أَلْفَافًا﴾ أي: ملتفة، والملتف فيها أغصان الأشجار، فإنها لكثرتها التفَّ بعضها علىٰ بعض، كل ذٰلك من آثار ماء السماء، الذي سقىٰ اللَّه به هٰذه الأرض، فإذا بها تتحول إلىٰ حديقة غَنَّاء، تَصدح فيها الطيور، وترعىٰ فيها السائمة، ويأكل منها الإنسان.

أرأيتَ هٰذه السلسلة المتلاحقة من الآيات الكونية العظيمة، كيف تُلامس شِغاف القلب؟

ثم ألا تعجب مِن أن هٰذه المظاهر تُقابلُنا صباح مساء، صيفًا وشتاءً، ثم لا نتتبه لهٰذه المعاني العظيمة التي أودعها اللَّه فيها!

ثم تأمل ثالثًا في هٰؤلاء المخاطبين من كفار قريش، الذين يُنكرون البعث، ويُنكرون القرآن، ويُنكرون الرسالة، ويُنكرون توحيد اللَّه بالعبادة، كيف أن اللَّه أيقظهم، ونبّههم، وحَرّك عقولهم البليدة، فهم يرون ذٰلك دومًا، ويعرفونه، لٰكنها معرفة باردة؛ لأنها مناظر مُتكررة، رتيبة، لا تُحدث في نفوسهم الأثر المطلوب، فما أشبههم بإنسان ساهٍ، غافل، أتاه مَن أتاه، فأمسكه من منكبيه، وهزّه، وقال له: انتبه، انظر، تَبصّر، تَفكّر، اعتبر، أين أنت؟ فقام مَشدوهًا لِينظر، لٰكن كما قال اللَّه ﷻ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فالآيات موجودة، ومبثوثة، ولٰكن لا ينتفع بها إلا أهل الإيمان، فلأجل

ذٰلك ساق هٰذه الآيات المتتابعة، لإخراج هٰؤلاء من غفلتهم، وسدرتهم، لِيصل بهم إلىٰ النتيجة المنطقية؛ وهي: إذا كنتم تُقرون من أول وهلة، ومن أول سؤال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝٦﴾ فتقولون: بلىٰ، بلىٰ، بلىٰ، في عشر آيات متلاحقة، بأن هو الذي صنع ذٰلك، فمن المستحق للعبادة إذًا؟ أهو الذي صنع ذٰلك أم غيره ممن لم يصنع شيئًا؟ لا شك أن المستحق للعبادة هو من صنع ذٰلك. ولهٰذا لمَّا أبطل اللَّه ﷻ اتخاذ المشركين قال آلهة، بنفي ذٰلك عنها فقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]، فلا مُسوِّغ لعبادتهم إذا! وقال إبراهيم؛ لأبيه: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]، فلا يستحق العبادة من لم يكن متصفًا بصفات الكمال.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: أن توحيد الربوبية أساس توحيد الألوهية.

الفائدة الثانية: العناية ببيان أدلة الربوبية، وشواهدها في النفس، والآفاق.

وبعض الناس يَطيش عنده الميزان، فيقلل من شأن الحديث في توحيد الربوبية، وربما قال: هٰذا توحيد أبي جهل! لمّا رأىٰ أن المهم هو توحيد العبادة، ظنَّ أن ذٰلك يقتضي الغض من توحيد الربوبية! والحق أن توحيد الربوبية هو الأساس الذي يبنىٰ عليه توحيد العبادة. وتأمل قول اللَّه في سورة البقرة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، فطالبهم بالعبادة مُحتجًّا عليهم بأنه خلقهم، والذين من قبلهم، ثم قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، فابتدأ بالأمر بالعبادة، وختم بالنهي عن الشرك، وذكر بينهما دلائل الربوبية.

الفائدة الثالثة: إيقاظ العقول البليدة، للتفكر في المشاهد المتكررة: فكما وُوجه به المشركون، فينبغي أن نعظ أنفسنا به، وألا تتحول هٰذه المشاهد حولنا إلىٰ جُثث هامدة.

الفائدة الرابعة: الاستدلال بالسهل المشاهد، قبل الصعب الخفي: فهٰذه الآيات المبثوثة في الكون سهلة، مشاهدة، لا نحتاج إلىٰ محاضرات لإقامة الدليل عليها، بل يُدركها الكبير، والصغير، والعالم، والجاهل، والحضري، والبدوي، وكل أطباق الناس. فلا محوج لبناء العقيدة، علىٰ الطرق الكلامية، والأدلة الفلسفية الغامضة.

الفائدة الخامسة: استعمال أسلوب الاستفهام، والتنويع، والتكثير في الأدلة:

فأسلوب الاستفهام كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾.

وأسلوب التنويع: فاللَّه ﷻ لم يقتصر علىٰ نوع واحد؛ لأن القلوب لها مفاتيح، فقد يتأثر الإنسان بمعنىٰ من المعاني، أو مشهد من المشاهد، ويتأثر غيره بغيره، لأسباب وزّعها اللَّه علىٰ بني آدم.

وأسلوب التكثير في الأدلة؛ لأن توالي الأدلة، وكثرتها تؤثر في النفس، كتتابع الطّرْق، ومن أدمن الطّرْق أوشك أن يُفتح له.

فكل هٰذه الأساليب التربوية، الإيمانية، ينبغي أن يستفيد منها الداعية إلىٰ اللَّه في إقناع غيره، وفي التأثير، والموعظة.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ

﴿شَىۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبًا ٢٩ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾:

هٰذا القرآن العظيم، نزل قولًا ثقيلًا، محكمًا، رصينًا، علىٰ قوم كانوا يعيشون في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، علىٰ قوم لا يرون موتًا، ولًا بعثًا، ولا حياة، ولا نشورًا. قوم يقول قائلهم: إنما هي أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر! يأكلون، ويتمتعون كما تأكل الأنعام وتتمتع.

فلما أراد اللَّه بهم خيرًا، بعث فيهم هٰذا النبي العظيم ﷺ، وأنزل إليه هٰذا القول الكريم؛ ليخرجهم من غفلتهم، وسدرتهم، فحرك أذهانهم، وهز كيانهم، وأيقظهم من غفلتهم، ورقدتهم، ولفت انتباههم إلىٰ ما في هٰذا الكون من الآيات البينات، والحجج الباهرات، ليستدلوا بها علىٰ أن اللَّه وحده، هو المستحق للعبادة، وأنه لا يمكن أن يخلق هٰذا الكون سدًىٰ، ولا عبثًا، بل لحكمة بالغة.

فلما قرر اللَّه ﷻ ذٰلك فيما تقدم من الآيات، ختمها بآيتين، هما كالوصلة للآيات التاليات، فقال: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ١٤ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ١٦﴾، وفي هٰذا ملحظ بديع! كأن اللَّه تعالىٰ يقول: انتبهوا! هٰذه الجنات الألفاف، أخرجها اللَّه من أرض موات! فالقادر علىٰ أن يُحيي الأرض بعد موتها، قادر علىٰ أن يخرجكم من قبوركم أحياء، كما قال اللَّه في سورة «ق»، بعد أن ذكر إنزال المطر وإنبات الجنات وحب الحصيد والنخل ذات الطلع النضيد، قال بعد ذٰلك: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ [ق: ١١].

قال اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتًا ١٧﴾: ﴿إِنَّ﴾: حرف توكيد، فهٰذه جملة مؤكَّدَة، جملة تامة، ذات دلالة قوية.

و ﴿يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾ هو: يوم القيامة. وهٰذا أحد أسمائه. وأسماء يوم القيامة كثيرة جدًا، وقد عدَّ القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ منها ثمانين اسمًا، وعدَّ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ خمسين اسمًا. وهٰذه الأسماء بعضها مبثوث في كتاب اللَّه، وبعضها في سنة رسول اللَّه ﷺ، وبعضها أوصاف أطلقها بعض العلماء.

فمما جاء في كتاب اللَّه ﷻ: «يوم الدين»، «يوم التغابن»، «الطامة»، «الصاخة»، «يوم التلاق»، «الحاقة»، «الغاشية»، «القارعة»، «يوم الحساب»، «يوم التغابن»، «يوم الحشر»، «يوم الآزفة»، و«يوم الفصل» كما هاهنا. فهي كثيرة جدًّا. وهٰذه الكثرة ليست فقط كثرة في الأسماء، بل وفي الدلالة، فإن كل اسم من هٰذه الأسماء يُعطي دلالة معينة:

فـ«القارعة»؛ لأنها تقرع القلوب.

و«الصاخة»؛ لأنها تصخ الآذان.

و«الآزفة»؛ لقربها.

وهٰكذا في كل اسم من هٰذه الأسماء. فهي أعلام وأوصاف، وهٰذه الكثرة في الأسماء، تدل علىٰ عظيم العناية بالإيمان باليوم الآخر.

فقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: الفصل بين الخلائق؛ فريق في الجنة، وفريق في السعير، والفصل في المظالم، فينال الظالم جزاء ظلمه، ويُعوض المظلوم عن مظلمته. فالفصل يتناول كل ملتبس.

وقوله: ﴿كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ أي: أنه موعد مؤقت، قد وقته اللَّه تعالىٰ، وعلم زمن حصوله، ولٰكنه أخفاه؛ ولهٰذا اعتذر النبي ﷺ من جبريل، حين سأله عن الساعة، فقال: «**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ**» متفق عليه[1]، فأعظم رسول بشري، وأعظم رسول ملكي، كلاهما لا يعلمان متىٰ الساعة، كما قال اللَّه عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات: ٤٢ ـ ٤٤]، وفي الآية الأخرىٰ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ولما سأل أعرابي النبي ﷺ عن الساعة، متىٰ الساعة؟ قالﷺ: «**وَمَاذَا**

(١) صحيح البخاري (٤٧٧٧)، صحيح مسلم (١٠).

أَعْدَدْتَ لَهَا؟» متفق عليه[(١)]، فلم يقل في يوم كذا، وكذا.

فاللَّه تعالىٰ قد أخفىٰ عنا الساعة، إلا أنا نعلم أنها تأتي بغتة، وأنها مجهولة الموعد، وأنها شديدة الوقع. فالساعة يخاف منها المؤمنون، لتعظيمهم للَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورىٰ: ١٧ ـ ١٨].

والساعة ـ كما سبق ـ لا تأتي إلا بغتة، حتىٰ إن النبي ﷺ قال: «**وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوبهما بَيْنَهُمَا، فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ، وَلَا يَطْوِيَانِهِ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ، فَلَا يَطْعَمُهُ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ، وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ، فَلَا يَسْقِي فِيهِ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ، وَقَدْ رَفَعَ أَحَدُكُمْ أُكْلَتَهُ إِلَىٰ فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا**» رواه البخاري[(٢)].

فأمرها يقع فجأةً، وسرعة.

وقد جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ**». قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: «**ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَىٰ إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا ـ وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ ـ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» متفق عليه[(٣)].

فابن آدم يتحلل، ويفنىٰ، ويعود ترابًا، ولا يبقىٰ منه إلا عجب الذنب؛ وهو العصعص، فيحفظ اللَّه تعالىٰ في هٰذا المتبقي منه، الصفات الوراثية التي منها يركب الخلق.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ هٰذا بيان وتوضيح، أي: أن يوم الفصل هو يوم ينفخ في الصور، وأتىٰ بصيغة الفعل الذي لم يُسمَّ

---

(١) صحيح البخاري (٣٦٨٨)، صحيح مسلم (٢٦٣٩).

(٢) صحيح البخاري (٦٥٠٦).

(٣) صحيح البخاري (٤٨١٤)، صحيح مسلم (٢٩٥٥).

فاعله، لتفخيمه وتعظيمه.

و﴿ٱلصُّورِ﴾ هو البوق الذي ينفخ فيه إسرافيل؛، النفخة الأولىٰ، التي يكون بها الصعق، والنفخة الثانية، التي يكون بها النشر.

وقد جاء في الحديث أنه ﷺ قال: «**كَيْفَ أَنْعَمُ! وَقَدْ الْتَقَمَ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ، وَحَنَىٰ جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَىٰ سَمْعَهُ، يَنْظُرُ مَتَىٰ يُؤْمَرُ**» رواه الترمذي[(١)].

أي: كيف أتنعم، وأهنأ بالعيش، وصاحب القرن، إسرافيل؛ قد التقم قرنه، أي: وضعه في فيه، استعدادًا للنفخ، ينتظر أن يؤمر. فالذي يذكر هٰذا، لا يطيب له عيش، لأنه يخشىٰ وعيد اللَّه ﷻ.

ففي قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ مشهد مهيب، رهيب، فإن البعث أمره عجيب: كل من دب علىٰ وجه الأرض، ثم مات، وتحلل فيها، يجمع اللَّه خلقه يوم القيامة، فيُبعث الناس حفاةً، عراةً، غرلًا، بهما، ويقومون لرب العالمين، يساقون علىٰ هيئة أفواج؛ زمرًا زمرًا! وتخيل هٰذا الحشد العظيم؛ من لدن آدم؛، طوله ستون ذراعًا في السماء، ثم لم يزل الخلق ينقص بعد ذٰلك، إلىٰ أن آل إلىٰ ما نحن عليه، ولا ندرىٰ إلىٰ ما يؤول أيضًا بعدنا، في موكبٍ واحد، علىٰ صعيد واحد، علىٰ تفاوت أحجامه، وأطواله، وألوانه مع الدواب والعشار والهوام والطير وسائر المخلوقات! وقوله تعالىٰ: ﴿أَفْوَاجًا﴾ أي: فوجًا إثر فوج، والفوج: هم الجماعة من الناس. وقارن بين تلك الصورة التي ذكرها سابقًا، من حال الدنيا واستقرارها، بقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾، وهٰذا الانقلاب الكوني الهائل.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾، فهٰذه السماء التي لا ترىٰ فيها الآن ثقبًا، ولا قدر جب الإبرة، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ

---

(١) سنن الترمذي (٢٤٣١) وقال هٰذا حديث حسن، مسند أحمد (٣٠٠٨)، وصححه الألباني.

﴿طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك٣ ـ ٤]، فإذا بهٰذه السماء المحكمة، المتماسكة، المبنية، تنشق يوم القيامة، وتنفتح فيها فرج، وطرائق؛ ليهبط منها الملائكة، قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥﴾ [الفرقان: ٢٥]، فتنشق كل سماء، ويهبط ملائكتها، فيحيطون بأهل الأرض إحاطة السوار بالمعصم.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَفُتِحَتِ﴾، و﴿يُنفَخُ﴾، وما بعدهما، كلها بصيغة الفعل الذي لم يُسمَّ فاعله، وذٰلك من باب التفخيم والتعظيم.

قال تعالىٰ: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾، فهٰذه الجبال الذي قال عنها قبل بضع آيات: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾، هٰذه الجبال الراسيات، تسيَّر بعد أن كانت تحفظ توازن الأرض، وتضبط استقرارها.

و«السراب»: إما أن يكون المراد به الهباء، أو هو تشبيه له بالماء، وليس بماء، كالذي يراه المسافر في شدة الحر، يزول أمامه يظنه ماء، يحسبه الظمآن ماءً، حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئًا. فهٰذه الجبال تتراءىٰ لأهل الموقف علىٰ هٰذه الصورة؛ كالسراب. وهٰذا حال من أحوال الجبال يوم القيامة، ذٰلك أن الجبال يمر بها يوم القيامة أحوال متعددة؛ منها التسيير، كما في هٰذه الآية، وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، حال الدك، والنسف، قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧]، وقال في آية أخرىٰ: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ [الواقعة: ٥]، أي: نثرت، ودكت، حتىٰ تصبح كالرماد.

إلىٰ أن يتحول وجه البسيطة قاعًا صفصفًا، ليس فيه معلم لأحد؛ ليس فيه مرتفع، ولا منخفض، بل تصبح الأرض كالقرصة المستوية.

ثم قال اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾، «جهنم»: اسم من أسماء النار، وللنار أسماء كثيرة، وكل اسم من أسمائها يدل علىٰ وصف، وحال. ومن

أشنع أسمائها ﴿جَهَنَّمَ﴾، وهي من الجهومة، والسواد.

ومعنىٰ ﴿مِرْصَادًا﴾، أي: مكان رصد، وترقب. فهي مترصد لا يجاوزها أهلها حتىٰ يقعوا فيها؛ وذٰلك أن ما من أحد، إلا ويَرِدِ علىٰ النار، يقول اللَّه ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم: ٧١]، أي: إلا مار فوقها، وذٰلك حين يؤمر الناس بالجواز علىٰ الصراط، وهو من أصعب مواقف يوم القيامة، حتىٰ قال ﷺ: «**وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلاَّ الرُّسُلُ، وَكَلاَمُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهم سَلِّمْ سَلِّمْ**» متفق عليه[(١)].

أما أهل النار، الذين هم أهلها، فقد دلت النصوص علىٰ أنهم يلقون فيها؛ تجمع أيديهم إلىٰ أعناقهم، ثم يقذفون فيها. وإنما يمر فوق الصراط، الموحدون. فمن سبقت له من اللَّه الحسنىٰ، فإنه يجوزه، دون أن يصيبه شيء. فمنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح المرسلة، ومنهم من دون ذٰلك، ومنهم من تخطفه كلاليب علىٰ جنبتي الصراط، فتهوي به في النار.

عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «... **يَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ**». قَالَ قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَيُّ شَيءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: «**أَلَمْ تَرَوْا إِلَىٰ الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ تَجْرِي بهم أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَىٰ الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّىٰ تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّىٰ يَجِيءَ الرَّجُلُ، فَلاَ يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلاَّ زَحْفًا**»، قَالَ: «**وفي حَافَتَي الصِّـرَاطِ كَلالِيبُ مُعَلَّقَةٌ، مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمَكْدُوسٌ فِيٰ النَّارِ**» رواه مسلم[(٢)].

فلهٰذا كانت ﴿مِرْصَادًا﴾، فهي مرصد للطاغين الذين هم أهلها، وكذٰلك لمن أراد اللَّه، ﷻ، أن يعاقبه بقدر ذنبه، من عصاة الموحدين.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾ الطغيان هو مجاوزة الحد، فإذا تجاوز

---

(١) صحيح البخاري (٨٠٦)، صحيح مسلم (١٨٢).

(٢) صحيح مسلم (١٩٥).

العبد حده كان حقيقًا بالعذاب، إلا أن يتجاوز اللَّه تعالىٰ عنه. واللَّه يمكن أن يتجاوز عن كل شيء إلا عن ذنب واحد، هو الشرك، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]، لٰكن لا ريب أن مرتكب الكبيرة مجازف، مخاطر.

ومعنىٰ ﴿مَـَٔابًا﴾ أي: مرجعًا، ومصيرًا. فالأوب: بمعنىٰ الرجوع، والمصير.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾، معنىٰ ﴿لَّٰبِثِينَ﴾، أي: ماكثين، و﴿أَحْقَابًا﴾ جمع حقب. والمقصود بالأحقاب: المُدد الطويلة. وقد ورد تقديرها في أحاديث مرفوعة، وموقوفة، وآثار عن بعض التابعين؛ فمنهم من قال: الحقب: ثمانون سنة، كل سنة فيها اثنا عشر شهرًا، كل شهر فيه ثلاثون يومًا، وكل يوم بألف سنة. ومنهم من قال: سبعون سنة، علىٰ التقسيم السابق. ومنهم من قال: أربعون. ومنهم من قال أكثر، ومنهم من قال أقل. وعلىٰ أي حال، فالأحقاب تدل علىٰ مدد طويلة.

لٰكن ها هنا إشكال! فربما قال قائل: وماذا بعد الأحقاب؟ أيخرج أهل النار، الذين هم أهلها، منها، أم لا؟.

فالذين فسروا الأحقاب بالمدد الطويلة، خرجوا من هٰذا الإشكال، بأن قالوا: المراد بأنهم ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ أي: حقبًا إثر حقب، بحيث لا يتناهىٰ، فهو خلود مستمر، لا انقطاع فيه. وأما من قال: إن أهل النار، الذين هم أهلها، يخرجون منها بعد مدد طويلة، فربما استدل بهٰذه الآية علىٰ خروجهم[1]. لٰكن الذي عليه جمهور أهل السنة والجماعة، أن أهل النار، الذين هم أهلها، أي: الكفرة، والمشركون، لا يخرجون منها أبدًا؛ لأن اللَّه ﷻ ذكر التأبيد في خلودهم، في كتابه، في ثلاثة مواضع قال تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [النساء: ١٦٨ - ١٦٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٦٥١).

﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ [الأحزاب: ٦٤ ـ ٦٥]، وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن: ٢٣].

وذهب ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ توجيه آخر، فقال: وقد يحتمل أن يكون معنىٰ ذٰلك: ﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ في هٰذا النوع من العذاب هو أنهم ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾: فإذا انقضت تلك الأحقاب، صار لهم من العذاب أنواع غير ذٰلك، كما قال جلّ ثناؤه في كتابه: ﴿هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٥٥ ـ ٥٨]. وهٰذا القول ـ عندي ـ أشبه بمعنىٰ الآية[1]. فيكون هٰذا التحديد، بِهٰذه المدة، يختص بلون، ونوع، من أنواع العذاب.

ومعنىٰ ﴿بَرْدًا﴾: الهواء البارد، أو الماء البارد. وقيل: إن المقصود بالبرد: النوم، فإن العرب تسمي النوم بردًا.

وقوله: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ هٰذا الاستثناء استثناء منقطع، لأنك لو رفعت ﴿إِلَّا﴾ ووضعت بدلًا منها «بل» صح المعنىٰ، أي: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾ بل يذوقون ﴿حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾، والحميم: هو الماء المتناهي في الحرارة، شديد الغليان، حتىٰ إن أحدهم ـ والعياذ باللّٰه ـ إذا استسقىٰ، أتي بالحميم ليشربه، فتسقط جلدة وجهه فيه، كما أخبر اللّٰه عَزَّ وَجَلَّ، عن ذٰلك في سورة الكهف، وغيرها، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] فهٰذه سقيا أهل النار، والعياذ باللّٰه، الحميم، وبئس الشراب.

وأما الغساق، فقد ورد ذكره في القرآن في غير هٰذا الموضع، قال تعالىٰ: ﴿هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٥٧ ـ ٥٨]. فالغساق، المراد به صديد أهل النار، وما يخرج من قيحهم، وجروحهم،

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٢٦).

ودموعهم، وغير ذٰلك من أذاهم، الذي يساق إليهم. وقيل: إن الغساق معناه: المنتن. ولا تنافي بين المعنيين، فإنه يكون من صديد أهل النار، وقروحهم، وجروحهم، ويكون أيضًا منتنًا. ووصف أيضًا بأنه بارد، فهو يأتيهم علىٰ هٰذه الصفة ويكون باردًا منتنًا، والعياذ باللَّه.

قال تعالىٰ: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ أي أن هٰذا الذي نالوه، إنما هو بسبب كفرهم باللَّه ﷻ، ﴿وِفَاقًا﴾ علىٰ ما قدموا من سالف أعمالهم السيئة، والجزاء من جنس العمل. ثم علل اللَّه تعالىٰ، استحقاقهم لهٰذا العذاب الشنيع، فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ أي: كانوا في الدنيا لا يخافون، فيرجون هنا، بمعنىٰ يخافون. وإنما فسرت ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ بمعنىٰ يخافون، لأن الرجاء جاء هنا منفيًا، فإذا جاء الرجاء منفيًا، فإنه بمعنىٰ الخوف، لأنه رجاءٌ يُخاف ألا يتم. ليس المقصود يرجون أي: يتمنون ويبغون ويطلبون، كلا، بل المقصود ضد ذٰلك، وهٰذه قاعدة مطردة في القرآن العظيم. فقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ أي كانوا ينكرون البعث، حتىٰ إن أحدهم، وهو أبي بن خلف، أتىٰ النبي ﷺ بعظم بالٍ، ففته أمامه وقال: يا محمد! أتزعم أن ربك يحيي هٰذا بعد أن صار رميمًا؟ قال: «**نعم، يبعثك ويدخلك النار**». وأنزل اللَّه في شأنه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾، أي: إن آياتنا قد جاءتهم تلوح كالشمس؛ ظاهرةً، مبهرة، لٰكنهم كذبوا بها! فلا عذر لهم.

وقوله: ﴿كِذَّابًا﴾ تأكيد، وإن كان من غير فعله، لأن «كذب» مصدره تكذيبًا، لٰكن يصح أن يأتي المصدر من غير فعله، فقوله: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ كناية عن شدة تكذيبهم. وقد كانوا كذٰلك؛ فإنه يأتيهم الحق البين، يسمعون القرآن ينزل علىٰ نبينا ﷺ، ويفلق لهم القمر فلقتين، ويأتيهم بالآيات الواضحات، فلا يزيدهم ذٰلك إلا كفرًا، وتكذيبًا.

قال تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾﴾ فلم يخرج عنه شيء أبدًا،

فكل شيء أحصاه اللَّه ﷻ، ومعنىٰ ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ أي: ضبطناه، وعددناه، وحفظناه؛ لأن أحصىٰ تأتي بمعنىٰ العد، كقول اللَّه ﷻ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ويأتي بمعنىٰ الضبط، كتسمية العرب للعقل حصاة، فهو يدل علىٰ التعقل، والحفظ.

وقوله: ﴿كِتَٰبًا﴾ أي: مكتوبًا، وهٰذا من تمام عدله ﷻ. ولو شاء اللَّه ﷻ، لما كتب ذٰلك، لٰكن من باب إقامة العدل، وإظهار الحجة، قال تعالىٰ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨]. فقد وكل اللَّه تعالىٰ بكل إنسان، ملكين، يكتبان ما يبدر منه، من قول، أو فعل، فلا يضيع شيء، قال تعالىٰ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء: ١٣].

فهٰذه حجة بالغة، لا يثبت لأحد اعتراض عليها، حتىٰ أن الكافر يريد أن يتشبث بأي شيء، كالغريق الذي يتشبث بالقشة، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّه ﷺ فَضَحِكَ، فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟**». قَالَ: قُلْنَا: اللَّه وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ «**مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ؛ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ بَلَىٰ**». قَالَ: «**فَيَقُولُ فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَىٰ نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّىٰ، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا**» قَالَ: «**فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ: انْطِقِي**». قَالَ: «**فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ**»، قَالَ: «**ثُمَّ يُخَلَّىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ**»، قَالَ: «**فَيَقُولُ: بُعْدًا لكنَّ وَسُحْقًا. فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ**» رواه مسلم(١). قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٥].

قال تعالىٰ: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ يُقال: إن هٰذه الآية هي أشد آية علىٰ أهل النار. فعن عبد اللَّه بن عمرو، قال: «لم تنزل علىٰ أهل النار

(١) صحيح مسلم (٧٦٢٩).

آية أشد من هٰذه: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾ قال: فهم في مزيد من العذاب أبدا»[1]. ذٰلك أنهم يدعون الملائكة، ويقول قائلهم: ﴿وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزخرف: ٧٧]، وتقول لهم الملائكة ﴿فَادْعُواْ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ۝٥٠﴾ [غافر: ٥٠].

ثم يأتيهم الجواب الشديد، الذي وقعه عليهم أشد من وقع العذاب الذي هم فيه: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾، أي: ليس هٰذا فقط، بل إن عذابكم سيزداد.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: إثبات البعث، وأهوال القيامة الكبرى.

الفائدة الثانية: إثبات الحساب، والفصل في الحقوق.

الفائدة الثالثة: إثبات النار، وذكر أنواع العذاب فيها؛ من عذاب حسي وعذاب معنوي.

الفائدة الرابعة: العدل الإلٰهي؛ فالجزاء من جنس العمل.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۝٣٩ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ۝٤٠﴾:

يقول اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١﴾ المتقون: هم الذين اتقوا اللَّه ﷻ،

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٣٦).

بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، وهم الذين يخشون ربهم بالغيب:

خلِّ الذنوبَ صغيرَها وكبيرها ذاك التقىٰ
واصنع كماشٍ فوق الشوك يحذرُ ما يرىٰ
لا تحقرنَّ صغيرةً إن الجبالَ من الحصىٰ

التقوىٰ: حال يقيمها اللَّه ﷻ في قلب العبد، فتكون واعظًا له من تلقاء نفسه؛ كلما همَّ بمعصية قال: اتق اللَّه! خفِ اللَّه! خفِ اليوم الآخر! فيردعه.

تقول فاطمة بنت عبدالملك: «كان عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ يكون معي في الفراش فيذكر الشئ من أَمرِ الآخِرةِ فينتفِضُ كما يَنتفِضُ العصفور في الماء، ويَجلسُ يَبكي، فأَطرحُ عليهِ اللِّحافَ رحمةً له»[(١)].

إذا أراد الإنسان أن يقيس تقواه، فلينظر إلىٰ حاله عند غيابه عن أعين الناس. لا تقس تقواك وأنت بين الناس؛ يركعون، ويسجدون، فتركع، وتسجد معهم، وهم يذكرون، فتذكر معهم. إذا أردت أن تقيس تقواك، فانظر إلىٰ نفسك حينما تخلو، هل يردعك واعظ اللَّه في قلبك أم لا؟ هاهنا التقوىٰ.

﴿مَفَازًا﴾ أي: مكان فوز، وقيل: متنزَّهًا، وقيل: ﴿مَفَازًا﴾ أي: الجنة، كما فسرها ما بعدها.

﴿حَدَآئِقَ﴾: جمع حديقة، وسميت بذٰلك، لأنها تحدق بالأشجار، والثمار، وأنواع ما يخرج من الأرض.

﴿وَأَعْنَبًا﴾: خص الأعناب بالذكر، لأنه من أكرم الثمار الذي تعرفه العرب. وهو لا شك ثمرة كريمة، وفاكهة طيبة. ولٰكن لا يخفىٰ أن الأمر كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء»[(٢)]، الأسماء واحدة، لٰكن الحقائق مختلفة، فليس عنب الجنة كعنب الدنيا، اتفقت الأسماء، لٰكن الحقائق، والمسميات متفاوتة، حتىٰ إن ثمار أهل الجنة التي من شكل واحد،

(١) البداية والنهاية (٩/ ٢٩٩).
(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٦٦).

تتفاوت طعومها، قال اللَّه ﷻ: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢٥]، يعني: تكون صورته واحدة، فيظنون أنه هو الذي طعموا من قبل، فيجدون طعمه مختلفًا؛ لسعة كرم اللَّه، وإغداقه عليهم من النعم.

وعبَّر بِهٰذين الوصفين ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ عن لونين من ألوان النعيم الحسي في الجنة، وهما الأمكنة البهية، والثمار الشهية.

﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣﴾ هٰذا لون آخر من المتع الحسية؛ وهو الاستمتاع بالحور العين، والكواعب: جمع كاعب، وهي الجارية التي تفلَّك نهدها، واستدار. وهٰذا غاية ما يكون في الجمال، والرغبة في النساء.

﴿أَتْرَابًا ۝٣٣﴾ أي: متساويات الأسنان. فهم يرزقون هٰؤلاء الكواعب الناعمات، الأنيقات، الجميلات، التي يرىٰ مخ ساق إحداهن من وراء سبعين حلة، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ ضَوْءُ وُجُوهِهِمْ عَلَىٰ مِثْلِ ضَوْءِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، وَالزُّمْرَةُ الثَّانِيَةُ عَلَىٰ مِثْلِ أَحْسَنِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ عَلَىٰ كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً يُرَىٰ مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَائِهَا**». رواه الترمذي[(١)].

ولو اطلعت إحداهن علىٰ أهل الأرض لأشرق ما بين الخافقين. قال اللَّه ﷻ: ﴿۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ۝٥٢﴾ [ص: ٥٢]، فهٰذا لون آخر من نعيم الجنة.

﴿وَكَأْسًا﴾ الكأس: المراد به كأس الخمر، لٰكن أي خمر؟ قال تعالىٰ: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩﴾ [الواقعة: ١٩]، يعني: لا تسبب لهم صداعًا وأذًىٰ، وإنما هي خمر يلتذون بشربها، لا تضيع عقولهم ولا تصدع رؤوسهم.

﴿دِهَاقًا﴾ أي: ممتلئة، ليست قاصرةً ناقصة، وقيل: متتابعة، ما يكاد يشربها حتىٰ تمتلئ من جديد، وقيل: صافية. ولا مانع من اجتماع جميع هٰذه

---

(١) سنن الترمذي (٢٥٢٢)، وأصله في الصحيحين: صحيح البخاري (٣٢٤٦)، صحيح مسلم (٢٨٣٤) من حديث أبو هريرة دون ذكر (سبعون حلة).

الأوصاف، فتلكم الكأس، أذاقنا اللَّه وإياكم طعمها، ممتلئة، مترعة، متتابعة، صافية.

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾ أي: أنهم قد صان اللَّه أسماعهم أن يسمعوا اللغو الذي يحصل عادةً بين المخمورين؛ لأن المخمورين إذا شربوا الخمر، فاهو بالكلام السوء، واللغو، والسباب، أما أهل الجنة فإنهم لا يسمعون هٰذا من جراء تعاطيهم لكأس الخمر. ﴿لَغۡوٗا﴾ اللغو: هو الكلام الفاحش البذيء، ﴿وَلَا كِذَّٰبٗا﴾ أي: ولا الكذب.

﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ٣٦﴾ يعني: أنهم يستأهلون، لٰكنهم إنما نالوا ذٰلك برحمة اللَّه، لا بعملهم، فاللَّه ﷻ، من كرمه، وفضله، ومنِّه، أنعم عليهم بهٰذه النعم العظيمة المتتابعة، التي أعمالهم لا تكافئ عشر معشارها، فقد أخبر النبي ﷺ قائلًا: «**لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ**». قَالَ رَجُلٌ: وَلَا إِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّه ـ؟ قَالَ: «**وَلَا إِيَّايَ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدني اللَّه مِنْهُ بِرَحْمَةٍ، وَلٰكن سَدِّدُوا**» متفق عليه[1].

فإن قلت: فما معنىٰ قول اللَّه ﷻ: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢﴾ [الزخرف: ٧٢].

فالجواب أن الباء في الآية للسببية، يعني بسبب أعمالكم، فالباء المثبتة هي باء السببية، والباء في الحديث، هي المنفية، وهي باء المقابلة والثمنية.

وإن من معاني ﴿حِسَابٗا﴾، معنىٰ الكفاية، ومنه قول العرب: «أعطاني فاحسبني»، يعني: حتىٰ قلت حسبك.

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ الرب: هو الذي يربي خلقه بنعمه، هو الذي ينشأ من العدم، هو الخالق، المالك، المدبر، فهو رب كل شيء، ومليكه، وخالقه، ورازقه، ومدبر أمره، فاللَّه تعالىٰ رب السماوات، والأجرام العلوية، ورب الأرض، والآيات السفلية، سبحانه وبحمده، لا يخرج شيءٌ

(١) صحيح البخاري (٦٤٦٣)، صحيح مسلم (٢٨١٦).

عن ربوبيته.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ مع أن المقام مقام مهول ومخوف، إلا أنه أتىٰ بِهٰذا الاسم الرقيق الذي يدل علىٰ الرحمة، ففيه يتنسم المؤمن نسيم الرجاء، ولا ريب أن ذكر الأسماء الحسنىٰ في ذيل الآيات، أو في أثناء الآيات له دلالة، ألم تروا أن اللَّه قال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾، ثم قال بعدها: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾، فختمها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩]، فكل اسم من أسماء اللَّه الحسنىٰ يناسب ذكره في سياق معين.

﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ٣٧﴾ أي: لا يستطيع أحدٌ أن يتقدم بين يديه بقول، إلا ما أذن به.

﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗا﴾ أي: إجلالًا للَّه، وتعظيمًا للَّه، ومهابة.

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨﴾ أي: لكمال إجلالهم، وتعظيمهم، وخوفهم، وخشيتهم اللَّه عز وجل، لا ينطقون ببنت شفة، ﴿إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨﴾ هٰذا الذي يفسح له بالكلام. ويدخل في هٰذا الشفاعة؛ فإن اللَّه سبحانه وتعالى، لا يأذن بالشفاعة إلا بشرطين:

- إذن اللَّه للشافع أن يشفع.
- ورضاه عن المشفوع له.

فقوله: ﴿أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ يدل علىٰ الشرط الأول، وهو إذن اللَّه للشافع أن يشفع، وقوله: ﴿وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨﴾ ربما يدل علىٰ الشرط الثاني، وهو ورضاه عن المشفوع له، وقد دل عليه قوله: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

﴿ٱلرُّوحُ﴾: قيل فيه أقوال عدة، قيل: إن الروح ملك عظيم، خلقه يوازي خلق جميع المخلوقات. وقيل: هو جبريل؛. وقيل: هم بنو آدم. وقيل: هي أرواح بني آدم. وقيل: هو القرآن. والأقرب ـ واللَّه أعلم ـ أنه جبريل؛ لأن اللَّه تعالىٰ قال في سورة «القدر»: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، وإن كان قد وقع خلاف أيضًا، في تفسير الروح في سورة القدر، من أنهم طوائف

من الملائكة، لٰكن نظرًا لعظم خلق جبريل، وأنه سيد الملائكة لا عجب أن يخص بالذكر.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: يوم القيامة.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾ أي: مرجعًا وتوبة. فالإنسان يشاء، وله مشيئة حقيقية، خلافًا للجبرية الذين يقولون: العبد مسير، مسلوب المشيئة، مجبور علىٰ فعله! والحق أن العبد له مشيئة حقيقية، ولٰكن هٰذه المشيئة داخلة تحت مشيئة اللَّه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨ـ٢٩].

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ النذارة: هي الإخبار بالأمر المخوف. وضدها البشارة: وهي الإخبار بالأمر السار. والمناسب لحال القوم النذارة؛ لأنهم منكرون، معاندون، ويوم القيامة ليس ببعيد، قال ﷺ: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهٰذه مِنْ هٰذه ـ أَوْ كَهَاتَيْنِ ـ، وَقَرَنَ بَيْنَ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَىٰ**»[1]. فأمرها قريب، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣]. وهٰذا القرب قرب نسبي، لأنه منسوب إلىٰ مجموع خلق العالم، فلا يقال: كيف قال النبي ﷺ ذٰلك، وقد مضىٰ علىٰ مقولته أربعة عشر قرنًا وزيادة؟ فالأمور لا ريب أنها نسبية.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، «المرء» هاهنا: هو جنس الإنسان، وذهب الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ أن المرء هاهنا هو المؤمن خاصة[2]؛ بدلالة المقابلة، فإنه قال: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾، فالأول هو المؤمن، والثاني هو الكافر. فكأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل ذٰلك من باب التقسيم.

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾ يتمنىٰ الكافر، والعياذ باللَّه، أن لو كان ترابًا، أي: أن لو كان تحلل، وعاد كما كان في الحياة البرزخية. وقيل: إن سبب تمنيه هٰذا، هو ما جاء في الآثار من أنه في يوم القيامة، يقام العدل، حتىٰ إنه ليقتص للشاة الجلحاء، من الشاة القرناء؛ لأنها نطحتها في الدنيا،

(١) صحيح البخاري (٥٣٠١)، صحيح مسلم (٢٩٥٠). (٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٥٤).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ حَتَّىٰ يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ**» رواه مسلم[1]، ثم بعد ذٰلك يقال لهٰذه الحيوانات: «كوني ترابًا»! فيتمنىٰ الكافر أن لو صار بمنزلة الحيوانات، ليكون ترابًا.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: الرحمة الإلٰهية، فالجنة عطاء وفضل ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾.

الفائدة الثانية: إثبات الجنة ونعيمها الحسي والمعنوي؛ جعلنا اللَّه وإياكم من أهلها.

الفائدة الثالثة: الاستئناس باسم الرَّحمٰن في تقوية الرجاء، قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾.

الفائدة الرابعة: إثبات الملائكة، وخشيتهم لربهم.

الفائدة الخامسة: إثبات الشفاعة بشروطها: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨﴾.

الفائدة السادسة: إثبات المشيئة الإنسانية، والرد علىٰ الجبرية، لقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾.

الفائدة السابعة: قرب أمر الساعة، ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾، فقرب العذاب، دليل علىٰ قرب الساعة.

الفائدة الثامنة: بيان أعظم الندم ـ أجارنا اللَّه وإياكم ـ ، قال تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾.

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٢٨)، أما قول (كوني ترابًا)، فأخرجها الحاكم في المستدرك (٣٢٣١) وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم وقال الذهبي: علىٰ شرط مسلم.

سورة النازعات

سميت هٰذه السورة الكريمة بالنازعات؛ لورود هٰذا اللفظ في مستهلها، ومقاصد هٰذه السورة قريبة من مقاصد سورة النبأ، فإن فيها ما في القرآن المكي من المقاصد العقدية:

فمن مقاصدها: إثبات البعث، وبيان أهوال يوم القيامة.

ومن مقاصدها: بيان مصارع المكذبين بالبعث، كما في قصة فرعون.

ومن مقاصدها أيضًا: تقرير توحيد الربوبية، المقتضي لتوحيد الألوهية، كما في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾، وما بعدها.

ثم أخيرًا من مقاصدها: إثبات أفعال العباد، وترتب الثواب والعقاب عليها.

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴿٥﴾﴾:

هٰذه أمورٌ خمسة أقسم اللَّه بها، وللَّه ﷻ له أن يقسم بما شاء من مخلوقاته. قيل في هٰذه الخمس جميعًا: إن المراد بها الملائكة، وقيل غير ذٰلك.

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ أي: الملائكة التي تنزع أرواح الكفار نزعًا شديدًا، وتجذبها جذبًا أليمًا. فمعنىٰ ﴿غَرۡقٗا﴾ أي: شديدًا، من الاستغراق بالفعل، فهو نزع شديد، كما جاء موصوفًا في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: «**كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ**» رواه أحمد[1]، فإن روح الكافر عند القبض،

(١) مسند الإمام أحمد (١٥٨٣٤) صحح إسناده شعيب الأرنؤوط.

تتفرق في أنحاء جسده، فإذا نزعتها الملائكة وقالت: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ۝٩٣﴾ [الأنعام:٩٣]، تتفرق روحه في جسده، فينزعها الملك نزعًا شديدًا. وهٰذا مروي عن جمع من الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ.

وقيل في تفسير ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾: أي الموت، كما يقال: نزعات الموت، أو نزع الموت.

وقيل أيضًا أن المراد بالنازعات: النجوم التي تنزع من جهة إلىٰ جهة، وتتحرك من جهة إلىٰ أخرىٰ، فهي تنزع من جانب من السماء إلىٰ جانب، وتنتقل من منزل إلىٰ منزل.

وقيل: المقصود بالنازعات: القسي الذي يكون فيها السهم، فكأن اللَّه تعالىٰ أقسم بِهٰذه القسي حينما تنزع إلىٰ منتهاها، وقيل في تفسير ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ النفس.

هٰذه أقوال خمسة، وأقرب هٰذه الأقوال القول الأول، وهو أن المراد بالنازعات الملائكة حين تنزع أرواح الكفار من أجسادهم.

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢﴾ أحسن ما قيل فيها: الملائكة حينما تسل أرواح المؤمنين سلًّا رفيقًا، كما جاء موصوفًا في حديث البراء بن عازب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ في السِّقَاءِ**» رواه أحمد[١].

وسل القطرة من السقاء أرفق ما يكون، لا صوت، ولا ألم. فأقسم اللَّه بالملائكة حينما تسل أرواح المؤمنين من أبدانهم.

وقيل فيها أيضًا ما قيل في سابقتها؛ أن المقصود بالناشطات الموت، أو النجوم حينما تنشط من جهة إلىٰ جهة، وقيل فيها أيضًا المقصود بالناشطات: الأوهاق ـ يعني الحبال ـ التي ترمىٰ بها الأنشوطة، فيسحب بها الصيد، والأنشوطة: حبل يكون فيه كالعقدة، يرمىٰ علىٰ الشيء البعيد، فيجر به.

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٥٨٣٤) صحح إسناده شعيب الأرنؤوط.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣﴾، الأصل في السبح: العوم في الماء، وأيضًا في الهواء، فالسبح لا يكون فقط في الماء، بل يكون في الهواء أيضًا، ولهٰذا يوصف الجواد بأنه سابح، كما قيل:

أعـزُّ مكـانٍ في الـدُّنا سـرجُ سـابحٍ   وخيـرُ جلـيسٍ في الـزمانِ كـتابُ

وأولىٰ الأقوال، كما أسلفنا، أن المراد بها الملائكة حينما تعرج في أجواز الفضاء صعودًا، وهبوطًا، بأمر اللَّه ﷻ، فإن الملائكة كما أخبر اللَّه: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقال: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، فالملائكة تصعد وتَهبط بأمر اللَّه ﷻ.

وقيل في ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾ أيضًا ما قيل فيما قبلها؛ أن المراد بها الموت، وقيل أن المراد بها النجوم؛ لأنها تسبح في الفضاء، وقيل فيها أيضًا السفن؛ لأنها تمخر اليم فهي تسبح فيه.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤﴾ هٰذه الفاء للتفريع تدلنا علىٰ أن جميع المذكورات شيء واحد، وصفات لموصوف واحد، فالمذكورات السابقة النازعات، والناشطات، والسابحات هي لموصوف واحد وهي الملائكة علىٰ القول الراجح، وأنها ليست أنواعًا يعني ليست النازعات شيء، والناشطات شيء، والسابحات شيء، بل كل هٰذه صفات لجنس واحد؛ لأنه أتىٰ بعد ذٰلك بالفاء للتفريع علىٰ ما مضىٰ.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤﴾ أي: الملائكة تتسابق في امتثال أمر اللَّه، وتنفيذ ما يطلب منها من أنواع الوظائف التي أناطها اللَّه بها. وقيل أيضًا: إن المراد بالسابقات: الموت كما قيل فيما مضىٰ، وقيل: المراد بها الخيل؛ لأن السابقات مما توصف به الخيول كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١﴾ فهن يعدون ويتسابقن، وقيل أيضًا: المراد بها النجوم؛ لتسابقها في المطالع والمغارب.

وأولىٰ الأقوال هو القول الأول كما أسلفنا.

﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾ أما المدبرات فإنها بإجماع المفسرين: الملائكة، فهي تدبر الأمر الذي يأمرها اللَّه تعالىٰ به.

وهٰذه الجملة الأخيرة، التي هي الوصف الخامس، تؤيد أن جميع ما مضىٰ صفات لموصوف واحد؛ لأن اللَّه تعالىٰ عطف «المدبرات» علىٰ «السابقات»، والسابقات جاءت مصدرة بالفاء التي تفيد التعقيب، فهٰذا يرجح بقوة أن النازعات، والناشطات، والسابحات، والسابقات، والمدبرات كلها طوائف من الملائكة، أناط اللَّه تعالىٰ بها أعمالًا ووظائف.

والإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان. والملائكة عالم غيبي خلقهم اللَّه تعالىٰ من نور، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**» رواه مسلم[(١)].

وسخرهم لعبادته وطاعته، فهم يسبحون الليل والنهار لا يسئمون، ولا يفترون، ولا يستحسرون. وقد جعل اللَّه تعالىٰ طبيعتهم طبيعة تعبدية، لا ينزعون إلىٰ الشر أبدًا، علىٰ النقيض من الشياطين الذين جعل اللَّه طبيعتهم طبيعة تمردية. وبين الطائفتين الإنسان؛ فإن الإنسان ليس كالملك لا ينزعه إلا الخير، وليس كالشيطان لا ينزعه إلا الشر، بل هو كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس]، فالإنسان بين بين، فهو إن زكىٰ نفسه صارت نفسه ملائكية؛ يعني طائعة للَّه ﷻ لا أنه يكون ملكًا، لٰكن تصبح نفسه نفسًا مطيعة للَّه ﷻ منقادة كالملائكة، وإن كانت الأخرىٰ صارت نفسه شيطانية.

هٰذه الآيات الخمس أقسام، بين اللَّه تعالىٰ المقسم به ولم يبين جواب القسم؛ والظاهر ـ واللَّه أعلم ـ أن اللَّه تعالىٰ أخفاه إما تعظيمًا لشأنه، وإما لشهرته؛ لكونه هو الأمر الذي كان يجري الخلف فيه مع مشركي العرب، وهو البعث. فتقدير جواب القسم: لتبعثن. كأن اللَّه تعالىٰ يقول والنازعات،

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٩٦).

والناشطات، والسابحات، فالسابقات، فالمدبرات لتبعثن.

أقسم اللَّه تعالىٰ بِهٰذه الطوائف من الملائكة علىٰ أمر عظيم جليل، عليه مدار الحياة، وإقامة الحق، وهو البعث بعد الموت، الذي كان ينكره مشركو العرب، ولا ريب أن هٰذه القضية قضية عظيمة ثقيلة بها مسار الحياة؛ فإن من امتلأ قلبه بالإيمان باليوم الآخر، انضبط، وصار عنده حس يقظ، واستعداد، وشعور بالمسؤولية لما هو مقبل عليه.

❁ الفوائد المُستنبَطة:

الفائدة الأولى: إقسام اللَّه تعالىٰ بما شاء من مخلوقاته، فللَّه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للمخلوق أن يقسم إلا باللَّه وحده. فمن حلف بغير اللَّه فقد كفر أو أشرك، عن سعد بن عبيد أن ابن عمر سمع رجلًا يقول: لا والكعبة، فقال ابن عمر: لا يحلف بغير اللَّه؛ فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّه فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**». رواه أبوداود والترمذي[1]. أما اللَّه ﷻ فله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وآياته الكونية، والشرعية.

الفائدة الثانية: إثبات الملائكة، وأعمالهم.

الفائدة الثالثة: أن إخفاء المقسم عليه يكون للتعظيم، أو للشهرة، فاللَّه تعالىٰ قد أخفىٰ المقسم عليه، وهٰذا يزيد الأمر جلالةً ومهابةً.

📖 ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾:

هٰذه تسع آيات ذات وحدة موضوعية واحدة.

(١) سنن أبي داود (٣٢٥٣)، سنن الترمذي (١٥٣٥)، صححه الألباني.

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ هٰذا الظرف متعلق بما أضمر، وتقديره: لتبعثن يوم ترجف الراجفة. والراجفة: قيل في تفسيرها: النفخة الأولىٰ التي يحصل بها الصعق، والرادفة النفخة الثانية التي يحصل بها البعث؛ روي ذٰلك عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا[(١)].

ولا ريب في وجود نفختين، فإن اللَّه قال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، فالنفختان هما: نفخة الصعق، ونفخة البعث.

وأضاف بعض العلماء نفخة ثالثة، سموها نفخة الفزع، واستدلوا لذٰلك بقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧﴾ [النمل: ٨٧]، وبقول النبي ﷺ: «... **ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلاَ يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلاَّ أَصْغَىٰ لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا**...» رواه مسلم[(٢)].

قال ابن كثير: «الليت: هو صفحة العنق، أي: أمال عنقه ليستمعه من السماء جيدًا. فهٰذه نفخة الفزع، ثم بعد ذٰلك نفخة الصعق، وهو الموت، ثم بعد ذٰلك نفخة القيام لرب العالمين، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق»[(٣)].

وقيل: إن المراد بالراجفة هي الأرض نفسها؛ لقول اللَّه تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ۝١٤﴾ [المزمل: ١٤]، والرادفة: السماء؛ لكون انشقاق السماء يأتي بعد ذٰلك، فتكون الراجفة الأرض حين ترجف، والرادفة السماء حين تنشق إثر ذٰلك. ولعل ما ذهب إليه ابن عباس أقرب.

﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ۝٩﴾: صور اللَّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، مظاهر الفزع، والخوف، ظاهرًا، وباطنًا؛ أما الباطن ففي قوله: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾ أي: خائفة، والخوف محله القلب وأي خوف أعظم من ذٰلك الخوف الذي

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٦٥).
(٢) صحيح مسلم (٢٩٤٠).
(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٢١٦).

لا يدرىٰ صاحبه إلىٰ أين يصار به؛ إلىٰ جنة أم إلىٰ نار؟ تخيل نفسك في بعض مواقف الدنيا، في أمر دنيوي عما قليل تتجاوزه، وتشتغل بغيره كيف تقلق، تترقب؟ فكيف بِهٰذا الأمر الأبدي، السرمدي، الذي هو نهاية حال العبد؛ فلذٰلك كانت القلوب واجفة.

﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾: أبصار أصحاب القلوب خاشعة، أي: ذليلة؛ لأن الخشوع هو الهبوط، قال تعالىٰ: ﴿تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩]. ولا ريب أن القلب هو خبيئة العبد، ولا ريب أن العين، أعظم ما يظهر عليه الأثر. فالعين هي المرآة التي تكشف عما في القلب. ولما وصف اللَّه حال الظالمين، قال: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [الشورىٰ: ٤٥]!

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾﴾: تساؤل يكشف عن قلق، وتوتر، وعجب لا ينقطع. ﴿لَمَرْدُودُونَ﴾ يعني: معادون، ﴿فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ الحافرة: هي الحياة بعد الموت. يعني: أنعود نحيا بعد أن متنا، كما وصف اللَّه ﷻ هٰذا في موضع آخر: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، والنسلان هو الإسراع في المشي، ﴿قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]، ما كانوا يتوقعون هٰذا ولا يأملون؛ لأنهم كانوا منكرين للبعث، ﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، فيا لها من مفاجأة، وأي مفاجأة! صدمة هائلة لهٰؤلاء المنكرين للبعث. وتأمل وقع هٰذه الآيات علىٰ منكري البعث! لا ريب أن مثل هٰذه الآيات هزت كثيرًا من القلوب ودعتها إلىٰ الإيمان، إلا من أبىٰ.

وقيل في تفسير الحافرة، أي: الأرض؛ يعني: أنحن مردودون إلىٰ الأرض التي كنا نسكنها؟.

وقيل ـ وهو قول بعيد ـ: ﴿ٱلْحَافِرَةِ﴾ النار. ولا يستقيم هٰذا مع قولهم ﴿لَمَرْدُودُونَ﴾؛ لأنهم ما كانوا فيها حتىٰ يردوا إليها. وأصل الحافرة في لغة العرب: رجوع المرء من الطريق الذي أتىٰ منه. تقول العرب: «رجع فلان

إلىٰ حافرته»: كأن الإنسان إذا سلك دربًا حفر أثره في طريقه، فإذا قيل: رجع فلان إلىٰ حافرته، كأنما قيل رجع أدراجه، علىٰ سيرته، وخطته التي مشاها.

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾: يعني بعد أن كنا عظامًا، بالية، فانية، فارغة يصوِّت فيها الريح؛ لأنها لما بليت، صارت مجوفة، فصارت الريح تصفر فيها، تدخل، وتخرج.

وقيل أيضًا من معاني نخرة: مرفوتة، يعني مدقوقة محطمة.

﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾: يعني إن كان الأمر كذٰلك، فهٰذه رجعة لا خير فيها، والعياذ باللَّه؛ لأنهم يعلمون أنهم أساؤوا في الأولىٰ، فهم غير متفائلين بِهٰذه الرجعة، فلذٰلك حكموا علىٰ رجعتهم بأنها خاسرة، لا خير فيها.

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾: يعني كل ما في الأمر، فالأمر هين بالنسبة للَّه ﷻ، أنها زجرة واحدة، وحسب، والزجرة: هي الصيحة، لٰكنها بِهٰذا التعبير زجرة تعطي معنًىٰ أشد، من كلمة صيحة، ففيها معنىٰ العنت، والعنف، زجرة واحدة، لا مثنوية فيها.

﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾: يعني فإذا القوم تنشق عنهم قبورهم، ويبعثون؛ ليكونوا في الساهرة، والساهرة: هي الأرض بعد التبديل. يقول اللَّه ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فالأرض التي يبعث عليها الناس، أرض كالقرصة، وكالخبزة، ليس فيها معلم لأحد؛ فإن اللَّه أخبر عن الجبال فقال تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧]، مشهد مهيب، مهول، تعود الأرض ممدودة كمد الأديم، ليس فيها معلم لأحد.

عن سهل بن سعد ﵁ قال سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ**». قَالَ: سَهْلٌ أَوْ غَيْرُهُ: لَيْسَ

فِيهَا مَعْلَمٌ لأَحَدٍ. رواه البخاري[١].

لا جبل يشرف منه الإنسان، ولا وادٍ يُكنُّه، بل يصبح الناس قيامًا علىٰ حد سواء.

وقيل في تفسير الساهرة: إنها اسم مكان معروف من الأرض في الشام، وقيل: إنه جبل إلىٰ جانب بيت المقدس.

وأقرب هٰذه الأقوال أن الساهرة هي الأرض التي تكون بعد التبديل، أرض ليست كأرضنا التي نحيا عليها الآن، بل أرض مهيأة لاجتماع الخلائق عليها، منذ آدم؛ إلىٰ آخر من يموت علىٰ وجه الأرض، ليس الآدميين فحسب، بل كما سيأتي إن شاء اللَّه، ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التكوير ٥]، فالعشار، والوحوش، وكل شيء يجتمع علىٰ تلكم الأرض.

هٰذه الآيات العظيمة تتضمن إقرار عقيدة البعث، بأوضح ما يكون، وبأشد ما يكون! فاللَّه يبدأ بذكر ما يجري يوم القيامة؛ من رجف الأرض، فيخبر اللَّه ﷻ بأن هٰذه الأرض المستقرة، التي امتن علينا باستقرارها في موضع، فقال: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [النمل: ٦١]، ضع يدك علىٰ الأرض تحس أنها مستقرة، لم يدر بخلدك يومًا أن تتحرك، وتَهتز، هٰذه الأرض ترجف ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾، ورجف الأرض مقارن للنفخة الأولىٰ، فلا تعارض بين التفسيرين، ولا مانع من الحمل عليهما معًا، ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ نفخة أثر نفخة.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «**مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ**»، قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا، قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً قَالَ: أَبَيْتُ. متفق عليه[٢].

فاللَّه أعلم بأي تقدير تلك الأربعين، ويكون حال الناس، ما وصف اللَّه تعالىٰ من وجف القلوب، واضطرابها، ومن خشوع الأبصار وقلقها، وحيرتها،

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٢١).

(٢) صحيح البخاري (٤٨١٤)، صحيح مسلم (٢٩٥٥).

فزعًا مما هي مقبلة عليه. ويتساءل المنكرون للبعث في ذٰلك المقام، تساءل المشدوه، الفزِع، المصدوم: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ لما كنا فيه من حياة، معادون للأرض التي كنا نسكنها؟ يا لها من خسارة فادحة! فهم قد علموا من حالهم أنهم كانوا مكذبين، وحق عليهم ما توعدهم به نبيهم ﷺ، فأدركوا أن أمرهم في خسار، وسفال، فلذٰلك جزموا ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾، وبين اللَّه تعالىٰ أن الأمر حق، لا مثنوية فيه: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: إثبات النفختين.

الفائدة الثانية: عظم شأن الساعة. ولهٰذا كان من رحمة اللَّه ﷻ أن الساعة لا تقوم علىٰ مؤمن، لا تقوم الساعة إلا علىٰ شرار الخلق، عن عبداللَّه بن عمرو بن العاص قال: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ عَلَىٰ شِرَارِ الْخَلْقِ هُمْ شَرٌّ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَدْعُونَ اللَّه بِشَيْءٍ إِلاَّ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ**» رواه مسلم[(١)].

الفائدة الثالثة: بيان مظاهر الخوف؛ الظاهرة، والباطنة؛ الباطنة في القلوب، والظاهرة في الأعين.

الفائدة الرابعة: صدمة الكفار يوم القيامة، وشدة ندمهم.

📖 ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾: ما أجمل التعبير القرآني وألذه، وما أحسن

---

(١) صحيح مسلم (١٩٢٤).

سبكه ونظمه، حينما يتنقل من أسلوب إلىٰ أسلوب، فقد أتىٰ بطريقة الاستفهام، لتنبيه الأفهام، ولفت الأنظار. والمخاطب نبينا محمد ﷺ، وما من قصة جرىٰ تكرارها في القرآن، كقصة موسىٰ؛! ويعرضها بصور متنوعة. وسر ذٰلك، واللَّه أعلم، ما تضمنته قصة موسىٰ؛ من المواقف الجليلة، والعبر العظيمة، ولتشابه حال موسىٰ؛، بحال محمد ﷺ؛ فإن موسىٰ؛ أخرج أمته من الكفر، والظلم، والبغي، وأسس دولة كما محمد ﷺ. ولأن اليهود كانوا شوكة في جنب المسلمين في المدينة، فأراد اللَّه أن يبين حالهم، وأخلاقهم، وصنيعهم مع نبيهم.

وها هنا إشكال! قد يقول قائل: أليس اللَّه تعالىٰ ذكر ما يدل علىٰ أن قصة يوسف؛ أحسن القصص؛ فإنه قال بين يدي سورة يوسف: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: ٣]، فلم لم يقع تكراررها، كما تكررت قصة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

والجواب: أن قصة يوسف؛، قصة من القصص، وقصص غيره من الأنبياء أعظم فائدة، فإن أنباء الرسل، وما جرىٰ بينهم وبين أقوامهم من المسائل حول الكفر والإيمان، أكثر أهمية من قصة يوسف؛، فلا يلزم أن يكون هٰذا الاستهلال في أول سورة يوسف خاصًا بتلك القصة، وإنما هو وصف لقصص القرآن جميعًا، لٰكن، لما كانت هٰذه السورة من أولها إلىٰ آخرها قصة، ناسب ذكر ذٰلك في أولها. وربما يقال: أنه أتىٰ بِهٰذا التعبير «أحسن القصص» بين يدي قصة يوسف، لأنها من الناحية القصصية البحتة، فيها ما ليس في غيرها من السور، من عنصر المفاجأة، والتنقل من حال إلىٰ حال، ومن نعمة إلىٰ نقمة، ومن نقمة إلىٰ نعمة، ومن منحة إلىٰ محنة، ومن محنة إلىٰ منحة، ومن عز إلىٰ ذل، ومن ذلٍ إلىٰ عز. ففي هٰذا التنوع، من الناحية القصصية الفنية البحتة ما ليس في سواها من القصص.

﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾: لم يسق سبحانه جميع قصة موسىٰ؛

هنا، وإنما ذكر سبحانه موقفًا هامًا، مؤثرًا، عظيمًا، جليلًا، وهو تكليم اللَّه تعالىٰ له دون واسطة. فإن موسىٰ؛، لما سار بأهله من صحراء مدين، وقارب الطور، آنس نارًا فقصدها، فلما اقترب من النار كلمه اللَّه ﷻ. فكان هٰذا الموقف بالنسبة لموسىٰ أشرف موقف، ولا ريب.

والمناداة هي الصوت لمن بعُد، كما أن المناجاة هي الصوت لمن قرب، ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾ [مريم: ٥٢]، فالمناجاة للقريب، والمناداة للبعيد.

﴿بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ١٦﴾: المقدس: المطهر، واسمه طوىٰ، هٰكذا رجح ابن كثير، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وغيره. وقيل: أنه بمعنىٰ طء، يعني أمر لموسىٰ بالوطء، والسير عليه. وقيل: معنىٰ طوىٰ: الذي طويته، أي طويته يا موسىٰ وسرت فيه. وقيل: أن طوىٰ: بمعنىٰ مرتين، يعني: إذ ناده ربه بالواد المقدس مرتين، وكأنه قصد بالمرتين المناداة، والمناجاة، فصارت الأقوال في معنىٰ «طوىٰ» أربعة، أقربها أنه اسم للوادي.

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾: هٰذا هو نص النداء، نص تكليم الرب لموسىٰ الكليم. وفرعون لقب يطلق علىٰ من ملك مصر من أهلها. وفي سورة يوسف سمىٰ اللَّه صاحب مصر ملكًا فقال: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ [يوسف: ٥٠]، وفي هٰذا إشارة إلىٰ أن ملوك مصر زمن يوسف؛، غير الفراعنة، وهم «الهكسوس». وهم قبائل أغارت علىٰ مصر في فترة معينة، أثناء حكم الأسر الفرعونية المتعاقبة. أما في زمن موسىٰ؛، فقد عاد الفراعنة إلىٰ ملك مصر. والمقصود أن «فرعون» لقب لمن ملك مصر، كما أن «كسرىٰ» لقب لمن ملك الفرس، و«قيصر» لقب لمن ملك الروم، و«المقوقس» لقب لمن ملك القبط، و«النجاشي» لقب لمن ملك الحبشة، و«الخاقان» لقب لمن ملك الترك، وهٰكذا.

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧﴾: أي تجاوز الحد وتمرد وتجبر، قبحه اللَّه، فكان يقتل أبناء بني إسرائيل، ويستحيي نساءهم. وبلغ به الأمر أن خرج علىٰ

قومه مرة بصورة المجتهد، المستفرغ لطاقته، واجتهاده، ونصحه، قائلًا: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]! فادعىٰ الألوهية، كما ادعىٰ الربوبية هنا.

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨﴾: هٰذا من التلطف في الدعوة! لم يقل له: زكِّ نفسك! بصيغة الأمر، وإنما تلطف في الأسلوب فقال له: ﴿هَل لَّكَ﴾ يعني: أدعوك، وأعرض عليك ﴿أَن تَزَكَّىٰ﴾: والتزكية تعني التطهر، بتنقية النفس من شوائب الشرك، والغل، والأخلاق الرذيلة، والتصرفات القبيحة.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾: وهٰذا لون آخر في التلطف، فإنه وضع نفسه بموضع الهادي، والدليل كأنما يقول: أنا كالذي يمشي بين يديك، والدليل الذي يدلك علىٰ الدرب. وهٰذا من التواضع في الدعوة لأنه يخاطب ذا سلطان، ومعلوم أن الخطاب لأصحاب المقامات، والوجاهات، ليس كالخطاب لآحاد الناس، فينبغي أن ينزل الناس منازلهم. يقال إن واعظًا دخل علىٰ أحد الخلفاء، فوعظه موعظة جافة، غليظة، فقال له الخليفة: يا هٰذا! إن اللَّه قد بعث من هو خير منك، إلىٰ من هو شر مني، فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه: ٤٤]، ولا ريب أن اللَّه تعالىٰ يعطي علىٰ الرفق مالا يعطي علىٰ العنف.

وفي قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ تلطف أيضًا؛ حيث ذكَّره بربوبية اللَّه له. وقوله: ﴿فَتَخْشَىٰ﴾: أي يثمر ذٰلك لك خشية، وينقشع ما في قلبك من قسوة وغلظة.

إذًا غاية الدعوة التزكية، وثمرتها الخشية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، إذا أردت أن تقيس حالك فانظر خشية اللَّه في قلبك. العالمون باللَّه حقًا هم أهل الخشية. لا تنظر إلىٰ ما عندك من كتب، ودفاتر، بل انظر إلىٰ ما في قلبك، فإن كان قلبك مخبتًا، خاشعًا للَّه ﷻ، فأنت من أهل العلم؛ لأن الخشية ثمرة هٰذا العلم. وإلا لا فائدة من كثرة المرويات، والمحفوظات، مع قسوة في القلب. وليس في هٰذا تقليل من أهمية التحصيل، ولٰكن علىٰ طالب العلم أن يوظف علمه في خشية اللَّه، فإن العلم النافع، هو الذي يورث الخشية.

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ٢٠﴾: أي العلامة الباهرة. لما أبىٰ واستكبر عرض عليه أن يريه آية، ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ٣٠ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ٣١ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ٣٣﴾ [الشعراء: ٣٠ ـ ٣٣]، يعني: ألقىٰ عصاه، فاستحال حيةً حقيقية، وأدخل يده في جيبه، ثم أخرجها، فإذا هي تبرق بيضاء من غير سوء! آيتان عظيمتان، باهرتان، حتىٰ إنه أرتج علىٰ فرعون، وأخذ يخبط في التهم..

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ٢١﴾: يعني: ومع أنه تحدىٰ، ولم يصمد أمام التحدي، فقد كذب وعصىٰ.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ٢٢﴾: وفوق ذٰلك، ما ترك الأمر مغلقًا، بل أدبر يسعىٰ سعيًا حثيثًا في الصد.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: أي جمع الناس، وأعلن قائلًا: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يعني زاده ظهور الحق إصرارًا علىٰ الباطل، حتىٰ إنه قال لهامان، وزيره: ﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ٣٦ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ٣٧﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧]، وغير ذٰلك من صنوف الطغيان.

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ٢٥﴾: اختلف المفسرون في هٰذا، فقيل: إن المراد بالآخرة: آخر كلامه، والأولىٰ: أول كلامه، فآخر كلامه ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وأول كلامه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وقيل: أن المراد بالآخرة والأولىٰ: الآخرة، والدنيا. فاللّٰه تعالىٰ أذاقه عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة؛ عذاب الدنيا بالغرق، ومن قبل الغرق الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وأما في الآخرة، فلا يخفىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: ٤٦]؛ وإنما قدم الآخرة لأنها أشد، وقيل في تفسير الآخرة والأولىٰ: يعني أول عمله، وآخره، وهو قريب من المعنىٰ الأول.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ٢٦﴾: أي موعظة، وتوقظة، لمن في قلبه خشية، لأن الآيات، والمواعظ لا ينتفع بها إلا أهل الخشية.

فالمعنىٰ الإجمالي لهٰذه الآيات: أن اللَّه أراد أن يضرب مثلًا للكافرين المنكرين للبعث، بقصة جبار من الجبابرة الظالمين، وكيف كانت نهايته، فذكَّر اللَّه تعالىٰ بقصة موسىٰ؛، حينما أمره ربه أن يقصد فرعون بسبب طغيانه، وجبروته، وتمرده، وأن يعرض عليه الإيمان، وطريق الهدىٰ، والخشية، والتزكية، فركب رأسه وأبىٰ، وبالغ في إنكاره، وجبروته، وكفره، فادعىٰ الربوبية، بعد أن كان قد ادعىٰ الألوهية. فكان أن أذله اللَّه تعالىٰ، وأخزاه خزيًا ما بعده خزي، فأهلكه اللَّه بألطف الأشياء وهو الماء، فأغرقه فيه، ثم يوم القيامة يحرقه بالنار. وفي هٰذا عبرة لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد. فلينتبه هٰؤلاء المشركون، المنكرون للبعث، الذين يظنون أنهم إنما يمتعون في هٰذه الدنيا، ثم ينتهي كل شيء؛ فلا بعث ولا نشور.

❁ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: عناية القرآن بقصة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكثرة تكرارها، وتنوع عرضها.

الفائدة الثانية: إثبات صفة الكلام للَّه سبحانه بصفة المناداة، فهو يتكلم متىٰ شاء كيف شاء بما شاء.

الفائدة الثالثة: أن كلام اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، متعلق بمشيئته؛ لأنه قال: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ إِذۡ نَادَىٰهُ﴾، و«إذ» تدل علىٰ ظرفية زمنية، فهٰذا يدل علىٰ أن اللَّه يتكلم متىٰ شاء، خلافًا للأشاعرة، والكلابية، والسالمية، وغيرهم من فرق الصفاتية، الذين يقولون: إن كلامه هو المعنىٰ القديم القائم في نفسه، وليس من صفاته الفعلية! بينما يعتقد أهل السنة أن كلام اللَّه قديم النوع، حادث الآحاد، فهو قديم النوع بمعنىٰ أن الكلام صفة ذاتية له باعتبار أصله، ولٰكنه يتجدد باعتبار آحاده، وأفراده ودواعيه.

الفائدة الرابعة: فضل موسىٰ؛. ولهٰذا يقال: موسىٰ الكليم.

الفائدة الخامسة: فضل وادي طوىٰ وشرفه؛ لأن اللَّه طهره فقال: ﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

الفائدة السادسة: قبح الطغيان وفاعله، ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾، فالطغيان مرذول، مذموم.

الفائدة السابعة: التلطف في الدعوة، لاسيما مع أهل السلطان، فلكل مقام مقال.

الفائدة الثامنة: بيان غاية الدعوة وثمرتها، ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

الفائدة التاسعة: تأييد اللَّه تعالىٰ لأنبيائه بالآيات، التي يسميها بعض العلماء المعجزات. فلما علم اللَّه تعالىٰ، أن من الناس من لا يستجيب إلا بآية ظاهرة، خارقة للعادة، أجرىٰ علىٰ أيدي رسله هٰذه الآيات، ولم يكلهم فقط إلىٰ مضمون الدعوة، بل نوَّع دلائل النبوة. وأعظم الأنبياء آية هو نبينا محمد ﷺ.

ففي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أُومِنَ ـ أَوْ آمَنَ ـ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ؛ فَأَرْجُو أني أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» متفق عليه[(١)].

فأعظم آيات نبينا ﷺ، القرآن العظيم، آية خالدة، وها نحن نقرأ هٰذه الآيات العظيمة فنعجب، وننبهر، ونندهش من تأثيرها، ومعانيها، وحكمها، كما أيده بانشقاق القمر والإسراء والمعراج، وغيرها.

الفائدة العاشرة: غلظ كفر فرعون، وشدة عناده. ولا يعلم أحد من البشر اشتهر بإنكار الربوبية مثل فرعون، فإنه أنكر ربوبية اللَّه، وادعاها لنفسه،

---

(١) صحيح البخاري (٧٢٧٤)، صحيح مسلم (١٥٢).

أنكرها بقوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٣]، وادعاها لنفسه في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، ثم رتب عليها دعوىٰ الألوهية بقوله ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]! فلذٰلك صار مضرب المثل في الكفر، والجبروت، والإلحاد.

الفائدة الحادية عشرة: شدة أخذ اللَّه للظالم الطاغي ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

الفائدة الثانية عشرة: وجوب الاعتبار، والاتعاظ بمصارع الظالمين، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

الفائدة الثالثة عشرة: أن الخشية سبب الانتفاع بالمواعظ، لأن صاحب القلب القاسي مهما رأىٰ، ومهما سمع، ومهما وقع له، مقفل علىٰ قلبه، أما صاحب القلب اليقظ الواعي، الذي تسري فيه نسائم الخشية ثم يتأثر، تأمل في حال أهل العلم النافع: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩]، ما الذي أبكاهم؟ مجرد آيات طرقت أسماعهم، لٰكن هٰذه الآيات ليست مجرد حروف معجم، بل حروف وكلمات وجمل ذات معاني، لامست قلوبهم، فانفعلت تلك القلوب، وهملت تلك العيون، وخرت تلك الأعضاء خرورًا، من أعلىٰ إلىٰ أسفل ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ يجعلون أذقانهم في الرغام إجلالًا للَّه، وخشية له،. وتأمل في حال مؤمني أهل الكتاب: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [القصص: ٥٣]، وأخبر اللَّه تعالىٰ عنهم في موضع آخر، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٣]، فليحرص كل مؤمن علىٰ أن يحيي قلبه بخشية اللَّه، هٰذه خشية تلين القلب، وتجعله حسن الاستقبال للمواعظ والعبر، والانتفاع بالآيات الكونية والشرعية. نسأل اللَّه أن يرزقنا خشيته في السر والعلن.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾: هٰذا استفهام تقريري، لاستشارة عقول المنكرين للبعث. ﴿ءَأَنتُمْ﴾ والجواب معروفٌ سلفًا، فقد قال اللّٰه ﷻ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، فاللّٰه تعالىٰ ينعىٰ علىٰ هٰؤلاء المنكرين للبعث، والمستبعدين له بقولهم: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] بأن الذي خلق السماوات السبع الشداد قادر علىٰ أن يعيد خلقهم، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ففي هٰذا إقامة لحجة عقلية، حسية، علىٰ هٰؤلاء المنكرين للبعث، وقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]. ثم إنه بين كيفية خلق السماء فقال: ﴿بَنَىٰهَا﴾، علىٰ الصفة التي جاءت الآيات بعدها مفسرة لها، ومعنىٰ ﴿بَنَىٰهَا﴾: أي شيدها وأقامها.

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾: ومرجع الضمير إلىٰ السماء، والمراد بالسمك: الارتفاع. وقيل إن السمك المقصود به السقف، فما بين السماء والأرض مسافة هائلة طويلة. ومعنىٰ سواها: أي جعلها معتدلة الأرجاء، واسعة الفناء، لا فطور فيها، ولا تفاوت. والناظر في هٰذه السماء يسرح طرفه في أرجائها، ويعجب من دقة خلقها، ومتانته، لا يجد فيها أدنىٰ ثقب، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]، يعني من شقوق وصدوع، ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ٤]، فيكِلُّ الطرف عن العثور علىٰ مقدار ثقب إبرة في هٰذه السماء المحكمة ذات الحبك. فيا لها من آية عظيمة! ولهٰذا ندب اللّٰه المؤمنين إلىٰ التفكر فيها، فقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ [الغاشية: ١٨]، وهٰذا

من طرائق القرآن في بناء العقيدة، وهو توجيه العقول والأنظار إلىٰ مظاهر الربوبية؛ ليحصل توحيد الألوهية.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝٢٩﴾: مرجع الضمير إلىٰ أقرب مذكور وهو السماء. ومعنىٰ ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾: أي جعل ليل السماء مظلمًا. فمعنىٰ أغطش أي أظلم. ومعنىٰ ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝٢٩﴾: أي أظهر ضحاها بنور الشمس، فالشمس إذا بدت في السماء بان الضحىٰ، وأسفر المكان، وإذا احتجبت الشمس عن هٰذه السماء عادت الظلماء. وهي دورة متكررة في اليوم والليلة. كما قال تعالىٰ: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]، وفي تعاقب الليل والنهار حكم بالغة، يطول المقام بذكرها، لا تقوم حياة الآدميين والحيوان والنبات إلا بها، فلو اختل ذٰلك النظام لحصل اضطراب في الحياة البشرية؛ ولهٰذا قال اللَّه ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٢]، فحياة الإنسان، وحياة الحيوان، وحياة النبات، تتأثر بتعاقب الليل والنهار كما هو معروف، وكما كشفت عنه العلوم الحديثة، بأوضح ما يكون.

ويحسن أن يكون لطالب العلم نوع اطلاع علىٰ العلوم الحديثة في الفلك، وفي الفيزياء، وفي علم وظائف الأعضاء، وفي علم النبات، وفي مختلف العلوم الحديثة؛ لأنها تزيد المؤمن إيمانًا، وإن كانت لا تزيد الكافرين إلا ضلالًا، كما قال ربنا ﷻ: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١﴾ [يونس: ١٠١].

فالمؤمن، صاحب القلب المفتوح تزيده هٰذه المكتشفات، وهٰذه الحقائق العلمية إيمانًا بقدرة اللَّه ﷻ، وكمال ربوبيته. وقد ألف بعض الملحدين الشيوعيين قبل نحو خمسين سنة كتابًا سماه «الإنسان يقوم وحده»، يريد أن يقرر أن الإنسان مستغن بنفسه، وأنه ليس بحاجة إلىٰ إلٰه، فألف أحد الغربين

كتابًا يرد به عليه بعنوان «الإنسان لا يقوم وحده». وهٰذا المؤلف رجل من النصارىٰ، لٰكن عنده إيمان بالربوبية، واعتضد بالعلوم، والكشوف العلمية الحديثة، علىٰ بيان حاجة الإنسان إلىٰ الرب، وترجمه بعض المعرِّبين باسم «العلم يدعو إلىٰ الإيمان». وهو كتاب مفيد؛ لأنه يوقف المؤمن، ويوقف طالب العلم، علىٰ حقائق مذهلة من خلق اللَّه ﷻ، وحكمته، ودقيق صنعه، وتدبيره في الأنفس، وفي الآفاق، مما يزيد المؤمن إيمانًا.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾: معنىٰ ﴿دَحَىٰهَآ﴾ أي بسطها، وقيل: حرثها، وشقها.

وها هنا إشكال مشهور، وهو ما يتعلق بترتيب خلق السماوات والأرض، فاللَّه يقول في سورة فصلت: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾ [فصلت: ٩ - ١٠]، ثم قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١١ - ١٢]، فهٰذا الترتيب يدل علىٰ أن اللَّه خلق الأرض، ثم خلق السماء، والذي بين أيدينا ها هنا، أن اللَّه ابتدأ بذكر السماء فقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾، فجعل ذكر الأرض بعد ذكر السماء، وهٰذا في ظاهره مخالف لما في سورة «فصلت»! ولأجل هٰذا الإشكال سلك بعض المفسرين مسالك فيها نوع تكلف، فمنهم من قال إن معنىٰ قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي قبل ذٰلك، ولا تخفىٰ شدة التأويل في هٰذا؛ بأن يقلب اللفظ إلىٰ ضده، ولو شاء اللَّه لقال «قبل ذٰلك». وقال بعضهم، ويروىٰ هٰذا عن مجاهد ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي مع ذٰلك، فجعل «بعد» بمعنىٰ «مع»!.

ولٰكنَّ الجواب عن هٰذا هو ما قاله حبر هٰذه الأمة، وترجمان القرآن، عبداللَّه بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «أن الخلق غير الدحو»، بمعنىٰ أن اللَّه خلق الأرض

أولًا، ولم يدحها، ثم استوي إلىٰ السماء فخلقها، وسواها، ثم بعد ذٰلك دحا الأرض[1]، فيكون سبحانه خلق الأرض في يومين كما أخبر في سورة «فصلت»، لٰكنه خلقها في يومين من غير دحو، ثم بعد ذٰلك استوىٰ إلىٰ السماء فخلقها وسواها كما أخبر، ثم دحا الأرض بعد ذٰلك. وبذٰلك يزول الإشكال.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾: وهٰذا يدل علىٰ أن معنىٰ ﴿دَحَىٰهَآ﴾ أي شقها، وبسطها، فكأن هٰذه العملية تمت بعد خلق السماء، وهو إخراج مائها؛ بأن جعلها تتفجر ينابيع، ويجرىٰ فيها الماء من الأنهار. وأخرج هٰذه النباتات الهائلة، التي تملأ الغابات، والبساتين. والمرعىٰ اسم لمكان الكلأ والعشب، ومرجع الضمير إلىٰ الأرض.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾: لما ذكر السماء، وذكر الأرض، ذكر الجبال. واللَّه تعالىٰ يقرن هٰذه المخلوقات العظيمة في غير ما موضع. فاللَّه تعالىٰ قال مثلًا: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

ومعنىٰ ﴿أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ أي أثبتها، وقررها في الأرض؛ حتىٰ لا تميد، ولا تضطرب، كما قال في آية أخرىٰ ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، أي لئلا تميد بكم. والجبال في الحقيقة خلق عجيب؛ إذا رأىٰ الإنسان الجبال الضخمة، الهائلة، الشاهقة، وقف متصاغرًا أمام قدرة اللَّه ﷻ، يرىٰ هٰذا الخلق الهائل، العظيم، الذي يشق أجواز الفضاء بثقله، وصلابته، فيدرك ضآلة خلقه أمامه.

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾: هٰذه هي الحكمة من المظاهر الكونية التي ذكرت. ومعنىٰ ﴿مَتَٰعًا﴾ أي متعة، ومنفعة، وسخرة. فربنا، ﷻ، سخر لنا ما في السماوات وما في الأرض، وأسبغ علينا نعمه ظاهرة، وباطنة. ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ والأنعام هي الإبل، والبقر، والغنم. وهٰذه الأصناف الثلاثة أكثر ما يلابس

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٩٢).

الناس؛ لعظيم منفعتها لهم؛ من حيث الركوب، والأكل، والحلب، ونحو ذٰلك، فالحاجة إليها ماسة. ولهٰذا تعلقت بها أحكام الزكاة دون غيرها من المخلوقات والبهائم.

وهٰذه الآيات في الواقع تكشف لنا عن طريقة القرآن العظيمة، البديعة، في ذكر ملكوت السماوات والأرض، وتوظيف ذٰلك في تقرير الإيمان باللَّه، ﷻ، وترتيبه لما بعده؛ فكما أن اللَّه ﷻ ذكر تلك الآيات في سورة النبأ، ثم عقب عليها بذكر البعث، وما يحصل يوم القيامة، صنع ذٰلك في هٰذه السورة فقال: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٣ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٣٤﴾، انظر هٰذه النقلة! بعد أن ملء قلوبهم، وأبصارهم، بِهٰذه الصور، والمعاني، صاروا الآن مهيئين لإلقاء الحجة الثقيلة عليهم، الداحضة لإنكارهم البعث. إذًا هٰذا الخلق البديع لم يخلقه اللَّه ﷻ عبثًا، ولن يذهب سدىً، خلق السماوات والأرض بالحق، وتمام الحق بالفصل الثاني الذي يقع بعد الطامة الكبرىٰ، فإن أفعاله سبحانه كلها معللة محكمة.

۞ الفوائد الْمُستنبطة:

الفائدة الأولى: بيان دليل من دلائل البعث، والرد علىٰ المنكرين، وذٰلك في قوله تعالىٰ: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧﴾، فإذا كان اللَّه خلق السماوات والأرض علىٰ عظمهما، فمن باب أولىٰ، وأحرىٰ أن يعيد خلق الإنسان.

الفائدة الثانية: الاستدلال علىٰ الأخف بالأشد، وذٰلك في قوله تعالىٰ: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧﴾.

الفائدة الثالثة: بديع خلق السماوات والأرض.

الفائدة الرابعة: تسخير اللَّه للمخلوقات؛ متاعًا لبني آدم، كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٣﴾.

الفائدة الخامسة: أن الأصل في الأشياء الإباحة والحل.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾: الطامة اسم من أسماء القيامة وهي الساعة، والمقصود بها النفخة الثانية التي يحصل بها البعث؛ بدليل ما بعدها من الآيات. وللساعة أسماء متعددة؛ عدَّ القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ منها ثمانين اسمًا، وعدَّ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ خمسين اسمًا. وليعلم أن الأسماء التي سماها اللَّه تعالىٰ، أو سماها نبيه ﷺ أعلام، وأوصاف، كما أن أسماء اللَّه الحسنىٰ أعلام، وأوصاف، وأسماء نبيه ﷺ أعلام وأوصاف، وأسماء القرآن أعلام وأوصاف، وكذٰلك أسماء القيامة أعلام وأوصاف؛ فهي أعلام من حيث دلالتها علىٰ ذات المسمىٰ، وأوصاف من حيث اختصاص كل اسم منها بوصف يميزه عن غيره.

فالطامة، والصاخة، والحاقة، والغاشية، والآزفة، كلها أسماء لمسمىٰ واحد، لٰكن كل اسم منها يحمل دلالة خاصة؛ فالصاخة تصخ الآذان، والقارعة تقرع القلوب، والآزفة قريبة الوقوع، والطامة لأنها تطم كل هائلة سواها؛ أي تغمرها. وكل داهية دونها. ولذا سماها «الكبرىٰ»، وما عظمه اللَّه فلا ريب أنه عظيم.

﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾: قيل أن هٰذا جواب «إذا» في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ أي حينئذ يتذكر الإنسان ما سعىٰ. وقوله: ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي جنس الإنسان، من مؤمن وكافر، وقوله: ﴿مَا سَعَىٰ﴾ أي في الحياة الدنيا، ما قدم، وما فَرَط منه. قال ﷺ: «**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**»

رواه مسلم[١]. حينما يُبعث الإنسان يوم القيامة، يمر عليه شريط الحياة التي حياها ستين سنة، أو سبعين سنة، أو تسعين سنة، أو أقل، أو أكثر، يتذكره كله، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وكما قال تعالىٰ في سورة الفجر: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣﴾ [الفجر: ٢٣]؛ هٰذه الذكرىٰ لا فائدة من ورائها، إلا إقامة الحجة.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ٣٦﴾: ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أي أظهرت، كما في الحديث الصحيح: «**يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونها**» رواه مسلم[٢]، وهٰذا يدل علىٰ أنها خلق عظيمٌ هائل، وأنه مشهد مخوف.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧﴾: ابتدأ التقسيم، ومعنىٰ ﴿طَغَىٰ﴾ أي تجاوز؛ لأن الطغيان معناه التجاوز، كما قال اللَّه، ﷻ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١﴾ [الحاقة: ١١]، يعني: لما تجاوز حده، والمقصود هنا أي تكبَّر، وتجبَّر، وعصىٰ، وكفر.

﴿وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨﴾: ﴿وَءَاثَرَ﴾ بمعنىٰ قدَّم وفضَّل الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، وذٰلك باتباع الشهوات، فلم يؤمن، ولم يستجب، وقال كما قال هٰؤلاء المنكرون للبعث: «أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر»، فنظرتهم هي النظرة الدنيوية المادية، التي ترىٰ أن الذكي، والحاذق، هو الذي يعب من الشهوات عبًّا، ولا يلزم نفسه بشيء.

وهٰذه الحياة الدنيوية هي حياة من يسمون بتعبير العصر «العَلمانيين» نسبة إلىٰ العالَم، أي الدنيا، لا نسبة إلىٰ العِلم، كما يلفظها بعض الناس، بكسر العين. والتَّرجمة الصحيحة لهٰذا المصطلح: «الدنيويون»، بإزاء «الدينيين» أهل الدين. فهٰؤلاء لا يعنيهم إلا متاع الحياة الدنيا، ولا ينظرون إلا بمنظور

(١) صحيح مسلم (٢٢٣).
(٢) صحيح مسلم (٢٨٤٢).

المادة، ولا يعنيهم أمر الدين. فيصدق عليهم قول اللَّه ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾: ﴿ٱلْجَحِيمَ﴾ اسم من أسماء النار، وهي علم، ووصف؛ وسميت بالجحيم لتجحمها، يعني لأنها تجحمت من شدة الإيقاد عليها، فهي سوداء مظلمة. ومعنىٰ ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾: يعني المرجع، والمآل.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾: هٰذا هو القسم الثاني، و﴿مَنْ﴾ بمعنىٰ الذي، ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾: يعني خاف المُقام بين يدي اللَّه، ﷻ. فبين عينيه دومًا أنه سيقف بين يدي اللَّه، قال النبي ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَىٰ إِلاَّ مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَىٰ إِلاَّ مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَىٰ إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ؛ فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**» متفق عليه(١).

فالمؤمن يخاف من هٰذا المقام بين يدي اللَّه. وقد أثمر هٰذا الخوف نَهْي النفس عن الهوىٰ، والمقصود بالهوىٰ ما تهواه النفس، أي تميل إليه، وغلب استعمال الهوىٰ علىٰ الأمر المذموم، وإلا فقد يهوىٰ الإنسان أمرًا محمودًا. فهٰذا الموفق، والنفس لها ثلاثة أحوال: تارة تكون مطمئنة، وتارة تكون أمارة، وتارة تكون لوامة.

فالمقصود بقوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ﴾ جنس النفس الأمارة، وهي التي تأمر صاحبها بالسوء، كما قال اللَّه، ﷻ، علىٰ لسان امرأة العزيز: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: ٥٣]. وعلىٰ النقيض منها النفس المطمئنة، ذات القلب المطمئن، قال اللَّه ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠] نفس ساكنة، خاضعة، راضية، رضيت باللَّه ربًّا، وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا، ليس لها نزعات، وتطلعات، وميولات، وهفوات، فهي تحب ما يحب اللَّه، وتبغض ما يبغض اللَّه، هاتان نفسان

(١) صحيح البخاري (٧٠٧٤)، صحيح مسلم (١٠١٦).

متقابلتان. وبين هاتين النفسين، نفس تترد جيئةً وذهابًا، تارةً تنزعها حالة النفس الأمارة، وتارة تنزعها حالة النفس المطمئنة، وهي التي أقسم اللَّه تعالىٰ بها بقوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾ [القيامة: ٢]، يعني التي تتلوم علىٰ صاحبها، والتلوم هو التلون؛ بمعنىٰ أن لها لونًا تارة ولونًا تارة أخرىٰ، فهي لما.

فنفوسنا في الأعم الأغلب، نسأل اللَّه أن يصلح أحوالنا، نفوس لوامة، فإنِ الإنسان غلّب الإيمان، ووعظ نفسه، نزع إلىٰ جانب النفس المطمئنة، وإن هو اتبع هواه، وتمنىٰ علىٰ اللَّه الأماني، مال إلىٰ النفس الأمارة، فلهٰذا قال اللَّه ﷻ: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾، وهٰذا يحمل معنىٰ المجاهدة؛ لأن النفس تحتاج إلىٰ مجاهدة، لابد من فقه النفس، يجب أن تعلم أن نفسك التي بين جنبيك، قد أودعها اللَّه الخير والشر، قال سبحانه: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨﴾ [الشمس: ٧-٨]، كما سياتي في تفسيرها.

﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١﴾: الجنة لا يدخلها إلا نفس طيبة، قد تخلصت وتنقت من شوائبها، وعوالقها الرديئة. والمأوىٰ هو المرجع والمصير.

هٰذا تمام التقسيم، وجواب عن قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٣٤﴾ يعني فإذا جاءت الطامة الكبرىٰ انقسم الناس إلىٰ فريقين، فريق مآله إلىٰ الجنة وفريق مآله إلىٰ النار.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ٤٢﴾ يعني متىٰ وقت وقوعها، وحصولها، كأنه مأخوذ من رسو السفينة، فالسفينة تمخر عباب البحر، ثم ترسو علىٰ الشاطئ.

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ٤٣﴾: أي في أي شيء أنت من ذكراها، كأنه يقول: ليس تعين أوانها من شأنك، كما قال ﷺ لجبريل؛، لما سأله عن الساعة قال «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**» متفق عليه[1]، ولما قال له أعرابي: متىٰ

---

(١) صحيح البخاري (٥٠)، صحيح مسلم (٨).

الساعة؟ قال: «**ما أعددتَ لها؟**» متفق عليه[١]. فأمر الساعة قد أخفاه اللَّه ﷻ، كما قال في آية الأعراف: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]، فالساعة قد أخفاها اللَّه، وكل ما تسمعون من دعاوىٰ، ومزاعم، أن انتهاء العالم سيقع عام كذا، وكذا، فهو رجم بالغيب، يقول اللَّه ﷻ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٦٥﴾ [النمل: ٦٥].

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ٤٤﴾ أي أن موعدها، علمه عند ربك، فهو مما اختص اللَّه تعالىٰ بعلمه، كما أخبر عن ذٰلك في آخر سورة لقمان فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥﴾: هٰذه مهمتك التي ينتفع بها غيرك؛ ليس الإعلان عن موعد الساعة، وإنما النذارة من قرب وقوعها ﴿مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ يعني من يخشىٰ الساعة، هو الذي تحصل له النذارة، والنذارة: هي الإخبار بالأمر المخوف.

﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾: يعني عشية يوم أو ضحوته، والعشية هي آخر اليوم، والضحىٰ أوله، كما أخبر في موضع آخر عنهم، فقال: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾ [طه: ١٠٤]، سبحان اللَّه! تمضي كل هٰذه السنين والعقود، فتبدو للناظر يوم القيامة، كأنما هي عشية أو ضحاها، فيالها من موعظة بليغة!.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: أن أسماء القيامة أعلام وأوصاف.

الفائدة الثانية: هول القيامة الكبرىٰ؛ لأن اللَّه سماها الطامة.

الفائدة الثالثة: ذكر الإنسان لسعيه بعد البعث.

---

(١) صحيح البخاري (٦١٦٧)، صحيح مسلم (٢٦٣٩).

الفائدة الرابعة: إثبات الجنة والنار.

الفائدة الخامسة: أن الجزاء من جنس العمل.

الفائدة السادسة: إثبات أفعال العباد، وترتب الثواب والعقاب عليها، مما يدل علىٰ أن للعبد فعل، ومشيئة، واختيار يؤاخذ عليه، ويثاب عليه.

الفائدة السابعة: كمال عدل اللَّه ﷻ.

الفائدة الثامنة: شؤم الطغيان، وإيثار الشهوات.

الفائدة التاسعة: فضل الخوف من اللَّه، ومجاهدة النفس.

الفائدة العاشرة: تشوف الناس للعلم بالساعة.

الفائدة الحادية عشرة: اختصاص اللَّه تعالىٰ بعلم الساعة.

الفائدة الثانية عشرة: أن العبرة بالإعداد لها.

الفائدة الثالثة عشرة: حقارة أمر الدنيا في الآخرة.



سورة عبس

سورة «عبس» سورة مكية، تتضمن مقاصد عظيمة منها:

المقصد الأول: بيان القيم الحقِيقية.

المقصد الثاني: إثبات البعث وأهوال القيامة.

المقصد الثالث: تقرير توحيد الربوبية.

نزلت هٰذه السورة في حادثة جرت للنبي ﷺ في مكة، فقد كان يعرض الإسلام علىٰ عظماء قريش، وصناديدهم، من أمثال عتبة بن ربيعة، وشيبة بن الربيعة، وأبي جهل؛ رجاء إسلامهم، وإعزاز هٰذا الدين. وفي هٰذه الأثناء، أقبل عليه رجل أعمىٰ ـ وهو عبداللَّه بن عمرو بن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، جاءه مسترشدًا.

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أُنْزِلَ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابْنِ أُمِّ مَكْتُوم الأَعْمَىٰ، أَتَىٰ رَسُولَ اللَّه ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَرْشِدني، وَعِنْدَ رَسُولِ اللَّه ﷺ رَجُلٌ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يُعْرِضُ عَنْهُ وَيُقْبِلُ عَلَىٰ الآخَرِ، وَيَقُولُ: «**أَتَرَىٰ بِمَا أَقُولُ بَأْسًا؟**» فَيَقُولُ: لَا، فَفِي هٰذا أُنْزِلَ. رواه الترمذي[1]، وهٰذا عتب لا يوجد له نظير في القرآن العظيم، وبيان للقيم الحقيقية التي ينبني عليها تقويم الداعية للذوات، مهما كانت المصالح الموهومة.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ② وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ④ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ⑥ وَمَا

(١) سنن الترمذي (٣٣٣١) قال الترمذي: حديث حسن غريب. وصحح إسناده الألباني.

عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾: ﴿عَبَسَ﴾ أي كلح بوجهه، وقطب بجبينه، وهو كناية عن الكراهة، والامتعاض من قدوم هٰذا السائل، في هٰذا الحال.

ومعنىٰ ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي أعرض، وصد عنه. فقد وقع منه ﷺ حيال هٰذا الأعمىٰ أمر باطني، وأمر ظاهري، فالأمر الباطني: هو الكراهة، وأما الأمر الظاهري: فهو العبوس والإعراض عن ذٰلك السائل.

﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾﴾: يعني أن الحامل له علىٰ ذٰلك، هو مجيء الأعمىٰ ومساءلته إياه. وقد وصفه اللَّه تعالىٰ بِهٰذا الوصف ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ من باب حكاية الحال، وفي هٰذا دليل علىٰ أنه لا بأس بوصف الإنسان بما فيه علىٰ سبيل التعريف، لا علىٰ سبيل التعيير، ولم يزل العلماء يحتملون الألقاب المعرِّفة بأصحابها، كما نجد ذٰلك كثيرًا عند المحدثين، كقولهم: الأعمش، والأعرج، والطويل، ونحوه، وذٰلك مما استثنىٰ من الغيبة.

كما أن في وصفه بِهٰذا الوصف ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾: فيه نوع إعذار له، بأنه ما دخل علىٰ النبي ﷺ، وهو مشغول بِهٰذا الحال، إلا بسبب كونه أعمىٰ، وربما لو كان بصيرًا، ورأىٰ اشتغال النبي ﷺ، بمن بين يديه، لتريث إلىٰ أن يفرغ.

ونلحظ نوع تلطف من اللَّه ﷻ بنبيه ﷺ في العتاب، بأن ساق هٰذه الحادثة علىٰ سبيل الخبر، بالفعل الماضي فقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، ولم يقل: «عبست وتوليت». وهٰذا يدل علىٰ أنه ينبغي لمن أراد المعاتبة، أو النصيحة، أن يتلطف ولا يعنف، فإن التعنيف قد يكون مدعاة لرد الموعظة، والنصيحة، فليتعلم الدعاة من ربهم كيف يعاتبون، وكيف ينبهون علىٰ الأخطاء.

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾: أي ما يعلمك أنه قد يتزكىٰ بسؤاله هٰذا، ومعنىٰ التزكية: التطهر من الآثام، والذنوب، والكفر، والفسوق، وغير ذٰلك، وأصله يتزكىٰ. فلعله بسؤاله هٰذا، وقوله: أرشدني، علمني مما علمك اللَّه،

أن يتطهر. وذهب ابن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ أن معنىٰ يزكىٰ: يسلم! وأن ابن أم مكتوم حين أتىٰ النبي ﷺ لم يكن مسلمًا، فقصد بالتزكية في الآية، الإسلام. إلا إن سياق الآيات التالية يدل علىٰ أنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان مسلمًا إذ ذاك.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ٤﴾: ومعنىٰ الآية، مع التي قبلها، أنه لم يخله من حالين: إحداهما «أن يزكىٰ»، والأخرىٰ «أن يتذكر»، وفي ذٰلك توجيهان:

التوجيه الأول: أن ذٰلك من باب التحلية بعد التخلية، أي أن تكون التزكية دالة علىٰ التطهر، والتخلص من الآفات، والذنوب، والعيوب، ثم تكون الذكرىٰ من باب التكميل؛ بفعل الطاعات، والبر، ونحو ذٰلك. فيكون المقصود التَّرقي.

التوجيه الثاني: أن التزكية يراد بها الأكمل، الأتم، بأن يتحقق له زكاة النفس؛ إما بالإسلام إن لم يكن قد أسلم، وإما بالتوبة النصوح، إن كان قد ألمَّ بخطأ. فإن لم يتحقق ذٰلك كله، فلعله أن يتحقق بعضه، وهو أن يحصل تذكر، فيكون هٰذا انتقال من الأعلىٰ إلىٰ الأدنىٰ. فيكون المقصود التنويع.

ولا يخفىٰ أن الذكرىٰ تنفع المؤمنين، كما قال اللَّه ﷻ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥]، وذٰلك أن القلب يتراكم عليه من الغفلات، والشهوات، ما يحجبه عن نور الإلٰهية، فإذا ذكِّر استنار، فتوالي الغفلات، والشهوات يلقي علىٰ القلب الران أو الغان، والران أشد من الغان، قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ١٤﴾ [المطففين: ١٤]، فالكسب الحرام والمعاصي تغلف القلب فلا تنفذ إليه المواعظ. والغان دون ذٰلك، كما قال النبي ﷺ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي، وَإِني لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ في الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّة**» رواه مسلم[١]، فإذا ذكر اللَّه ﷻ انقشع، فالذكرىٰ نافعة علىٰ كل حال؛ إن لم تنفع نفعًا كليًا، نفعت نفعًا جزئيًّا.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ٥﴾: هٰذا بداية تقسيم، إما أن يكون المراد باستغنائه أنه

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٠٢).

استغنىٰ عنك، وزهد فيك، وبدعوتك، وأظهر الإعراض عنك، وإما أن يكون استغنىٰ أي بماله ودنياه، لكونه من أهل الثراء، والجاه. ولا مانع من اجتماع الأمرين، بل الغالب أنهما متلازمان؛ فإن أهل الثراء، والترف، والغنىٰ، غالبًا ما يزدرون غيرهم لما يقع في قلوبهم من الاستغناء، والشعور بالترفع عن الآخرين. ولعل هٰذا هو الواقع، فإن الذين تعرض لهم النبي ﷺ، كانوا من صناديد قريش، وعظمائها وأغنيائها.

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾: أي تتعرض، وتوليه وجهك، وتبذل له نفسك، ونبينا ﷺ، إنما فعل ذٰلك، بأبي هو وأمي، رغبة في إسلامهم، لا يريد منهم نوالًا، ولا عرضًا من الدنيا، ولٰكن حرصًا علىٰ إسلامهم؛ ليسلم بإسلامهم من خلفهم.

وكان النبي ﷺ، يعاني من ذٰلك الحرص؛ حتىٰ إن اللَّه نبهه، فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦]، يعني لعلك مهلك نفسك حزنًا، علىٰ آثارهم، واتباعهم، إن لم يؤمنوا بِهٰذا الحديث.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾: «ما» إما أن تكون استفهامية، يعني أي شيء يلحقك، ويصيبك، إن لم يتزك هٰذا الذي استغنىٰ. وإما أن تكون نافية، يعني ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ أي ليس عليك ضير، ولا لوم، ولا عتب، ألا يسلم؛ لأن مهمتك البلاغ. وعلىٰ كلا التقديرين، فإن الأمر يدل علىٰ أن مهمة الرسول ﷺ، هي البلاغ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورىٰ: ٤٨]. فيجب علىٰ الرسول أن يبلغ رسالات ربه، فإن استجيب له فذاك، وإن لم يُستجب له، فلا لوم عليه ولا عتب. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣]. وفي هٰذا أيضًا درس للدعاة إلىٰ اللَّه، والواعظين، أن يجعلوا همهم، وجهدهم، في بيان الحق، وإيضاحه، وألا يهتموا كثيرًا بالنتائج، فإن النتائج إلىٰ اللَّه تعالىٰ.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨﴾: بذاته وبدافعيته، فهو جاء بنفسه بينما الآخر تقصده وتتصدىٰ له. وتأمل قوله: ﴿يَسۡعَىٰ ۝٨﴾ ولم يقل: «يمشي»، بل جاء مسرعًا، كالذي وصف اللَّه في سورة يس: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ [يس: ٢٠]، هٰكذا يصنع الإيمان بصاحبه. إذا اشتعلت جذوة الإيمان في القلب، انطلقت الجوارح، وزال عنها الكسل والوهن، وصار الإنسان يخب، ويسعىٰ، ويستحث الخطىٰ.

﴿وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩﴾: قام في قلبه من خشية اللَّه ما حمله علىٰ قصد نبيه ﷺ والسؤال عن أمر دينه. والخشية منَّة من اللَّه، ﷻ، فإذا ألهم اللَّه عبده الخشية، ألهمه الخير. والخشية ثمرة العلم، قال اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فمن كان باللَّه أعرف، كان للَّه أخوف. وفي الآية دليل علىٰ أن ابن أم مكتوم رضي الله عنه كان إذَّاك مسلمًا.

﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾: تتلهىٰ وتتشاغل.

فالمعنىٰ الإجمالي لهٰذه الآيات: أن اللَّه عاتب نبيه ﷺ في أمر اجتهد فيه، فأخطأ؛ حينما كان مشتغلًا بدعوة صناديد قريش، رغبةً في دخولهم الإسلام، حيث أعرض عمن جاءه مسترشدًا، مستهديًا، مقبلًا غير مدبر، راغبًا غير معرض، فكلح وجهه، وقطب جبينه، هٰذا والرجل لا يراه، والنبي ﷺ لم يفه بكلمة واحدة، ومع ذٰلك عاتبه ربه هٰذا العتاب البليغ المؤثر.

ويتفرع عن ذٰلك أن من الناس من يتوسع بما يسمىٰ «مصلحة الدعوة» فربما يتقحم بعض المحظورات باسم مصلحة الدعوة. وهٰذا ليس إليه، فإن الدعوة ليست ملكًا لأحد، لأن الدعوة للَّه ﷻ، فلابد أن يدعو العبد إلىٰ ربه، وفق مراده، ووفق شرعه، وألا يقدم، ولا يؤخر، ولا يصطفي، ولا ينحي، بناءً علىٰ محض رأيه، وتقديره، بل لابد أن يستنير بنور اللَّه.

وهٰذا دليل علىٰ أننا يجب أن ننظر بنور اللَّه ﷻ، وأن نقوِّم الناس، والأشخاص، بحسب منزلتهم في ميزان اللَّه لا في ميزان البشر؛ فنعظم، ونكرم، من يستحق التعظيم والتكريم. فالمؤمن أحق بالكرامة، والإجلال،

وإن كان فقيرًا ضعيفًا، صعلوكًا، مملوكًا. والكافر، لا كرامة له، وإن كان غنيًا، شريفًا، كما قال اللَّه ﷻ: ﴿وَلَعَبۡدٌ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٌ مِّن مُّشۡرِكٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقال: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣].

هٰذه القيمة الأساسية مما أرساه هٰذا الدين، وكان به إعلاء لقيمة الإنسان، فالإنسان ليس قدره بماله، وجاهه، وشرفه، ونسبه، وإنما قدره بما يختزن قلبه من إيمان، وتقوىٰ. وقد فقه نبينا ﷺ، هٰذا الدرس البليغ، فاستخلف ابن أم مكتوم علىٰ المدينة مرتين في سفراته، فعن أنس رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَخْلَفَ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ مَرَّتَيْنِ». رواه أبو داود[1].

وعن خباب بن الأرت رضي الله عنه في قولِه تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٢﴾ [الأنعام: ٥٢]، قال: جَاءَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ الْفَزَارِيُّ، فَوَجَدَا رَسُولَ اللَّه ﷺ مَعَ صُهَيْبٍ، وَبِلَالٍ، وَعَمَّارٍ، وَخَبَّابٍ، قَاعِدًا فِي نَاسٍ مِنَ الضُّعَفَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ حَقَرُوهُمْ، فَأَتَوْهُ فَخَلَوْا بِهِ، وَقَالُوا: إِنَّا نُرِيدُ[2] أَنْ تَجْعَلَ لَنَا مِنْكَ مَجْلِسًا، تَعْرِفُ لَنَا بِهِ الْعَرَبُ فَضْلَنَا، فَإِنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ تَأْتِيكَ، فَنَسْتَحْيِي أَنْ تَرَانَا الْعَرَبُ مَعَ هٰذه الْأَعْبُدِ، فَإِذَا نَحْنُ جِئْنَاكَ، فَأَقِمْهُمْ عَنْكَ، فَإِذَا نَحْنُ فَرَغْنَا، فَاقْعُدْ مَعَهُمْ إِنْ شِئْتَ، قَالَ: «نَعَمْ»، قَالُوا: فَاكْتُبْ لَنَا عَلَيْكَ كِتَابًا، قَالَ: فَدَعَا بِصَحِيفَةٍ، وَدَعَا عَلِيًّا لِيَكْتُبَ، وَنَحْنُ قُعُودٌ فِي نَاحِيَةٍ، فَنَزَلَ جِبْرَائِيلُ عليه السلام، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٢﴾ [الأنعام: ٥٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ، وَعُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ، فَقَالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣]،

(١) سنن أبي داود (٢٩٣١)، مسند أحمد (١٢٣٤٤) وصححه الألباني.

(٢) في رواية: «نحب»

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، قَالَ: فَدَنَوْنَا مِنْهُ حَتَّىٰ وَضَعْنَا رُكَبَنَا عَلَىٰ رُكْبَتِهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ، يَجْلِسُ مَعَنَا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ، قَامَ وَتَرَكَنَا، فَأَنْزَلَ اللَّه: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ [الكهف: ٢٨]، وَلَا تُجَالِسِ الْأَشْرَافَ: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ يَعْنِي عُيَيْنَةَ، وَالْأَقْرَعَ ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨]، قَالَ: هَلَاكًا، قَالَ: أَمْرُ عُيَيْنَةَ، وَالْأَقْرَعِ، ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الرَّجُلَيْنِ وَمَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَالَ خَبَّابٌ: فَكُنَّا نَقْعُدُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا بَلَغْنَا السَّاعَةَ الَّتِي يَقُومُ فِيهَا، قُمْنَا وَتَرَكْنَاهُ حَتَّىٰ يَقُومَ. رواه ابن ماجه والبزار[١].

وهٰكذا أدب النبي ﷺ أصحابه، فعَنِ المَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَىٰ غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذٰلك، فَقَالَ: إني سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**» رواه البخاري[٢].

ولما قال أحدهم لبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا ابن السوداء، قال ﷺ: «**إنك امرؤٌ فيك جاهلية**»[٣]، فما كان من هٰذا العربي القح، إلا أن وضع خده في التراب، وقال لبلال: طأ بقدمك علىٰ خدي[٤]، يريد أن يستخرج هٰذا الدغل، هٰذه البقية

(١) سنن ابن ماجه (٤١٢٧)، مسند البزار (٢١٣٠) وصححه الألباني.
(٢) صحيح البخاري (٣٠).
(٣) روي ذٰلك عن ضمره بن حبيب.
(٤) شعب الإيمان (٤٧٧٢) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠/ ٤٦٤) وهو ضعيف: لضعف أبي عبد الملك، وهو علي بن يزيد الألهاني صاحب القاسم بن عبد الرحمن، بل قال فيه النسائي: «متروك الحديث». وقال في موضع آخر: ليس بثقة. وقال البخاري: «منكر الحديث». وذكره ابن بطال في شرحه علي البخاري (١/ ٨٧) من طريق الوليد بن مسلم، عن أبي بكر، عن ضمرة بن حبيب وهٰذا مرسل ضعيف، ضمرة بن حبيب تابعي، وهو لم يحضر هٰذه القصة، وأبي بكر بن عبد اللَّه بن أبي مريم قال عنه ابن حجر في «التقريب»: «ضعيف =

الجاهلية من نفسه، حتىٰ يرىٰ الأمور بنور اللَّه، وحتىٰ يزن الأشياء بميزان اللَّه. قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا». رواه البخاري(١) يعني بلالًا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: تلطف اللَّه بنبيه ﷺ في المعاتبة.

الفائدة الثانية: تلطف اللَّه بالأعمىٰ، بما يعذره في فعله.

الفائدة الثالثة: الحرص علىٰ التزكية، والتطهر، من الشرك، والمعصية.

الفائدة الرابعة: فضل التذكر ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ٤﴾.

الفائدة الخامسة: ضبط المصالح والمفاسد بالضوابط الشرعية، وتقدير المصلحة والمفسدة بالمعايير الدينية.

الفائدة السادسة: هوان المستغنين عن الهدىٰ، المعرضين عنه، علىٰ اللَّه.

الفائدة السابعة: أن وظيفة الداعية هي البلاغ، وليس عليه الهدىٰ ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

الفائدة الثامنة: حرص المؤمن علىٰ الاهتداء، والعلم، وسعيه في تحصيلهما.

الفائدة التاسعة: أن الخشية ثمرة الإيمان الصادق.

الفائدة العاشرة: بشرية الرسول ﷺ، وإمكان صدور الخطأ منه. فهو بشر يلحقه ما يلحق البشر في الأمور البدنية، والعملية ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠]؛ إلا أنه لا يقر علىٰ الخطأ. وهٰذا هو معنىٰ «العصمة» الحقيقي؛ فإن من عصمة اللَّه له أنه إذا أخطأ، بين له خطئه، بخلاف سائر الناس.

= وكان قد سرق بيته فاختلط» وقال الذهبي في «الكاشف»: «ضعفوه، له علم وديانة».

(١) صحيح البخاري (٣٧٥٤).

وهٰذا يرد به علىٰ الذين يغلون في وصف النبي ﷺ، بغير ما وصفه اللَّه تعالىٰ به، فقد قال تعالىٰ لنبيه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، فأثبت له ذنبًا، كم أثبت للمؤمنين وللمؤمنات، وأمره أن يستغفر لنفسه، ولهم. وقد استجاب لأمر ربه، فكان يستغفر اللَّه في المجلس مائة مرة، وقال عن نفسه ﷺ: «... **وَإني لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ في الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**» رواه مسلم[1].

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾: ﴿كَلَّآ﴾ كلمة ردع، وزجر، ولعلها لم تقل لنبينا ﷺ في القرآن كله إلا في هٰذا الموضع، والمشار إليه في قوله ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾: إما هٰذه الواقعة التي جرت، ففيها تذكرة. وإما أن المراد بذٰلك هٰذه الآيات التي تلوناها وأنزلناها، وهٰذا أقرب لدلالة ما بعدها.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾: يعني فمن أراد أن يتعظ، ويدَّكر، فهاهي بين يديه. قال بعضهم: إن مرجع الضمير في قوله ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ إلىٰ اللَّه ﷻ، ولٰكن الأليق بالسياق أن يكون المراد هٰذه الآيات، بدلالة ما بعدها، لأنه قال: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾، فهٰذه التذكرة هي هٰذه الآيات المتلوة، التي حفظت هٰذه الواقعة، وبِهٰذا نجمع بين القولين.

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾﴾: أي القرآن المتلو، في صحف مكرمة، يعني أنه مكتوب في صحف كريمة، شريفة.

﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾﴾: أي في منزلة عالية، رفيعة، بعيدة عن الدنس.

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٠٢).

﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥﴾: قيل إن السفرة هم كتبة المصحف، يعني القراء كتبة الوحي، أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وإلىٰ هٰذا ذهب قتادة، رَحِمَهُ اللَّهُ. وذهب ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، في الرواية المشهورة عنه، إلىٰ أن المراد بالسفرة الملائكة، وروي من طريق آخر عنه أنهم أصحاب محمد ﷺ، وهي رواية قتادة عنه، والرواية الأخرىٰ المقدمة، هي رواية العوفي عنه.

والأقرب أن المراد بالسفرة الملائكة، وإنما سمي الملائكة سفرة، لأنهم سفراء بين اللَّه وبين أنبيائه[1].

ووصفت هٰذه الصحف بأنها «مكرمة» و«مرفوعة» و«مطهرة» لأنها صحف الملائكة التي يستنسخون بها الوحي ويكتبونه فيها. فلا شك أن ما بأيدي الملائكة رفيع القدر، بعيد عن الدنس.

﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾: وصف اللَّه تعالىٰ الملائكة بوصفين. ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١﴾ والكريم هو الشريف، وأصل البر ما دل علىٰ كثرة الخير، فالبار هو كثير الخير. ولهٰذا سمي البَر بَرًا لسعته. وقد وصف اللَّه عباده الصالحين بأنهم أبرار، ولم يصفهم بأنهم بررة، كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢﴾ [المطففين: ٢٢]، أما الملائكة فقد وصفوا بأنهم بررة، لكثرة طاعتهم للَّه، قال اللَّه ﷻ: ﴿لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩ ٣٨﴾ [فصلت: ٣٨]، ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩﴾ [الأنبياء: ١٩]، وقال: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: ٦]، عليهم صلوات اللَّه وسلامه، وفي هٰذا ملحظ لطيف، ذكره الحافظ ابن كثير، رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو أنه ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله، وأقواله، علىٰ السداد، والرشاد. فإذا كان الملائكة، سفراء اللَّه إلىٰ أنبيائه، الذين يحملون الصحف المكرمة، المرفوعة، المطهرة، هٰذا وصفهم ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾، فينبغي لحامل القرآن من عباد اللَّه، أن يكون علىٰ طريق الرشاد، وعلىٰ سبيل السداد احترامًا، وصونًا لهٰذا الكلام الذي بين جنبيه.

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ١٠٩).

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧﴾: هٰذا دعاء من اللَّه ﷻ علىٰ الإنسان. والدعاء منه سبحانه حكم. ولا يستقيم في هٰذا المقام أن نقول جنس الإنسان، بل ينبغي أن نخصه بالكافر. وقد لاحظ ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ذكر الإنسان في القرآن المكي، غالبًا ما يراد به الإنسان الكافر، كما في قول اللَّه تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦﴾ [العلق: ٦].

فقوله ﴿قُتِلَ﴾ دعاء علىٰ الكافر بالقتل. والدعاء عليه بالقتل المراد به اللعن، لأن ذٰلك طرد، وإبعاد له عن رحمة اللَّه.

وقوله: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ تحتمل ﴿مَآ﴾ معنيين:

أن تكون تعجبية: أي ما أشد كفره، فاللَّه خلقه، ورزقه، وأعده، وأمده، ثم يكفر به! أو تكون استفهامية: يعني أي شيء أكفره؟ لماذا كفر؟ وكأنها تعجبية أوقع.

﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨﴾: هٰذا الاستفهام للتقرير؛ لأن اللَّه أعلم، والمراد ما أصل خلقه؟.

﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩﴾: والمراد هنا: من سِوىٰ آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لأن آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خلق من قبضة من تراب، والمراد بالنطفة: هو نطف المني ودفقته. هٰذا أصل خلق كل إنسان، سوىٰ الأبوين؛ آدم وحواء، ما يقذفه الرجل في رحم الأنثىٰ، يكون منتن الريح، يستحي من ذكره. وقد جاء العلم الحديث ليبين أن حال الإنسان أحقر حتىٰ مما كان يدرك من مجرد الصورة الظاهرة للنطفة؛ فالإنسان يخلق من خلية لا ترىٰ إلا بالمجاهر الدقيقة، فهٰذه النطفة، أو الدفقة تحتوي علىٰ ملايين الحيوانات المنوية. فتأمل بداية خلق الإنسان! فما الذي يجعله يشمخ بأنفه، ويستنكف عن عبادة ربه؟

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ بعد أن خلقه، أمده، وأعده، أعطاه الآلات، والأدوات التي يقدر فيها علىٰ الفعل، والكسب والحرث، والضرب في الأرض.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠﴾: قيل في معنىٰ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ قولان:

إما أن المراد بالسبيل: طريق خروجه من بطن أمه. وإلىٰ هٰذا ذهب ابن

عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[(١)]. وهو أمر مدهش! فهٰذا الجنين الذي احتواه الرحم تسعة أشهر، يسهل اللَّه تعالىٰ مخرجه من هٰذه المخارج الضيقة! ويجري من التغيرات العضوية علىٰ الرحم، ومخرج الولد، ما يجعله يتسع، ليخرج منه هٰذا الكائن.

وقيل: المراد بالسبيل: طريق الحق أو الباطل. ومعنىٰ ﴿يَسَّرَهُۥ﴾ أي مهد له ذٰلك السبيل، وبين له الخير من الشر، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ [الليل: ٧]، وقال: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ١٠]، وقال ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣].

فهٰذه الآيات تؤيد المعنىٰ الثاني، وإلىٰ هٰذا ذهب مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]. ويشهد له قول اللَّه ﷻ: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠]، يعني الطريقين؛ طريق الخير، وطريق الشر. ولا مانع من حمل الآية علىٰ المعنيين؛ لأنه لا تعارض بينهما.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۝٢١﴾: يعني بعد أن طوىٰ هٰذا العمر، سالكًا طريق الخير، أو الشر، أماته، لأن اللَّه تعالىٰ قضىٰ بالموت علىٰ كل حي، حتىٰ ملك الموت يموت، فلا يبقىٰ إلا اللَّه الواحد القهار. والموت أمر وجودي، كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢]، فالموت إذًا أمر وجودي لأنه مخلوق. ومعنىٰ ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ أي أمر بدفنه؛ وفي اللغة يقال «قابر» ويقال «مُقبر» فالقابر هو الذي يباشر الدفن، والمُقبر هو الذي يأمر بالدفن[(٣)]، فهنا قال: ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾، ولم يقل «فقبره». والدفن سنة كونية، ولهٰذا لما قتل ابن آدم الأول أخاه ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ۝٣١﴾ [المائدة: ٣١]، فلم يزل بنو آدم يقبرون موتاهم، إلا من طمس

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ١١١).
(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ١١٢).
(٣) انظر: تاج العروس لسان العرب، الصحاح (مادة: ق ـ ب ـ ر).

اللَّه ﷻ فطرته، من الذين يحرقون الموتىٰ، لٰكنهم بعد إحراقهم للموتىٰ يدفنون رمادهم.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢﴾: أي بعثه وأحياه بعد موته. وقوله ﴿إِذَا شَآءَ﴾ ليس المراد أنه قد يشاء أن ينشره، وقد لا يشاء ذٰلك؛ لأنه لابد من البعث، وإنما المراد زمن بعثه، يعني إذا شاء أن ينشره أنشره في الوقت المعين.

ولو تأملنا في هٰذه الآيات، لوجدنا أن العطف يقع تارة بـ«ثم» وتارة بـ«الفاء» فمن الناحية البلاغية، سنجد أن العطف جاء بـ«الفاء» فيما يقصد به التعقيب المباشر، وبـ«ثم» فيما يفصله عما قبله تراخي، قال ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩﴾ أعطاه الآلات التي يقدر فيها علىٰ قضاء مصالحه، بعد ذٰلك قال: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠﴾ لأنه جرىٰ بعد ذٰلك فاصل، سواء علىٰ القول الأول؛ أنه خروجه من رحم أمه؛ لأنه أخذ يترقىٰ في الخلق من نطفة، إلىٰ علقة، إلىٰ مضغة، إلىٰ أن كسا العظام لحمًا، فأتىٰ بـ«ثم» لوجود فاصل زمني، أو علىٰ القول الثاني؛ أنه الخير، والشر، بأن يمضي عليه سنوات حتىٰ يصبح مكلفًا، فهٰذا فاصل زمني يناسب أن يأتي بعده بـ«ثم». ثم قال ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾، لأنه قد عاش ردحًا من الزمن، فناسب أن يأتي بـ«ثم» التي تدل علىٰ تراخ وفاصل طويل، ثم قال: ﴿فَأَقْبَرَهُۥ ٢١﴾ أتىٰ بـ«الفاء» لأن الفاصل بين الموت والدفن فاصل قصير. ثم قال: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢﴾ أتىٰ بـ«ثم» لأن بين موت الإنسان وبعثه زمن طويل. فتأمل!

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣﴾: أي ليس الأمر كما يظن ذٰلك الكافر المنكر للبعث، أنه أدىٰ ما عليه، وغير ذٰلك، كلا! فإنه لم يؤد حق اللَّه الذي افترضه عليه.

الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: وصف القرآن بالتذكرة.

الفائدة الثانية: إثبات مشيئة العباد، وأفعالهم ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢﴾، وفي

هٰذا رد علىٰ الجبرية الذين يسلبون العبد مشيئته، وفعله. فالعبد له مشيئة حقيقية، لٰكن مشيئته داخلة تحت مشيئة اللَّه ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩].

الفائدة الثالثة: كرامة كلام اللَّه، وكرامة محله، وحملته.

الفائدة الرابعة: أن القرآن كلام اللَّه، ليس كلام الملائكة، لقوله ﴿سَفَرَةٍ﴾ فوصفهم بالسفارة فمهمتهم النقل فقط. ففيه الرد علىٰ المعتزلة الذين قالوا إن القرآن كلام محمد، أو جبريل، وليس كلام اللَّه الصادر منه.

الفائدة الخامسة: إثبات الملائكة، ووصفهم بالكرامة وكثرة البر.

الفائدة السادسة: ذم الكافر الجاحد، والتعجيب من حاله.

الفائدة السابعة: بيان أصل الإنسان المهين.

الفائدة الثامنة: بيان فضل اللَّه علىٰ الإنسان قدرًا، وشرعًا، أما قدرًا فلقوله ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١﴾، وأما شرعًا فلقوله ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠﴾ علىٰ القول: إن السبيل المراد به طريق الحق والباطل.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤﴾: هٰذه دعوة من اللَّه ﷻ للإنسان، والمراد به هاهنا جنس الإنسان؛ لأن هٰذا لا يختص بالكافر، وإن كان الخطاب يتوجه

بالدرجة الأولىٰ إلىٰ الكافر، المنكر للبعث، لٰكنه في الواقع يتناول المؤمن ليتعظ، ويتدبر. والإنسان بطبعه يتبلد حسه بالنسبة للأمور المألوفة، فلا يلقي لها بالًا، ولا يعتبر دومًا، ولا يتبصر بما يتكرر عليه ليل نهار، صباح مساء. فاللَّه تعالىٰ يصرف فكر الإنسان إلىٰ أقرب الأشياء إليه، وهو هٰذا الطعام الذي يتناوله يوميًا، ولم تحدثه نفسه أن يفكر في مصدره، وكيف سيق إليه؟

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾: وهٰذه القراءة هي المشهورة بفتح الهمزة ﴿أَنَّا﴾، وعلىٰ هٰذا تكون الجملة بدل اشتمال لقوله ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ والمراد بصب الماء كون اللَّه ﷻ أنزل المطر علىٰ الأرض غزيرًا قويًّا متتابعًا.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾: و﴿ثُمَّ﴾ ها هنا تفيد التراخي؛ لأن الإنبات لا يحصل مباشرة، بل يقع في جوف الأرض من التكونات العضوية لهٰذه النباتات ما يستغرق فترةً طالت، أو قصرت. ومعنىٰ ﴿شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ أن اللَّه فتق وجه الأرض، فأخرج هٰذا النبات. فتجد النبتة تشق الصعيد، أو تبحث من بين الصخور الصلبة عن شق تخرج منه، حتىٰ إذا قويت واشتد عودها فلقت الصخر، بقدرة اللَّه ﷻ.

﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾: أي في هٰذه الأرض، والحب: اسم جنس لجميع الحبوب، فيشمل البُر، والشعير، والذرة، والدخن، وغير ذٰلك من أنواع الحبوب.

﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾: العنب معروف عند من نزل فيهم القرآن، فإن الحب قوتُهم، والعنب فاكهتهم.

وأما «القضب» فالتفسير العام لهٰذه اللفظة أنه كل ما يقضب من النبات، فيجز، فينبت مرة أخرىٰ. ومعنىٰ أنه يقضب من القضب وهو القبض، وجذرهما واحد. وقد اختلفت عبارات المفسرين في معنىٰ القضب، فقيل في معناه: أنها الرطبة يعني أي نبت رطب، وقيل في معناه: العلف، وتحديدًا القت، ويلحق به علىٰ هٰذا جميع أنواع البقوليات التي تنبت علىٰ وجه الأرض.

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩﴾: الزيتون معروف، وقد ذكره اللَّه في غير ما موضع في كتابه، وهو شجرة كريمة، ويخرج منه زيت مبارك ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ۝٢٠﴾ [المؤمنون: ٢٠]، والنخل كذٰلك معروف، وهو الشجرة الرئيسية، والثمرة الأساسية التي يتفكهون بها ويقتاتون منها، ولا ريب أنها من أكرم أنواع الأشجار، بل هي أكرمها، وأعظمها فائدة، ولهٰذا شبه النبي ﷺ المؤمن بالنخلة، وألغز أصحابه يومًا.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ يَوْمًا لأَصْحَابِهِ «**أَخْبِرُونِي عَنْ شَجَرَةٍ مَثَلُهَا مَثَلُ الْمُؤْمِنِ**». فَجَعَلَ الْقَوْمُ يَذْكُرُونَ شَجَرًا مِنْ شَجَرِ الْبَوَادِي. قَالَ ابْنُ عُمَرَ وَأُلْقِيَ فِيٰ نَفْسِي ـ أَوْ رُوعِي ـ أنها النَّخْلَةُ، فَجَعَلْتُ أُرِيدُ أَنْ أَقُولَهَا، فَإِذَا أَسْنَانُ الْقَوْمِ فَأَهَابُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، فَلَمَّا سَكَتُوا قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «**هِيَ النَّخْلَةُ**». فَحَدَّثْتُ بِهِ عُمَرَ فَقَالَ: لَوْ كُنْتَ قُلْتَهَا لَكَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا. رواه البخاري ومسلم[(١)].

والمقصود أن النخل من أكرم الأشجار، وأعظمها بركة. وقد ذكره اللَّه عز وجل في مواضع كثيرة من كتابه.

﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠﴾: الحدائق البساتين؛ لأنها تحدق بمن كان بداخلها لكثافتها، والتفاف أشجارها. ومعنىٰ ﴿غُلْبًا﴾ أي غلاظًا، وقيل عظيمة، وقيل كرامًا، والحق أنه يشمل ذٰلك كله؛ بمعنىٰ أن هٰذه الحدائق تحتوي علىٰ أشجار ضخمة، عظام، كرام، ولهٰذا فسرت بأنها النخل الكرام، فمعنىٰ «الغلب» ما يدل علىٰ العظمة، والمتانة، والقوة، ونحو ذٰلك.

﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١﴾: «الفاكهة» ما يتفكه به الإنسان من أنواع الثمار، و«الأب» قيل: إنه النبات عمومًا، وقيل إنه ما يختص بطعام الحيوان. وكأن هٰذه اللفظة «أب» مأخوذة من «آب»، فالنبات الذي يحصد، ثم يخرج يقال له «أب» من الأوب، وهو العَود. فيشمل الأعلاف، وما شابَهها. فكأنه أراد التقسيم: «الفاكهة» للإنسان، و«الأب» للحيوان. وأما ما يروىٰ عن أبي بكر الصديق،

---

(١) صحيح البخاري (٦١٢٢)، صحيح مسلم (٢٨١١).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال لما سئل عن «الأب»: «أي سماء تظلني وأي أرض تقلني أن أقول في كتاب اللَّه ما لا أعلم»[(١)]، فهو من حيث السند منقطع، ومن حيث المعنىٰ صحيح؛ فإن الإنسان لا يحل له أن يقول في كتاب اللَّه بمجرد الرأي، بل لابد أن يصدر في ذٰلك عن أثارة من علم؛ لأن القول علىٰ اللَّه عظيم، وقد كان الصحابة، رضوان اللَّه عليهم، يُسألون عن الحديث فيحدثون، فإذا سئلوا عن تفسير القرآن أمسكوا، تعظيمًا للمقام؛ لأنهم يرون أن هٰذا قول علىٰ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، وتوقيع عن رب العالمين، فكانوا يتحرجون غاية الحرج، أن يقولوا في كتاب اللَّه مالا يعلمون. فالواجب علىٰ الإنسان ألا يخوض فيما لا يعلم.

ويروىٰ عن أنس أن عمر قال علىٰ المنبر: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾، ثم قال: هٰذا الفاكهة قد عرفناها فما الأب؟ ثم رجع إلىٰ نفسه فقال: إن هٰذا لهو التكلف يا عمر![(٢)].

وقد يكون هٰذا مشكلًا، فقد يفهم بعض الناس من هٰذا الأثر، وهو صحيح، أن الإنسان لا يسأل عما خفي عليه، لٰكن لا يظهر أن هٰذا هو مراد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإنما كره أن يقول فيه بلا بينة، فعد ذٰلك تكلفًا، أن يستنبط شيئًا بلا جزم ولا يقين. وربما كان هٰذا اللفظ «الأب» ليس من لغة قريش، فخفي علىٰ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإن القرآن أنزل علىٰ سبعة أحرف، فبعض ألفاظه ومفرداته، قد لا تكون من لغة قريش، وإنما من لغة بعض أحياء العرب، فخفي علىٰ عمر، فنهىٰ نفسه أن يتعجل قولًا بلا جزم ولا بينة، فقال: إن هٰذا لهو التكلف. ولٰكن هٰذا لا يعني أن لا يسأل الإنسان عن معاني ما أنزل اللَّه تعالىٰ علىٰ نبيه، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما ترك شاذة، ولا فاذة، إلا بينها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ [النحل: ٦٤]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٠٧٢٧)، الدر المنثور (١٥/ ٢٥١). قال ابن حجر في الفتح: (١٣/ ٢٧١) هٰذا منقطع بين النخعي والصديق.

(٢) مصنف ابن أبي شيبه (٣٠٧٢٩)، المستدرك للحاكم (٣٨٩٧) وقال هٰذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه، والبيهقي بشعب الإيمان (٢٢٨١).

ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف: ٣]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢].

فلابد من تعقل القرآن جميعه، ومعرفة مفرداته، وتراكيبه، ولٰكن هٰذا لا يكون بمجرد الرأي المحض، لابد من تفسيره بالمأثور، وقد بين ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن تفسير القرآن علىٰ أربعة أضرب:

الوجه الأول: تعرفه العرب من لغتها: مثل معرفة «غَاسِقٍ»، و«وَقَبَ»، و«الرَّقِيمِ»، و«الأب» ونحو ذٰلك، فهٰذا يطلب من علوم العربية، وقد كانوا ينشدون الأشعار، ويحفظون الشواهد، التي يفسر بها القرآن، وقد جرىٰ بين ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ونافع بن الأزرق سجال في هٰذا، وكان ابن عباس يستدل علىٰ معنىٰ كل لفظة، ببيت من شعر العرب.

الوجه الثاني: ما لا يعذر أحد بجهالته: وهو المعلوم من الدين بالضرورة. فإذا قال اللَّه تعالىٰ: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢]، فليس لقائل أن يقول: المقصود بالصلاة هنا الدعاء. لأن الشرع أتىٰ بمعنىٰ اصطلاحي للصلاة، وأنها عبادة ذات أقوال، وأفعال، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم. هٰكذا.

الوجه الثالث: ما يعلمه العلماء: وهو الذي يحتاج إلىٰ طلب، ورواية، ودراية؛ كمعرفة الناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، والخاص والعام.

الوجه الرابع: ما لا يعلمه إلا اللَّه جَلَّ جَلَالُهُ، فمن ادعىٰ علمه فهو كاذب: والمقصود به الكيفيات، وحقائق المغيبات، فهٰذا لا يمكن أن يعلمه إلا اللَّه. فإذا أخبر أنه ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ فإننا نثبت الاستواء، ونثبت معناه؛ أنه العلو، لٰكننا لا ندرك كيفيته، فكيفيته لا يعلمها إلا اللَّه. الاستواء معلوم، والكيف مجهول. وإذا أخبر اللَّه تعالىٰ، عما يقع في اليوم الآخر؛ من النفخ في الصور، والبعث، والنشور، والحشر، والصراط، والميزان، فإننا نعلم هٰذه المعاني من حيث اللغة، لٰكن لا ندرك الكيفيات، فهٰذا مما استأثر به اللَّه

تعالىٰ بعلمه، أي بعلم كيفيته.

﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾: ﴿مَّتَٰعٗا﴾ أي منفعة مؤقتة؛ لأن المتاع يدل علىٰ النفع، ويدل علىٰ الاستمتاع. والاستمتاع لابد أن يكون موقوتًا. فهٰذه المذكورات فيها منفعة لكم، وفيها منفعة لأنعامكم. ثم لاحظ أن هٰذه الأنعام تحيل ذٰلك إلىٰ طعام؛ فيؤخذ منها اللبن، ويؤخذ منها الزبد، والسمن، واللحم. إذًا هي أيضًا تعود إلىٰ الطعام، فتدخل في عموم قوله ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤﴾.

فهٰذه الجولة في هٰذه المكونات الغذائية، التي ينبتها اللَّه تعالىٰ علىٰ وجه الأرض، ويتناولها الناس، تجعل الإنسان في موقف المتدبر لطعامه، من حين أنزل اللَّه المطر من السماء، إلىٰ أن وصلت إلىٰ فيه. هٰذه المراحل تستدعي منه النظر، والاعتبار، والتفكر.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣﴾: ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ اسم من أسماء الساعة. وسميت بذٰلك لأنها تصخ الآذان لشدة صوتها، فهي صيحة مرعبة، مدوية.

﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤﴾: هٰذا وصف لتفاصيل القيامة، وهو مشهد مرعب، مفزع، يهرب المرء من أقرب الناس إليه، ممن يتمنىٰ أن يفديهم في دنياه، وأن يدفع عنهم الأذىٰ، ويتمنىٰ أن يصيبه دونهم، فيوم القيامة، يفر منهم، وينفض يديه منهم، لا أحد ينعطف علىٰ أحد، ولا أحد يلتفت إلىٰ أحد. حتىٰ أخيه الذي درج معه في مراتع الصبا، لا يباليه يوم القيامة، ولا يلتفت إليه.

﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥﴾: سببا وجوده في هٰذه الحياة، أحن الناس عليه، وأشفقهم به، يفر منهم. يسألانه حسنة واحدة، فلا يبذلها لهما، يقول نفسي! نفسي! النجاء! النجاء!

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦﴾: الصاحبة: هي الزوجة، ألصق الناس به، والتي جعل اللَّه بينه وبينها، في هٰذه الدنيا مودة، ورحمة وسكنا، يوم القيامة، يفر

منها، وابنه فلذة كبده، وبضعة منه، يفر منه يوم القيامة.

لا ريب أن هٰذا يدل علىٰ هول المطلع، وعظم الموقف، وأن الإنسان ما كان ليبدر منه هٰذا التنصل من أقرب الناس إليه، إلا لشدة الحال. ولو تأملت في حياتك الدنيا، لوجدت أنك لو رأيت بعض هٰؤلاء الأحبة يغرق لألقيت نفسك عليه، لتستنقذه، وربما تهلك معه، وإذا وجدته يحترق، ربما ألقيت نفسك عليه، وإذا فقدته لحقك حزن عظيم، وهم، واكتئاب. لٰكن تأمل! يوم القيامة، لا مكان لهٰذه المشاعر، لأن المرء يدرك أن أمامه مصير مستديم، وهول عظيم، يريد أن ينجو بنفسه، يريد أن ينقذ ذاته، لا يلوي علىٰ أحد.

﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ۝٣٧﴾: يعني يغنيه عن النظر إلىٰ غيره.

كلانا غنيٌّ عن أخيهِ حياتَه ونحن إذا متنا أشدُّ تغانيا

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۝٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ۝٣٩﴾: في ذٰلك الموقف العصيب يتمايز الناس؛ فمن خافه في الدنيا، أمنه في الآخرة، ومن أمنه في الدنيا، أخافه في الآخرة. وإنما عبَّر اللَّه تعالىٰ عن الذوات بالوجوه، لأن الوجه هو مرآة الإنسان، بل هو مرآة القلب فتظهر انفعالات القلب علىٰ الوجه، فالوجه صفحة ظاهرة، تنبيء خبيئة باطنة. ومعنىٰ ﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾ مضيئة مستنيرة، ووصف الوجوه بأنها ﴿ضَاحِكَةٞ﴾ لأن الضحك يرىٰ في الوجه، والضحك يكون من فرح، ومن أنس، ومن موعود حسن، ومعنىٰ ﴿مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾: أي فرحة، متفائلة، لما تنتظر ما عند اللَّه ﷻ من النعيم، والفضل. جعلنا اللَّه وإياكم منهم.

﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ۝٤٠﴾: كالحةٌ مظلمةٌ.

﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾: أي سواد، وظلمة، كما قال اللَّه في الآية الأخرىٰ: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ۝٤٢﴾: جمعوا بين فسادين؛ بين فساد القلب، وفساد العمل، فساد القلب دل عليه وصفها بالكفر، وفساد العمل دل عليه وصفها بالفجور.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: فضيلة التفكر في نعم اللَّه وآلائه، والدعوة إلىٰ ذٰلك.

الفائدة الثانية: بديع صنع اللَّه في النفس، والآفاق.

الفائدة الثالثة: كرم هٰذه الثمرات المذكورات، والنباتات، لأن اللَّه تعالىٰ ما خصها بالذكر إلا لمزيد مزيتها.

الفائدة الرابعة: وجوب شكر المنعم وعبادته؛ لأنه قال: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾.

الفائدة الخامسة: عظم أمر الساعة، وهول أحوال يوم القيامة.

الفائدة السادسة: تبرؤ الإنسان من أقرب الناس إليه يوم القيامة.

الفائدة السابعة: أن الجزاء من جنس العمل.

الفائدة الثامنة: أن الكفر كفران؛ كفر اعتقادي، وكفر عملي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

سورة التكوير

هٰذه السورة العظيمة تهدف إلىٰ ثلاثة أمور:

الأمر الأول: تقرير عقيدة اليوم الآخر.

الأمر الثاني: تقرير أن القرآن كلام اللَّه.

الأمر الثالث: تقرير المسؤولية البشرية.

يسمي العلماء هٰذه السورة «سورة التكوير»، وقد سماها النبي ﷺ، بأول جملة فيها «إذا الشمس كورت».

فقد جاء في الحديث الذي رواه الترمذي قال ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ:** ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾» رواه الترمذي[1].

وهٰذه السور الثلاث متشابهة في مقاصدها، وفي نظمها.

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾:

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾: استهلَّ اللَّه هٰذه السورة بأداة الشرط ﴿إِذَا﴾، واتبعها بعدة جمل للوصول إلىٰ جواب الشرط. وقد لفت اللَّه تعالىٰ انتباه المخاطبين من المشركين، الذين يعانون من بلادة التفكير، وعدم الاعتبار

(١) سنن الترمذي (٣٣٣٣)، وأحمد في المسند (٤٨٠٦) وصححه الألباني.

بالآيات الكونية، إلىٰ آية باهرة، يرونها كل يوم؛ وهي الشمس التي تطلع عليهم كل صباح، وتغيب عنهم كل مساء. لقد بات هٰذا المشهد العظيم في حس كثير من الناس منظرًا مألوفًا، ولٰكن اللَّه يبين أن هٰذه الصورة المتكررة، وهٰذا المنظر المألوف، لن يدوم، وأنه سيأتي عليه وقت يختلف عما هو عليه! ولا ريب أن هٰذا من دواعي هز النفس من أركانها؛ أن يقال إن هٰذه الشمس، التي تراها صبيحة كل يوم، يطلع قرنها من جهة المشرق، ثم تراها عشية كل يوم، يسقط قرنها في جهة المغرب، أنها في يوم من الأيام تكور! فقال: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾: لهٰذه اللفظة أربعة معاني عند المفسرين: فمنهم من قال: ﴿كُوِّرَتْ﴾ ذهبت، وزالت. فهٰذه الشمس المرئية التي لا تخطئها العين، والتي يحال عليها في تحقيق الخبر، فيقول الناس: «كالشمس في رابعة النهار»، وكما في الأثر: «علىٰ مثلها فاشهد أو دع»[1] تذهب. وقيل في معنىٰ ﴿كُوِّرَتْ﴾ أي ذهب ضوئها، وأظلمت، بعد أن كانت نيرة مشعة. وقيل: رميت، وألقيت. وقيل: جمعت، ولفت، كما تلف العمامة.

وهٰذه المعاني الأربعة لا تعارض بينها؛ وذٰلك أن الشمس مخلوق عظيم، يعتريها يوم القيامة من الحوادث أحوال عديدة، فيبتدئ الحال بأن تجمع هٰذه الشمس بعضها علىٰ بعض وتُلف، وبعد لفها يذهب ضوئها، وينقبض، وينحسر، ثم بعد ذٰلك، يذهب بها، فتزال عن موضعها، ثم يرمىٰ بها، فيكون مستقرها أن تلقىٰ في النار، إذ أنها من طبيعة النار؛ فإن الشمس، كما هو معروف عند علماء الفلك، جسم ناري، ملتهب، حتىٰ إن الفلكيين يقولون: إنه يجري علىٰ سطح الشمس من الانفجارات الهائلة، ما يعادل ملايين الانفجارات النووية. فهي جسم ملتهب، متقد، ولذٰلك يصلنا القدر الذي يكفينا من ضوئها، ودفئها. وبِهٰذا تجتمع المعاني الأربعة للفظ التكوير، دون تعارض.

(١) حلية الأولياء (٤/ ١٨)، والحاكم في المستدرك (٧٠٤٥)، البيهقي في شعب الإيمان (١٠٩٧٤)، وإسناده ضعيف، قال الحافظ ابن حجر في البلوغ: (١/ ٢٩٠) صححه الحاكم فأخطأ.

هٰذا هو المشهد الأول، ولا شك أن تحول المناظر المألوفة، مما يبعث علىٰ الفزع، فإن الشيء المستقر الراتب إذا تغير يبعث علىٰ الفزع، ويحرك القلوب الراكدة.

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾: النجوم هي تلك النقاط التي نراها في قبة السماء، ليلًا، تبعث الضوء، وتبدو لنا صغيرة، وإن كان أهل الفلك يقولون إنها شموس كبيرة، جبارة، ولٰكن لبعد مسافاتها، التي تقاس بالسنين الضوئية، تبدو لنا كالنقط. وللمفسرين في معنىٰ ﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾ أقوال:

فمنهم من قال: إن معنىٰ ﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾ تناثرت، وتساقطت، وتهافتت، شذر مذر، وهٰذا أيضًا أمر يدعو للفزع؛ فإن الإنسان إذا رأىٰ الشهب، والنيازك، تتقاذف في السماء أصابه روع، ولو وقع شيء منها علىٰ الأرض، أحرقه، أوترك فيها أثرًا، وحفرًا، يجده الناس في أحيانًا الصحاري، فكيف إذا كانت هٰذه النجوم، التي تعد بالملايين، يجري لها هٰذا الأمر؟! ويشهد لهٰذا المعنىٰ قول اللَّه تعالىٰ في السورة التالية: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾ [الانفطار: ١ ـ ٢] فهٰذا من الانتشار.

وقيل في معنىٰ ﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾: تغير لونها، فإن الكدرة هي تغير اللون، بحيث يخبو البريق، ويذهب الوهج. وهٰذا أيضًا حاصل؛ فإنها تسلب لمعانها، وبريقها الذي هي عليه في الدنيا. إذًا هٰذا مظهر آخر من مظاهر القيامة.

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣﴾: هٰذه الجبال الرواسي، الشامخات، التي يضرب بها المثل في الثبات، تزول عن أماكنها، ويسيِّرُها اللَّه ﷻ، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]. وهٰذا هو أحد أحوال الجبال يوم القيامة، وهو حال التسيير؛ بأن تزول من أماكنها، التي كانت قد ثبتت، وأرسيت فيها، فتسير سيرًا عجيبًا. ثم يتلو هٰذا التسيير مرحلة النسف، كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفًا ۝١٠٥﴾ [طه: ١٠٥]. ويتلو هٰذا الحال مرحلة البس، والدق، حتىٰ تعود هباءً منبثًّا، كما قال اللَّه ﷻ: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ۝٥ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ۝٦﴾ [الواقعة: ٥ ـ ٦].

فينبغي أن تجمع الآيات في القضية الواحدة، ليكتمل فهمها، فلا يقال: إن هٰذا يعارض هٰذا، بل يقال: إن يوم القيامة يوم طويل، تحصل فيه هٰذه الأحداث المتنوعة، وتتوالىٰ.

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾: الناقة العُشراء، أي التي بلغت الشهر العاشر في حملها، وصارت علىٰ وشك الوضع. والنوق كانت، ولا تزال، أنفس أموال العرب، فكيف إذا كانت هٰذه النوق علىٰ وشك الولادة! لا شك أن ثمنها يعلو؛ لأن الذي يملكها يطمع في النتاج. ومعنىٰ ﴿عُطِّلَتْ﴾: أهملت، وتركت بلا راعٍ يرعاها، ولا موالٍ يواليها. دفع إلىٰ ذٰلك هول الموقف.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾: الوحش هو الحيوان غير المستأنس، الذي يعيش في الفلوات. قيل في معنىٰ ﴿حُشِرَتْ﴾: ماتت، وقيل، وهو الأقرب، أي جمعت؛ لأن الحشر هو الجمع الذي يصاحبه ضيق، واكتظاظ، كما قال اللَّه ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢]، فهٰذه الوحوش التي عاشت علىٰ وجه الأرض، مما نرىٰ، ومما لا نرىٰ، ومما انقرض، كلها يوم القيامة تحشر، وتجمع. ويمكن الجمع بين القولين بأن تجمع أولًا، ثم تموت، بعد ذٰلك؛ فإنه يقال لها: كوني ترابًا.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾: البحار تشمل ما نسميه الآن البحار، والمحيطات، والأنهار، فإن هٰذا كله يشمله اسم البحر، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣﴾ [الفرقان: ٥٣]، فالبحر يطلق علىٰ مجتمِع الماء الكثير. وقد وردت قراءة بالتشديد، يعني بالتضعيف ﴿سُجِّرَتْ﴾، ووردت بالتخفيف ﴿سُجِرَت﴾. والتسجير له عدة معاني، فقيل إن معنىٰ ﴿سُجِّرَتْ﴾ أي أوقدت، وأشعلت، وقيل: امتلأت، وفاضت، وقيل: يبست.

وكما قلنا في الجبال، وفي الشمس، نقول أيضًا في البحار: إن هٰذه البحار يعتريها أحوال يوم القيامة، فلعل أول ما يعتريها أنها تفجر، كما في السورة التالية: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾ [الانفطار: ٣] أي فاضت، وامتلأت، فاختلط الماء

العذب بالماء الحلو، وفاضت عن حدها، ووعائها الذي كان يحفظها، فإن اللَّه قال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣﴾ [الفرقان: ٥٣]، فهٰذا البرزخ يكسر يوم القيامة، ويقع امتلاء وفيضان. ثم يقع بعد ذٰلك التسجير، بمعنىٰ الإيقاد، والإشعال، كما قال في السورة الأخرىٰ: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ [الطور: ٦] يعني: الموقد المضطرم نارًا، فيجري إيقاد، وينشأ عن هٰذا الإيقاد أن يتبخر هٰذا الماء، فتيبس البحار. فتكون هٰذه المعاني محمولةً علىٰ أحوال مختلفة، فلا يكون هٰذا من باب التعارض والتناقض، وإنما من باب التنوع.

هٰذه الأمور الستة، روي عن أبي ابن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]، أنها تقع يوم القيامة، قبل البعث، مقارنة لنفخة الصعق، وأما ما بعدها، مما سيأتي، فيقع بعد البعث. وإذا أطلق «يوم القيامة» فقد يراد به ما يصاحب نفخة الصعق، وقد يراد به ما يتلو نفخة البعث؛ لأن النفخ نفختان، كما قال اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر: ٦٨]، نفخة للصعق، ونفخة للبعث. وأضاف بعض العلماء نفخة ثالثة، وهي نفخة الفزع! لٰكن الذي تدل ظاهر عليه الأدلة أنهما نفختان.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾: هٰذا يكون بعد البعث. ومعنىٰ ﴿زُوِّجَتْ﴾ أي: قرنت النفوس بالأبدان التي كانت تعمرها في الدنيا. وقيل: أي قرن الأشباه، والنظائر، بعضها ببعض؛ فاليهودي مع اليهودي، والنصراني مع النصراني، كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، يعني أشكالهم وأشباههم، فيكون معنىٰ ﴿زُوِّجَتْ﴾ يعني قرنت بأشباهها، وأشكالها. ولعل هٰذا المعنىٰ أرجح؛ وذٰلك أن اللَّه كثيرًا ما يذكر التصنيف، كما في قوله: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورىٰ: ٧]، وقال ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾، فهٰذا التصنيف، والقرن، هو التزويج المراد بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٣٦٩).

﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ٩﴾ الموؤدة: البنت التي يقتلها أبوها في صغرها، إما خشية العار، وإما خشية الحاجة، أو خشية الأمرين معًا. فقد كان أهل الجاهلية، والعياذ باللَّه، يئدون البنات، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨ ـ ٥٩].

روىٰ الإمام الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ في مطلع سننه أَنَّ رَجُلًا أَتَىٰ النَّبِيَّ، ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، إِنَّا كُنَّا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ وَعِبَادَةِ أَوْثَانٍ، فَكُنَّا نَقْتُلُ الأَوْلاَدَ، وَكَانَتْ عِنْدِىٰ بِنْتٌ لِىٰ، فَلَمَّا أَجَابَتْ عِبَادَةَ الأَوْثَانِ، وَكَانَتْ مَسْرُورَةً بِدُعَائِىٰ إِذَا دَعَوتها، فَدَعَوتها يَوْمًا فَاتَّبَعَتْنِىٰ، فَمَرَرْتُ حَتَّىٰ أَتَيْتُ بِئْرًا مِنْ أَهْلِىٰ غَيْرَ بَعِيدٍ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا فَرَدَّيْتُ بها فِىٰ الْبِئْرِ، وَكَانَ آخِرَ عَهْدِىٰ بها أَنْ تَقُولَ: يَا أَبَتَاهُ يَا أَبَتَاهُ. فَبَكَىٰ رَسُولُ اللَّه ـ ﷺ ـ حَتَّىٰ وَكَفَ دَمْعُ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَاءِ رَسُولِ اللَّه ـ ﷺ ـ: أَحْزَنْتَ رَسُولَ اللَّه. فَقَالَ لَهُ: «**كُفَّ، فَإِنَّهُ يَسْأَلُ عَمَّا أَهَمَّهُ**». ثُمَّ قَالَ لَهُ: «**أَعِدْ عَلَيَّ حَدِيثَكَ**». فَأَعَادَهُ، فَبَكَىٰ حَتَّىٰ وَكَفَ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْهِ عَلَىٰ لِحْيَتِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «**إِنَّ اللَّهَ قَدْ وَضَعَ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ مَا عَمِلُوا، فَاسْتَأْنِفْ عَمَلَكَ**» الدارمي[(١)].

كان هٰذا حالهم، والعياذ باللَّه، يئدون البنات؛ لأنهم يخشون العار؛ لما يقع بينهم من الغزو، والسلب، والنهب، فيخشون أن تؤسر، فتقع في يد عدوه، فيكون عارًا عليه، أو يفعلون ذٰلك بسبب الفقر، أو الخوف منه. ولهٰذا نهاهم اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ﴾ [الإسراء: ٣١]، ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٥١].

﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ٩﴾: هٰذا السؤال من اللَّه عَزَّ وَجَلَّ في ذٰلك اليوم، ما أثقله، وما أعظمه علىٰ ذٰلك الوائد! وماذا يكون جواب هٰذه الموءودة؟ وقد جاء في قراءة ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلْتِ﴾ علىٰ سبيل الخطاب. ولا شك أنه لا ذنب لها، وإنما الذنب يتحمله هٰذا الوائد، القاطع. وهٰذا مما أكرم اللَّه تعالىٰ به المرأة في

(١) سنن الدارمي (٢) قال محققه، حسين أسد: مرسل وتفرد بروايته الدارمي.

هٰذه الشريعة العظيمة، أن حفظها من هٰذا الهوان وهٰذا القتل.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ١٠﴾: المراد بالصحف: صحائف الأعمال، التي يقيد بها الكرام الكاتبون ما يخرج من الإنسان من خير، أو شر. ومعنىٰ ﴿نُشِرَتۡ﴾: أي فتحت، وأبرزت، فلا خفاء، ولا سر، بل عدل ظاهر، وحق بين. وهٰذا من كمال عدل اللَّه ﷻ، واعتبار الشارع بالتوثيق، فكل إنسان يقيد عليه ما طار منه من عمل، كما قال اللَّه ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣﴾ [الإسراء: ١٣] يعني ما طار منه من عمل، لأن ما يبدر منك من فعل، أو قول، كالطائر الذي فر منك، لا سبيل إلىٰ رده، فلذٰلك سمي طائرًا، ومعنىٰ ﴿مَنشُورًا﴾: أي مفتوحًا، كما ها هنا.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ١١﴾: هٰذا مظهر عجيب! هٰذه السماء التي يُسَرِّح الإنسان فيها طرفه، ويرسله في أرجائها، ويبحث عن موضع ثقب، ولو كجب الإبرة، فلا يجده! كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤﴾ [الملك: ٣ ـ ٤]، فهي سماء محكمة، مصمتة، لا يوجد فيها أدنىٰ خلل، في يوم القيامة تكشط، أي: تسلخ كما يسلخ الجلد من الذبيحة، حين يضع الجزار عليها قدمه، أو فيها يده، ويكشط الجلد! قال اللَّه تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] السجل: هو ما تحفظ فيه الكتب، والمواثيق، يدار، فتدرج فيه الورقة. فهٰذه السماء تطوىٰ طيًّا، وعبَّر هاهنا بالكشط وهو الإزالة. ومن شواهد ذٰلك، أن اللَّه تعالىٰ عبر بالتشقق، حيث قال: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، فكل سماء تنفرج وتنشق عن السماء التي فوقها.

ولا ريب أن هٰذه الأمور أمور غيبية، نفهم منها المعنىٰ العام، المشترك، الذي دلت عليه اللغة، لٰكننا لا نحيط بالكيفية. فما دل عليه القرآن من أحوال يوم القيامة، ومن صفات الرب ﷻ، فهو حق علىٰ حقيقته فلا هو كلام أعجمي غير مفهوم، ولا هو حكاية كيفية تتخيلها الأذهان، بل هو إدراك للمعنىٰ، دون

إدراك للكيفية. فنحن إذا قرأنا هٰذه الآيات المتعلقة باليوم الآخر، أو الآيات المتعلقة بصفات الرب ﷻ، ندرك منها بمقتضىٰ الوضع العربي معاني معينة، لٰكننا لا ندرك الحقائق، والكنه، والكيفيات، ولا شك أن إدراكنا للمعاني كافٍ في حصول الموعظة، والعبرة، والتأثير.

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾ الجحيم: اسم من أسماء النار، وهي تدل علىٰ الجهامة، والظلمة، فهي سوداء، مظلمة، يحطم بعضها بعضًا. ومعنىٰ قوله: ﴿سُعِّرَتْ﴾ أي: زيد في إيقادها، وتسعيرها، وإلا فإنها مخلوقة، موجودة، وهٰذا هو الذي دلت عليه النصوص، لٰكنها يوم القيامة تَهيُّئ لأضيافها، وبئس الأضياف، وبئس النزل.

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾: روي عن بعض السلف أن الآيتين ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾، هما مجرىٰ الخطاب، يعني أن كل ما سبق، ذكر للوصول إلىٰ هٰذا الأمر، أي إلىٰ جحيم تسعر، أو جنة تزلف. ومعنىٰ ﴿أُزْلِفَتْ﴾: أي: قربت، وأدنيت. ولهٰذا كان من شأن الجنة، أنها تفتح أبوابها تلقائيًا، وأن النار، والعياذ باللَّه، تفتح فجأة، كما ذكر اللَّه ذٰلك في آخر سورة الزمر ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١]، وفي هٰذا صدمة وهول، بينما قال في الجنة: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]؛ كأنما هناك تَهيؤٌ، واستقبال، وحفاوة مسبقة. نسأل اللَّه من واسع فضله.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾: هٰذا جواب الشرط، ذكر بعد ثلاثة عشر جملة من قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾، و﴿نَفْسٌ﴾: اسم جنس، يعني نفس من النفوس، كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]. ولا ريب أن من مرت به هٰذه المواقف المقارنة لقيام الساعة، والمواقف والأحوال التي تتلو البعث، يدرك يقينًا ما هو عليه. وهٰذا الشوط من الآيات شوط مهول، شوط يهز القلب من أركانه، وترتجف

له النفوس الحية. وتأمل وقع هٰذه الآيات علىٰ قوم ينكرون البعث! فإذا كان المؤمن الذي علم مسبقًا بِهٰذا الأمر، وتلا السورة، وأمثالها، مرارًا، يتأثر قلبه لتكرارها، فما بالك بِهٰذا الذي قد أعفىٰ نفسه من التفكير في هٰذه الأمور، وقيل له سيقع كذا وكذا. فسيجعله ذٰلك أمام مفترق طرق، فإما أن يتبع هٰذا النبي الذي جاء بِهٰذا الحق، وإما أن يختار الأخرىٰ. وهٰذه مجازفة، ومغامرة.

۞ الفوائد الْمُستنبطة:

الفائدة الأولى: بيان هول يوم القيامة.

الفائدة الثانية: بيان عظيم قدرة اللَّه تعالىٰ؛ فهٰذا الكون المنتظم، الرتيب، بأفلاكه العلوية، ومخلوقاته السفلية، يُخلفه اللَّه ﷻ، ويغير نمطه.

الفائدة الثالثة: شناعة جريمة الوأد، فقد خصها اللَّه بالذكر في هٰذا السياق المليء بالآيات الكونية، والأحداث الكبرىٰ.

الفائدة الرابعة: بيان كمال عدل اللَّه.

الفائدة الخامسة: إثبات الجنة والنار، وأنهما مخلوقتان.

الفائدة السادسة: إقرار المرء بعمله يوم القيامة.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ هٰذا التعبير كثير في كتاب اللَّه ﷻ، كقول اللَّه تعالىٰ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾ [القيامة: ١]، ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا

ﭐلۡبَلَدِ ۝١﴾ [البلد: ١]، وقد اختلف المفسرون في توجيهه، فقال بعضهم: إن ﴿لَآ﴾ زائدة، والمراد: ﴿أُقۡسِمُ﴾، وإنما نفىٰ القسم، لكون الأمر من الوضوح والبيان بمكان لا يحتاج فيها إلىٰ القسم. وهٰذا أبلغ. وقال بعضهم: إن معنىٰ قوله ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ أو ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ علىٰ تقدير محذوف، أي: ليس الأمر كما تظنون، ﴿أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾، ولا الأمر كما تظنون ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ [القيامة: ١]. فالمنفي هو ذٰلك الباطل الذي يعتقدون. وبعضهم قال إن ﴿لَآ﴾ زائدة لفظًا لا معنىً؛ يعني أنه لا يراد بها حقيقة النفي، وإنما يراد بها التأكيد.

واختلف العلماء في المراد ﴿بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ علىٰ ثلاثة أقوال: فقيل: المراد بها النجوم السيارة، وقيل الكواكب المعروفة، وقيل: الظباء، أو بقر الوحش. ومعنىٰ ﴿بِٱلۡخُنَّسِ﴾ التي تغيب وتطلع. ومعنىٰ ﴿ٱلۡجَوَارِ﴾ النجوم التي تجري في فلكها، أو الظباء في فلاواتها. ومعنىٰ ﴿ٱلۡكُنَّسِ﴾: المكان الذي تختفي فيه الظباء والوحوش، أي المكانس، وهي الحُجَر التي تأوي إليها. وأرجح هٰذه الأقوال الثلاثة النجوم، وإن كان ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، رجح بأن المراد كل ما يخنس، ويجري، ويدخل في كناسه[1]، وأن كل ذٰلك يصلح محلًا للقسم. لٰكن يؤيد كونها النجوم أن النجوم أبين، وأظهر؛ يراها الناس جميعًا، وتؤيدها آية الواقعة ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ [الواقعة: ٧٥].

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩﴾: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن، ﴿رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ المراد به جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. وهٰذا لا يعني أن القرآن من كلام جبريل، وإنما المراد أنه مبلغ عن مرسله، فوظيفته في هٰذا الأمر النقل، والتبليغ. ولهٰذا عرفه بأنه رسول فالقرآن كلام اللَّه، والكلام إنما يضاف إلىٰ من قاله مبتدئًا لا إلىٰ من قاله مبلغًا ومؤديًا، فلهٰذا أضافه اللَّه إلىٰ نفسه فقال: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

وقد قال في آية الحاقة: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠﴾ [الحاقة: ٤٠]، وأراد به محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فدل أن إضافة القول إلىٰ جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ تارة وإلىٰ محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ تارة

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ١٥٨).

إضافة تبليغ فقط إذا لايمكن أن يكون لا يمكن أن يكون كلام كل واحدٍ منهما.

﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾: ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ هو اللَّه ﷻ، ﴿مَكِينٍ﴾ يعني: ذي مكانة، ومنزلة.

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾: ﴿مُّطَاعٍ﴾ يعني أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ تطيعه الملائكة، ﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾ يعني أنه مؤتمن علىٰ الوحي. وكل هٰذا توثيق للرسالة.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾: المراد بالصاحب محمد ﷺ، وإنما نفىٰ عنه الجنون، لأنهم كانوا ينبزونه بذٰلك فبرأه اللَّه منه.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾: أي أن النبي ﷺ رأىٰ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، بالأفق المبين، وهو مطلع الشمس أو مغربها، مكان التقاء الأرض بالسماءو بحسب رأي العين.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾: ﴿بِضَنِينٍ﴾ أي لا يبخل بالوحي، ولا يأخذ عليه أجرًا. وفي قراءة أخرىٰ ﴿ظَنِين﴾ يعني من الظِّنة، أي ليس محلًّا للتهمة، والظنة. فليس بمتهم في تبليغ رسالات ربه، وفي هٰذا أعظم التزكية.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾: مما برأ اللَّه تعالىٰ به كلامه، أنه ليس بقول شيطان رجيم. فقد كان من مزاعم كفار مكة أن الشياطين هي التي تلقي إلىٰ النبي ﷺ هٰذا الكلام، وأن له رئي من الجن، يعني صاحب من الجن يلقنه هٰذه الكلمات، كما يلقن الجن السجع للكهان. فكلام اللَّه بريء من ذٰلك. وكلمة ﴿شَيْطَٰنٍ﴾ مشتقة من الشطن، وهو البعد وذٰلك، لإبعاد اللَّه تعالىٰ له، ومعنىٰ ﴿رَّجِيمٍ﴾: أي مرجوم، وملعون، ومطرود عن رحمة اللَّه. وفي هٰذا أيضًا تبرئة، وتوثيق للقرآن العظيم، من أن يكون التبس به شيء، أو خالطه شيء من إلقاء الشياطين. قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج: ٥٢]، يعني أن الشياطين تحاول التلبيس علىٰ الوحي، والتأثير علىٰ النبي، بأن تدخل فيه ما ليس منه.

ووجه دلالة الآية، من قوله: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ يعني: تلا، وليس المراد تمنىٰ من الأماني، وإنما من الأمنية وهي التلاوة، كما قال الشاعر:

تمنَّىٰ كتابَ اللَّه أولَ ليلِهِ وآخرَها لاقىٰ حِمامَ المقادِرِ

وقد روي في سبب نزولها عن سعيد بن جُبَيْر، قال: قرأ رسول اللَّه ﷺ بمكة «النجم» فلما بلغ هٰذا الموضع: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٠]، قال: فألقىٰ الشيطان علىٰ لسانه: «تلك الغَرَانيق العلىٰ. وإن شفاعتهن ترتجىٰ». قالوا: ما ذكر آلهَتنا بخير قبل اليوم. فسجَدَ وسجدوا، فأنزل اللَّه ﷻ هٰذه الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢﴾ [الحج: ٥٢]. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير[(١)].

وقال ابن كثير: «ولٰكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، واللَّه أعلم»[(٢)].

وقد صنف فيها الشيخ ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، رسالة بعنوان «نصب المجانيق في نسف قصة الغرانيق»، والمجانيق: جمع منجنيق: هو آلة حربية، يوضع في كفتها ثقل، ويرمىٰ به القلاع، والحصون، فتهدم الأسوار. والرسالة المذكورة، اسم علىٰ مسمىٰ، فقد نسف هٰذه القصة من الناحية الحديثية. ولو قدرنا أن شيئًا مثل هٰذا قد وقع، بدلالة آية الحج ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ وأدخل الشيطان في الآيات ما ليس منها، فإن اللَّه يبطل هٰذا الدخيل، ويبقي كلامه الأصيل، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلم يبق محذور.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾: هٰذا ردٌّ علىٰ القدرية الذين ينكرون القدر السابق. ورد علىٰ الجبرية الذين ينكرون مشيئة العبد.

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٦٠٧)، تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٠٠)، وهو باطل. انظر (نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق).

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٤١).

فقد أثبت اللَّه للعباد مشيئة حقيقية، داخلة تحت مشيئته.

والعبد إذا شاء، والرب لم يشأ، لم تقع مشيئة العبد، لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾؛ لٰكن في نفس الوقت العبد له مشيئة حقيقية، ليس مضطرًا، ولا مكرهًا، ولا مجبورًا، علىٰ أفعاله الاختيارية، بل يأتي الأشياء، ويذرها بمحض اختياره، وسبق إصراره. وهٰذا أمر مدرك؛ كل إنسان يجده من نفسه، ويفرق بين أعماله الاضطرارية، وأعماله الاختيارية، ولا ينازع في هٰذا إلا مخبول. فأنت تفرق بين أن تنزل من السطح إلىٰ الأرض درجة درجة، وبين أن تتدحرج حتىٰ تصل القاع.

وبِهٰذا كانت هٰذه السورة العظيمة قد حققت مقاصدها الجليلة، وهٰذه المقاصد العظيمة أسس الاعتقاد، ترسخ في عقول المخاطبين، وتقر في قلوبهم، أن يؤمنوا بالبعث وما يجري يوم القيامة، وأن يؤمنوا بِهٰذا القرآن الذي يتلىٰ عليهم، وأنه ليس كلامًا كسائر الكلام، ليس من سجع الكهان، وليس من شعر الشعراء، ولا غير ذٰلك من كلام البشر، بل هو كلام كريم، من رب العالمين. كما أن الشخص المبلغ له مزية، فهو وإن كان بشرًا، يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، لٰكنه يوحىٰ إليه. ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [فصلت: ٦]. هٰذه كلها مفاصل الاعتقاد، ثم ما يترتب علىٰ هٰذه الجمل الإيمانية، والأصول العقدية، من الأثر البالغ، وهو تعليقهم بمسئوليتهم، التي مكنهم اللَّه تعالىٰ فيها؛ من الأدوات، والآلات، فأثبت لهم مشيئة، وفعلًا، وقدرة، واختيارًا، علىٰ أساسه يترتب الثواب، والعقاب. فهٰذه السورة علىٰ قصر آياتها، احتوت علىٰ هٰذه الأصول العقدية العظيمة!

❁ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: بلاغة القرآن، وقوة تأثيره، تأمل قول اللَّه تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ لا تفي العبارات لتصوير الأثر الذي ينقدح بالنفس، من هٰذه الجمل الرصينة

المؤثرة، فهٰذا مظهر لبلاغة القرآن وجزالته، لاسيما القرآن المكي.

الفائدة الثانية: إقسام اللَّه بما شاء من مخلوقاته، فللَّه ﷻ أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، لٰكن ليس للمخلوق أن يقسم إلا باللَّه ﷻ، قال ﷺ: «**من حلف بغير اللَّه فقد كفر أو أشرك**». رواه أبو داود والترمذي[1].

الفائدة الثالثة: التنبيه علىٰ أن مهمة جبريل عليه السلام، هي البلاغ، أخذًا من قوله: ﴿رَسُولٍ﴾.

الفائدة الرابعة: شرف جبريل عليه السلام، وفضله علىٰ سائر الملائكة، حيث وصفه اللَّه بأنه «كريم» وأنه «مطاع» وأنه «أمين».

الفائدة الخامسة: تبرئة النبي ﷺ مما نبزه به المشركون من الجنون.

الفائدة السادسة: وفور عقل النبي ﷺ، فإن نفي اللَّه تعالىٰ عن نبيه الجنون يتضمن إثبات كمال ضده، فهو وافر العقل، والرأي، والرشد.

الفائدة السابعة: ثبوت اللقيا بين النبي ﷺ، وبين جبريل عليه السلام، واتصال سنده برب العالمين، لقوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾.

الفائدة الثامنة: الشهادة الربانية للنبي ﷺ، بكمال البلاغ، لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ علىٰ القراءتين.

الفائدة التاسعة: عصمة الوحي من إلقاء الشياطين، وتلبيسهم، لقول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

الفائدة العاشرة: عموم دين الإسلام للعالمين، لقوله تعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

الفائدة الحادية عشرة: كون القرآن ذكرًا، يرفع الجهل والغفلة، لقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

الفائدة الثانية عشرة: إثبات مشيئة العباد وأفعالهم، لقوله تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾.

---

(١) سنن أبي داود (٣٢٥١)، سنن الترمذي (١٥٣٥) صححه الألباني.

الفائدة الثالثة عشرة: الرد علىٰ الجبرية الذين ينكرون مشيئة العباد.

الفائدة الرابعة عشرة: أن التزام الدين استقامة، وتركه اعوجاج، لقوله تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾، فالمعيار في الاستقامة: موافقة الشرع، والوحي، والمعيار في الوسطية موافقة الشرع والوحي. وتجد بعض الناس يصنف الآخرين علىٰ ما يحلو له؛ فيقول: فلان متشدد، وفلان متساهل، وفلان متوسط بناءً علىٰ معيار غير صحيح، فإذا رأىٰ من يلتزم بالسنن، ويحافظ علىٰ هدي النبي ﷺ قال عنه: فلان متشدد، سبحان اللَّه! هٰذا ليس معيارًا صحيحًا؟ بل هٰذا انحراف، فالمستقيم حقًّا، والمتوسط حقًّا، هو من وافق هدي النبي ﷺ فإن زاد فهو متشدد، وإن نقص فهو مفرط.

الفائدة الخامسة عشرة: إثبات عموم مشيئة اللَّه تعالىٰ، لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾.

الفائدة السادسة عشرة: الرد علىٰ القدرية، فإن غلاة القدرية، ينكرون مراتب القدر الأربع كلها، فيقولون لم يعلم، ولم يكتب، ولم يشأ، ولم يخلق أفعال العباد! ومقتصدوهم، وهم المعتزلة، قالوا: علم، وكتب، لٰكن لم يشأ، ولم يخلق!

الفائدة السابعة عشرة: أنه لا تنافي بين إثبات المشيئتين، لأن مشيئة اللَّه محيطة بمشيئة العبد.

الفائدة الثامنة عشرة: كمال عدل اللَّه، وعلمه؛ لأن إثبات مشيئة اللَّه العامة، تدل علىٰ إثبات علمه، لوقوع الأشياء وفق معلومه. وكونه سبحانه أعطىٰ العبد مشيئة، وفعلًا، واختيارًا، رتب عليه الثواب، والعقاب، يدل علىٰ كمال عدله. واللَّه أعلم.

سورةُ الانفِطار

سورة الانفطار تشابه سورتي التكوير قبلها، والانشقاق بعدها، وقد ورد فيها حديث: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾» رواه الترمذي[(١)].

ومن مقاصد هٰذه السورة:

المقصد الأول: الإيمان باليوم الآخر، وبيان أهوال القيامة.

المقصد الثاني: بيان ربوبية اللَّه، وعظيم منته علىٰ الإنسان.

المقصد الثالث: الرد علىٰ منكري البعث.

المقصد الرابع: إثبات الحساب والجزاء.

المقصد الخامس: الإيمان بالملائكة.

المقصد السادس: الإيمان بالجنة والنار.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾:

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٣٣)، مسند أحمد (٤٨٠٦) وصححه الألباني.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾: ﴿إِذَا﴾ شرطية، ومعنىٰ ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾ أي انشقت، وتصدعت، كما قال اللَّه ﷻ: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦﴾ [الحاقة: ١٦]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾ [الانشقاق: ١].

﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢﴾: ﴿ٱلۡكَوَاكِبُ﴾ هي النجوم، ومعنىٰ ﴿ٱنتَثَرَتۡ﴾: أي تساقطت، وتفرقت، يعني كأنها تساقطت متفرقة.

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣﴾: أي امتلأت وفاضت، وانفتح بعضها علىٰ بعض، بأن يطغىٰ الماء، فيدخل ماء البحر علىٰ ماء النهر. وقيل في معنىٰ ﴿فُجِّرَتۡ﴾ ما تقدم من المعاني في سورة التكوير؛ أنها بمعنىٰ ﴿سُجِّرَتۡ﴾ أي تسجر، وتشتعل، فيكون هٰذا بمنزلة التفجير.

ويقول بعض المعاصرين، إنه يمكن أن يكون هٰذا التفجير يرجع إلىٰ الطبيعة الذرية لمكونات الماء، فالماء عند أهل الفيزياء مكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين، وأنه يقع اختلال في النظام النووي لهٰذا التكوين، فيقع انفجارات هائلة بسبب ذٰلك، كانفجار القنابل الذرية، واللَّه أعلم.

﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤﴾: ﴿ٱلۡقُبُورُ﴾ هي مدافن الموتىٰ، ومعنىٰ ﴿بُعۡثِرَتۡ﴾ أي نبشت، وقلبت، وأثيرت، وبعث من فيها.

﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ٥﴾: ﴿نَفۡسٞ﴾ يعني كل نفس، ﴿مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ اختلف المفسرون في التقديم والتأخير، مع اتفاقهم علىٰ أن ذٰلك متعلق بالعمل. فذهب بعضهم إلىٰ أن المقصود بقوله ﴿مَّا قَدَّمَتۡ﴾ أي من عمل صالح، وبقوله ﴿وَأَخَّرَتۡ﴾ أي من عمل صالح بعد موتها، كقول النبي ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ: إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**» رواه مسلم[١]، يعني ما قدمت من عمل صالح، أو أخرته، وأجرته بعد موتها، كالأوقاف، والوصايا، وما أشبه.

وقال بعضهم: ﴿مَّا قَدَّمَتۡ﴾ يعني ما أدت من الواجبات، والفرائض،

(١) صحيح مسلم (١٦٣١).

﴿وَأَخَّرَتۡ﴾ ما تركت، وأهملت من الواجبات، والفرائض، وذهب فريق ثالث إلىٰ العموم، وأن المراد ما قدمت من خير أو شر، وأخرت من خير أو شر، وعلىٰ كل حال، فالآية تدل علىٰ علم الإنسان يقينًا يوم القيامة بحصيلة عمله من خير أو شر. والعموم أولىٰ بالأخذ، لقول اللَّه تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]. وجواب الشرط: قوله ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾: هٰذا الأسلوب فيه عتاب مؤثر للغاية. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ ذكر بعض المفسرين أن المراد بالإنسان، في القرآن المكي الإنسان الكافر، لا جنس الإنسان. ﴿مَا غَرَّكَ﴾، ﴿مَا﴾ استفهامية، والمعنىٰ: ما الذي زين لك، وسول لك، فهٰذا استفهام إنكاري، ينكر علىٰ هٰذا الإنسان المنفلت، تركه لعبادة اللَّه ﷻ ﴿بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ هو رب بمعنىٰ خالق، ورازق، ومدبر، وفوق ذٰلك هو كريم عليه، ولطيف به، فأي شيء غرك به، وسول لك ترك عبادته، وزين لك معصيته؟!

﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧﴾: معنىٰ ﴿خَلَقَكَ﴾ أي أنشأك، وأوجدك من العدم، فقد أوجد أبانا آدم عليه السلام من العدم. ومعنىٰ ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ أي عَدّل خلقك، وكملك، فصرت مستقيم القامة، لست كهيئة الحيوانات التي تمشي علىٰ أربع، بل أنت معتدل مستقيم. ومعنىٰ ﴿فَعَدَلَكَ﴾: أي جعلك علىٰ هيئة حسنه معتدلة.

﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨﴾ أي أنه لو شاء ركبك في أي صورة، فلو شاء لجعلك مسخًا، لٰكنه جعلك في صورة كريمة، وهي هٰذه الصورة التي خلقك عليها، إما أن تنزع بشبهك إلىٰ أمك، أو إلىٰ أبيك، أو إلىٰ عمك، أو إلىٰ خالك، وهٰذا من بديع خلق اللَّه تعالىٰ؛ فلا تجد بشرين متطابقين تمام المطابقة، وهٰذه سعة لا يملكها أحد إلا اللَّه، لكل إنسان صورة مستقلة،

متفردة، حتىٰ التوائم المتشابهة، التي تخرج من انفلاق بويضة مخصبة واحدة، لا يمكن أن تتطابق، بل تجد بينهما فروقًا. لٰكن هٰذه الصور، منها صور متباينة، ومنها صور متقاربة في الأطوال، والألوان، والسمات، حتىٰ إن بصمة الإنسان لا يماثلها بصمة! وهٰذا الخلق الذي أجمل اللَّه ذكره، يستطيع أن يتأمله كل مخاطب؛ فالأعرابي في باديته، والأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، حينما يُسَرِّح طرفه، ويُعمل عقله، يجد عجبًا، وينبهر، ويندهش من سعة خلق اللَّه، وبديع صنعه، وتدبيره، حتىٰ إنك تسمع من بعض العوام الذين لا يقرؤون، ولا يكتبون، استنباطات، ومعاني ما تسمعها من بعض العلماء. ثم إن العلم الحديث أتىٰ بالعجائب، فيما يسمىٰ بعلم وظائف الأعضاء، مما يزيد هٰذه المعاني وضوحًا، ويزيد الإيمان قوة ففي بدنك جهاز هضمي، وجهاز دموي، وجهاز عصبي، وجهاز عضلي، وجهاز عظمي، وجهاز تناسلي، وتركيبة نفسية معقدة! فهٰذا الخليط، والمزيج، في بنية واحدة، من ركَّبه؟ من سوَّاه؟ من عدله؟ اللَّه سبحانه وتعالىٰ.

وتبدو محاولات البشر فيما يسمي بالإنسان الآلي، الذي يحاولون أن يدخلوا فيه بعض حركات الإنسان وتصرفاته، محاولات عبثية، يضاهئون خلق اللَّه وأنىٰ لهم. فهٰذه آية تطأطئ لها الرقاب، وتخضع لها الأعناق. ووقع هٰذه الآيات علىٰ النفس وقع قوي، فمن كان به خير، وأراد اللَّه به خيرًا، فإنها تهزه من الأعماق؛ لأنها تذكره بأصل نشأته، وتمرحله، وتطوره منذ أن كان جنينًا، إلىٰ أن خرج طفلًا رضيعًا، إلىٰ أن شب، واستوىٰ، واستقام. هٰذه المؤثرات هي التي تنصع الإيمان في القلب. ولهٰذا ينبغي للدعاة إلىٰ اللَّه عز وجل، أن يتذرعوا بها، وأن يحركوا بها كوامن الفطر، وأوتار القلوب.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾: ﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع، وزجر. ومعناها: ليس الأمر كما تظنون، ومعنىٰ ﴿بَلْ﴾ أي لٰكن، ﴿تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ يعني: ألا يعظكم، ألا يزجركم إقراركم بربوبية اللَّه، فيحملكم علىٰ عبادته؟ فاللَّه تعالىٰ يسوق آيات الربوبية، ليبين استحقاقه للعبادة سبحانه وبحمده. ومعنىٰ ﴿بِٱلدِّينِ﴾: أي

الجزاء، من دنته فدان، أي: ذل، وخضع، فاللَّه تعالىٰ هو الذي يدين العباد، واللَّه تعالىٰ قد خلق السماوات والأرض بالحق، فليس من الحق أن يموت الظالم علىٰ ظلمه، والمظلوم علىٰ مظلمته، والمحسن علىٰ إحسانه دون ثواب، والمسيء علىٰ إساءته دون عقاب، فلهٰذا كان الجزاء من دلائل البعث.

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠﴾: هٰذه الجملة مؤكدة بأنواع المؤكدات ﴿وَإِنَّ﴾، ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، ﴿لَحَٰفِظِينَ﴾ هم الملائكة.

وتأمل في لفظ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، لم يقل «عندكم» أو «معكم» بل قال ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ ليفيد التسلط والرقابة، وهو يشعر بالخشية، والرهبة، ﴿لَحَٰفِظِينَ﴾ فهم حفظة، ومؤتمنون، وضابطون لعملهم، لا يفرط منهم شيء، كما قال في آية أخرىٰ: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق: ١٨]، وقال: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ٨٠﴾ [الزخرف: ٨٠].

﴿كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١﴾: أي شرفاء، أمناء، حفظة، ضابطين، كاتبين؛ لأن الكتابة توثيق. ولهٰذا أمر اللَّه تعالىٰ بها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾: جعل اللَّه ملائكته يحصون علىٰ العباد، ويسجلون ما يبدر منهم، من خير أو شر، لأنهم يباشرون ذٰلك، فإذا أوصد الإنسان الأبواب، وأرخىٰ الستور، وظن أنه قد غاب عن الأعين، فليذكر أن معه كرامًا كاتبين. فلو شعرت أنه يطلع عليك فلان، الذي تُجِلُّه، وتقدره، ستخجل، وترعوي، وتستحي من مقارفة هٰذا الفعل المشين أمامه، فكيف إذا ذكرت أن معك كرامًا كاتبين؟ وكيف إذا ذكرت أن الذي يراك رب العالمين؟

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣﴾: ﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ جمع بر، والبر: هو كثير الخير؛ ولذٰلك سمي البر برًّا، لسعته. ومعنىٰ ﴿نَعِيمٖ﴾ النعيم: هو الجنة، وما فيها من أنواع المتع. وأتىٰ بحرف «في» ﴿لَفِي نَعِيمٖ﴾، ولم يقل «إن الأبرار لهم نعيم» ليعطي معنىٰ الانغماس والانغمار، كأنهم غمسوا في النعيم غمسًا، واصطبغوا به، وغمرهم من كل جانب.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾: ﴿ٱلْفُجَّارَ﴾ جمع فاجر، من الفجر، وهو هتك ستر الدين، فكأنه لما هتك ستر الدين، وتقحم الحرمات، سمي فاجرًا. ﴿جَحِيمٍ﴾: اسم من أسماء النار، والعياذ باللَّه، ونقول في «في» ما قلنا في قوله ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ أنهم منغمسون فيها.

﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يُصطَلون بنارها، ووهجها، وحرها، فتحرقهم، وتشويهم، والعياذ باللَّه، حتىٰ إن النبي ﷺ، أخبر عن قوم من عصاة الموحدين، يدخلون النار، «**حَتَّىٰ إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بهم ضَبَائِرَ، ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَىٰ أنهارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ في حَمِيلِ السَّيْلِ**» رواه مسلم[1]، فكيف بأهل النار الذين هم أهلها؟

﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ هو أحد أسماء القيامة، لأنه يوم الجزاء والحساب، وتقدم أن ليوم القيامة أسماء عدة، بلغ بها بعض العلماء ثمانين اسمًا، وأن أسماء القيامة أعلام، وأوصاف، كما أسماء اللَّه الحسنىٰ، وكما أسماء نبيه ﷺ، وكما أسماء القرآن.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾: يعني أنهم لا يغيبون عن العذاب طرفة عين، كلما فرغوا من عذاب انتقلوا إلىٰ آخر، عياذًا باللَّه، وكلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم، أعيدوا فيها، عياذًا باللَّه. شيء تقشعر له الأبدان، لمجرد ذكره فكيف بمن اصطلىٰ بناره؟ وفي هٰذه الآية ما يدل علىٰ بقاء النار، وأنها لا تفنىٰ، وأن أهلها لا يخرجون منها.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾: هٰذا الاستفهام، وهٰذا التكرار، يراد به التفخيم، والتعظيم، والتهويل. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾: كأنما يقال: ذٰلك الإنسان لم يقدر الأمر حق قدره، «أتدري ما يوم الدين؟ أتعرف ما يوم الدين؟»، كما قال: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ

(١) صحيح مسلم (١٨٥).

أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾؛ و﴿ٱلۡقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾.

ثم أجاب اللَّه تعالىٰ علىٰ هٰذا السؤال، وهٰذا من تفسير القرآن بالقرآن، فقال: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ ولهٰذا نظير، كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. أي لا تملك أي نفس، لأي نفس أخرىٰ نفعًا، ولا ضرًا، ﴿شَيۡـٔٗا﴾ نكرة في سياق النفي، فتدل علىٰ العموم. ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ كقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾ [الروم: ٤].

۞ الفوائد الْمُستنبطة:

الفائدة الأولى: بيان أهوال يوم القيامة.

الفائدة الثانية: إثبات البعث من قوله ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾﴾.

الفائدة الثالثة: إقرار الإنسان بعمله يوم القيامة ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾.

الفائدة الرابعة: وقوع الكافر في الغرور ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾.

الفائدة الخامسة: أن العبادة هي مقتضىٰ الربوبية.

الفائدة السادسة: بديع صنع اللَّه في الإنسان.

الفائدة السابعة: ذم منكري البعث لقوله: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾﴾.

الفائدة الثامنة: الإشارة إلىٰ أحد دلائل البعث، وهو الدينونة، لأنه يحصل بها إحقاق الحق، وإبطال الباطل.

الفائدة التاسعة: الإيمان بالملائكة الكرام عليهم السلام، وهو أصل من أصول الإيمان.

الفائدة العاشرة: خلود النار، ودوام العذاب علىٰ أهلها، من قوله ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾.

الفائدة الحادية عشرة: بطلان الشرك، وكل تعلق بغير اللَّه، وهٰذا يؤخذ من الجملة الأخيرة من قول اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾، ومن تعلق بغير اللَّه وكل إليه، فكل من تعلق بسبب فإنه ينقطع، إلا ما كان سببًا إلىٰ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ؛ من خوف، أو رجاء، أو محبة، أو توكل، أو نحو ذٰلك.

سورة المُطفِّفين

سورة المطففين من السور المكية.

ومن مقاصد هٰذه السورة:

المقصد الأول: بيان العلاقة الوثيقة بين العقيدة والسلوك، والإيمان والقيم: فهي تعالج ظاهرة سيئة عند المخاطبين، وهي تطفيف الميزان، وقد يبدو لبعض الناس أن مثل هٰذا الانحراف، من الأمور الفرعية التي ليس هٰذا أوان بحثها، وعلاجها، لٰكن إيراد هٰذه القضية، ومعالجتها في القرآن المكي، دليل علىٰ الصلة الوثيقة بين العقيدة القلبية، والسلوك العملي، وبين الإيمان، والقيم الخلقية.

المقصد الثاني: تصنيف الناس إلىٰ فريقين؛ الأبرار، والفجار، فريق في الجنة، وفريق في السعير، وإلىٰ حزبين: حزب اللَّه، وحزب الشيطان، وإلىٰ سعداء، وأشقياء.

المقصد الثالث: ترسيخ الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من النعيم، والعذاب.

المقصد الرابع: طمأنة المؤمنين بأن العاقبة للتقوىٰ: وما أحوج المؤمنين في العهد المكي، إلىٰ هٰذا المعنىٰ، وهم في مرحلة الاستضعاف، والاستذلال، والأذىٰ.

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾:

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١﴾: هٰكذا تستهل السورة بِهٰذا الوعيد الشديد. وكلمة

﴿وَيۡلٌ﴾ في اللغة كلمة وعيد، وعذاب. وقيل إنها اسم لوادٍ في جهنم، ولٰكنها بالمعنىٰ الأعم تدل علىٰ الوعيد والعذاب.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢﴾: هٰذا هو تفسير التطفيف، يعني أنهم إذا أرادوا أن يأخذوا الكيل لأنفسهم استوفوا حقهم تامًا، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ يعني أنهم إذا كالوا للناس، أو وزنوا للناس، نقصوهم وبخسوهم حقهم. فالتطفيف، إذًا عبث بالمكاييل والموازين؛ إما بأخذ زيادة علىٰ المستحَق، وإما بنقص من الحق. وكلا الأمرين يحصل لكثير من الناس أثناء البيع والشراء.

وقد قيل: إن هٰذه السورة، أو صدرها علىٰ الأقل نزل في أول العهد المدني، روي ذٰلك عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ حين قدم المدينة، كان أهل المدينة من أخبث الناس كيلًا، فنزلت هٰذه الآيات، وقيل غير ذٰلك.

والغالب ـ واللَّه أعلم ـ أنها سورة مكية بجميع آياتها، وأن التطفيف، كان موجودًا لدىٰ أهل الجاهلية. ونلحظ، أيضًا، أن القوم من أصحاب الاحتكار، يضطرون الناس إلىٰ القبول بِهٰذا الميزان المجحف؛ لحاجة الناس إليهم، فإن الناس يأبون أن يبخسوا أشياءهم، ولٰكنهم مضطرون إلىٰ القبول. وهٰذا ما ينطبق انطباقًا كبيرًا علىٰ حال الاقتصاد العالمي اليوم، فإنه يقع فيه التطفيف، وإلجاء الناس، بطرق الاحتكار المختلفة، إلىٰ أن يقبلوا بالضيم، لينالوا حصتهم، وما يحتاجون إليه، فيتلاعب التجار الجشعون بالأسعار، ويرفعونها ليمتصوا دماء الفقراء. ولا حيلة للفقراء، إلا أن يبذلوا أموالهم؛ لأن هٰذه المواد، قوام حياتهم. فمسألة التطفيف لا تقتصر فقط علىٰ هٰذه الصورة البسيطة؛ أن ينقص من الوزن، أو أن يستوفي لنفسه، بأن يزيد قدر كف من طعام، أو نحوه.

وقد كان هٰذا الوصف الذميم، أعني بخس الناس أشياءهم موجودًا لدىٰ أمة عذبت، وهي مدين، الذين بعث فيهم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكان يقول لهم ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ

﴿يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾ [هود: ٨٤].

فهٰذا الأمر كان موجودًا في الأولين، ولا يزال موجودًا في الآخرين. وحين وقع العالم بأجمعه، في هٰذه القرون الأخيرة، في قبضة الاقتصاد اليهودي الربوي، فشت هٰذه المظاهر، وصار الناس أسرىٰ لهٰذه المظالم، فلا يخفىٰ أن الاقتصاد العالمي، اليوم، اقتصاد ربوي، وضع نظرياته، وآلياته، اليهود، وساقوا العالم بأجمعه علىٰ قانونه، وصار الربا فاشيًا، شائعًا في جميع الأمم. وهٰذه الشريعة الغراء جاءت بتحريم الربا، حتىٰ إنك لا تكاد تجد من الكبائر ما ورد فيه وعيد وتهديد في كتاب اللَّه، كما ورد في الربا. وهٰذا يدلنا علىٰ كمال هٰذه الشريعة، وأنها منذ بزوغها كانت تهدف إلىٰ إصلاح القلب، وإصلاح الحياة معًا، فلا يقال: «إن شريعة الإسلام تصلح السرائر وحسب»، بل تصلح السريرة، والعلانية، تصلح الفرد، وتصلح المجتمع. فلأجل ذا وقع التنبيه علىٰ هٰذا الانحراف في العهد المكي.

ومن المفسرين من وقف علىٰ «كَالُوا»، و«وزنوا» فقرأ: «وإذا كالوا، هم يخسرون وإذا وزنوا، هم يخسرون» فعلىٰ القراءة المشهورة، تكون متعدية، ومكتفية بذاتها، وعلىٰ قراءة الوقف علىٰ «كالوا» تكون «هم» ضمير، من الكائل، والوازن. والأولىٰ حسبانها كلمةً واحدة، ومما يدل علىٰ ذٰلك أن ألف الجماعة لم ترسم في المصحف بعد «كالو» و«وزنو».

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤﴾: استفهام إنكاري ﴿أَلَا﴾ أداة تنبيه، والمقصود بها التوبيخ، والتبكيت، ﴿يَظُنُّ﴾ بمعنىٰ يستيقن، وإلا فربما يطيف بقلوبهم طائف، أنه ثم بعث، لٰكن القوم لم يستيقنوا، ولو استيقنوا، لاستقام سلوكهم، لٰكن لا يقين عندهم، بل هم إما منكرون للبعث، وإما متشككون فيه، ومعنىٰ ﴿مَّبۡعُوثُونَ﴾: أي مخرجون من قبورهم أحياء.

﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾: يا لها من موعظة! ويا له من زجر! هٰذه الموعظة ينتفع بها المؤمن، وإن كانت في الأصل موجهةً إلىٰ الكافر. فأنت إذا وعظت غيرك، وعظت نفسك. قل لنفسك، كما قال اللَّه:

ألا تظن أنك مبعوث ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين!؛ لأن غالب ما يقع منا من التقصير، والمعصية، والغفلة، وظلم النفس، وظلم الآخرين، إنما هو ناتج عن ضعف اليقين بالآخرة، ولو كان اليقين بالآخرة قائمًا في القلب دائمًا، لاكف الإنسان عن كثير من المعاصي والمظالم، لٰكن القلب يذهل عن ذٰلك الموعد الحق، فإذا غاب عن باله البعث، واليوم الآخر، والجنة، والنار، صار يطأ السهل، والوعر، ويجترح السيئات، ويقترف المعاصي؛ لغياب هٰذا الرادع عن قلبه.

فمن أعظم أسباب الموعظة، أن يعظ الإنسان نفسه باليوم الآخر، ودعك من أقوام يقولون: لا فائدة من المواعظ، المهم الإقناع بالعقل! لابد من الإقناع العقلي، ومن تحريك الوجدان والموعظة. كم من إنسان تحصل له القناعة العقلية بصحة كذا، وخطأ كذا، لٰكنه لا ينقاد لمقتضىٰ العقل! فلابد من الجمع بين الأمرين. ولهٰذا قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، فالحكمة: الأمر المحكم الذي يقطع العقل بصوابه، والموعظة: ما يلامس القلب، ويستجيش الوجدان. فجاء هٰذا التهديد لهٰؤلاء المطففين، باليوم الآخر الذي ترتعد الفرائص عند ذكره.

تقول فاطمة بنت عبدالملك ـ زوج عمر بن عبدالعزيز ـ رَحِمَهُمَاٱللَّهُ: «لقد كان يكون معي في الفراش فيذكر الشئ من أمر الآخرة فينتفضُ كما ينتفض العصفور في الماء، ويجلس يبكي، فأطرح عليهِ اللحاف رحمةً له»[1].

هٰكذا القلب المؤمن باليوم الآخر، يردعه إيمانه عن كثير من المحرمات، والشبهات، والمكروهات، وخلاف الأولىٰ.

وإنما سميت القيامة «قيامة»، لأسباب منها: هٰذا ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي أنهم يبعثون من قبورهم أحياءً، ينتصبون علىٰ أقدامهم، حفاة، عراة، غرلًا، ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: يعني للوقوف بين يديه، والحساب، والجزاء الذي يفضي إلىٰ جنة أو نار.

(١) البداية والنهاية (٩/ ٢٢٩).

ومنها: قيام الأشهاد، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

ومنها: إقامة الموازين، قال تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والربوبية نوعان: الربوبية عامة: وهي التي تشمل جميع الخلق ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾؛ لأن «عَالَمِينَ» جمع عالَم وهو كل من سوىٰ اللَّه من إنس، أو جن، أو طير، أو وحش، أو ملك. فالربوبية العامة معناها أن اللَّه خلقهم، ورزقهم، ودبر أمورهم. وأما الربوبية الخاصة: فهي ربوبيته لأوليائه المؤمنين، وذٰلك باللطف بهم، وتيسير أمورهم، وحفظهم في دينهم، ودنياهم، ويمكن أن نضيف ربوبية خاصة الخاصة: وهي ربوبيته للأنبياء والمرسلين، وأخصهم نبينا ﷺ، فإن ربوبيته لهم أخص ما يكون.

❁ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: ذم التطفيف، وتوعد فاعليه.

الفائدة الثانية: منافاته للعدل والإنصاف.

الفائدة الثالثة: التهديد، والموعظة باليوم الآخر.

الفائدة الرابعة: إثبات البعث والقيامة الكبرىٰ.

الفائدة الخامسة: ربوبية اللَّه العامة ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾: ابتدأ اللَّه تعالىٰ بذكر هٰؤلاء أولًا،

لأن الحديث كان عن أشكالهم، وهم المطففون فناسب قرنهم بهم، قبل ذكر الأبرار.

وكلمة ﴿كَلَّآ﴾ كلمة ردع وزجر، والمعنىٰ: ليس الأمر كما تعتقدون وتظنون من إنكار البعث. وقال بعض المفسرين إنها في مثل هٰذا السياق معناها: «حقًا». وإلىٰ هٰذا ذهب السيوطي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فجعلها نوع إثبات.

ومعنىٰ ﴿كِتَٰبَ﴾ أي مكتوب، وأصل الكتْب في اللغة: الجمع، ومنه قولهم: «تكتب بنو فلان» يعني: تجمعوا، وقولهم «كتيبة» لجماعة الخيل. فدل ذٰلك علىٰ أن المراد بكتاب الفجار الديوان الذي يجمع هٰؤلاء الفجار. وقد تقدم أن «الفجار» هم الذين هتكوا ستر الدين بالكفر، والفسوق، والعصيان؛ لأن الفجْر بمعنىٰ الهتك.

﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾: قيل في معنىٰ ﴿سِجِّينٍ﴾: إنها الأرض السابعة، أو موضع في أسفل الأرض، يقال له سجين. وأصل اشتقاقه من السجن، وهو الحبس في مكان ضيق حرج، ومما يؤيد أن سجين موضع في أسفل سافلين، في الأرض السابعة، ما جاء في حديث نزع الروح، أنه إذا قبضت روح العبد الكافر «**يُنْتَهَىٰ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ**»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّه ﷺ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، «**فَيَقُولُ اللَّهُ** عَزَّوَجَلَّ: **اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَىٰ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١]» رواه أحمد في «المسند»[(١)].

فهٰذا يؤيد هٰذا المعنىٰ المأثور عن بعض السلف.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾﴾: المراد بِهٰذا السؤال التعظيم، والتهويل. وكثيرًا ما يرد في القرآن العظيم السؤال عن الشيء بقصد التعظيم، كقول اللَّه تعالىٰ:

---

(١) المسند (١٨٥٣٤)، وصحح إسناده الشيخ شعيب الأرنؤوط.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧﴾ [الانفطار: ١٧]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٣﴾ [الحاقة: ٣]، فمثل هٰذا الأسلوب يلفت الانتباه، ويعظم المقام.

﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩﴾: يعني ذٰلك الكتاب الجامع لأعمالهم، وحالهم، ﴿مَّرۡقُومٞ﴾، أي مختوم، مفروغ منه، لا يزاد فيه، ولا ينقص.

عن عبد اللّٰه بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللّٰه ﷺ، وفي يَدِهِ كِتَابَانِ، فَقَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا هٰذانِ الْكِتَابَانِ؟**» فَقُلْنَا: لَا يَا رَسُولَ اللّٰه! إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا. فَقَالَ لِلَّذِي في يَدِهِ الْيُمْنَىٰ: «**هٰذا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ، وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَىٰ آخِرِهِمْ، فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ، وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا**». ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي في شِمَالِهِ: «**هٰذا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ، وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ، وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَىٰ آخِرِهِمْ، فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ، وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا**» رواه الترمذي(١).

وسمي «مرقومًا»، تشبيهًا له بالرَّقم في الثوب، والرقم في الثوب، يعني الخط، أو العلم الذي يكون في القماش، يكون ثابتًا فيه، لا يذهب منه. فالمرقوم هو المخطوط، أو المكتوب.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٠﴾: وكلمة ﴿وَيۡلٞ﴾ تقدم معناها، والمكذبون هنا هم المكذبون بالبعث؛ لأنه قد قال ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤﴾ فهٰذا الإنكار أو الشك هو الذي أوردهم المهالك.

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ١١﴾: كما قال: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ [التغابن: ٧]، هٰذه من المفاصل التي كانت بين النبي ﷺ، وبين الكفار. ومعنىٰ ﴿ٱلدِّينِ﴾ أي الجزاء.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢﴾: هٰذا مثال للترابط بين العقيدة الباطنة، والسلوك الظاهر؛ فمن غلب عليه العدوان، والإثم، صار قلبه أغلفًا، لا يقبل الحق ولا يرضاه، بل يستثقله ويأباه. ومعنىٰ ﴿مُعۡتَدٍ﴾ أي متجاوز

---

(١) سنن الترمذي (٢١٤١)، وحسنه الألباني.

الحد من العدوان، و﴿أَثِيمٍ﴾: صيغة مبالغة علىٰ وزن فعيل، يعني والغ في الإثم، وهو ارتكاب المحظور.

ووجه الترابط بين العدوان والإثم، وبين إنكار البعث، أن الذي يسرف علىٰ نفسه بالمعاصي، والذنوب، وظلم الآخرين، يقلقه، ويزعجه، أن يقال له: إن من ورائك يوم آخر، يجازىٰ المحسن علىٰ إحسانه، والمسيء علىٰ إساءته. فلذٰلك ينزع إلىٰ نبذ هٰذه العقيدة، وإقصائها، ودفعها. ولهٰذا كان أصحاب الشهوات، المسرفين علىٰ أنفسهم، يدخل عليهم شك عظيم في هٰذا الباب؛ لأن الشهوات تلقح الشبهات.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣﴾: تتلىٰ عليه آيات بينات، تخضع لها الرقاب، وتعلم العرب، وهم أهل الفصاحة، والبلاغة، أن هٰذا القول قول كريم، لا يستطيعون الإتيان بمثله، ومع ذٰلك: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦] ينهون عنه أتباعهم أن يصغوا إليه، وينأون عنه بأنفسهم لئلا يخضعوا لسلطانه!

و﴿أَسَٰطِيرُ﴾ جمع أسطورة ـ بضم الهمزة ـ، أو إسطارة ـ بكسر الهمزة ـ، والمقصود بها الحكايات المسطورة، القديمة. وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش وممن كان يؤذي رسول اللَّه ﷺ وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول اللَّه ﷺ مجلسًا فذكر فيه باللَّه وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة اللَّه، خَلَفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا واللَّه يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، فهلم إليَّ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه. ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني؟[(١)].

يظن أن المسألة ترويج أساطير، وحكايات، ونحو ذٰلك، وشتان شتان! هٰذا الكتاب ليس كتاب أقاصيص، أو تسالٍ، وإنما يتضمن من الحقائق

(١) السيرة لابن هشام (٢/ ١٣٨)، البداية والنهاية (٣/ ١١٠).

العظيمة، الثقيلة ما تحيا به القلوب، وتصح به العقول.

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾: (كَلا) تقدم معناها، ﴿بَلْ﴾ ﴿رَانَ﴾: أي غطىٰ، وغشىٰ، وغمر. وهٰذا شاهد ثالث للعلاقة الوثيقة بين القلب والسلوك. فهٰذا الكسب الذي كسبوه بالتطفيف، كون علىٰ قلوبهم طبقة صلبة، فصارت قلوبهم بسبب كسبهم للمال الحرام، وتكذيبهم بالحق، كالحديد إذا صدأ. فهٰؤلاء الذين يكسبون الآثام، والعدوان، والمال الحرام، يقع علىٰ قلوبهم «الران».

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول اللَّه ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً، نُكِتَتْ في قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ، وَاسْتَغْفَرَ، وَتَابَ، سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا، حَتَّىٰ تَعْلُوَ قَلْبَهُ. وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾**» رواه الترمذي(١).

ودون الران، الغان، ويدل عليه قول النبي ﷺ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي وَإِني لَأَسْتَغْفِرُ الله في الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**» رواه مسلم(٢).

وذٰلك أن المؤمن بحكم بشريته، ربما أدركته غفلة، لٰكن هٰذه الغفلة قشر رقيق، ما أن يذكر اللَّه عَزَّوَجَلَّ، حتىٰ تتقشع. أما الران فهو طبقة سميكة؛ تنشأ عن تراكم النكت السوداء، حتىٰ لا ترىٰ حقًّا، ولا تسمع حقًّا.

جاء في حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَىٰ الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْربها، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّىٰ تَصِيرَ عَلَىٰ قَلْبَيْنِ؛ عَلَىٰ أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**» رواه مسلم(٣).

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٣٤)، قال حديث حسن صحيح، وحسنه الألباني.

(٢) صحيح مسلم (٢٧٠٢).

(٣) صحيح مسلم (١٤٤).

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة، ﴿عَن رَّبِّهِمْ﴾ هٰذه ربوبية عامة، ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أي: محجوبون عن كرامته، ونعمته. وأعظم النعم التي يحجبون عنها النظر إلىٰ وجه اللَّه الكريم. وهٰذه الآية وما يقابلها بعد بضع آيات، وهي قول اللَّه تعالىٰ ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ مما استدل به أهل السنة والجماعة علىٰ إثبات رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة.

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلما أن حجبوا هٰؤلاء في السخط كان في هٰذا دليل علىٰ أنهم يرونه في الرضا قال الربيع: قلت: يا أبا عبداللَّه، وبه تقول؟ قال: نعم به أدين اللَّه»[1].

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾: يعني داخلو الجحيم، وحاصل لهم التصلية، بمعنىٰ أنهم يحرقون، ويشوون فيها.

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾: اجتمع عليهم العذاب الحسي، والعذاب المعنوي، أما الحسي فظاهر، وأما المعنوي، فهٰذا التبكيت الشديد.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: إثبات القدر السابق، وذٰلك في قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ فهو كتاب مفروغ منه؛ لأن اللَّه وصفه بأنه مختوم.

الفائدة الثانية: النكير علىٰ المكذبين بالبعث.

الفائدة الثالثة: تلازم صفات السوء، فهٰؤلاء جمعوا أوصافًا سيئة متلازمة؛ وهي الفجور، والتكذيب، والعدوان، والإثم، فأوصاف السوء يمسك بعضها برقاب بعض.

الفائدة الرابعة: تأثير الكسب الحرام علىٰ القلب

الفائدة الخامسة: شدة عقوبة الكافرين الحسية والمعنوية.

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة اللالكائي (٣/ ٥٠٦).

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾: ﴿ٱلْأَبْرَارِ﴾ قد تقدم معناها.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾﴾: الاستفهام للتفخيم، والتكريم. و﴿عِلِّيُّونَ﴾: موضع في السماء السابعة. وقد ورد في بعض الآثار: أنها قائمة العرش اليمنىٰ، وقيل: موضع عند سدرة المنتهىٰ، وهٰذه المعاني جميعًا تدل علىٰ العلو والرفعة.

﴿كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾: أي مختوم لا يزاد فيه ولا ينقص، وليس تعريفًا لعليين. ومعنىٰ ﴿يَشْهَدُهُ﴾: يحضره، ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ مقربو كل سماء من الملائكة.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾: كلمة «في» تدل علىٰ الانغماس التام في النعيم، والنعيم هو الجنة، وما فيها من المباهج والسرور، والنعيم الحسي والمعنوي.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾: متكئون علىٰ الأرائك التي تحملهم وتقلهم. والأرائك: جمع أريكة، وهي السرير. ويقول المفسرون: هي السرر في الحجال. والحجلة: المكان المزين، المزوق، المهيأ. فهي أريكة في إطار جميل، وفي موضع مزخرف، مزين. ولا شك أن هٰذا يعطي انطباعًا نفسيًا طيبًا، ومحببًا للنفس. ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلىٰ ما آتاهم اللَّه ﷻ، من أنواع النعيم؛ من الحور العين، والأشجار، والأنهار، إلا أن أعلىٰ ذٰلك النعيم هو النظر إلىٰ وجه اللَّه الكريم، كما قال اللَّه تعالىٰ في سورة القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]، فنظرتها إلىٰ وجه اللَّه الكريم، أكسبها نضرةً، وبهاءً، وجمالًا.

يقول ابن القيم:

فـيا نظرة أهدتْ إلىٰ الوجه نَضرةً   أمـن بعدها يسلو المحبُّ المتيَّمُ

﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤﴾: إن كان التنعم يعرف في الوجوه في الدنيا، فلأن يعرف في الآخرة من باب أولىٰ، ترىٰ بعض المترفين فتقول: هٰذا وجهه وجه نعمة، وقد ترىٰ بعض البائسين وجهه كالخشبة! يبين هٰذا في القسمات، وهم في الدنيا علىٰ نعيمها المحدود، فكيف في الآخرة، حينما يجري في عروقهم النعيم الحقيقي، الذي ينعِّم اللَّه تعالىٰ به أوليائه. ومعنىٰ ﴿نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي بهاءه، ورونقه وإشراقه.

﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ٢٥﴾: لا يتكلفون همَّ جلبه، وإنما يسقون إياه، فهم مكفيون. والمقصود بالرحيق: أي الخمر الخالص من الدنس، ليس كخمر الدنيا، ينشأ عنها صداع، وتقيؤ، ونحو ذٰلك، بل كما قال اللَّه ﷻ: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩﴾ [الواقعة: ١٩] فهي خمر خالصة ﴿خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾. ومعنىٰ ﴿مَّخۡتُومٍ﴾ أي لم يفك ختمه، وهٰذا أحب للنفس، فرق بين أن تشرب من إناء قد سبقت إليه، وبين أن تكون أنت أول الشاربين.

﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾: هٰذا القرن بين الآيتين يعطينا معنًىٰ عجيبًا؛ أنه رحيق مختوم، وختامه مسك، فهٰذا المسك قد خالطه عند ختمه، يجده شاربه عند آخر شربة منه، فالمسك يستنشقه من أول ما يفك ذٰلك الختم، إلىٰ أن يأتي علىٰ آخر قطرة فيه؛ فالختم بالمسك صاحب أولَه وآخرَه. والمسك معروف. وهٰذه الألفاظ، والأسماء، وضعت للدلالة علىٰ النعيم، وإلا فليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما. «ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء»[(١)].

قال عبد الرحمن بن زيد، في قوله: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ﴾ [البقرة: ٢٥]، قال: «يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا، التُّفاح بالتفاح والرُّمان بالرمان، قالوا في

(١) تفسير الطبري (١/ ٤١٦).

الجنة: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا، ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ يعرفونه، وليس هو مثله في الطعم»[١].

في الجنة ماء، وخمر، ولبن، وفيها حور، وقصور، وفيها من جميع أنواع المتع، وهٰذه الأسماء معهودة لنا في الدنيا، ومحببة إلينا، لٰكنها في الآخرة علىٰ صفة لا تخطر علىٰ بال.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ اللَّه ﷺ: «**قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ. فَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]» متفق عليه[٢].

لٰكن اللَّه عز وجل إذا أراد أن يرغبنا في شيء، لابد أن يذكر لنا شيئًا نعهد جنسه، حتىٰ يقع لنا نوع من الشوق، وإلا فإن ما في الدنيا لا ينسب إلىٰ ما في الجنة، وإنما اتفقت الأسماء، والحقائق متفاوتة تفاوتًا عظيمًا.

﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾: المشار إليه النعيم. وقد نبه المفسرون علىٰ أن هٰذه الجملة جاءت معترضة في سياق آيات النعيم، لتدل علىٰ فضل التنافس في الخيرات. والتنافس في الطاعات محمدة، لٰكن مع الإخلاص للَّه تعالىٰ، فإن التنافس أحيانًا يحصل بين الصالحين علىٰ وجه غير محمود، يورثهم شيئًا من الإحن، كما يقع عند بعض الحريصين علىٰ الطاعة حينما يتسابقون إلىٰ الدنو من الإمام؛ هٰذا يقول دفعتني، وهٰذا يقول أخذت مكاني، فينشأ فيهم نوع حزازة، تشين أعمالهم، وتكدر نياتهم. والذي ينبغي للإنسان أن ينافس في الطاعة، مع اصطحاب الإخلاص للَّه تعالىٰ، والمحبة للمؤمنين، فما تيسر له أخذه، وما لا، فليتعبد للَّه عز وجل بإيناس إخوانه، واستبقاء المودة، فإن هٰذا المعنىٰ عظيم، فليتنبه الإنسان للتنافس الشرعي الصحيح، أما التنافس الذي يورث إحنًا، وحنقًا، وغيظًا، وتحريشًا بين المؤمنين، فليس محمودًا، والتنافس المحمود هو الذي يورثك محبة لأخيك، ورغبة في الاقتداء به،

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤١٦).

(٢) صحيح البخاري (٤٧٨٠)، صحيح مسلم (٢٨٢٤).

وحمدًا له علىٰ فعله، وثناءً عليه، بحيث تبقىٰ المودة، ولا يشوبها كدر.

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ٢٧ عَيۡنًا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾: ﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ يعني ما يخلط به، ﴿مِن تَسۡنِيمٍ﴾ التسنيم: فسرها اللَّه ﷻ بقوله: ﴿عَيۡنًا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾؛ فهو ماء يتحدر عليهم من عين في أعلىٰ الجنة، يقال لها تسنيم. فالمقربون يشربون منها صفوًا لا كدر فيه، ومن بعدهم يشربون إثرهم. ويخلط ذٰلك الرحيق المختوم، بالتسنيم.

◈ الفوائد الْمُستنبطة:

الفائدة الأولى: الثناء علىٰ أهل الإيمان والخير.

الفائدة الثانية: إثبات الملائكة ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾.

الفائدة الثالثة: إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الجنة ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣﴾.

الفائدة الرابعة: عظم نعيم المؤمنين حسيًّا، ومعنويًّا.

الفائدة الخامسة: التحريض علىٰ التنافس في الطاعات.

الفائدة السادسة: تفاوت درجات أهل الجنة؛ لقوله: ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، فثمَّ مقربون، وثم دون ذٰلك، كما ذكر ذٰلك مفصلًا في سورة «الواقعة».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾:

هٰذا بيان من اللَّه ﷻ، لحال المؤمنين والكفار، أو الأبرار والفجار الذين جرت الإشارة إليهم في صدر هٰذه السورة؛ بيان حالهم في الدنيا، ومآلهم في

الآخرة. وهٰذا من حسن عرض القرآن العظيم لهٰذه الحقائق، فالسورة تهدف إلىٰ تصنيف الناس إلىٰ فريقين، وبيان حال هٰذين الفريقين، وطمأنة المؤمنين علىٰ عاقبتهم. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي في الدنيا يضحكون منهم سخرية، واستهزاءاً. وهٰذا هو الذي جرىٰ حين صدع النبي ﷺ بدعوته، فلقي هو، والقلة المؤمنة الذين آمنوا معه، من المشركين جميع صنوف الأذىٰ، ومن هٰذا الأذىٰ الضغط النفسي، أو ما يسمىٰ بلغة العصر: الحرب النفسية. فقد كان هٰؤلاء المجرمون يشنون عليهم حملات إعلامية؛ يضحكون منهم ويسفهونهم. ولا يخفىٰ أن هٰذا اللون، قد يكون أشد فتكًا من الأذىٰ الحسي.

﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾: هٰذا الاستفزاز يؤثر في النفوس أشد من تأثير الجلد بالسياط، أو الجراح، أو غيرها، ذٰلك أنه ينفذ إلىٰ النفس، فأما المؤمن فلا يزيده ذٰلك إلا ثباتًا، وتوكلًا علىٰ ربه ﷻ، وأما من كان في قلبه مرض، فإنه سرعان ما ينهار، كما قال ربنا ﷻ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢ ـ ٣]، فكان الكفار يمارسون هٰذا اللون من الضغط والأذىٰ، فهم يتضاحكون من المؤمنين، وكأن المسألة محسومة، ومفروغ منها، وأن هٰؤلاء في ضلال مبين. ثم يتبعون ذٰلك بالتغامز، إذا مروا بهم، يأخذ بعضهم يحرك حاجبه، وجفنه، ويغمز بعينه، فيؤثر في النفوس لأن شعور الإنسان بأنه مستهدف ممن حوله، يتكلمون به، وينالون منه، يحز في نفسه، كما قال ربنا ﷻ: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ [القلم: ٥١]!.

فهٰذه الألوان من الأذىٰ النفسي، كانت تمارس ضد الأبرار، لٰكن اللَّه يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا، وفي الآخرة. واعتبر بما جرىٰ لنبينا ﷺ والمؤمنين، حين حدثهم النبي ﷺ بحادث الإسراء والمعراج، كيف أن أبا جهل جمع الناس، لا رغبة في نشر الدين، والدعوة، وتبليغ ما

أوحي إلىٰ رسوله من ربه، وإنما ليقول للناس: انظروا إلىٰ محمد، يزعم أنه أتىٰ بيت المقدس في ليلة، ونحن نضرب إليه أكباد الإبل شهرًا! لٰكن السحر انقلب علىٰ الساحر، وثبت اللَّه الذين آمنوا بالقول الثابت. وأما من كان في دينه دخل، فقد انقلب علىٰ عقبيه.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾: هٰذا أيضًا من ألوان الأذىٰ التي كان يفعلها هٰؤلاء الكفار، وهم أنهم حينما ينقلبون إلىٰ أهليهم بمعنىٰ: يرجعون إلىٰ بيوتهم، يأخذون بالتندر، والتلذذ بذكر هٰؤلاء المؤمنين علىٰ سبيل السخرية، فمعنىٰ ﴿ فَكِهِينَ ﴾ أي ملتذين، أو معجبين بصنيعهم بالمؤمنين. وهٰذه الصورة، صورة تعبِّر تعبيرًا دقيقًا عن حال هٰؤلاء المجرمين الذين أشربوا في قلوبهم الكفر، وبغض أولياء اللَّه، وهي صورة تتكرر في كل جيل وقبيل.

﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾: يقولون عن المؤمنين: إن هٰؤلاء تائهون عن الحق، باتباعهم محمدًا ﷺ. وهٰذا ما يمارسه الإعلام العالمي اليوم، في حق نبينا ﷺ، وفي شأن دين الإسلام، وفي شأن دعاته وكتابه، فهٰذا التشويه لم يزل، ولا يزال، فيصفون النبي ﷺ بأبشع الأوصاف، ويصفون دين الإسلام بأنه دموي، وإرهابي، ويصفون دعاته بذٰلك، فهٰذا لم يزل، ولا يزال، ولن يزال. فالصراع بين الحق والباطل قديم.

﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾: أي إنكم يا معشر المجرمين، لستم أوصياء عليهم، ولا كاتبين لأعمالهم، حتىٰ تردوهم إلىٰ مصالحهم، ليس لكم وصاية، وقوامة عليهم، حتىٰ تسجلوا عليهم ما يصنعون، وحتىٰ تردوهم إلىٰ ما تعتقدون. فلستم عليهم حفظة، فدعوهم وشأنهم. وهٰذا من سنن اللَّه، قال اللَّه ﷻ: ﴿ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗ ﴾ [التوبة: ١٠]، ومن قرأ التاريخ وجد مصداق ذٰلك، بل ومن قرأ الواقع، فيما يجري للمسلمين في كل مكان، من شدة أذىٰ أعدائهم لهم، كصنيع اليهود بالمسلمين في فلسطين، يعاملونهم بوحشية، وهمجية لا نظير لها، مما ينبئ عن حقد متقد، مضطرم في قلوبهم،

وحين يقع لهم عشر معشار ذٰلك، يملأون الجو صياحًا، وما جرىٰ للمسلمين في أواسط أوروبا، التي تدعي أنها راعية حقوق الإنسان، وما جرىٰ للمسلمين في البوسنة، وكوسوفو، والجبل الأسود، والسنجق، ومقدونيا، علىٰ مرمىٰ حجر من الموضع الذي أعلن فيه الإعلان العالمي المزعوم لحقوق الإنسان، يدلك علىٰ أن هٰذه سنن ثابتة؛ وهي شدة بغض الكافرين للمؤمنين.

فهٰذا الوصف لحال المؤمنين الأوائل مع المجرمين، يتكرر في كل جيل، وقبيل، وفي كل زمان، ومكان، كما أنه يتكرر أيضًا بنسب متفاوتة؛ فأشنع صوره وأشدها، ما يقع بين المؤمنين والكفار، ولٰكن ربما وقع نوع من ذٰلك بين أهل التقوىٰ، وأهل الفسق، فالجاري أنه حينما يوجد قوم من الفساق، وإن كانوا مسلمين، ويقابلون أهل الصلاح والاستقامة والحسبة، فإنهم يأخذون بالسخرية بهم، والتندر بحالهم، وهيئتهم، فيضحكون، مثلًا، من التزامهم بالسنة؛ من إعفاء اللحىٰ، وتقصير الثياب، ومن سمتهم، وكلماتهم، ويحاكونهم ويهزؤون بهم، وإذا انقلبوا إلىٰ أهلهم، أو مجتمعاتهم، أو منتدياتهم، أخذوا يتكلمون في سيرتهم، وينالون منهم. فهٰؤلاء شابهوا أولٰئك الفجار بنسبة معينة، وربما، والعياذ باللَّه، يبلغ هٰذا الاستهزاء من بعض الفجار إلىٰ درجة يخرجون بها من الملة، فإذا وقعت السخرية بالدين نفسه، أو بصاحب الدين بسبب تدينه، والتزامه بشريعة ربه، فإن هٰذا مقام خطير، قد يخرج هٰذا الساخر، وإن كان في الأصل مسلمًا، من دائرة الإسلام إلىٰ دائرة الكفر. ولما قال قوم من المنافقين، في قراء الصحابة، وهم النخبة المصطفاة من أصحاب النبي ﷺ، وهم يتفكهون: ما رأينا مثل قرائنا هٰؤلاء؛ أكبر بطونًا، ولا أكذب ألسنةً، ولا أجبن عند اللقاء، أنزل اللَّه تعالىٰ: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦][1].

فيجب الحذر البالغ، من أن ينجر اللسان إلىٰ السخرية بأهل التقوىٰ،

(١) تفسير الطبري (١١/ ٥٤٣).

والدين، وأعظم ذٰلك أن تقع السخرية بالعلماء؛ فإن العلماء هم الموقعون عن رب العالمين، فالنيل منهم ليس كالنيل من أحد من عامة المسلمين، وإن كان المسلم محترمًا في جميع أحواله، وأصنافه، لٰكن لأهل العلم والدين مكانة خاصة؛ إذ أنهم يحملون شارة الشريعة، وشعار الدين، فالسخرية بهم تنجر علىٰ الدين. ولهٰذا ينبغي لطلبة العلم أن يحذروا العامة من السخرية من أئمة الدين، ورجال الحسبة، وطلبة العلم، وأن ذٰلك ليس كسخريةٍ بغيرهم.

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾: اللَّه أكبر! كيف انقلب الحال، في أول الآيات قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ واليوم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وذٰلك أنهم يطلعون عليهم، وهم يعذبون في النار، بين أطباق الجحيم، فيضحكون من حالهم، كما حكىٰ اللَّه ﷻ في سورة «الصافات» عن أحد المؤمنين: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الصافات: ٥٤ ـ ٥٥]! فهٰذه جرت لشخص، وما في سورة المطففين لجماعة المؤمنين، وهم يضحكون من المجرمين.

﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾: استفهام تقريري، ليس للنفي، ومعنىٰ ﴿ثُوِّبَ﴾ أي جوزي، وليس الثواب الذي بمعنىٰ المكافأة الحسنة. والجواب: نعم! أنهم في الجحيم، والمؤمنون ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾.

الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: أذية المجرمين للمؤمنين بالقول والعمل.

الفائدة الثانية: الحرب النفسية للصد عن سبيل اللَّه، فعلىٰ المؤمن أن يتهيأ لمثل هٰذا، وأن يتجبَّر باللَّه ويعتصم به.

الفائدة الثالثة: التشويه الإعلامي للحق، وأهله، ودعاته.

الفائدة الرابعة: اشتغال الكفار بما لا يعنيهم، وإفناء أعمارهم بما يرديهم.

الفائدة الخامسة: العاقبة للتقوىٰ.

الفائدة السادسة: تسلية المؤمنين وطمأنتهم.

الفائدةالسابعة: أن الجزاء من جنس العمل.

سورة الانشقاق

هٰذه السورة ـ سورة «الانشقاق» ـ هي ثالث السور الأخوات، قال ﷺ «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾» رواه الترمذي(١).

ذٰلك أن كل واحدة من هٰذه السور، ترسم صورة القيامة. فتضمنت هٰذه السورة مقاصد عظيمة منها:

١ ـ الإيمان بالبعث والقيامة.

٢ ـ الإيمان بالحساب والجزاء.

٣ ـ الإيمان بالقرآن.

٤ ـ ذم منكري البعث والقرآن.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾: ﴿إِذَا﴾: أداة شرط ﴿ٱنشَقَّتْ﴾ أي انفطرت، كما نقول في قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار: ١] أي انشقت فهما بمعنىٰ واحد. وخير ما يفسر به القرآن هو القرآن. والمقصود بـ﴿ٱنشَقَّتْ﴾ أي تصدعت،

(١) سنن الترمذي (٣٣٣٣) وصححه الألباني.

وتمزقت. فهٰذه السماء المحكمة التي تحدىٰ اللَّه تعالىٰ بها الخلق أن يجدوا فيها أدنىٰ فطور، تتمزق يوم القيامة.

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢﴾ أي سمعت. والأَذن هو السماع، ومنه قول النبي ﷺ: «**مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ**» متفق عليه[1]. فمعنىٰ أذن: أي استمع، ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾: أي سمعت وأطاعت، لأن السماع نوعان: سماع إدراك، وسماع إجابة، وطاعة. فالمقصود هنا سماع الإجابة، والطاعة.

﴿وَحُقَّتۡ﴾ يعني: وحق لها أن تطيع، ذٰلك أن السماوات، والأرضين، والجبال، طاعتها للَّه ﷻ طاعة كونية، بينما الإنسان طاعته للَّه ﷻطاعة كونية وشرعية. وهٰذا معنىٰ قول اللَّه: ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ۝٧٢﴾ [الأحزاب: ٧٢]. وليس معنىٰ ذٰلك أن السماوات، والأرضين، والجبال، أبت أن تطيع اللَّه، فالمقام مقام عرض، لٰكنها لا تطيق حمل الأمانة. وهي منساقة لأمر اللَّه الكوني، دون الشرعي، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾ لأن اللَّه تعالىٰ أعطاه الاختيار، ولأجل ذٰلك صار مبتلىٰ بامتثال الشرع، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. وليس معنىٰ طاعة السماوات، والأرضين، والجبال لأمر اللَّه طاعةً كونية، أن هٰذه المخلوقات لا حقيقة لها، تخاطَب بها، بل يتوجه إليها الخطاب، وترد الجواب، علىٰ ما يليق بها. قال اللَّه مخاطبًا إياها: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾ [فصلت: ١١]. فهٰذا يدلنا علىٰ أن لهٰذه المخلوقات ذات تعبِّر عنها، لا ندرك كيفيتها، ولا حقيقتها، وتسمع، وتطيع، وتستجيب لأمر ربها، وتسبح بحمده ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ... ﴾ [الإسراء: ٤٤] فهٰذا أمر ينبغي أن يؤمن بجملته، وإن لم تدرك تفاصيله.

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣﴾، انتقل المشهد من أعلىٰ إلىٰ

(١) صحيح البخاري (٥٠٢٤)، صحيح مسلم (٧٩٢).

أسفل! هٰذه الأرض التي يدب عليها الإنسان، ويحرثها، ويزرعها، ويعيش في أكنافها، تتغير يوم القيامة: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾: أي زيد في سعتها، وبسطت، ومدت مد الأديم. فاللَّه يغير السماوات والأرض يوم القيامة، كما في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨]. الأرض التي كانت كروية، تبسط يوم القيامة، وتمد، ويزاد في سعتها، لتستوعب جميع الآدميين، والوحوش، وكل شيء كان علىٰ ظهرها، علىٰ مر القرون. ومن معنىٰ المد أنه ليس فيها معلم لأحد، بل هي كالخبزة، كما روي عن سهل بن سعد الساعدي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤] قال: «أرض بيضاء عفراء خالية كالخُبزَة النَّقِيّ»[1]. أرض جديدة، لم يسفك عليها دم. قد أعاد اللَّه تكوينها؛ فليس فيها جبل مشرف، ولا واد سحيق، ولا مغارات، ولا كهوف، ولا كثبان، بل هي أرض ممدودة، ليحصل البروز التام للَّه ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾: يعني قذفت ما في بطنها من الأموات، وغيرهم. و«ما» من ألفاظ العموم، لأنها بمعنىٰ اسم موصول.

﴿وَتَخَلَّتْ﴾ أي تخلت عنهم، كما يقال تخلىٰ الرجل: أي قضىٰ حاجته، وأخرج ما في جوفه. فكأن هٰذه الأرض تخرج ما في جوفها من الأموات، وغيرهم ممن لا يعلمهم إلا اللَّه ، فقد ورد في بعض الآثار أنها تلقي ما فيها، حتىٰ أسورة الذهب. لٰكن المراد أصلًا، إخراج الأموات، وإثبات البعث.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾: كما أختها السماء، فأذنت: بمعنىٰ سمعت سمع طاعة، وحق لها ذٰلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾: الكدح: هو العمل الذي فيه مشقة واتصال، فأنت أيها الإنسان في هٰذه الحياة تكدح كدحًا شاقًا متواصلًا يوشك أن تلاقيه، وللمفسرين قولان في مرجع الضمير في قوله ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾: منهم من قال: إن مرجع الضمير إلىٰ العمل أي: فملاقىٰ ذٰلك

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٨٩).

العمل، الذي كدحت فيه، ويشهد له قول اللَّه تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠]. ومنهم من قال: إن مرجع الضمير إلىٰ اللَّه . وهٰذا الثاني أرجح. وبين المعنيين تلازم؛ فإن هٰذا العمل يُكدح به إلىٰ اللَّه ، فيخلو اللَّه تعالىٰ بعبده، ويوقفه علىٰ عمله، فيحصل اللقاء. وقد ذكر الشيخ الإسلام ابن تيمية، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أن الملاقاة فيها معنىٰ السير إلىٰ الملك[(١)]، فلا تكون ملاقاة إلا بسير وقصد.

فليعلم الإنسان أن الكدح لابد منه، وأن الدنيا ليست بدار نعيم، فإن كنت لابد كادحًا، فاجعل كدحك فيما تحمد عاقبته في الآخرة. وهاهم الكفار علىٰ اختلاف مللّهم، يلحقهم من الشقاء، والنكد، والكبد، مثل ما يلحقنا أيضا، وأشد، لٰكن فرقُ ما بين المؤمن والكافر، أن المؤمن يرجو ما عند اللَّه ويحتسب، ويعمل عملًا صالحًا.

ثم إنه بين أحوال الناس فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ ابتدأ بالصنف الأسعد، والأحظ، وهو من يؤتىٰ كتابه بيمينه، من أهل اليمين، وذٰلك أن الكتب يوم القيامة تبرز، فآخذ كتابَه بيمينه، وآخذ كتابَه بشماله، من وراء ظهره. وقد ذكر اللَّه تعالىٰ هٰذا أيضًا في سورة «الحاقة» في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾ [الحاقة: ٢٥].

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ هٰذا الحساب اليسير، المراد به العرض، وهو الذي دل عليه حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، كما في الصحيحين: «**يُدْنَىٰ الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ** عَزَّ وَجَلَّ، **حَتَّىٰ يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ: هَل تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ، قَالَ: فَإِنِّىٰ قَدْ سَتَرتها عَلَيْكَ فِىٰ الدُّنْيَا، وَإِنِّىٰ أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَىٰ صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ. وَأَمَّا الْكُفَّارُ، وَالْمُنَافِقُونَ، فَيُنَادَىٰ بهم عَلَىٰ رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ: هٰؤلاء الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللَّه**» متفق عليه[(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٤٢٦).

(٢) صحيح البخاري (٤٤٠٨)، صحيح مسلم (٢٧٦٨).

وأما المناقشة فأشد منه، ويبين الفرق بين الأمرين حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت النبي ﷺ يقول «**مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ**». **فَقُلْتُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّه** عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾؟ فَقَالَ: «**لَيْسَ ذَاكِ الْحِسَابُ، إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ. مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ**» متفق عليه[(١)].

وذٰلك أن الموحدين علىٰ صنفين؛ منهم من سبقت لهم من اللَّه الحسنىٰ، وشاء اللَّه تعالىٰ، أن يغفر ذنوبه، فهٰذا يعامل بالعرض. ومنهم من عصاة الموحدين، من يدقق معه، ويحقق، وسبق في مشيئة اللَّه أن يُعذَّب بقدر ذنبه، ومآله إلىٰ الجنة، فهٰذا الذي يعامل بالمناقشة. فمن نوقش عُذِّب، لأنه ما دقق معه في الحساب، إلا لتقوم عليه الحجة التامة، لٰكن مآله إلىٰ الجنة.

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩﴾ ينقلب بمعنىٰ يرجع، وأما أهله، أزواجه في الجنة من الحور العين ﴿مَسۡرُورٗا﴾ أي مغتبطًا قرير العين. هٰذه هي السعادة الحقيقة التي ما بعدها سعادة. إلا سعادة النظر إلىٰ وجه اللَّه الكريم؛ ثم قال في القسم الثاني من التفريع:

﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠﴾، وقال في سورة «الحاقة»: ﴿بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥]، ولا تعارض بين الصورتين، ذٰلك أن الكافر والعياذ باللَّه تُغل يمناه إلىٰ عنقه، وتلوىٰ يده اليسرىٰ من وراء ظهره، ويؤتىٰ كتابه بشماله. وفي هٰذا من البشاعة، والشناعة، ما لا يخفىٰ. وفيه ازدراء له واحتقار.

﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١﴾: أي ينادي بالهلاك، والثبور يقول: «وا ثبوراه، وا ثبوراه» أيُّ ثبور أشنع، وأشد، من هٰذا الثبور؟

﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ وورد في قراءة نافع، وابن كثير، وابن عامر، والكسائي ﴿**وَيُصَلَّىٰ سَعِيرًا**﴾ بضم الياء، وفتح الصاد، وتضعيف اللام. وذٰلك أنه يدخل في النار حتىٰ تحرقه، وتشويه، والسعير: اسم من أسماء النار، وذٰلك لتسعرها بالحجارة والناس، ﴿... وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] ثم وصف اللَّه

---

(١) صحيح البخاري (١٠٣)، صحيح مسلم (٢٨٧٦).

حاله في الدنيا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ١٣﴾: أي أنه كان في الدنيا مسرورًا، كان فرِحًا، أشِرًا، بطِرًا، لا يبالي، ولا يصدِّق ببعث، ولا جنة، ولا نار.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤﴾، ظن: أي أيقن. أن لن يحور: أي أن لن يرجع إلىٰ ربه، إذ كان منكِرًا للمعاد.

فرد اللَّه تعالىٰ: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ١٥﴾ فاللَّه أخبرُ به، وأبصرُ.

ثم إن اللَّه تعالىٰ قال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦﴾ وكلام المفسرين في معنىٰ «لا»: أن يكون معنىٰ النفي: أن الأمر لا يحتاج إلىٰ قسم، فهو من البيان بمكان، أو أن يكون علىٰ سبيل الوقف، بتقديرٍ محذوف: يعني ﴿فَلَآ﴾ أي فليس الأمر كما تدعون، ثم ﴿أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾. وإما أن يقال أنها زيادة من باب التأكيد، فهي زائدة لفظًا، لا معنىٰ. والشفق هو الحمرة التي تعقب غروب الشمس. وقال مجاهد في تفسيره، إن الشفق النهار كله[1]. والأول أولىٰ. وإنما قال المراد به النهار كله، ليكون بمقابل ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ وقد جاء في حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه، عندما علَّم جبريل النبيَّ ﷺ وقت صلاة المغرب، قال: «ثُمَّ أَتَاهُ حِينَ غَابَ الشَّفَقُ الأَحْمَرُ...» رواه النسائي[2]، فهو علامة كونية شرعية.

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾ الليل: من مغيب الشمس، إلىٰ طلوع الفجر. ﴿وَمَا وَسَقَ﴾: أي ما جمع، وحوىٰ، ولف، ونحو هٰذه الكلمات، لأن هٰذه المادة ـ وسق ـ تدل علىٰ الجمع. ولهٰذا أطلق علىٰ الوعاء الكبير، الوسق، فهو يدل علىٰ الجمع والاستيعاب. يقسم اللَّه، سبحانه، بالشفق، ويقسم بالليل، وما جمع الليل، مما يسكن فيه من أنواع الكائنات ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الأنعام: ١٣].

ولو سرح الإنسان بفكره في هٰذا، لذهب به الخيال إلىٰ معانٍ لا حصر لها، فيما يجمعه هٰذا الليل، من أحداث، وموجودات، وتصرفات وغيرها.

---

(١) تفسير مجاهد (١/ ٧١٥).
(٢) سنن النسائي (٥١٣) صححه الألباني.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨﴾ إذا اتسق: يعني إذا اكتمل، أو إذا استدار، وذٰلك يكون في الليالي البيض، وهن: ليلة ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة، فهو قَسم بالقمر، في أكمل أحواله، حينما يكون بدرًا. وللَّه تعالىٰ أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ١٩﴾ هٰذا جواب القسم، فاللام وقعت في جواب القسم ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾، هٰذه هي القراءة المشهورة؛ بضم الباء، وأصلها «لَتَركَبُونَنَّ» فجرىٰ فيها حذف النون، لتوالي الأمثال، فأصبحت «لَتَركَبُونَّ»، وحذفت الواو لاجتماع الساكنين، فصارت ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾. والمخاطب عموم الناس. ووردت بفتح الباء، علىٰ قراءة ابن كثير، والكسائي، وخلف، وحمزة، فيكون المخاطب بها، النبي ﷺ.

﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ هٰذا من بلاغة القرآن العجيبة، وجمعه لأنواع المعاني، ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي حالًا بعد حال، وذٰلك أن الناس ـ علىٰ القراءة المعروفة ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ ـ تتنوع أحوالهم من الناحية الخِلقية، ومن الناحية القدرية، تنوعا عجيبًا، فإن أحدهم كان نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظامًا، ثم صار جنينًا، ثم أُخرج إلىٰ الأرض رضيعًا، ثم فتىٰ يافعًا، ثم كهلًا، ثم شيخًا، ثم يموت، ثم يبعث. هٰذه أطباق متوالية. وقيل ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: أي سماءً بعد سماء، وهٰذا يتفق مع القراءة الثانية في توجيه الخطاب إلىٰ النبي ﷺ، وكأن في هٰذا إشارة إلىٰ ما أكرمه اللَّه تعالىٰ به من العروج إلىٰ السماوات العُلىٰ، ففسرت بأطباق السماء ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣] فسماء فوق سماء.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٠﴾ هٰذا استفهام إنكاري يتضمن التعجيب من حالهم، وكفرهم بالبعث، فكيف لا يؤمنون به، وهم يرون أن اللَّه ، قد نقلهم من طبق إلىٰ طبق، ومن حال إلىٰ حال، فالذي خلقهم من العدم، وأخرجهم من بطون أمهاتهم، حتىٰ تقلبوا في أحوال الدنيا طبقًا عن طبق، قادر علىٰ أن يبعثهم. فلهٰذا جاء التعجيب في مكانه.

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ٢١﴾ القرآن كلام اللَّه، الذي تكلم

به حقيقة، لا يشبه كلام المخلوقين، ليس هو المعنىٰ دون الصوت، ولا الصوت دون المعنىٰ، بل هو كلام حقيقي من حرف وصوت، لا يكون كلامًا إلا بذٰلك. لٰكنه كلام عظيم، شريف، حتىٰ إذا تكلم سبحانه أخذت السماواتِ من كلامه رجفةٌ، وصعق الملائكة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٣] فينزل به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلىٰ قلب محمد ﷺ، ويعتري رسولَ اللَّه ﷺ من الجهد، الشيءُ العظيم، حتىٰ إنه ليتفصد عرقًا في اليوم شديد البرد، وحتىٰ إنه يثقل بدنه، حتىٰ بركت به ناقته ذات مرة، وكانت فخذه مرة، علىٰ فخذ زيد بن ثابت، فكادت أن ترض. كل ذٰلك من شدة الوحي وثِقَله، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المزمل: ٥] ويشتد أثره علىٰ النبي ﷺ، حتىٰ إنه كان يسمع له صلصلة كصلصلة الجرس، حينما ينزل عليه الوحي، ولولا أن اللَّه قواه، ما استطاع أن يتلقىٰ هٰذا الكلام الثقيل العظيم. وهٰذه أحد مواضع سجود التلاوة المتفق عليها.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾ الذي يمنعهم من تعظيم القرآن، والسجود للمتكلم به، سبحانه، هو التكذيب، فكونهم يكذبون بالبعث، ويكذبون بالقرآن، ولا يرونه من عند اللَّه، لا يحصل لهم هٰذا التعظيم، والإجلال، والخشوع، الذي يحصل لعباد اللَّه المؤمنين، من جنس قول اللَّه: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

هٰذان مثالان علىٰ اختلاف الاستقبال بين الناس؛ قوم لا يرفعون به رأسًا، ولا يسجدون له إذا أُمروا، وقوم إذا سمعوه خروا سجدًا، وعلموا أن هٰذا القول قول كريم، ليس كسائر كلام الناس، وتجيش قلوبهم وتستجيب جوارحهم ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ ...﴾ ـ تنزيهًا له ـ ﴿... إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ فهٰذا الخشوع نابع من العلم باللَّه .

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣﴾ بما يوعون: أي بما يجمعون من الأعمال، لأن الوعي بمعنىٰ الجمع.

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤﴾ الأصل في البِشارة أن تكون للأمور السارة، والنِذارة للأمور الضارة، لٰكن البِشارة يعبَّر بها أحيانًا عن الأمور المخوفة، وذٰلك لأن الأثر يظهر علىٰ البَشرة، فسميت البشارة لذٰلك؛ فإذا سر الإنسان تَهلل وجهه، وإذا خاف اصفر وجهه، فالبَشرة مرآة القلب، ويكون التعبير هنا من باب النِكاية بهم ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فجعل البِشارة في موضع النِذارة، تبكيتًا لهم، وليكون أبلغ في وقعه عليهم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثنىٰ اللَّه تعالىٰ استثناءً منقطعًا، لأنهم أصلًا غير داخلين في ذٰلك الوعيد، فـ﴿إِلَّا﴾ هنا بمعنىٰ بل.

﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ أي غير مقطوع.

فاللَّه تعالىٰ لا يذكر الإيمان إلا ويقرنه بالعمل غالبًا. فمن ادعىٰ إيمانًا بقلبه، ولم يصدقه بعمله، فدعواه كاذبة. إن كان الإيمان حقًا في القلب، فلابد أن يظهر علىٰ الجوارح. ولهٰذا نجد أن بعض الفساق المسرفين علىٰ أنفسهم، إذا نُصحوا، ووُعظوا، قال قائلهم: «التقوىٰ هاهنا. التقوىٰ هاهنا»، يتمثل قول النبي ﷺ في «صحيح مسلم: «... **التَّقْوَىٰ هَاهُنَا**» وَيُشِيرُ إِلَىٰ صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. رواه مسلم[(١)]!.

فيقال له: لو كانت التقوىٰ في القلب، لظهرت علىٰ الجوارح، من اتقىٰ اللَّه تعالىٰ حقًا وصدقًا، عصم لسانه، وجوارحه، عن الوقوع فيما حرم اللَّه، واللَّه أعلم.

❁ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: شدة أهوال يوم القيامة.

الفائدة الثانية: بيان ربوبية اللَّه. فاللَّه تعالىٰ رب السماوات، والأَرَضين،

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٦٤).

ومن فيهما؛ من مؤمن، وكافر، وبر، وفاجر، وكل ساكن، ومتحرك، ورطب، ويابس، هو خالقُه، ومليكُه، ومدبره، فهٰذه الربوبية العامة. وأما ربوبية اللَّه لعباده المؤمنين، فإنها ربوبية خاصة، فيها معنىٰ اللطف، والتيسير، والحفظ، ونحو ذٰلك.

الفائدة الثالثة: إثبات البعث.

الفائدة الرابعة: بيان حال الإنسان في الدنيا، وهو الكدح، والكبَد. فلا ينتظر الإنسان في هٰذه الدنيا نعيمًا.

الفائدة الخامسة: إثبات الحساب وتنوعه.

الفائدة السادسة: كمال عدل اللَّه ورحمته، فاللَّه حكم عدل، مقسط، لا يظلم مثقال ذرة.

الفائدة السابعة: شؤم عاقبة المنكرين للبعث.

الفائدة الثامنة: إقسام اللَّه بما شاء من مخلوقاته، وليس للمخلوق إلا أن يقسم باللَّه .

الفائدة التاسعة: تنوع أحوال الناس في الدنيا، والآخرة.

الفائدة العاشرة: التعجيب من حال المنكِرين للبعث.

الفائدة الحادية عشرة: عظمة القرآن، ووجوب الإيمان به، وأنه كلام اللَّه حقًّا.

الفائدة الثانية عشرة: سبق علم اللَّه وقدره.

الفائدة الثالثة عشرة: حسن عاقبة المؤمنين.

الفائدة الرابعة عشرة: أن العمل داخل في مسمىٰ الإيمان ومقتضاه.

سورة البُروج

هٰذه السورة العظيمة، سورة ذات موضوع واحد، ولها مقاصد عظيمة، يمكن أن نجملها بثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: بيان منزلة المؤمنين عند ربهم.

المقصد الثاني: الأثر الذي يحدثه الإيمان في العلاقات بين البشر.

المقصد الثالث: تمجيد الرب نفسه، وحكمته في قدره، وشرعه.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾: السماء هي هٰذا البناء المحكم العلوي، الذي فوقنا. وهي السقف المرفوع: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وما نبصر منها إنما هو السماء الدنيا، سميت بذٰلك لدنوها من الأرض. وصف اللَّه هٰذه السماء بأنها ﴿ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ قيل: إنها النجوم والكواكب، وقيل: إنها القصور السماوية، التي تنزل فيها النجوم، والكواكب كما قال اللَّه ﷻ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١﴾ [الفرقان: ٦١].

وأصل هٰذه الكلمة البُروج مأخوذ من البُروز، والظهور. ولهٰذا سميت القلعة، برجًا، لبروزها وظهورها. ومنه قولهم: تبرجت المرأة، إذا برزت

للناس وأظهرت محاسنها. فمن قال: إنها القصور، نظر إلىٰ قول اللَّه تعالىٰ ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، بل إن بعضهم قال: إن في السماء قصورًا تأوي إليها الملائكة. ولٰكن لا دليل عليه يؤثر فيعتمد عليه. والأقرب، واللَّه أعلم، أن المقصود بالبروج المنازل التي تنزل فيها الكواكب، والأجرام السماوية، وعدتها اثنا عشر برجًا، وهي التي تسميها العرب: الحمل، والثور، والسنبلة، والجدي، والميزان، والعذراء، وهٰكذا. وقد كانوا يدركون من الأفلاك سبعة، أو ستة، ويجعلون كل نجم، أو كوكب يختص بشيء من هٰذه الأبراج.

وهٰذا قسم عظيم، لأن هٰذا الخلق الهائل، لا يدرك مداه إلا اللَّه، ولهٰذا قال ربنا في آية أخرىٰ ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦] فمواقع النجوم هي هٰذه البروج التي تنزل فيها النجوم في أوقات مقدرة.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢﴾: لا أعلم فيه خلافًا أن المراد به يوم القيامة؛ لأنه يوم وعد اللَّه فيه العباد، أو أوعد به العباد لجمعهم فيه.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾: ﴿وَشَاهِدٍ﴾: قيل إنه يوم الجمعة، ﴿وَمَشْهُودٍ﴾: قيل يوم عرفة، فيوم الجمعة شاهد لأنه يشهد لمن حضرها، والمشهود يوم عرفة لأن الناس تشهده. ولٰكن هٰذا تفسير للشيء ببعض أنواعه، واللفظ أعم. فإن يوم الجمعة يصلح أن يكون شاهدًا ومشهودًا؛ فهو شاهد لمن حضره، ومشهود ممن حضره، كما أن يوم عرفة أيضًا شاهد لمن حضره، ومشهود ممن حضره. فالراجح ما ذهب إليه ابن القيم[1] أن الشاهد، والمشهود، أي المُدرِك والمُدْرَك، والعالم، والمعلوم، والرائي، والمرئي. فكل ما دل عليه اسم الفاعل، وما دل عليه اسم المفعول، يدخل فيه.

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾: قيل إن هٰذا هو جواب القسم. يعني قد قتل أصحاب الأخدود. وقيل إن جواب القسم «لتبعثن». والأقرب أن تكون علىٰ

(١) زاد المعاد (١/ ٣٩٨).

الظاهر، دون المضمر، فقد قال اللَّه ﷻ: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾. ليس هٰذا القسم لإثبات هٰذه الحادثة وحسب، فإنها تثبت بمجرد خبر اللَّه ﷻ، وإنما لتفخيمها، وتعظيمها، فإن هٰذه الحادثة، حادثة عظيمة جدًا، جرت في زمن متقدم، وذٰلك أن اللَّه هدىٰ بعض الناس، في بلاد اليمن، فآمنوا باللَّه، قيل إنهم كانوا من النصارىٰ الموحدين، ثم إن ملك زمانهم، والملأ من قومهم، نقموا عليهم نقمة شديدة، وأرادوا حملهم علىٰ الرجوع إلىٰ دينهم، فأبوا، واعتصموا باللَّه ﷻ، فما كان من قومهم إلا أن خدُّوا لهم الأخاديد في الطرقات، والأخدود هو الشق في الأرض، وأضرموا فيها النار، ثم عرضوهم علىٰ النار، وهم قعود علىٰ كراسيهم، يتفكهون، ويقولون لأحدهم: إما أن ترجع إلىٰ دينك، ودين أبائك، وأجدادك، وإلا قذفناك فيها. وثبت اللَّه المؤمنين بالقول الثابت، فصاروا يلقونهم في النار، ويستمتعون بمرآهم، وهم يحترقون، ويشمون رائحة شوائهم، ولا يبالون. قيل إن اللَّه تعالىٰ، كان يقبض أرواح المؤمنين، قبل أن يهووا في النار، فلا يجدون حرها. وهٰذه الحادثة موافقة لما قص النبي ﷺ، من قصة الغلام المؤمن[(١)].

فخلد اللَّه ذكر هٰذه الحادثة في كتابه، قرآنًا يتلىٰ إلىٰ يوم القيامة، فيه أسوة، وعبرة لكل المؤمنين، علىٰ مر الأزمان، إذا لقوا من أهل الكفر والطغيان أذىً، وفتنة، تذكروا ما جرىٰ لإخوانهم الذين حرقوا في الأخاديد، فأثنىٰ اللَّه عليهم، وزكاهم، ووعدهم، وتوعد مخالفيهم، وعاقبهم العقاب الدنيوي، قبل العقاب الأخروي. ولهٰذا دعا عليهم، فقال ﴿قُتِلَ﴾ يعني لعن.

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥﴾: هٰذا بدل اشتمال؛ لأن الذي في الأخدود نار تضطرم، فيها الوقود الذي أوقدت به من الحطب وغيره.

﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦﴾: يعني أنهم استحقوا اللعنة، والقتل، أشد ما يكون،

---

(١) التي وردت في الصحيح، حتىٰ إن النبي ﷺ حدث ببعض تفاصيلها فقال: «... **جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهِ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَىٰ الْحَقِّ**» رواه مسلم (٣٠٠٥). فألقت بنفسها وولدها في النار.

حال كونهم قعودًا، شاهدين، حاضرين، يتفكهون، ويتلذذون بمرأىٰ المؤمنين وهم يعذبون، ويحترقون. فلهٰذا آشتد غضب اللَّه عليهم، ونكاله، وبغضه لهم في هٰذه الدنيا، فوق ما يأتيهم في الآخرة.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾: يعني حالهم أنهم شهود، حضور، شاهدون علىٰ أنفسهم، ما فعلوه مكرهين، مضطرين، بل بمحض إرادتهم، وسبق إصرارهم، ليقفوا هٰذا الموقف.

﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾: يعني ما نقم هٰؤلاء الكفار من المؤمنين، وما أنكروا عليهم شيئًا، من خلق، ولا من سلوك، ولا غيرهما، ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾! فلما آمن هٰؤلاء الموفقون، نقم الملأ عليهم، وغاظهم ذٰلك، مع أنهم ما تعرضوا لهم، ولا أخذوا مالهم، ولا ضربوا أبشارهم. لٰكنه الحقد الدفين في قلب الكافر علىٰ المؤمن. فبين المؤمن والكافر نفرة شديدة؛ فلا يتواءمان، ولا يتساكنان، ولا يجتمعان. فالإيمان والكفر ندان، نقيضان.

فكل صاحب حق، فارق صاحب باطل، فإن صاحب الباطل يجد في نفسه من التغيظ عليه، والنفرة منه، ما يحمله علىٰ أذيته. تجد الإنسان يكون بين طائفة من الغافلين، ثم يلقي اللَّه تعالىٰ في قلبه الإيمان، ويستقيم علىٰ الدين، فيتعرض للأذىٰ الحسي، والأذىٰ المعنوي، فينبزونه بالألقاب، ويؤذونه؛ لأنهم يرون أنه تميز عليهم، وارتقىٰ عتبة، ودرجة في السلم، وهم بعد لا يزالون في الحضيض. كذٰلك المبتدعة مع أهل السنة، حينما يدع الإنسان البدعة، ويلزم السنة، ويقول: لا أعبد اللَّه إلا بما شرع علىٰ لسان نبيه ﷺ، ينبزونه بالألقاب السيئة، يريدون أن يردوه إلىٰ حاله. فلهٰؤلاء سهم، وكفل، من هٰذه الصفة، فبين أصحاب الأخدود، وبين المبتدعة والفساق، قدر مشترك في هٰذا الأمر، لمن تأمل وقد نبه علىٰ هٰذا المعنىٰ اللطيف، ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٦٧) قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهٰكذا المشرك إنما ينقم علىٰ الموحد تجريده =

﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ ختم الآية بِهٰذين الاسمين الكريمين من أسماء اللَّه الحسنىٰ تنبيه بليغ علىٰ أن اللَّه عزيز، أي قوي، غالب، منيع الجناب، فله عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة المنعة. فلا يظنن ظان أن اللَّه خذل أولياءه، بل هو سبحانه عزيز الجناب، لٰكن له حكمة بالغة، فإن الآثار المترتبة علىٰ هٰذا الحدث العظيم إلىٰ يوم القيامة، إن تعد لا تحصىٰ. ففيها من العبر، والدروس الإيمانية، ما ينهل منها أهل الإيمان إلىٰ قيام الساعة. وهو سبحانه «حميد»: أي أنه محمود، ففعيل بمعنىٰ محمود، في ذاته، وشرعه، قدره، وما يجريه. فلم يكن ذٰلك منه عن غفلة، حاشاه، بل هو لحكمة بالغة.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾: أي أن إيمان هٰؤلاء القوم باللَّه ﷻ، كان إيمانًا عميقًا، مبنيًا علىٰ دلائل الربوبية، لم يكن إيمانهم إيمانًا تقليديًا، أو لمجاراة، أو لطلب ممدحة من الناس، كلا! بل هو إيمان عميق، راسخ، يستمد مادته من دلائل الربوبية، ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فمن له ملك السماوات والأرض، جدير بأن يعبد وحده، لا يشرك معه أحد سواه. وقد كان ملك زمانهم يأمرهم بعبادة نفسه.

ولهٰذا احرص يارعاك اللَّه، أن تجعل إيمانك مربوطًا بأشياء ثابتة، لا يكون إيمانك إيمانًا سطحيًا، عاطفيًا، يتعلق بحالة آنية، أو حادثة معينة. اجعل إيمانك مرتبطًا بالثوابت الكونية، بأن اللَّه خالق الأرض والسماء، وتأمل ماقال أصحاب الكهف: ﴿إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الكهف: ١٤]، فارفع رأسك إلىٰ قبة السماء! وانظر إلىٰ فجاج الأرض. فليكن تشبثك بدلائل الربوبية الثابتة قويًّا، ولهٰذا ينتكس بعض من يوصف بأنه استقام، والتزم، وصلح، لأنه استقام استقامة ظاهرية، وتأثر تأثرًا آنيًّا، إثر موقف

= للتوحيد، وأنه لا يشوبه بالإشراك. وهٰكذا المبتدع: إنما ينقم علىٰ السني تجريده متابعة الرسول، وأنه لم يشبها بآراء الرجال، ولا بشيء مما خالفها، فصبر الموحد المتبع للرسول علىٰ ما ينقمه عليه أهل الشرك، والبدعة خير له، وأنفع وأسهل عليه من صبره علىٰ ما ينقمه اللَّه ورسوله عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة.

إذا لم يكن بد من الصبر فاصطبر علىٰ الحق ذاك الصبر تحمد عقباه

عاطفي، أو هيجان طارئ، ثم لما زال المؤثر زال الأثر.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٩﴾ يعني أن اللَّه ﷻ، شاهد، مطلع علىٰ كل شيء، لا تخفىٰ عليه خافية، فما جرىٰ لهم، لا لهوانهم علىٰ اللَّه ﷻ، ولٰكن لما أعد اللَّه لهم من الكرامة، والفضل، والرفعة في الدنيا والآخرة، وتأمل المقابلة بين وصفه لهم بأنهم ﴿عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ﴾، ووصفه لنفسه بأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾! يتبين لك مدىٰ طغيانهم وحمقهم، ومدىٰ حلمه وعلمه وحكمته سبحانه.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: إقسام اللَّه بآياته الكونية، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾، والشرعية ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ يوم عرفة، ويوم الجمعة فهٰذه مما شرعه اللَّه تعالىٰ.

الفائدة الثانية: تعظيم حادثة الأخدود، وعدم غفلة الرب عما جرىٰ للمؤمنين.

الفائدة الثالثة: شدة عداوة الكافرين للمؤمنين، وغلظتهم عليهم، كما قال ربنا ﷻ: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗ﴾ [التوبة: ١٠] وهٰذه سمة باقية إلىٰ يوم القيامة.

الفائدة الرابعة: نفرة الكافرين من تميز المؤمنين عليهم، ومفارقتهم إياهم بالإيمان. ويتفرع عن هٰذه الفائدة: نفرة العصاة من أهل الطاعة، ونفرة المبتدعة من أهل السنة.

الفائدة الخامسة: عمق إيمان المؤمنين، وارتباطه بدلائل الربوبية.

📖 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾:

﴿فَتَنُواْ﴾: أي عذبوا، وتحديدًا: حرقوهم في النار. وهٰذا موافق لأصل كلمة الفتن في اللغة؛ لأن الفتن في اللغة: إدخال الصائغ الذهب في أتون النار، لينفصل المعدن النقي، من الخبث العالق به. والحقيقة أن الفتنة كذٰلك! فاللَّه تعالىٰ يبتلىٰ عباده، لكي يميز الخبيث من الطيب. وحتىٰ تتخلص نفس الطيب من الشوائب، والأخلاق الرديئة. فإن للابتلاء فائدةً، وأثرًا، وحكمة. قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٢].

وفي قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ دلالة علىٰ أن هٰذا جرىٰ للرجال، والنساء، رحمهم اللَّه جميعًا. وتأمل الاحتراز في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾! يعني أنهم لو تابوا، لقبل اللَّه توبتهم، بعد ما فعلوا ما فعلوا، وهٰذا يدلك علىٰ عظيم حلم اللَّه ﷻ، وواسع فضله، وأن من أذنب ذنبًا ـ أيًّا بلغ ذٰلك الذنب شناعةً وبشاعة ـ ، ثم تاب منه، تاب اللَّه عليه، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]! فهٰذا عجيب جدًّا من الرب ﷻ! كيف وسع حلمه أن يتوب علىٰ هٰؤلاء لو تابوا!

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾: أما جهنم، فهو اسم من أسماء النار. وقال بعض المفسرين: إن عذاب الحريق المذكور هنا، هي النار التي أحرقوا بها المؤمنين، امتدت إليهم، وأحرقتهم، فهٰذا هو الحريق الذي نعلمه.

وقال بعضهم: توعدهم بالعذاب الأخروي مرة بالاسم، ومرة بالوصف. فجهنم اسم للنار، والحريق وصف له، وبيان لحقيقته. والجزاء من جنس العمل؛ فكما أنهم حرقوا هٰؤلاء المؤمنين بنار الدنيا، فهم متوعدون بنار

تفضل نار الدنيا بسبعين ضعفًا، وهي نار جهنم. واللَّه أعلم، وأيًا كان الأمر، فإنا نعلم، يقينًا، أن اللَّه ﷻ، ما كان ليدعهم. قال اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر: ٥١]. إذًا هناك نصر دنيوي، قبل النصر الأخروي؛ فيقيض اللَّه من أقداره، ما ينتقم به من هٰؤلاء الطغاة. ومن تتبع التاريخ، وقرأ سير المؤمنين؛ أفرادًا، وجماعات، وما نالهم من أذىٰ، وعذاب، يجد أن اللَّه تعالىٰ لم يدع من ظلمهم، بل عجل له بعقوبة دنيوية، قبل العقوبة الأخروية، إحقاقًا للحق، ونصرة للمؤمنين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾ [البروج: ١١]: ومن أول الناس دخولًا في هٰذا الوعد الكريم، هٰؤلاء المعذبون، الذين حرقوا بالنار، وألقوا في الأخاديد، وإلا فإن الآية تشمل كل مؤمن. ومعنىٰ ﴿جَنَّٰتٞ﴾ أي بساتين؛ وسمي البستان جنة، لأنه يُجِنُّ صاحبه، أي: يستره، بكثرة أشجاره، والتفاف أغصانه. ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: أنهار اللبن، وأنهار الماء، وأنهار العسل، وأنهار الخمر، وفرةً، وكثرةَ. هٰذا بعض ما وعد اللَّه أولياءه من الكرامة. ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ والفوز: هو الفلاح. وحسبك بما وصفه اللَّه كبيرًا فهو كبير حقًّا.

﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢﴾: البطش: هو شدة العقوبة، والأخذ. عن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود: ١٠٢] متفق عليه(١).

فإذا رأىٰ الإنسان من نفسه، أنه مقيم علىٰ معاصي اللَّه، وأن اللَّه قد تركه، فليعلم أن ذٰلك استدراج، فلا يغرنه ذٰلك. وهٰؤلاء الظلمة الذين يظلمون الناس، ويبغون عليهم، وإن بدوا مطمئنين، وإن بدوا ممكنين، وإن بدوا متفكهين، فإن لهم يومًا لا يدعهم اللَّه تعالىٰ فيه. وأفعال اللَّه ﷻ في الظالمين معروفة، وأيامه في أعدائه معلومة، سبحانه وبحمده.

---

(١) صحيح البخاري (٤٦٨٦)، صحيح مسلم (٢٥٨٣).

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣﴾ هٰذه الجمل المتتابعة، المؤكدة بـ«إن» الثقيلة، تحفر في القلب، وترسخ في العقل معانيها. وهٰذا يعطي المؤمن الثقة والرسوخ. ومعنىٰ ﴿يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ قيل العموم، أي: يبدئ الخلق ويعيده، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقيل: إن المراد يبدئ العذاب، ويعيده عليهم خاصة. وهٰذا أليق بالسياق، وإليه ذهب ابن جرير، رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]، ولهٰذا قال اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عن أهل النار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦﴾ [النساء: ٥٦].

﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤﴾، وهٰذا أيضًا مما يؤيد أن قوله: ﴿يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ يختص بالعذاب، والعقوبة؛ لأنه ذكر المغفرة، والوداد، بعدها. فتلك في جانب الكفرة من أصحاب الأخدود، وهٰذا في جانب المؤمنين.

﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤﴾: هٰذان اسمان كريمان، من أسماء اللَّه الحسنىٰ، فاللَّه تعالىٰ: غفور، وغافر، وغفور: يسميها أهل العربية صيغة مبالغة، أي: كثير الغفر، والغفر: هو الستر، والتجاوز. ومنه سمي المغفر الذي يجعل علىٰ الرأس، لأنه يتحقق به أمران: الستر، فتستر ما تحتها، والوقاية، فهي تقي الرأس من الصدمات، والكدمات. فمن شأن اللَّه تعالىٰ مع أوليائه المؤمنين، أن يستر ذنوبهم، ويغفرها لهم، كما في حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللَّهَ يُدني الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ. حَتَّىٰ إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَىٰ في نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ: سَتَرتها عَلَيْكَ في الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**» رواه البخاري[2].

و﴿ٱلۡوَدُودُ﴾: من أسماء اللَّه الحسنىٰ، وهو أيضًا علىٰ صيغة المبالغة الدالة علىٰ كثرة الود، وعظمه، فهو واد، وودود. والمودة: أعلىٰ درجات المحبة.

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٢٨٣).

(٢) صحيح البخاري (٢٤٤١).

ولهٰذا فسر بعض السلف الودود: بالحبيب. والواقع أن هٰذه اللفظة ﴿ٱلْوَدُودُ﴾، تدل علىٰ معنيين: علىٰ أنه وادٌّ، وعلىٰ أنه مودود، فهو يود أوليائه المؤمنين، ويوده أولياؤه المؤمنون. ومصداق هٰذا قوله ﷻ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾: ﴿ذُو﴾ أي صاحب، والعرش أكبر المخلوقات، وأعظمها وأعلاها، وهو سقف العالم. وفي اللغة: سرير الملك الذي يجلس عليه[1]، وعرش الرَّحمٰن سبحانه وبحمده، سرير، ذو قوائم، تحمله الملائكة، كما قال اللَّه ﷻ: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: ١٧]. ولا يصح تفسير العرش بأنه المُلك، أو أنه كناية عن الملك، فهٰذا تأويل متعسف، تأباه صراحة نصوص الكتاب، والسنة، ولغة العرب، فلا يمكن أن نفسر العرش بِهٰذا، ولا يستقيم أن يقال: يحمل ملك ربك ثمانية! بل هو عرش حقيقي، ولهٰذا قال النبي اللَّه ﷺ في حديث الشفاعة: «**فَأَنْطَلِقُ، فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي**» متفق عليه[2]. وقال في حديث آخر: «**فَإِذَا مُوسَىٰ بَاطِشٌ بِجَانِبِ الْعَرْشِ**» متفق عليه[3].

فهٰذا يدل علىٰ أن العرش خلق عظيم، جدًّا، يستوي عليه الرب سبحانه وبحمده. فإذا أخبر الرب تعالىٰ عن نفسه، بأنه ذو العرش، فليس معناه بأنه صاحب العرش، فقط! بل فيه ما يدل علىٰ معنًىٰ آخر، وهو الاستواء. وقد نبه إلىٰ هٰذا المعنىٰ الشيخ عبدالرزاق عفيفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإلا فإن اللَّه له الملك كله، ولا يختص العرش في كون اللَّه مالكه، وخالقه. وإنما يختص بأنه سبحانه يستوي عليه، كما ذكر ذٰلك في سبعة مواضع في كتابه.

ومعنىٰ ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾: الكريم، وهو وصف للَّه، ولهٰذا ضبطت بالضم في المصحف باعتبارها صفة لمرفوع، وهو: ﴿ذُو﴾، فمن أسمائه الحسنىٰ المجيد، يعني الممجد سبحانه. وثم قراءة أخرىٰ بالخفض، فحينئذ تصبح

---

(١) انظر: لسان العرب، تاج العروس (مادة عرش).

(٢) صحيح البخاري (٤٤٣٥)، صحيح مسلم (١٩٤).

(٣) صحيح البخاري (٢٢٨٠)، صحيح مسلم (٢٣٧٣).

صفة للعرش، فيكون العرش أيضًا موصوفًا بالمجد، والكرم الذي يليق بالمخلوق، كما أن المجد، والكرم، الذي وُصف اللَّه به يليق به. ولا مانع أن يطلق الوصف علىٰ الخالق وعلىٰ المخلوق، علىٰ اعتبار أن ما للخالق يليق به، وما للمخلوق يليق به.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾: هٰذه جملة وصفية أخرىٰ للرب سبحانه وبحمده، ﴿فَعَّالٌ﴾ يعني كثير الفعل، فإن أفعاله سبحانه وبحمده لم تزل، ولا تزال؛ لأن الفعل علامة الحي، فكل حي فاعل. واللَّه تعالىٰ حي فعال، لم يزل فعالًا، وقوله: ﴿لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي أن فعله سبحانه، مقترن بإرادته، وحكمته. فلا يفعل شيئًا عبثًا، ولا يفعل شيئًا دون إرادة مسبقة. وله سبحانه نوعان من الإرادة: إرادة كونية قدرية، وإرادة دينية شرعية.

والأليق في هٰذا السياق أن تكون الإرادة هنا الكونية القدرية؛ لأنه قرنها بالفعل، ولو كانت الشرعية، لقرنها بالقول. فهو يريد ويفعل، والناس يريد أحدهم، وقد لا يتمكن من الفعل. أما الرب سبحانه وبحمده، فإنه مريد، وفعال، بخلاف الآدمي، أو المخلوق، فإنه قد يكون مريدًا، ولا يكون فعالًا، وقد يصدر منه فعل دون إرادة. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠].

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ أي يا محمد، ﴿حَدِيثُ﴾ يعني خبر، ﴿ٱلْجُنُودِ﴾ يعني جنود الشر، والطغيان، والكفر.

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾: فرعون أشهر من عرف بالكفر من بني آدم. والمراد هنا فرعون وملؤه؛ لأنهم لا يكونون جنودًا إلا بِهٰذا المعنىٰ، فإن فرعون شخص واحد. وثمود: قبيلة متجبِّرة، متغطرسة، كانت تسكن في وادي القرىٰ، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتًا، ويتخذون من سهولها قصورًا، لفرط تجبرهم، وقوتهم، وترفههم.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾﴾: ﴿بَلِ﴾: هٰذه للإضراب، يعني: ليس الأمر أنك تكذب عليهم، بل هم ﴿فِى تَكْذِيبٍ﴾. وهٰذا التعبير يشعر بأنهم غارقون،

منغمسون في الكذب، والتكذيب. وهو أبلغ من قول: إنهم يكذبون، فكأن الكذب، والتكذيب، ظرف لهم، محيط بهم من جميع الجهات.

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾: ما أعظم هٰذه الجملة! وما أشد وقعها علىٰ الظالمين، والكافرين، والمنكرين للبعث، والمعادين لرسل اللَّه المحاربين لدينه!

﴿مُّحِيطُۢ﴾: المحيط اسم من أسماء اللَّه الحسنىٰ، وهو يعني المطلع، المتمكن منهم، فلا يعجزونه. قد أحاط بهم زمانًا، ومكانًا؛ أما زمانًا: فقد قال اللَّه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ﴾ [الحديد: ٣]، وأما مكانًا: فقال ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾. وقد فسره النبي ﷺ فقال «**اللَّهم أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شيءٌ**» رواه مسلم[1]، فأين المفر؟ إن ظنوا أنهم بإحراقهم هٰؤلاء المؤمنين بالنار، وأنهم لم يجدوا ناصرًا لهم من الناس، فأين المفر من اللَّه ﷻ؟

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ٢١﴾: هٰذا القرآن الذي أنزل علىٰ محمد ﷺ، كريم، شريف. وهٰذا أحد أوصاف القرآن العظيم.

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ٢٢﴾: قال بعض العلماء: أي أن القرآن مذكور في اللوح المحفوظ، وقال آخرون: بل القرآن بأكمله مسطور في اللوح المحفوظ. أما قول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ١٩٦﴾ [الشعراء: ١٩٦]، فالمراد ذكر القرآن، وحسب. أما كونه في اللوح المحفوظ فهٰذا يحتمل المعنيين.

وقد كان شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بادئ الأمر يرىٰ أن المراد: ذكره، وخبره في اللوح المحفوظ. ثم رجع عن ذٰلك، ومال إلىٰ أن القرآن بكامله في اللوح المحفوظ. ولعل الحامل علىٰ القول الأول، المانع من القول الثاني هو أن اللَّه يتكلم بالقرآن حال تنزيله، فكيف يكون إذًا في اللوح المحفوظ الذي كتب فيه كل شيء، قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة؟

---

(١) صحيح مسلم (٧٠٦٤).

ويمكن أن يجاب عن ذٰلك، بأن كونه في اللوح المحفوظ مكتوبًا، لا ينافي أن يتكلم اللَّه تعالىٰ به حسب الأحوال، والوقائع. فإن الخطيب، مثلًا، قد يكتب الخطبة، ولا يتكلم بها إلا في أوانها. ولِلَّه المثل الأعلىٰ.

﴿مَّحْفُوظٍ﴾: أي مصون من الشياطين أن يصلوا إليه، ومن أن يطلع عليه أحد، ومصون من التحريف. واللوح المحفوظ هو أم الكتاب. و﴿مَّحْفُوظٍ﴾ صفة للوح، وهي مشكولة في المصحف بالجر. علىٰ أنه قد ورد قراءة بالضم، فتكون حينئذ صفة للقرآن.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: انتصار اللَّه للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

الفائدة الثانية: أن اللَّه يمهل، ولا يهمل.

الفائدة الثالثة: شدة بطش اللَّه وأخذه لأعدائه.

الفائدة الرابعة: اقتران العمل بالإيمان.

الفائدة الخامسة: سنة اللَّه الكونية في البدء، والإعادة، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ١٣﴾. وهٰذا خير من قول بعضهم «التاريخ يعيد نفسه»! وهي وافدة من الثقافات الغربية، وفيها إسناد الأفعال إلىٰ غير اللَّه ﷻ.

الفائدة السادسة: إثبات جملةٍ من الأسماء الحسنىٰ: مثل: «العزيز، الحميد، الغفور، الودود، المجيد، المحيط»، وما تضمنته من صفات.

الفائدة السابعة: إثبات العرش، وأنه خلق حقيقي.

الفائدة الثامنة: أن أفعال اللَّه تعالىٰ لم تزل ولا تزال، وإثبات صفاته الفعلية، والرد علىٰ منكري الصفات الفعلية، وإبطال شبهتهم القديمة، وهي أن إثبات الصفات الفعلية، يستلزم أن يكون محلًا للحوادث! وبيان ذٰلك، أن يقال: إن جنس الفعل قديم، جنس الفعل صفة ذاتية، لازمة لذاته سبحانه. بدليل قوله ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾، لٰكن آحاده، وأفراده، تتكرر، وتحدث، كما

صرح في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾ [الأنبياء: ٢]، وقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾ [الشعراء: ٥] فهو لم يز ل متكلمًا فعالًا، لٰكن صورة هٰذا الفعل تكون تارةً بالمجيء، وتارةً بالاستواء، وتارةً بالضحك، وتارةً بالعَجَب، وتارةً بالنزول.

الفائدة التاسعة: إثبات إرادة اللَّه.

الفائدة العاشرة: استغراق الكافرين في الكذب، حتىٰ صار سجية لهم.

الفائدة الحادية عشرة: إحاطة اللَّه بهم.

الفائدة الثانية عشرة: إثبات القرآن، ومجده.

الفائدة الثالثة عشرة: إثبات اللوح وحفظه.



سورة الطارق

هٰذه السورة، سورة «الطارق» سميت بِهٰذا الاسم، لورود لفظ «الطارق» في مستهلها. وهي ذات مقاصد عقدية متعددة:

المقصد الأول: الإيمان بالبعث.

المقصد الثاني: الإيمان بالملائكة.

المقصد الثالث: الإيمان بالقرآن.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴿٤﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴿٨﴾﴾:

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾﴾: استهل اللَّه تعالىٰ هٰذه السورة بالقسم، كما قال في أختها ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ [البروج: ١]. والسماء خلق عظيم، وصفها فيما مضىٰ بأنها «ذات البروج». وهاهنا قرن ذكرها بـ«الطارق». والطرق في اللغة: الإتيان ليلًا. يقال: «طرق الرجل أهله» يعني أتاهم ليلًا. وفي الحديث: «نَهَىٰ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَطْرُقَ أَهْلَهُ لَيْلًا» متفق عليه[1].

فقد أقسم اللَّه تعالىٰ بالسماء، وما يطرق فيها، أي ما يأتي ليلًا، والذي يأتي ليلًا أمورٌ كثيرة، منها: ما فسر اللَّه تعالىٰ به هٰذه اللفظة، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾، لأنه يأتي ليلًا. وهٰذا قسم عظيم؛ لأن السماء عظيمة، وما خلق اللَّه تعالىٰ فيها عظيم! كما قال: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦].

---

(١) صحيح البخاري (١٧٠٦)، صحيح مسلم (١٩٢٨).

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾: ما أعلمك. وهٰذا الاستفهام إما أن يكون للتعظيم، وإما أن يكون للتشويق، أو لهما معًا وهٰذا أولىٰ، أن يكون للتعظيم كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾ [الحاقة: ١ ـ ٣]، ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣﴾ [القارعة: ١ ـ ٣]. وقد يكون للتشويق، لكي يتهيأ الذهن لسماع الجواب، لاسيما أن الجواب حاضر.

﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾: هو كل كوكب مضيء متقد؛ وصفه بقوله: ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾ لأنه يثقب الظلام بضوئه، فإذا نظرت إلىٰ قبة السماء، في الليلة الظلماء، تجد أن هٰذه النجوم المتلألئة، أشبه بالثقوب، في هٰذه القبة السوداء. فلأنه ثقب ظلام السماء، سمي ثاقبًا. وقيل: أن هٰذا الوصف يختص بنجم الثريا فقط؛ وذٰلك لشدة لمعانها وتوهجها. والثريا: نجم معروف في السماء، بل هو في الحقيقة مجموعة نجوم، أشبه ما تكون بعنقود العنب، مجتمع بعضها إلىٰ بعض.

﴿إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ ۝٤﴾: ﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة، اسمها محذوف تقديره «إنه»، وهي تفيد النفي. ﴿لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ﴾: هٰذه هي القراءة المشهورة ﴿لَّمَّا﴾ بالتشديد، وهي بمعنىٰ «إلاَّ». فيكون المعنىٰ: ما من نفس إلا عليها حافظ. وجملة: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ ۝٤﴾ جواب القسم. و﴿نَفۡسٍ﴾: نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم. والمقصود بالنفس: جنس نفوس بني آدم. وقُرئت بالتخفيف: «لَمَا» وعلىٰ هٰذا تكون «ما» مزيدة. والحافظ: هو الملك الذي يحفظ علىٰ تلك النفس أعمالها، من خير، أو شر، كما في قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١١]. ويمكن القول: إنه الملك الذي يحفظها، كما قال ربنا ﷻ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]. فهٰؤلاء المعقبات، هم من ملائكة الرحمن، يحفظون الإنسان عما أراد اللَّه تعالىٰ أن يحفظه منه، فإذا جاء قدر اللَّه، خلو بينه وبينه. فالحفظ يتناول حفظ الأعمال؛ بمعنىٰ كتابتها، وضبطها، ويتناول أيضًا حفظ الإنسان من أن يقع عليه الأذىٰ.

﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦﴾: ﴿فَلۡيَنظُرِ﴾: يحتمل أن يكون النظر الحسي؛ لأن المطلوب النظر إليه ممكن، وهو هٰذا المني الذي منه خلق. لٰكن الأقرب واللَّه أعلم، أنه النظر العلمي، بمعنىٰ: فليتأمل ويعتبر؛ لأن المنظور إليه معهود في الأذهان، لا يحتاج أن يذهب ليبصره، وهو الماء الدافق. ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾: يعني من أي شيء خلق. وهٰذا شروع في إقامة الحجة علىٰ منكري البعث. ويمكن أن نفسر «الإنسان» في هٰذا الموضع بأنه المنكر للبعث، وإن كان يصلح المقام للاعتبار لكل أحد. فإن المؤمن لو تأمل في أصل خلقه لزاد بذٰلك إيمانًا.

إنها مسافة هائلة بين هٰذه النطفة المذرة، التي لا تكاد ترىٰ إلا بالمجاهر المكبرة، وبين الإنسان الكامل الخلقة! يتحول الحيوان المنوي، بعد أن يلقح البويضة الأنثوية، إلىٰ خلية مخصبة، ثم تشرع هٰذه الخلية بالانقسام المتتالي، حتىٰ تصبح نطفة، فعلقة، فمضغة، ثم يخلق اللَّه عظامًا، ويكسو العظام لحمًا. ويترقىٰ هٰذا الخلق العجيب، حتىٰ يخرج كائنًا يدب علىٰ وجه الأرض! لا ريب أن هٰذا من دواعي زيادة الإيمان. فلهٰذا يصلح أن يكون الخطاب موجهًا للإنسان الكافر، المنكر للبعث، لإقامة الحجة عليه في إثبات البعث. ويصلح أن يكون دعوة عامة للتفكر في عظيم خلق اللَّه ﷻ.

فَلْيَنْظُرِ الإنسان الكافر المنكر للبعث الذي كان النبي ﷺ يواجهه في مكة، من كفار قريش، ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾؟ يأتي الجواب مباشرًا، لأن الجواب محل تسليم من الجميع، لا أحد ينكره: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦﴾ وهم مقرُّون أن اللَّه تعالىٰ خالقه. والماء الدافق هو المني. وسمي دافقًا لكونه ذا اندفاق، واندفاع. وهٰذا مما يميز هٰذا الماء العجيب، أنه يخرج دفقًا بلذة، ليبلغ محله في الأرحام.

﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾: الصلب: علىٰ قول جمهور المفسرين، هو فقار الرجل، يعني عموده الفقري، أي ظهره. والترائب: علىٰ قول جمهور المفسرين، هي عظام الصدر من المرأة. وعبر بعضهم بأنها موضع القلادة.

فدلت الآية علىٰ أنه يخرج من بينهما، ولا يلزم من هٰذا أن يكون خارجًا من ذات العظم، عظم الظهر، أو أضلاع الصدر. وذهب بعض المفسرين إلىٰ أن الترائب هي أطراف الرجل، يعني يديه ورجليه ولا تتعلق بالمرأة، لأن الماء إنما يخرج دفقًا من الرجل. فكأن هٰذا الماء الذي يخرج من الرجل يستل من جميع جسمه؛ من فقاره، وأطرافه، ولا شك أن العلم الحديث قد يساعد في إيضاح هٰذا المعنىٰ، وقد لا يبلغ العلم الحديث التفاصيل الدقيقة في دلالة الآية، لٰكن المعلوم لدىٰ المشتغلين بعلم «وظائف الأعضاء»، المسمىٰ بـ«الفسيولوجي» أن هٰذا الماء يتكون في الخصيتين، ثم يتجمع في موضع معين. وأما الأنثىٰ فإنه يتكون ماؤها في المبيضين، فيتم إنضاج البويضة، فتنزل من مبايض المرأة إلىٰ الرحم، عبر قناة «فالوب»، مرة في الشهر. ومن حكيم صنع اللَّه ﷻ، أن جدار الرحم يتهيأ بإذن اللَّه تعالىٰ لاستقبال الحمل المتوقع، فتهبط هٰذه البويضة، وقد امتلأ جدار الرحم بالشعيرات الدموية، وصار ثخينًا مشبعًا بالغذاء، فإن قدر خلال ثمان وأربعين ساعة أن يقع لقاء بين الزوجين، ويلتقي ماء الرجل الذي يحمل الحيوانات المنوية، مع البويضة، في رحم الأنثىٰ، فإنه يسبق واحد من هٰذه الحيوانات المنوية إلىٰ البويضة، فيقع التلقيح. فتنغرس تلك البويضة الملقحة في جدار الرحم، وتتغذىٰ علىٰ ما اختزن في هٰذا الجدار من الأوعية الدموية، وتتوالىٰ الانقسامات الخلوية، حتىٰ تكبر، وتعلق في جدار الرحم، فتسمىٰ علقة، ثم تمر ببقية المراحل، كما هو معروف في علم الأجنة. كل هٰذا بتقدير دقيق، وحكمة بالغة. ومن العجيب أن هٰذه البويضة، تحمل المورثات الجينية، من الأنثىٰ؛ كما أن الحيوان المنوي يحمل المورثات الجينية من الذكر. ومعلوم أن كل خلية بشرية تحتوي ستة وأربعين مورِّثًا «جين»، إلا الخلية المنوية، فإنها تحتوي نصف العدد، فقط. فينحدر من المبايض بويضة تحمل ثلاثة وعشرين مورثًا، ويقذف الذكر حيوانًا منوياَ يحمل ثلاثة وعشرين مورِّثًا، فيصبح المجموع

ست وأربعون. هٰذه الخلية الجديدة، هي «الأمشاج»؛ كما قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ٢] و«الأمشاج» تعني الأخلاط، لكونها خليطًا من ماء المرأة ماء الرجل، فيقع الشبه كما يريد اللَّه ﷻ.

هٰذه العملية التي يلفت اللَّه الانتباه إليها لا يبصرها الغافلون. إن الناظر بعين البصيرة، ولو كان عاميًا، أميًا، لا يقرأ، ولا يكتب، لو أمعن النظر، لاعتبر في هٰذا الماء الذي يقذف في الأرحام، كيف يؤول إلىٰ إنسان سوي، حي، سميع، بصير. هٰذه المسافة بين هٰذا الماء الذي تشمئز منه النفوس، وهٰذا الخلق الإنساني السوي، من دواعي النظر، الذي يوجب للإنسان إجلال الخالق، وطأطأة الرأس خضعانًا له سبحانه وبحمده. ثم لا ينقضي العجب كيف ينكر هٰذا الإنسان البعث! أبعد هٰذا المشهد العجيب، يا معشر المشركين، تقولون: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: ٧٨].

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾: يعني الذي خلق هٰذا الإنسان، وكونه علىٰ هٰذه الصفة قادر أن يعيد خلقه مرةً أخرىٰ يوم القيامة. فهٰذا من أعظم دلائل البعث، ومرجع الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ إلىٰ الرب ﷻ، ومرجع الضمير في قوله: ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾ إلىٰ الإنسان. هٰذا هو الأقرب.

وقال بعض المفسرين: أن مرجع الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾ أي إلىٰ الماء، فيكون معنىٰ ﴿لَقَادِرٌ﴾: أنه قادر أن يعيد الماء إلىٰ الموضع الذي خرج منه. يعني قادر أن يعيده إلىٰ الإحليل، أو يعيده إلىٰ الصلب، والترائب. ولا شك أن اللَّه تعالىٰ قادر علىٰ ذٰلك، لٰكن سياق الآيات يؤيد القول الأول، وهٰذا ما رجحه ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]؛ لأن المقام مقام إثبات البعث، ولأن هٰذا الأمر، مما لم يوقعه اللَّه ﷻ، وهو إعادة هٰذا الماء في الإحليل، أو إلىٰ الصلب أو الترائب. فلا وجه للإتيان بالجملة المؤكدة هاهنا.

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨).

❁ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: إقسام اللَّه تعالىٰ بمخلوقاته. ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١﴾.

الفائدة الثانية: كمال رقابة اللَّه، وحفظه لبني آدم.

الفائدة الثالثة: إثبات الملائكة الكرام، وبيان بعض أعمالهم، كالحفظ.

الفائدة الرابعة: بيان دليل من دلائل البعث، وهو أن القادر علىٰ الخلق قادر علىٰ الإعادة.

كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: ٢٧] فهو دليل عقلي، وحسي، علىٰ إمكانية البعث.

﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾:

﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩﴾: ﴿يَوۡمَ﴾ ظرف، متعلقه بالرجع، يعني إن اللَّه قادر علىٰ إعادة بعثه ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ يوم القيامة؛ لأنه هو الذي تبلىٰ فيه السرائر. ومعنىٰ ﴿تُبۡلَى﴾ أي تختبر، وتكشف. ﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾: الضمائر، جمع سريرة، وهي كل ما أسره الإنسان، وأخفاه. وهٰذا فيه وصف بديع، وصف باطني ليوم القيامة! فمعظم أوصاف يوم القيامة تتعلق بالصورة الظاهرة، مثل: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١﴾ [التكوير: ١]، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١]، ونحوها مما يتعلق برسم الصورة الكونية الظاهرة، أما هٰذه الآية فإنها ترسم الصورة الباطنة، وهو ما يكون عليه حال القلوب، فتنكشف، فلا مجال للتزويق، ولا للنفاق، هم ضاحون للَّه ﷻ، ظاهرًا، وباطنًا؛ ضاحون للَّه ظاهرًا، لا ثياب تسترهم، وهم ضاحون للَّه باطنًا، فكل شيء بيِّن مكشوف.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠﴾: ﴿فَمَا لَهُۥ﴾: أي الإنسان، ﴿مِن قُوَّةٖ﴾: يعني من

قوة ذاتية يمتنع بها، ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾: يعني من قوة خارجية، فليس له معين، ولا مدافع. فالفرق بين دلالتي هاتين اللفظتين: ﴿قُوَّةٍ﴾ و﴿نَاصِرٍ﴾ أن القوة ذاتية، والنصر خارجي.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١﴾: أعاد اللَّه تعالىٰ القسم بالسماء، ولٰكنه هٰذه المرة بوصف جديد. ﴿ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ والمراد بالرجع: المطر. وسمي المطر رجعًا، لأنه يرجع، ويعود مرة إثر مرة، وإنما أضاف اللَّه تعالىٰ الرجع إلىٰ السماء لكونه يأتي من جهتها. وكل ما علاك فهو سماء. وقيل: إن المقصود بالرجع: الشمس، والقمر، والنجوم، لأنها تشرق وتغرب، ثم تعود. فوصفت بالرجع. والأول أقرب، وهو ما عليه جمهور المفسرين.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾: هٰذا من التقابل، فبينا الإنسان يرفع طرفه إلىٰ السماء، إذ به يحطه إلىٰ الأرض. فكل ما حولك دلائل ربوبية؛ ترفع رأسك، تلتفت يمينًا، وشمالًا، كل ما في الكون هو من دلائل البعث، ودلائل الربوبية.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾ الصدع: يعني الشق. لأن الأرض تتشقق بالنبات، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٢٧] إلىٰ آخر الآيات. وهٰذا القسم مناسب لموضوع السورة، فالسورة تتضمن تقرير أمر البعث، وإقامة الأدلة عليه، فأقسم بالسماء بوصفها ﴿ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾، والأرض بوصفها ﴿ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾، وهٰذا إلماحة إلىٰ دليل آخر من دلائل البعث، وهو أن اللَّه ﷻ، يحيي الأرض الميتة، فيسوق إليها الماء، فتنبت العشب والكلأ الكثير: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ [يس: ٣٣]. فالذي يحيي الأرض الميتة، قادر علىٰ إحياء بني آدم، وإخراجهم من قبورهم أحياء. ولما ذكر اللَّه ﷻ في سورة «ق» قوله: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾ [ق: ٩ ـ ١١]، قال إثرها ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾! فالذي يحيي الأرض الميتة بِهٰذا الماء المساق من

البحار، فتنبت، وتصبح ذات مروج، ونخيل باسقات، قادر علىٰ إخراج الإنسان حيًا بعد موته.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣﴾: مرجع الضمير إلىٰ القرآن، وهو إن لم يرد له ذكر، لٰكنه لما قال: «قَوْلٌ» علم أنه القرآن. ومعنىٰ «فَصْلٌ» أي فيصل، وفرقان بين الحق والباطل، وهدىٰ، وضياء، ونور، وشفاء، كل هٰذه الأوصاف تنطبق انطباقًا تامًا علىٰ كلام اللَّه ﷻ. ولهٰذا قال اللَّه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٧٦﴾ [النمل: ٧٦]، وقال: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ [هود: ١].

﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾: إذًا هو جد كله، ليس لعبًا، ولا باطلًا، وليس المقصود به المسامرة، والتلذذ به كما يتلذذ بالشعر، وإنما هو جد، وحق، وموعظة، وهدىٰ، وبيان، وشفاء، فخذوا الأمر بجد، فهٰذا الذي يتلىٰ عليكم ليس أساطير الأولين، ليس شعرًا، ليس سجعًا، ليس كلام كهان، بل هو حق يوجب عليكم أن ترعوه أسماعكم، وأن تعتقدوه بقلوبكم، وأن تقيموا حياتكم وفق هديه. إن الذي يمتلأ قلبه بِهٰذا المعنىٰ، يرزق بركة القرآن، فكل أمر اشتبه عليك من أمورك الخاصة، أو أمور الناس العامة، إذا أقبلت علىٰ القرآن بقلب صادق، ونفس مستشرفة، تعتقد أن الهدىٰ، والشفا، والبيان هو في هٰذا الكتاب فوا اللَّه، لتجدن فيه بغيتك، وطلبتك. لٰكن إذا حرم الإنسان هٰذا الاعتقاد، وهٰذا اليقين، حرم الثمرة. فليعوِّد الإنسان نفسه علىٰ أن يعظم القرآن، ويعتقد أنه كلام رب العالمين، ليس كأي كلام، وأن كل ما يحتاج الناس إليه في معاشهم، ومعادهم، فهو في كتاب اللَّه ﷻ، في كتاب اللَّه جوابه، وشفاؤه، لا يلزم من ذٰلك أن يكون فيه ذكر التفاصيل لٰكن فيه ذكر الأسس، والمبادئ، والمفاتيح التي تقود الإنسان إلىٰ معرفة الحق، وتحصيل الطمأنينة.

﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥﴾: أي هٰؤلاء المنكرون للبعث يتحايلون، ويدبرون بطريق خفي إيصال الأذىٰ إلىٰ النبي ﷺ والمؤمنين. وحقيقة الكيد، والمكر،

والمحْل: إيصال الأذىٰ بطريق خفي. وأكدها بالمفعول المطلق ﴿كَيْدًا﴾ لأن الكافرين يستفرغون جهدهم، ووسعهم، في الصد عن سبيل اللَّه، ورسم الخطط لذٰلك. ولم يزل هٰذا دأبهم قديمًا وحديثًا. وهٰذه سمة وصفة في كل منكر للبعث، أنه لابد أن يفني عمره، وجهده في إحقاق الباطل، وإبطال الحق، فالمنكر للبعث يريد أن يقنع نفسه، ويقنع الآخرين بصحة ما هو عليه، فلذٰلك يؤلب، ويجتهد، ويضلل، لكي يحاول إقناع نفسه، ومعاكسة فطرته، ومحاولة إضلال الآخرين، ويا له من عبث ضائع، وجهد غبين، إذ أنه مبني علىٰ باطل، ولا يفضي إلا إلىٰ باطل.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾: وشتان بين كيد الرب وكيد العبد؛ الكيد في حقيقته المشتركة، ومعناه الكلي، واحد، وهو إيصال الأذىٰ بطريق خفي، لٰكنه من اللَّه محمود، ومن هٰؤلاء الكافرين مذموم؛ لأنهم أرادوا بكيدهم إبطال الحق، وإحقاق الباطل. ولهٰذا يخادعون الناس بأنواع الخداع.

فعن عروة بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا أَنْزَلَ اللَّه عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ إِنَّ النَّاسَ يُحَاسَبُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَمَبْعُوثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَنْكَرُوا ذٰلك إِنْكَارًا شَدِيدًا، فَعَمَدَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ إِلَىٰ عَظْمٍ حَائِلٍ قَدْ نَخِرَ فَفَتَّهُ، ثُمَّ ذَرَاهُ في الرِّيحِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِذَا بَلِيَتُ عِظَامُنَا، إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا؟ فَوَجَدَ رَسُولُ اللَّه ﷺ مِنِ اسْتِقْبَالِهِ إِيَّاهُ بِالتَّكْذِيبِ وَالْأَذَىٰ في وَجْهِهِ وَجْدًا شَدِيدًا، فَأَنْزَلَ اللَّه عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]»[١]. وهٰذا المشهد يمكن أن يجتاح أصحاب العقول السطحية، فتنطلي عليهم مثل هٰذه المكائد.

وهٰذا الكيد، منه سبحانه، في مقابلة كيد الكائدين، نظير قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]. ولما كان الكيد، والمكر، وأمثالهما، تنقسم مدلولاتهما إلىٰ محمود، ومذموم، لم يجز إطلاق هٰذا الوصف عليه إلا مقيدًا، علىٰ سبيل المقابلة. ولم يجز اشتقاق اسم له منها، فلا يقال من أسمائه الكائد، ولا من

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٠٣) وقال آخرون بل عني به العاص بن وائل السهمي ـ انظر تفسير الطبري (١٩/ ٤٨٦).

أسمائه الماكر، ولا يُخبر به عن اللَّه علىٰ سبيل الإطلاق، إلا أن يقيد، فيقال الكائد بالكافرين، الماكر بالماكرين، ونحو ذٰلك.

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ١٧﴾: «مهِّل»: أي أنظر، واترك. وهٰذا من التنويع في التعبير، ﴿رُوَيْدًۢا﴾ كلمة مصغرة من «رودي» ومعناها: أي قليلًا، فالأمر قريب، عما قليل يتبين الحق من الباطل، وتعرف العاقبة لمن. ولهٰذا لم يمض عليهم سنيات حتىٰ أذلهم اللَّه يوم بدر، وألقوا في القليب، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وقف النبي ﷺ علىٰ قليب بدر فقال: «**هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا**». رواه البخاري[(١)].

﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ أمهلهم حتىٰ تحقق الموعود.

۞ الفوائد الْمُستنبطة:

الفائدة الأولى: صفة يوم القيامة الباطنة ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩﴾.

الفائدة الثانية: كمال إحاطة اللَّه بالعباد، وكمال ضعفهم، فلا قوة لهم من ذواتهم، ولا ناصر لهم من سواهم.

الفائدة الثالثة: عظم شأن القرآن، وبيان صفته الفاصلة، الجادة.

الفائدة الرابعة: فصل القرآن العظيم في جميع الأمور المشتبهات، فما من أمر مشتبه يطرأ علىٰ الناس، إلا وفي القرآن منه خبر، وشفاء، عرفه من عرفه، وجهله من جهله.

الفائدة الخامسة: سعي الكافرين المنكرين للبعث بالباطل.

الفائدة السادسة: إثبات صفة الكيد للَّه عز وجل، وهو من صفاته الفعلية.

الفائدة السابعة: أن اللَّه يمهل، ولا يهمل. فلا يغرنك ما ترىٰ من انتفاش الباطل، وصولته، وجولته، فإن هٰذا لا يعني دوامه.

---

(١) صحيح البخاري (٣٩٨٠).

سورة الأعلى

سميت هٰذه السورة بسورة «الأعلىٰ» لورود هٰذا اللفظ الشريف فيها، وهو اسم من أسماء اللَّه الحسنىٰ «الْأَعْلَىٰ». وقد كان النبي ﷺ يعظم هٰذه السورة، عن النعمان بن بشير قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَقْرَأُ فِيٰ الْعِيدَيْنِ وفيٰ الْجُمُعَةِ بِـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾، قَالَ: وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِيٰ يَوْمٍ وَاحِدٍ يَقْرَأُ بهما أَيْضًا فِيٰ الصَّلاَتَيْنِ». رواه مسلم[1].

وحق لرسول اللَّه ﷺ أن يعظمها؛ لما تضمنته من المعاني العظيمة، ولما تضمنته من المنة التامة عليه ﷺ بتيسيره لليسرىٰ.

ولهٰذه السورة مقاصد متعددة، منها:

المقصد الأول: تنزيه الرب سبحانه وتعالى.

المقصد الثاني: بيان سماحة الشريعة.

المقصد الثالث: بيان وظيفة الرسول ﷺ.

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾:

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾، ﴿سَبِّحِ﴾: هٰذا فعل أمر؛ أمر للنبي ﷺ بالتسبيح، أي: التنزيه. فقول: «سبحان اللَّه» اسم مصدر، أي تنزيهًا للَّه.

وينزه اللَّه تعالىٰ عن ثلاثة أمور:

ـ أحدها: النقص: فله الكمال المطلق، فليس في صفاته نقص بوجه من

(١) صحيح مسلم (٨٧٨).

الوجوه. فكل ما أثبته اللَّه ـ تعالىٰ ـ لنفسه فهو صفة كمال، لا نقص فيه بوجه من الوجوه. وهٰذا من معاني «المثل الأعلىٰ». فله من العلم أتمه وأعلاه، ومن السمع أوسعه، ومن البصر أكمله، لا نقص في صفة من صفاته، «أحاط بكل شيء علمًا»، و«وسع كل شيء رحمة»، و«لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء».

ـ الثاني: العيب: وهي الآفات، فهو منزه عن العمىٰ، وعن الخرس، وعن الصمم، وعن المرض. فكل آفة، فاللَّه بريء منها سبحانه.

ـ الثالث: مماثلة المخلوقين: فأي وصف يختص به المخلوق لا يمكن أن يثبت للخالق، وأي وصف يختص به الخالق فلا يمكن أن يتصف به المخلوق. فالاشتراك في الأسماء والصفات، إنما يكون في المعنىٰ العام، الكلي، المطلق، الذي يكون في الأذهان، ويمتنع وجوده في الأعيان. فإذا أضيف الوصف إلىٰ الموصوف تخصص.

واللَّه ـ تعالىٰ ـ أثبت لنفسه سمعًا، وبصرًا، وأثبت للمخلوق سمعًا، وبصرًا، وهٰذا الاشتراك إنما هو اشتراك في اللفظ، وفي المعنىٰ العام، الكلي، المطلق. فالمعنىٰ العام المطلق للسمع، هو إدراك الأصوات، والمعنىٰ العام المطلق للبصر، هو إدراك المرئيات. وهٰذا محله الأذهان، والعقول، فإذا أضيف تخصص. فإذا قيل: سمع اللَّه، صار وصفًا مختصًا به، لا يماثله فيه مخلوق. وإذا قلنا: سمع المخلوق، صار وصفًا خاصًا يختص به المخلوق. وقد جمعت ذٰلك عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في قولها: «الْحَمْدُ للَّه الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ تُكَلِّمُهُ وَأَنَا في نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ»: فَأَنْزَلَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١] إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ» رواه أحمد في المسند، والنسائي، وابن ماجه[١]، فأثبتت سمعًا للَّه، وسمعًا لها، لٰكن سمع اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، وسع الأصوات، ولا يمكن

---

(١) المسند (٢٤١٩٥) واللفظ له، النسائي في الكبرى (٥٦٥٤)، سنن ابن ماجه (١٨٨) وصححه الألباني.

أن يشاركه أحد في هٰذه الخصيصة، وأما سمعها فإنه قاصر، وناقص، بدليل أنها في جانب الدار، ويخفىٰ عليها بعض كلام المجادلة، وقس علىٰ ذٰلك بقية الصفات.

واللَّه ﷻ يأمر بتسبيح نفسه، وبحمد نفسه، فالحمد، والتسبيح، يكمل أحدهما الآخر. فإن الحمد يعني وصف اللَّه بصفات الكمال. فهو إثبات. والتسبيح يعني تنزيهه عن صفات النقص، والعيب، ومماثلة المخلوقين، فهو نفي. وإنما يحصل العلم باللَّه بالنفي والإثبات معًا. ولهٰذا جاء في الحديث: «**الْحَمْدُ للَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ. وَسُبْحَانَ اللَّه وَالْحَمْدُ للَّهِ تَمْلآنِ ـ أَوْ تَمْلأُ ـ مَا بَيْنَ السماوات وَالأَرْضِ**» رواه مسلم[1].

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾: أمر اللَّه تعالىٰ بتسبيح اسمه، فهل المراد تسبيح الاسم، أم تسبيح الرب نفسه؟ قولان للمفسرين:

القول الأول: الآية علىٰ ظاهرها، فمعنىٰ تسبيح الاسم، أي تنزيهه أن يشاركه أحد في اسمه، فلا يجوز أن تطلق أسماؤه الحسنىٰ علىٰ الأصنام، كما فعل المشركون، حينما أطلقوا اسم «اللات، والعزىٰ، ومناة»، علىٰ معبوداتهم، فأخذوا اسم «اللات» من الإلٰه، و«العزىٰ» من العزيز، و«مناة» من المنان. فمن تسبيح اسم اللَّه ألا يشتق منه اسم للأصنام، وألايظن أنه يماثل اسم المخلوق، أو يلحقه ما يلقه من لوازم النقص والعيب.

القول الثاني: أن المراد سبح ربك، ولٰكنه عبَّر بالاسم، أو أدخل ذكر الاسم، لتحصل بذٰلك فائدة الجمع بين تسبيح القلب، وتسبيح اللسان. فيكون معنىٰ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ ما نقله ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن شيخ الإسلام: «﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ أي: سبح ربك بقلبك، ولسانك، واذكر ربك بقلبك، ولسانك. فأقحم الاسم تنبيهًا علىٰ هٰذا المعنىٰ، حتىٰ لا يخلو الذكر والتسبيح من اللفظ باللسان...».

---

(١) صحيح مسلم (٢٢٣).

إلىٰ أن قال: «وعبَّر لي شيخنا، أبو العباس ابن تيمية ـ قدس اللَّه روحه ـ بعبارة لطيفة، وجيزة، فقال: المعنىٰ: سبح ناطقًا باسم ربك، متكلمًا به، وكذا سبح ربك ذاكرًا اسمه...» ثم قال: «وهٰذه الفائدة تساوي رحلة لٰكن لمن يعرف قدره»[(١)].

ويلاحظ في هٰذه السورة أنه قال في أولها: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، وقال في آخرها: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾، فأمر في أولها بتسبيح اسم ربه، وذكر في آخرها عمن أفلح وتزكىٰ، أنه ﴿ذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ فذكر الاسم في الموضعين؛ في الموضع الأول بالتسبيح، وفي الموضع الثاني بالذكر، وذٰلك ليجمع الإنسان بين الوصفين: تنزيه ربه بقلبه، وذكره بلسانه. وهٰذا أعلىٰ أنواع الذكر، وهو ما تواطأ فيه القلب واللسان، ثم في الدرجة الثانية: ما اختص به القلب دون اللسان، ثم في الدرجة الثالثة: ما كان باللسان دون القلب. فللذكر مراتب، ودرجات.

﴿ٱلْأَعْلَى﴾، اسم من أسماء اللَّه الحسنىٰ، وهو علىٰ صيغة أفعل التفضيل، يعني من له العلو المطلق. وله أسماء مقاربة مثل: «العلي»، و«المتعال». فالأعلىٰ يدل علىٰ كمال علو اللَّه ﷻ. وأهل السنة والجماعة يثبتون ثلاثة أنواع من العلو:

النوع الأول: علو الذات: وهو الاعتقاد بأن اللَّه ﷾ بذاته فوق سماواته، مستوٍ علىٰ عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه ولا في خلقه شيء منه. وهٰذا النوع من العلو، يدل عليه الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة. ونازع فيه المعطلة، وأنكروا علو اللَّه بذاته. وممن أنكر علو اللَّه فوق سماواته: الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة، ومن علىٰ شاكلتهم، أنكروا أن يكون اللَّه ﷻ فوق مخلوقاته! وهٰذا من أعجب العجب. فقد قامت دلائل الكتاب علىٰ إثباته، حتىٰ قال بعض علماء الشافعية: «إن في القرآن العظيم

(١) بدائع الفوائد (١/ ٣٤).

أكثر من ألف دليل علىٰ إثبات علو اللَّه»[(١)]. ودلت عليه دلائل السنة، وانعقد إجماع الأمة علىٰ هٰذا، وقطع العقل السليم باستحقاق اللَّه لهٰذا العلو؛ لأنه صفة كمال، وفطر اللَّه الخلق علىٰ ذٰلك؛ فما من إنسان إلا ويجد في قلبه نزوعًا إلىٰ العلو حين يدعو اللَّه تعالىٰ، وضرورة بالتوجه إلىٰ العلو. وإنما نازع فيه هٰؤلاء المحجوبون، الذين جعلوا بينهم وبين القرآن حجابًا مستورًا، من بدع الكلام المذموم، والمقدمات الفاسدة.

النوع الثاني: علو القدر: وهو الاعتقاد بأن اللَّه ﷻ له صفات الكمال، التي بلغت الغاية في الحسن والقدر. وهٰذا لا ينازع فيه أحد من أهل القبلة. وهو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]. وإنما وقع النزاع في تطبيقاته.

النوع الثالث: علو القهر: وهو الاعتقاد بأن اللَّه ـ تعالىٰ ـ علا علىٰ كل شيءٍ وقهره، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] وهو محل اتفاق بين أهل القبلة.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ يعني أوجد من العدم. ومعنىٰ «سَوَّىٰ»: أي جعله متناسب الأجزاء، والأعضاء، قائمًا بما يناسبه. ويشبه ذٰلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [الانفطار: ٧].

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ أي أنه سبحانه، سبق تقديره للمخلوقات، وهداها. والمقصود بالهداية هنا الهداية العامة، وذٰلك أن الهداية أنواع.

فقد ذكر ابن القيم ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ في كتابه «شفاء العليل»[(٢)] أن مراتب الهداية أربع:

١ ـ الهداية العامة: وهي هداية كل مخلوق إلىٰ ما يناسبه، ويصلح حاله. وهي المقصودة في هٰذه الآية، وتشمل الإنس، والجن، والطير، والوحش، وجميع ما خلق اللَّه ﷻ، فهداه اللَّه تعالىٰ لما يقيم أوده، ويصلح معاشه.

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٢١)، الصواعق المرسلة (٤/ ١٢٧٩).
(٢) شفاء العليل (٦٥).

٢ ـ هداية الدلالة، والبيان، والإرشاد: وهي أخص من الأولىٰ، لأنها تتعلق بالمكلفين. والمراد بها: ما أظهر اللَّه تعالىٰ من شرعه، ودينه، لعباده. وهٰذا النوع من الهداية يقوم به الأنبياء، والعلماء، والدعاة، والمصلحون. ويدل عليها قول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

٣ ـ هداية التوفيق والإلهام: وهٰذه أخص من التي قبلها، لأنها تختص بمن سبقت لهم من اللَّه الحسنىٰ. فليس كل من هدي هداية دلالة، وبيان، وإرشاد، يهدىٰ قلبه. فالنبي ﷺ خاطب الناس جميعًا، وبين لهم، ودلهم، وأرشدهم، فلم يهتدوا جميعًا، لأن هداية التوفيق، والإلهام، بيد اللَّه ـ عز وجل ـ، وهٰذا هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦].

٤ ـ الهداية إلىٰ طريق الجنة، أو طريق النار: وهٰذا النوع ليس في الدنيا، ولٰكنه في الآخرة. قال اللَّه ـ عز وجل ـ في حق المؤمنين: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾﴾ [محمد: ٥]. قال بعض المفسرين: يعني يهديهم إلىٰ طريق الجنة. وقال في حق الكافرين: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٢٣].

والمراد بالآية النوع الأول، وهي الهداية العامة التي بها مصالح الحياة والمعاش. وهٰذا باب واسع لمن أرسل فيه طرفه، وأعمل فيه عقله، فإنه يجد من حكم اللَّه، عز وجل، وتصريفه لمخلوقاته، الشيء العظيم. وقد أفاض فيه ابن القيم ـ رحمه الله ـ في «شفاء العليل»، وفي «مفتاح دار السعادة» وعقد فصولًا بديعة، مدهشة، في التفكر في بعض مخلوقات اللَّه، وكيفية هدايتها؛ فعقد فصلًا يتعلق بالنمل، وكيف تحفظ أقواتها، والنحل وكيف تبني بيوتها، والحمام وكيف معاشها، والهدهد وكيف يعرف مواضع الماء، وسائر أصناف المخلوقات، بكلام ينعش القلب. هٰذا، وابن القيم ـ رحمه الله ـ لم يتح له أن يطلع علىٰ ما اطلع عليه المتأخرون من أنواع المعارف؛ فإن العلوم الحديثة،

قد كشفت من معاني الربوبية، ما يحار الطرف في النظر إليه، ويحار العقل في التفكر فيه، حتىٰ إنه لما ألف بعض الملحدين، من منكري وجود اللَّه، كتابًا سماه «الإنسان يقوم وحده» يعني أنه مستغن عن وجود خالق، ألف عالم غربي كتابًا في الرد عليه سماه «الإنسان لا يقوم وحده». وقد ترجم هٰذا الكتاب إلىٰ العربية بعنوان «العلم يدعو إلىٰ الإيمان»، ومؤلفه وإن كان غير مسلم، لٰكنه ذكر حقائق من حقائق الربوبية، يمكن أن يوظفها المؤمن الحق في التدليل علىٰ توحيد العبادة. ومثله ما يذكره بعض المشتغلين بمسائل الإعجاز العلمي في القرآن. علىٰ أن مسائل الإعجاز العلمي، ينبغي التعامل معها بحذر، لأن بعض المشتغلين بها يغالون أحيانًا، ويحملون النصوص ما لا تحتمل، ربما كان بعض ما قالوه صوابًا، لٰكن لا علاقة له بالآية، ولا يجوز أن نحمِّل كلام اللَّه ﷻ معنًىٰ ليس مرادًا له، حتىٰ وإن كان ذٰلك المعنىٰ صحيحًا في نفسه، لٰكن لا يجوز أن نقول: إن مراد اللَّه بالآية، كذا، وكذا، إلا ببينة ودليل. وإذا كان هٰذا من قبيل النظريات، والفرضيات، فإنه لا يجوز أن تحمل عليه النصوص، لأن النظريات والفرضيات، قد يثبت بطلانها. وأما إن كان هٰذا الذي توصلوا إليه من قبيل القطعيات، والحسيات، والمشاهدات، فإننا ننظر؛ إن كان لفظ الآية يحتمله فلا بأس، أن نسوقه في هٰذا المقام، وإن كان لفظ الآية لا يحتمله، بل هو أجنبي عنه، فإنه لا يجوز أن يفسر كلام اللَّه بغير مراده. فلينتبه لهٰذا من يقرأ في مسائل الإعجاز العلمي.

﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤﴾، ﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾: موضع النبات، والخضرة. فالذي يخرج المرعىٰ هو اللَّه ﷻ. تمر بالأرض اليباب، القفر، يومًا، فلا ترىٰ إلا الهواء يعصف بها، والغبار يثور منها، ثم يرسل اللَّه ـ تعالىٰ ـ عليها سحائب المطر، فتسقيها، فتمر بها وهي تَهتز خضراء، ذات بهجة. من الذي أخرج المرعىٰ؟ من الذي حفظ هٰذه البذور لسنة كاملة، وسقاها حتىٰ عادت هٰذه الأرض الصفراء المغبرة، تَهتز خضرةً وجمالًا، وتتفتق ألوانًا، وتتضوع وعبقًا، وأريجا؟ إنه اللَّه الذي أخرج المرعىٰ.

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ۝٥﴾ هٰذه دورة أخرىٰ. ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾، أي: اللَّه ﷻ ﴿غُثَآءً﴾ أي جافًا، هشيمًا، و﴿أَحۡوَىٰ﴾ أي يابسًا، مائلًا إلىٰ السواد. وذٰلك بعد أن يمر به ما شاء اللَّه تعالىٰ من الوقت، وتشتد عليه حرارة الشمس.

﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ يقول اللَّه ﷻ مخاطبًا نبيه ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾ القرآن، ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، «لا» نافية، فمعنىٰ الآية، أن اللَّه تعالىٰ يعد نبيه ﷺ أن يُقرأه القرآن، وأن يحفظه في قلبه، فلا ينساه. وذٰلك أن نبينا ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي يحرك به لسانه، يتحفظه، يخشىٰ أن يتفلت عليه، كما قال في سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٧] فطمأن اللَّه نبيه قائلًا ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ أي: لن تنسىٰ ما أوحي إليك.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧﴾: ﴿إِلَّا﴾ تفيد الاستثناء، وذٰلك للدلالة علىٰ طلاقة المشيئة. فكل شيء متعلق بمشيئته، وحكمته. والمعنىٰ: إلا ما شاء اللَّه أن تنساه، مثل المنسوخ. فما نسخت تلاوته، وحكمه، يدخل في هٰذا الاستثناء. وذٰلك أن اللَّه ﷻ قد ينسخ بعض ما أنزل علىٰ نبيه لحكمة بالغة، كما قال تعالىٰ: ﴿۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦] ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي اللَّه ﷻ ﴿يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ﴾ الجهر: ما يظهر الإنسان من قول، أو من عمل ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ أي منهما. فعلمه محيط بكل شيء.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨﴾ وهٰذا من أسباب محبة النبي ﷺ لهٰذه السورة ﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾ يعني نسهل لك، ونُهيئ لك ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ قيل: شريعة الإسلام، وقيل، وليس بعيدًا عن القول الأول، أي عمل الصالحات الموصل إلىٰ الجنة. وهٰذا مطابق لقول اللَّه تعالىٰ ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥ ـ ٧]؛ فاللَّه تعالىٰ يبشر نبيه ﷺ بتيسيره لليسرىٰ، أي بتوفيقه لشريعة سمحة، سهلة، ميسرة، هي شريعة الإسلام. وهٰذا التيسير هو الموصل إلىٰ الجنة، التي من أسمائها «اليسرىٰ».

وهٰذا الوصف «اليسر» بيان لطبيعة هٰذا الدين، وهٰذه الشريعة، وهٰذا

النبي. فهٰذا الدين في عقيدته مبني علىٰ اليسر، والوضوح، والبينة، ليس فيه أغلوطات، ولا تعقيد، ولا غموض، بل هو واضح، بيِّن، موافق للعقول السليمة، والفطر المستقيمة. ليس ككلام المتكلمين، والفلاسفة، والمناطقة. وهو يسر في شريعته، فإن هٰذه الشريعة حنيفية سمحة.

فعن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّه ﷺ: أَيُّ الْأَدْيَانِ أَحَبُّ إِلَىٰ اللَّه؟ قَالَ: «**الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**». أخرجه أحمد في «المسند»[(١)]، فكانت شريعة نبينا محمد ﷺ متسمةً باليسر، ورفع الحرج، وكان من قواعد الشريعة أن الضرورات تبيح المحظورات، وأن الأمر إذا ضاق اتسع، وأن المشقة تجلب التيسير. ويعقد العلماء أبوابًا لأهل الأعذار، كما في الحديث: قال ﷺ: «**صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَىٰ جَنْبٍ**» رواه البخاري[(٢)]، وقال ﷺ: «**إِنَّ اللَّه تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ، أَوْ تَتَكَلَّمْ**» رواه البخاري[(٣)].

كما أن هٰذا النبي الكريم ﷺ كان من صفاته اليسر، فهو سهل، موطأ الأكناف، مزاجه مزاج طبيعي، ليس فيه عنت، ولا عسر، يأخذ الأمور بالعفو، والظاهر، واليسر، لا يتكلف، بل يبغض التكلف: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾ [ص: ٨٦]. وكان سمحًا مع أهل بيته، يصبر منهم علىٰ ما يقع من الغيرة، ويسايرهم، ويجاريهم، حتىٰ ذكر جابر بن عبد اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة حجة الوداع أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ألحت علىٰ النبي ﷺ أن تأتي بعمرة، فقال: «**طَوَافُكِ بِالْبَيْتِ وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ يَكْفِيكِ لِحَجَّتِكِ وَعُمْرَتِكِ**»، رواه أبو داود[(٤)]، فلما رأىٰ شدة رغبتها، وإلحاحها وافقها، قال جابر بن عبداللَّه:

---

(١) مسند أحمد (٢١٠٧)، البخاري في الإدب المفرد (٢٨٧)، قال الشيخ الألباني حسن لغيره، وأخرجه البخاري معلقًا في «صحيحة» باب الدين يسر وقول النبي ﷺ: «**أحب الدين إلىٰ اللَّه الحنفية السمحة**».

(٢) صحيح البخاري (١١١٧).

(٣) صحيح البخاري (٥٢٦٩).

(٤) سنن أبي داود (١٨٩٩) وصححه الألباني.

«وَكَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ رَجُلًا سَهْلًا، إِذَا هَوِيَتِ الشَّيْءَ تَابَعَهَا عَلَيْهِ. فَأَرْسَلَهَا مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِىٰ بَكْرٍ فَأَهَلَّتْ بِعُمْرَةٍ مِنَ التَّنْعِيمِ» رواه مسلم[(١)].

وكان ﷺ سمحًا مع الناس، إذا صافح أحدًا، لم ينزع يده، حتىٰ يكون الذي صافحه هو الذي يصنع ذٰلك. وتأتي الجارية السوداء، فتمسك بيده، فتذهب به في أسواق المدينة حيث شاءت. من رآه هابه، ومن جالسه أحبه. ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثمًا. فنفسية المؤمن، ومزاجه، وسلوكه، وسمته، لابد أن يصطبغ بِهٰذه الصبغة المحمدية، التي منّ اللَّه تعالىٰ بها علىٰ نبيه ﷺ لأن هٰذا من أسباب سعادتك، وسعادة من يعاشرك.

۞ الفوائد المُسْتنبطة:

الفائدة الأولى: وجوب تنزيه الرب عن النقص، والعيب، ومماثلة المخلوق.

الفائدة الثانية: إثبات الاسم للَّه تعالىٰ، لقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ﴾ خلافًا للجهمية، الذين زعموا أن الأسماء مخلوقة، وأن الناس اخترعوها للَّه، تعالىٰ اللَّه عما يقولون.

الفائدة الثالثة: إثبات اسم الأعلىٰ للَّه تعالىٰ.

الفائدة الرابعة: إثبات صفة العلو بأنواعه للَّه: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر.

الفائدة الخامسة: كمال ربوبية اللَّه تعالىٰ؛ خلقًا، وإحكامًا، وتدبيرًا، وهداية.

الفائدة السادسة: إثبات الهداية العامة، وهي هداية كل مخلوق إلىٰ ما يصلحه في معاشه.

---

(١) صحيح مسلم (١٢١٣).

الفائدة السابعة: التنبيه علىٰ البعث، من قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴿٥﴾﴾.

الفائدة الثامنة: حفظ اللَّه تعالىٰ لوحيه، ودينه، لقوله: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾.

الفائدة التاسعة: طلاقة مشيئة اللَّه تعالىٰ، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، واقترانها بحكمته.

الفائدة العاشرة: إمكان النسخ، لقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فقد ينسي اللَّه نبيه شيئًا فيكون من باب نسخ التلاوة والحكم.

الفائدة الحادية عشرة: كمال علم اللَّه، لأن الذي ﴿يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴿٧﴾﴾ ما يبقىٰ شيء خارج عن معلومه.

الفائدة الثانية عشرة: كمال لطف اللَّه بنبيه ﷺ: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٨﴾﴾.

الفائدة الثالثة عشرة: أن اليسر من شمائل النبي ﷺ، ومن خصائص عقيدته وشريعته.

﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾:

﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٩﴾﴾ هٰذا أمر من اللَّه لنبيه بالتذكير، والذكرىٰ ضد الغفلة فهي بيان مصحوب بالموعظة، ﴿فَذَكِّرۡ﴾ ذكر كل أحد، في كل حال، وفي كل وقت؛ ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾: ليس هٰذا قيدًا، فليس المراد: ذكر إن كان للذكرىٰ فائدة، فإن لم يكن للذكرىٰ فائدة فلا تذكر! وإنما المراد: فذكر، فإن الذكرىٰ لا تزال نافعة. وربما كان قيدًا، فلا ينتفع بها إلا المؤمن كما في

قوله: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥]، ولا ينتفع بها المعرض كما في قول: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٢٩﴾ [النجم: ٢٩]، وذكر الصنفين مجتمعين هاهنا: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ١١﴾ فلن يخلو الحال من منتفع. ولو أردنا أن نجعلها قيدًا، فإن هٰذا لا يصدق إلا علىٰ حالين:

١ ـ حينما تبلغ الروح الحلقوم: فلا فائدة من التذكير، لأنها لا تقبل توبته، وقد بلغ هٰذا المبلغ.

٢ ـ حال طلوع الشمس من مغربها: فإنه: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فلا فائدة من التذكير.

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ١٠﴾، ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾: يعني سيتذكر، فأدغم التاء في الذال، وشددها، ﴿مَن يَخۡشَىٰ﴾ يعني من يخشىٰ اللَّه، واليوم الآخر. وهٰذا موافق لقول اللَّه ﷻ: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥]؛ لأن المؤمنين هم أهل خشية اللَّه ﷻ.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ١١﴾، ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي: يعرض عن هٰذه الذكرىٰ، فلا يرخي لها سمعًا، ولا يرفع بها رأسًا. يعني الذي بلغ في الشقاء غايته. والمراد به الكافر؛ لأنه أتىٰ بصيغة أفعل التفضيل. ولهٰذا كان الكفار ينفرون من الموعظة، كما وصف اللَّه ﷻ: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾ [الأنعام: ٢٦]، وكذٰلك قال اللَّه تعالىٰ عن قوم نوح: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧﴾ [نوح: ٧]. وكل من كان عنده نسبة شقوة، نفر من الموعظة بقدر ما عنده من الشقاء، فالعاصي، إذا وعظ أحيانًا، أو ذكر، نفر، وقال: لا تكثروا علي الكلام.

يقف خطيب الجمعة، ويعظ الناس جميعًا، فتجد من الناس من يخفق قلبه، ويبكي، ويتأثر بالموعظة، وتجد آخر عقله يسرح في أودية الدنيا.

يخرج الناس من صلاة الجمعة، فمنهم من اتعظ، وازدجر، وصمم علىٰ إصلاح حاله، ومنهم من يخرج وكأن الأمر لا يعنيه، ولسان حاله يقول: «ماذا قال آنفًا»!

﴿ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ أي: أنه يدخل هٰذه النار، فتحرقه بشوبها، ولهبها. ووصف النار بأنها الكبرىٰ لشدة عذابها ونكالها.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ يعني: لا يموت فيستريح من هٰذا العذاب، ولا يحيىٰ حياة هنيئة. فبئست المعيشة.

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ ﴿قَدۡ﴾: للتحقيق. ﴿أَفۡلَحَ﴾: فاز. ومعنىٰ الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب. ﴿مَن﴾: بمعنىٰ الذي. ﴿تَزَكَّىٰ﴾: أي تطهر بالإيمان، والعمل الصالح، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس: ٩]، فمعنىٰ الزكاة التطهر.

وقال بعض المفسرين: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ يعني: أدىٰ زكاة ماله، وقال بعضهم أي أدىٰ زكاة الفطر خاصة. والصحيح أن التفسيرين الأخيرين داخلان في التفسير العام، والأولىٰ أن نحملها علىٰ العموم، فمن فسرها بأنها زكاة المال، أو زكاة الفطر، فإنما أراد تفسير الشيء ببعض أنواعه.

﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾ هٰذا كما تقدم في مطلع السورة، ينبغي أن يجمع بين ذكر القلب، وذكر اللسان. لم يقل «وذكر ربه فصلىٰ»، بل قال: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾، ففيه تنبيه علىٰ الجمع بين ذكر القلب، وذكر اللسان. ﴿فَصَلَّىٰ﴾ أي: الصلاة المشروعة، وأعظمها الصلوات الخمس.

﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾﴾، ﴿بَلۡ﴾: للإضراب، أي: الحال أنكم ﴿تُؤۡثِرُونَ﴾: أي تفضلون، وتقدمون ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾. وهو خطاب موجه للكافرين، منكري البعث.

﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ كما قال في آية أخرىٰ: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]. فما أعظم خسارة من باع آخرته بدنياه ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾: فهي خير من حيث المتاع.

ـ ففيها من صنوف النعيم، واللذائذ الحسية، والمعنوية، ما لا تقارن به لذات الدنيا. كما قال نبينا ﷺ: «**مَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا**» رواه البخاري[1].

ـ والميزة الثانية: البقاء، لأن متاع الدنيا منقطع، مهما طال، مهما عمر هٰذا المتنعم، فمآله إلىٰ الموت، لو سكن القصور، وحصل له جميع ما يتمناه من شتىٰ الأمور، فمآله بعد ذٰلك إلىٰ أن تنهد قواه، وأن يشيب صدغاه، وأن يؤول إلىٰ الهرم، ويفقد اللذة ويموت.

لٰكن الآخرة لا يبلىٰ شبابها، ولا يفنىٰ أهلوها. فلهٰذا كانت أبقىٰ نعيم: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٨]

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾﴾: ﴿إِنَّ﴾: للتوكيد، ويلاحظ في جزء «عم» أنه مليء بالعبارات والأدوات التحقيقية، التأكيدية التي تعمر القلب باليقين الراسخ.

﴿هَٰذَا﴾ المشار إليه ما تقدم من الموعظة، ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني: أنه مزبور، مذكور في الصحف الأولىٰ. ووصفت بالأولية لكونها منزلة قبل القرآن.

﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾: ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أبو الأنبياء، وإمام الموحدين في الأولين، وهو خليل الرَّحمٰن، له صحف، كما أخبر اللَّه ﷻ. قيل: إنها عشر صحائف.

﴿وَمُوسَىٰ﴾: كليم الرَّحمٰن، وأعظم أنبياء بني إسرائيل. قيل أن الصحائف هي نفسها التوراة، وقيل: إنها غير ذٰلك، وأنه ما ذكر فيها الوصايا العشر، خاصة. والأقرب أن تكون التوراة لأنها من أعظم ما أنزل اللَّه تعالىٰ علىٰ موسىٰ، فهي أولىٰ بالذكر.

(١) صحيح البخاري (٣٢٥٠).

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: وجوب التذكير: في كل حال، لكل أحد، في كل حين.

الفائدة الثانية: تفاوت الخلق في الانتفاع من الذكرىٰ، مع كون المنطوق واحدًا.

الفائدة الثالثة: بيان الهدايتين؛ هداية الدلالة والبيان، وهداية التوفيق والإلٰهام، فالذكرىٰ هداية دلالة وبيان، وكون بعضهم يتذكر، وبعضهم يعرض، يدل علىٰ هداية التوفيق والإلٰهام.

الفائدة الرابعة: أن الخشية أساس القبول، لقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠﴾.

الفائدة الخامسة: العجب من صدود الكافر عن أسباب نجاته: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝١١﴾. كما تعجب مؤمن آل فرعون: ﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١﴾ [غافر: ٤١].

الفائدة السادسة: إثبات النار وشدة عذابها.

الفائدة السابعة: وجوب التزكي والمجاهدة: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾، فإذا كان الفلاح لا يحصل إلا بالتزكي، فالتزكي إذًا واجب. ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

الفائدة الثامنة: فائدة تربوية مهمة، وهي أن التزكية تحصل شيئًا، فشيئًا، ليس في يوم وليلة ينقلب حال الإنسان من الأسوأ إلىٰ الأحسن. لأن كلمة «تزكىٰ» تدل علىٰ أن الأمر يحصل شيئًا فشيئًا. وهٰكذا الإيمان أول ما يقوم الإيمان في القلب، يكون كالنبتة الصغيرة، ثم لا تزال تمده مادة العلم، والإيمان حتىٰ يصبح شجرة باسقة ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

الفائدة التاسعة: اقتران الاعتقاد بالقول والعمل، ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾، فبعد أن ذكر التزكية، قال: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾ باللسان، ﴿فَصَلَّىٰ﴾ بالجوارح. فالإيمان قول، وعمل؛ قول القلب، واللسان، وعمل القلب،

واللسان، والجوارح.

الفائدة العاشرة: أن سر هلاك الكافر حب الدنيا: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾.

الفائدة الحادية عشرة: أن دين اللَّه واحد: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ ودعوىٰ الأنبياء واحدة، لا نفرق بين أحد منهم.

فهٰذا الذي في القرآن الذي جاء به محمد ﷺ هو الذي في الصحف الأولىٰ: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ لا يختلف، وإنما تتنوع الشرائع.



سورة الغاشية

سبب التسمية: سميت سورة «الغاشية» بِهٰذا الاسم لأن النبي ﷺ سماها كذٰلك. وسور القرآن منها ما وردت تسميته علىٰ لسان النبي ﷺ، فتكون توقيفية، ومنها ما سمته الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، واشتهر بينهم.

ولهٰذا قد نجد للسورة الواحدة أكثر من اسم؛ كما يقال مثلًا: سورة الإسراء، ويقال سورة بني إسرائيل، وسورة محمد، ويقال سورة القتال، وسورة براءة، ويقال سورة التوبة وهٰكذا. وهٰذه السورة، مع السورة السابقة «سبح»، عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان النبي ﷺ يقرأ بهما في الجمعة، والعيدين، حتىٰ إنه ربما اجتمع يوم عيد، ويوم جمعة، فقرأ بهما في الصلاتين» رواه مسلم[1]، وما ذاك إلا لما تضمنته هاتان السورتان من المعاني الجليلة، والمواعظ البليغة.

من أهم مقاصد هٰذه السورة:

المقصد الأول: تقرير الإيمان بالبعث، والجنة والنار. وهي القضية التي كان ينازع فيها مشركو العرب، القضية التي تؤثر تأثيرًا بالغًا في مجرىٰ الحياة، وسلوك الإنسان، فإن إيمان المرء بالبعث، والجزاء، والجنة، والنار، هو الذي يحدد مساره، ويجعله مؤمنًا أو كافرًا. فمن أقر بالبعث، وبوعد اللَّه، ووعيده، بحث عما يرضي ربه، كي يسلم من وعيده، وينال موعوده. ولهٰذا كانت هٰذه القضية فيصلًا بين المؤمنين والكفار، ومَفرِق طريق بين الأبرار والفجار. كما أن أهل الإيمان، أنفُسَهم، يتفاوتون بقدر إيمانهم بها؛ فمن كان قلبه معمورًا بالإيمان بالبعث، والجنة، والنار، انضبط، واتقىٰ اللَّه، ومن كان ضعيف الإيمان بِهٰذه القضية، كثير الذهول عنها، فإنه يقع في المعاصي ويجترح السيئات. وهٰذا أمر مشاهد تجده في نفسك، فكلما قوي في قلبك

(١) صحيح مسلم (٨٧٨).

الإيمان باليوم الآخر، ازدجرت عن المعاصي، وخفَّت نفسك إلىٰ الطاعات، لأنك ترىٰ أنك تدَّخر ليوم آت، وإذا خف ذٰلك في نفسك، وغاب، فإنك تقتحم المعاصي، وتفرط في الواجبات.

ويقال: إن رجلًا سب عمر بن عبد العزيز ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ، فلما هم أن يرد عليه قال: «لولا اليوم الآخر لأجبتك»[1]. فإذا شعر الإنسان باليوم الآخر، أحجم عن كثير من الكلام، وكف عن كثير من الفعال، لأنه يعلم أن ذٰلك في صحيفته وأنه سيلقاه. ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

المقصد الثاني: إثبات الألوهية بدلائل الربوبية، وهٰذا منهج قرآني رصين، وكثير، في كتاب اللَّه .

المقصد الثالث: بيان وظيفة الرسل، وهي الذِّكْرَىٰ بالبشارة والنذارة كما تقدم في سورة الأعلىٰ.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ٩ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً ١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ١٥ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ١٦ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ٢٤ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾:

---

(١) «نثر الدرر» (٢/ ٨٦ ـ دار الكتب العلمية بيروت).

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١﴾: ﴿هَلۡ﴾، قال بعض المفسرين: إنها استفهامية، وليس المراد بالاستفهام من اللَّه ما كان ناشئًا عن جهل حاشا وكلا، وإنما أريد به التقرير ولهٰذا قال آخرون معنىٰ ﴿هَلۡ﴾: أي قد، فيكون مآل الاستفهام إلىٰ التقرير.

﴿حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾: الحديث هنا بمعنىٰ الخبر، والغاشية هي القيامة، سميت بذٰلك، لأنها تغشىٰ الخلائق بأهوالها، أي تغطيهم، فمعنىٰ الغشي: التغطية، يقال: غُشي عليه، أو مَغشي عليه، إذا غُطِّي علىٰ عقله، وتغشىٰ بالثوب يعني تغطىٰ كما قال تعالىٰ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾: أي تغطىٰ اللون بظلامه، وقيل بالإضافة، بمعنىٰ أن «الغاشية» غاشية القيامة، أوغاشية النار. فإذا قلنا غاشية القيامة، فإنها تشمل كل شيء، وإذا قلنا غاشية النار، فهي مضافة إلىٰ النار. وهٰذا مأثور عن بعض السلف. فمعنىٰ ذٰلك أنها تختص بالكافرين دون غيرهم. والأولىٰ الحمل علىٰ العموم، لما أن اللَّه تعالىٰ عمَّم. وهو اختيار ابن جرير الطبري(١). وبهٰذا يتبين أن من أسماء القيامة الغاشية.

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢﴾: هٰذا بيان أثر الغشي، وعُبر بالوجوه عن الذوات، لأن الوجه هو أشرف ما في الإنسان، وهو الذي تظهر عليه الانفعالات؛ من الفرح، والحزن، والدهشة، والأسىٰ، وغير ذٰلك، فإنه يتضح علىٰ قسمات الوجه. ومعنىٰ ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ أي ذليلة، كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾ [فصلت: ٣٩] أي هابطة. فالخشوع فيه معنىٰ الذل، والخضوع، والهبوط. فوجوه الكافرين، والعياذ باللَّه، تكون ذليلة، منكسرة، مطأطأة. وليس المراد بالخشوع هنا الخشوع المحمود، من جنس قول اللَّه تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢﴾ [المؤمنون: ٢]، فإن الكافرين لما لم يقع منهم خشوع في الدنيا، وقع عليهم الخشوع في الآخرة. وأهل الإيمان لما خشعوا للَّه تعالىٰ في الدنيا، نضر اللَّه وجوههم في الآخرة، فلا يجمع اللَّه علىٰ عبد بين مخافتين، ولا يجمع له بين أمنين؛ فمن أمنه في الدنيا،

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٣٢٧).

أخافه في الآخرة، ومن خافه في الدنيا، أمنه في الآخرة.

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾: معنىٰ ﴿عَامِلَةٌ﴾ أي: أصحاب هٰذه الوجوه، وهم الكفار، يكلفون الأعمال الشاقة في النار؛ من جر السلاسل، والأغلال التي تكون في أعناقهم، وهٰذا أشد ما يكون من الحبس، حتىٰ في الدنيا، إذا أرادوا أن يغلظوا في عقوبة الحبس، يقولون: مع الأشغال الشاقة، قال تعالىٰ: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر: ٧١ ـ ٧٢] ومعنىٰ ﴿نَّاصِبَةٌ﴾: أي ذات نصب، وتعب.

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾: «تَصلىٰ» بفتح التاء، أو بضمها «تُصلىٰ» قراءتان، ومعنىٰ ﴿حَامِيَةً﴾ أي شديدة الحرارة. فهي تحرق في النار، والعياذ باللَّه، فتحترق بها، وتمتحش من وهجها ولفحها.

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾: الساقي ملائكة العذاب، والعين الآنية: هي المتناهية في الحرارة، التي بلغت في الغليان غايته. وقيل في معنىٰ ﴿ءَانِيَةٍ﴾: أي حاضرة، يعني كأن هٰذا الماء بمجرد ما يطلبونه، يكون مهيئًا، كما وصف اللَّه في سورة الكهف: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩] فكلما بلغ منهم العطش مبلغه، واستسقوا أتوا بالماء في حينه، فما إن يقربوه إلىٰ أفواههم، حتىٰ تسقط جلدة وجوههم فيه، وذٰلك لشدة حرارتها، أجارنا اللَّه وإياكم.

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾﴾: لما ذكر الشراب، ذكر الطعام، وهو الضريع. الضريع: نبات من الشوك، تعرفه العرب، ليس فيه ورق، تعافه الدواب. فسماه اللَّه بِهٰذا الاسم، لدلالته علىٰ معنىٰ سوء، وتسميه العرب الشبرق، واليابس منه هو الضريع، وقيل: إنه شجر من نار. فاللَّه أعلم بكيفيته، لٰكنه الطعام المتاح لهم؛ شوك يزدردونه، فيقع لهم من الأذىٰ، من جراء تجرعه، الشيء العظيم.

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾: فلا يسمن آكله، ولا يقضي نهمته، ولا يشعره بالامتلاء، ولا يسكن ما يجد من الجوع. والشعور بالجوع مؤلم،

يعرف ذٰلك من جربه، فيجتمع عليهم هٰذا الشراب متناهي الحرارة، وهٰذا الطعام الشوكي، الحارق لأجوافهم.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾﴾: ما أعظم النقلة بعد هٰذا المشهد الرهيب، وبعد هٰذا العذاب الوبيل، الذي دل علىٰ النكد الحسي، والمعنوي، إلىٰ صورة مقابلة علىٰ النقيض تمامًا فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾﴾ تلك وجوه المؤمنين ومعنىٰ ﴿نَّاعِمَةٌ﴾: أي حسنة نضرة كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ [عبس: ٣٨ ـ ٤١]، فعبَّر بالوجه عن سائر الذات، لكون الوجه هو مظهر الفرح، أو الحزن، والبؤس، أو النعيم.

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾: أي لسالف عملها في الدنيا، ﴿رَاضِيَةٌ﴾: أي حامدة لثوابه في الآخرة، فهي قد سعت في الدنيا، وحمدت سعيها في الآخرة.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾: العلو هنا: حسي، ومعنوي، فالجنة من أعلىٰ المخلوقات، وفوقها عرش الرحمن، وعرش الرحمن: سقف الجنة، وبحسب حال المؤمن ومرتبته في الإيمان، تكون منزلته في الجنة. فلهٰذا كان الفردوس أعلىٰ الجنة ووسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، فهي عالية في نعيمها وفيها من النعيم أعلاه. وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول اللَّه ﷺ قال: قال اللَّه عَزَّ وَجَلَّ **«أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ»**. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧] متفق عليه[١].

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾: أي لا يسمع في هٰذه الجنة أي كلمة من لغو، أو باطل. ويا له من جو نقي، لا تسمع فيه كلمة زور، ولا هجر من القول! وهٰذا لا يحصل في الدنيا بحال، فهي مليئة باللغو، والفحش، والزور، والكذب، والبهتان، أما تلكم الجنة العالية، فبريئة نقية من كل ذٰلك.

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٤٤)، صحيح مسلم (٢٨٢٤).

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢﴾: النفس تحب الماء ومنظره، وجريانه، وتستروح له، فإذا سمع الناس بماء سارح، أو نبع فياض، في جهة من الجهات، شدو إليه الرحال وذهبوا ينظرون إليه، وإذا كان في بلادهم أنهار أفتخروا بها، كما قال فرعون عن دنياه ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١]. فلما علم اللَّه أن هٰذا من ملاذّ عباده، قال في وصف الجنة: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ فمعنىٰ ﴿عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ العين: نبع الماء. وجارية: سارحة. وليس المقصود بها عين واحدة، وإنما جنس العيون، فهي عيون سارحة تجري علىٰ أرض الجنة. ليست كأنهار الدنيا، لا تجري إلا بأخاديد انحفرت علىٰ مر الزمن.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣﴾: ﴿سُرُرٌ﴾: المقصود بها ما يجلس عليه الإنسان، ويتكأ عليه. ومعنىٰ ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾: أي ذاتًا، وقدرًا، ومحلًا، فهي رفيعة في ذاتها التي خلقها اللَّه تعالىٰ عليها، وفي صفتها، وفي محلها. فهي في الجنة، التي هي «عِلِّيُّون»، والنفس تميل إلىٰ الرفعة، والإطلال علىٰ ما دونها، فالأنهار من تحتهم، وهم من فوقها مشرفون عليها، وهٰذا غاية ما يكون في التنعم، والمنظر الحسن.

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤﴾: ما أحسن التقابل، السرر مرفوعة، والأكواب موضوعة! والمراد بقوله: ﴿وَأَكْوَابٌ﴾: الأقداح التي لا عُرَىٰ لها، هٰذه هي الأكواب في لغة العرب، وتكون للشرب، ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾: أي مقربة، مهيأة، معدة لهم، فكلما أرادوا الشراب، كانت في متناولهم.

﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥﴾: ﴿وَنَمَارِقُ﴾: جمع نمرقة، والمراد بها: الوسائد، ومعنىٰ ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾: أي مرصوص بعضها إلىٰ جنب بعض، وهٰذا ما يطلبه أهل الترف، والثراء، فترىٰ أحدهم في مجلسه وقد جلس بين كمية من الوسائد، يرتفق بها يمينًا، وشمالًا، ويتكأ عليها، ويستند، فكذٰلك أهل الجنة، عندهم وسائد متراصة، يستندون عليها، ويتكئون، ويرتفقون، أي يضعون عليها مرافقهم. فهٰذه الوسائد تحفهم من كل جانب.

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾: ﴿وَزَرَابِيُّ﴾: المراد بها البُسط، وما تسميه العرب

بالطنافس، التي يكون لها خمائل، خاصة. ومعنىٰ ﴿مَبۡثُوثَةٌ﴾: أي أنها كثيرة، منتشرة. فحيثما توجهوا، تستقبلهم هٰذه الزرابي مفروشة، معدة لهم.

وفي قوله ﷻ: ﴿عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ﴾، ﴿ضَرِيعٖ﴾، ﴿سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ﴾، ﴿وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ﴾، ﴿وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ﴾، ﴿وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ﴾، هٰذه الأسماء معلومة في الدنيا، لٰكن الأمر كما قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء»[1]. ونقول أيضًا: ليس في النار مما في الدنيا إلا الأسماء، فالأسماء واحدة والحقائق أو المسميات متفاوتة.

ومهما بلغ بنا الخيال لا يمكن أن نتصور هٰذا النعيم الحسي، وهٰذه اللذة، والسرور، والحبور الذي يعيشون فيه، لٰكن اللفظ يقرب المعنىٰ المشترك للذهن.

فلفظ ﴿عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ﴾ التي في النار، فيه معنىٰ الحرارة المتناهية، وهٰذا أمر مدرك في الذهن، وإن لم تكن تلك العين الآنية في النار كعين حارة في الدنيا، ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ ذٰلك الضريع الذي في النار، قطعًا ليس كالضريع الذي تعافه البهائم، والحيوانات في الدنيا، لٰكن فيه معنىً مشترك، وهو كونه شوكا، ولذٰلك تعافه البهائم، ففيه معنىٰ الأذىٰ، والمعاناة في تناوله. كذٰلك عند الحديث عن الجنة، تذكر «السرر»، «الأكواب»، «النمارق»، «الزرابي» فإن كل لفظ من هٰذه الألفاظ له معنىً في الذهن، فلا يمكن أن يكون المعنىٰ الذي يعطيه ﴿وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ١٥﴾ كالمعنىٰ التي تعطيه ﴿وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ١٦﴾، وذٰلك لأن هٰذا يتعلق بمعنًىٰ يقوم في الذهن، وإن لم يلزم من ذٰلك أن يكون هٰذا مثل هٰذا. وقد جعل شيخ الإسلام بن تيمية، أحد المثلين في الرسالة التدمرية[2] علىٰ وجوب إثبات صفات اللَّه، وأن إثباتها لا يلزم منه تمثيل، ما يكون في الجنة من أنواع النعيم، والحور، والقصور، والدور، والمراكب، وغير ذٰلك، فإن الأسماء واحدة، والحقائق مختلفة. فإن كان هٰذا

(١) تفسير الطبري (١/ ٤١٦).
(٢) انظر التدمرية (٢٠ ـ ٣١).

التفاوت بين مخلوق ومخلوق، فكيف بين الخالق والمخلوق؟! هٰذا هو المعنىٰ المشترك. وفائدته: أن يفهم الخطاب، لأن اللَّه تعالىٰ لو لم يخاطبنا بما نعهد له مثيلًا في الدنيا، ما عقلنا مراده.

هٰذا حال أهل الجنة، بإزاء حال أهل النار! وشتان ما بين الصورتين. منظران متقابلان، بينهما بعد المشرقين! وحالان متباينان؛ حال أهل النار، ما يعانونه من أنواع العذاب الحسي، والمعنوي، وحال أهل الجنة، وما يتقلبون به من أنواع اللذائذ، والنعيم الحسي، والمعنوي.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾: هٰذا الاستفهام للإنكار، والتعجيب من حالهم، ومعنىٰ ﴿يَنظُرُونَ﴾: أي: التفكر والاعتبار، وليس المقصود يبصرون البصر المعتاد، وإنما نظر، وإلا فهم ينظرون إلىٰ الإبل صباح مساء، لأنها كانت أنفَس أموالهم. ومن تأمل في خلقة الجمل، وجد أن خلقته مميزة من بين سائر الحيوانات، هٰذا الظهر المسنم، وهٰذه الرقبة الطويلة، تفارق كثيرًا من أنواع الحيوانات. وفي هيئته تلك ما تجعله مهيئًا للركوب، ولحمل الأشياء الثقيلة، وتحمل العطش والمشاق. وهٰذا الوبر جعله اللَّه تعالىٰ علىٰ جسمه، وقاءً له في الشتاء، وسببًا لعدم فقده للماء وتبخره، في الصيف.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾: نقلة أخرىٰ، ومشهد جديد، هٰذه السماء المبنية، خَلق عظيم، سقف مرفوع، لا نرىٰ له عمدًا ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، ولهٰذا قيل: إن معنىٰ قوله ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أنه لا يوجد عمد أصلًا، كما يروىٰ عن ابن عباس، ومجاهد، وقيل بل ثَمَّ عمد، لٰكنها غير مرئية، كما روي عن إياس، وقتادة، ويكون رفعها بالنواميس الكونية الطبيعية[1] التي خلق اللَّه تعالىٰ عليها هٰذا الكون، فهٰذا البناء الشاهق، هٰذه السبع الشداد، لا تقع علىٰ الأرض. ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]، فاللَّه تعالىٰ هو الممسك لها، فلو

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٤٠٩ ـ ٤١٠).

شاء اللَّه لوقعت، وسحقت الخلق كلهم.

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩﴾: الجبال خلق عظيم، وكثيرًا ما يقرن اللَّه تعالىٰ بين السماء، والأرض، والجبال، ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾، النصب يكون للخيمة، وذٰلك أن هيئة الجبل، كهيئة الخيمة، مسنم، وله في الأرض جذور راسخة. ولهٰذا قال في سورة «عم»: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبأ: ٧]. وحينما يقف المرء أمام الجبل، يشعر بالتصاغر أمام هٰذا الخلق العظيم، وقد يكون جبلًا من أصغر الجبال، فكيف إذا كان من الجبال الشاهقة، التي يقاس ارتفاعها بالكيلومترات، اللَّه أكبر! هٰذه الجبال تسبح اللَّه ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠]، فهٰذه الجبال تسبح اللَّه وتخشاه، وتعظمه، وتشفق من حمل الأمانة.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾: نقلة من أعلىٰ إلىٰ أسفل، هٰذه الأرض التي نَدِبُّ عليها، وتعيش عليها مختلف الخلائق، كيف سطحها اللَّه تعالىٰ، وجعلها مهيأة للعيش فيها، والسير في أرجائها؟! وقد استدل بعض العلماء، ومنهم السيوطي، علىٰ أن الأرض مسطحة، وليست كروية، فقال: «ظاهر قوله: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ ظاهر في أن الأرض سطح، وعليه علماء الشرع، لا كرة، كما قاله أهل الهيئة وإن لم ينقض ركنًا من أركان الشرع»[1] اهـ.

احترز: أن الإنسان لو اعتقد أنها كرة، فإن ذٰلك لا ينقض ركنًا من أركان الشرع، واستدل بالآية علىٰ أن الأرض مسطحة! وقوله «عليه علماء الشرع»، ليس مسلمًا، بل عليه بعضهم، فإن شيخ الإسلام بن تيمية ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ وهو سابق له، كان يصرح بكروية الأرض. ومما يستدل به علىٰ كرويتها قول اللَّه تعالىٰ: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]، والليل والنهار إنما يقعان علىٰ الأرض، ففي حركتهما، وتناوبهما، ينشأ هٰذا الشكل الكروي، ثم إن الحس والواقع يقطعان قطعًا جازمًا أنها كروية. والجمع بين هٰذا، وبين قول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾ إن هٰذا بحسب نظر الناظر القاصر، يرىٰ الأرض مسطحة، حتىٰ ينقطع بصره بخط الأفق، ومما يدلك

(١) تفسير الجلالين (٨٠٥).

علىٰ أنها كروية أنك إذا أقبلت علىٰ جهة من الجهات، فإنك أول ما ترىٰ منها عاليها، ترىٰ، مثلًا، رؤوس المآذن، أو رؤوس الجبال، فكلما اقتربت نزل البصر إلىٰ ما دون ذٰلك.

﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١﴾: التذكير: الدلالة علىٰ الحق، المصحوب بالموعظة التي تحرك القلوب، ﴿إِنَّمَآ﴾ أداة حصر يعني: أن مهمتك، ووظيفتك هي البلاغ، والذكرىٰ.

﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم﴾: يعني علىٰ المخاطبين من المشركين ﴿بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ يعني بمتسلط، وجبار. والقراءة المشهورة بالصاد، كما عند عاصم، ونافع، وابن كثير، وأبي عمرو، ولٰكن ثم قراءة بالسين عند ابن عامر، والكسائي، في رواية. وهما لفظان متطابقان في الدلالة علىٰ معنىٰ التسلط، والتجبر، وذٰلك أن النبي ﷺ لا يملك أن يدخل الإيمان، والذكرىٰ في قلوبهم قسرًا. وقد قال بعض المفسرين «الطبري، القرطبي، البغوي»[1]: إن هٰذه الآية منسوخة بآية السيف، والصحيح في آيات الجهاد أنها ليست من قبيل المنسوخ، وإنما تُنَزَّل كل آية علىٰ الحال الذي يناسبها، فلا يقال إن آية السيف نسخت جميع الآيات، نعم نسختها في الوقت الذي نزلت فيه، لٰكن إذا تجدد حال من الضعف لأهل الإسلام، ولم يتمكنوا من رفع علم الجهاد، فإنهم يطبقون ما يناسب الحال. مثال ذٰلك: قال اللَّه تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: ٢٩]، فهٰذا غير متأتٍ الآن، وغير ممكن، وذٰلك بسبب ما آل إليه حال الأمة من الضعف، فلهٰذا ربما يتنزل علىٰ الحال الأمر بالكف، فإن اللَّه تعالىٰ قد قال للمؤمنين في حال الضعف: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧]، فينبغي أن تطبق الآيات المتعلقة بالجهاد بحسب الحال لا يتعسف في تطبيقها علىٰ غير ما يناسبها. فقوله ﷻ: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٣٤١)، تفسير القرطبي (٢٠/ ٣٧)، تفسير البغوي (٥/ ٢٤٦).

بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ هٰذه آية محكمة، غير منسوخة، وذٰلك أن النبي ﷺ لا يملك إدخال الإيمان، والذكرىٰ، في قلوبهم قسرًا وإكراهًا. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِى مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦].

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾: أي لٰكن من تولىٰ وكفر، ومعنىٰ ﴿وَكَفَرَ﴾ أي أعرض، وصد.

فإذا صرف الإنسان فكره، وأعرض بعقله عن النظر في دين اللَّه كفر بذٰلك، حتىٰ لو لم يقل كلام كفر، وحتىٰ لو لم يقع منه شرك، وعبادة أصنام. وقد مثل لذٰلك بما جرىٰ من أبناء عبد ياليل، حين دعاهم النبي ﷺ، فقد سألته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقالت: هَلْ أَتَىٰ عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: «**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَىٰ ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَىٰ مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ، وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَىٰ وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: ذٰلك فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمِ الأخشبين**»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلابِهِم مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**». متفق عليه[1].

﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ﴿٢٤﴾﴾: هٰذا وعيد من اللَّه ﷻ للكافر المتولي، بأشد العذاب، لقوله: ﴿ٱلۡأَكۡبَرَ﴾ وهو عذاب النار.

﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴿٢٥﴾﴾: أي مرجعهم جميعًا.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾: أي جزاؤهم، كل هٰذه الخلائق تؤوب إلىٰ اللَّه ﷻ، وحسابها عليه، لا يخرجون من سلطان اللَّه، ولا ينفذون من ملكه.

فيا لها من سورة عظيمة، وموعظة بليغة لمن تدبرها!.

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٣١)، صحيح مسلم (١٧٩٥).

۞ الفوائد الْمُستنبطة:

الفائدة الأولى: شدة أهوال يوم القيامة، وذٰلك أنه سماها «الْغَاشِيَةِ».

الفائدة الثانية: سوء عاقبة الكافرين، وشدة عذابهم في النار، حسًّا، ومعنًىٰ.

الفائدة الثالثة: حسن عاقبة المؤمنين، وكمال نعيمهم في الجنة حسًّا، ومعنًىٰ.

الفائدة الرابعة: أن اتفاق الأسماء لا يلزم منه اتفاق المسميات.

الفائدة الخامسة: إثبات المعنىٰ العام، المشترك في الأذهان، ليُفهم الخطاب.

الفائدة السادسة: لفت الأنظار إلىٰ التدبر في خلق اللَّه: وذٰلك في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾، ولهٰذا ينبغي للدعاة للَّه أن يستعملوا هٰذه الطريقة، وأن يحركوا العقول الراكدة، والأذهان البليدة، لأن الذهن البليد، والعقل الغافل، مغلق لا يقبل موعظةً وذكرىٰ. فإذا نفض عنه هٰذا الغبار أصبح صالحًا للاستقبال.

الفائدة السابعة: قرب دلائل الربوبية ومباشرتها للمكلفين: فالسماء، والأرض، والجبال، والإبل، لا تحتاج في إدراكها إلىٰ كد، وعناء. فدلائل الربوبية قريبة جدًا، بل هناك أقرب مما ذُكر، كما قال في آية أخرىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢١].

الفائدة الثامنة: الأمر بالتذكير، واستعمال البراهين الحسية، والعقلية: لقوله تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١﴾ بعد أن قال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾، وهٰذا يستدعي إعمال الأدوات الحسية ـ من البصر، والسمع وغيرها ـ، واستعمال العقل في الاستنباط.

الفائدة التاسعة: أن الداعية لا يملك إلا البيان، وإنما الهدىٰ بيد اللَّه: وأثر هٰذا علىٰ نفس الداعية ألا يشعر بالإحباط والخذلان، قال اللَّه تعالىٰ:

﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨]، فينبغي للداعية أن يجتهد في دعوته، وإبلاغها، وألا يشغل باله بالنتائج، فذٰلك إلىٰ اللَّه ﷻ، ولو شاء اللَّه ﷻ لآمن من في الأرض كلهم جميعًا.

الفائدة العاشرة: لا إكراه في الدين: قال تعالىٰ: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ فأمر الدين والعقيدة لا يمكن أن يقع فيه إكراه، ولا يمكن أن تُدخل العقيدة في نفس الإنسان كرهًا. أما إقامة الدين، بمعنىٰ الشرع، والنظام، فهٰذا من الأحكام السلطانية، التي إذا كتب اللَّه تعالىٰ لأهل دينه التمكين، فإنهم يلزمون الناس بها، فمن قبل دين اللَّه فله ما لنا، وعليه ما علينا، وهو كأحدنا، ومن أبىٰ، فإن عليه أن يدفع الجزية عن يد وهو صاغر، لكي يكون الدين للَّه، ومعنىٰ ذٰلك أنه خضع لدين اللَّه، ولشرعه، ولأئمة المسلمين، فإن أبىٰ فالسيف. هٰكذا رتب اللَّه تعالىٰ ورسوله ﷺ الأمور.

الفائدة الحادية عشرة: الوعيد الشديد علىٰ الكافر المعرض: قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ٢٤﴾.

الفائدة الثانية عشرة: أن مجرد الإعراض، والتولي نوع من أنواع الكفر ويسمىٰ كفر الإعراض.

الفائدة الثالثة عشرة: إثبات البعث والجزاء: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾.

سورة الفجر

هٰذه السورة تسمىٰ سورة «الفجر»، نسبة إلىٰ إقسام اللَّه تعالىٰ بالفجر في مستهلها. وتظهر عليها سمات السور المكية في مقاصدها، وفي أسلوبها، وفي تنوع مقاطعها، وما تتضمنه من أنواع البلاغة، والتأثير، التي تأخذ بمجامع القلوب.

ولهٰذه السورة، كما للسور المكية، مقاصد منها:

١ ـ إثبات المعاد، والجزاء. وهٰذا في أولها، وآخرها.

٢ ـ اطراد سنن اللَّه في أعدائه.

٣ ـ الكشف عن طبيعة النفس الإنسانية في السراء والضراء.

٤ ـ بيان التلازم بين الإيمان من جهة، والأخلاق والسلوك من جهة أخرىٰ.

﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾:

﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾﴾ هٰذا قسم من اللَّه ﷻ بالفجر. وقد اختلف المفسرون في المراد بالفجر؛ فقيل: إن المراد به فجر الصبح الذي يعرفه كل أحد. وقيل: إن المراد به صلاة الفجر، فعبَّر عن الصلاة بوقتها، لأنها أشرف ما فيه ﴿وَقُرْءَانَ

ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾. وقيل: المراد النهار كله. وكأن من ذهب إلىٰ هٰذا القول جعل هٰذا قسيمًا لقوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾، فجعل الآية الأولىٰ للدلالة علىٰ النهار، لكون الآية الثانية تشير إلىٰ الليل. وأقرب هٰذه الأقوال القول الأول.

واللَّه يقسم بما شاء من الأمكنة، والأزمنة، والمخلوقات. فمما أقسم اللَّهُ تعالىٰ به من الأزمنة (الفجر)، و(العصر)، و(الضحىٰ)، و(الليل)، و(النهار)، ومن الأمكنة (البلد)، (الطور)، (والبيت المعمور)، ومن المخلوقات، (السماء)، و(الشمس)، و(القمر)، و(النجوم)، و(التين والزيتون) وهٰكذا، فللَّه ﷻ، أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، فهاهنا قد أقسم بِهٰذا الوقت، وفيه لفت انتباه إلىٰ تغير الأحوال، وقدرة اللَّه ﷻ علىٰ صبغ كل حال بصبغة خاصة، فحال الفجر ليس كحال الظهر، ولا العصر، ولا المغرب، مع أن الفجر يمثل نقلة من الليل إلىٰ النهار، والمغرب نقلة من النهار إلىٰ الليل، إلا أن بينهما فرقا.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ هي ليالي عشر ذي الحجة. وكأن هٰذا التفسير محل إجماع بين المفسرين، كما أشار إلىٰ ذٰلك أمامهم ابن جرير الطبري(١)، وهي ليال، وأيام شريفة. والعرب تعبِّر بالليلة عن اليوم والليلة معًا، فقد قال النبي ﷺ: «**مَا الْعَمَلُ في أَيَّام الْعَشْرِ أَفْضَلَ مِنَ الْعَمَلِ في هٰذه**»، قَالُوا: وَلاَ الْجِهَادُ؟ قَالَ: «**وَلاَ الْجِهَادُ، إِلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ، وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ**» رواه البخاري(٢).

﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾﴾ تضمنت هٰذه الآيات من المحسنات البلاغية «السجع»، وهو سجع غير متكلف، و«الطباق» بتقابل هٰذه المفردات. قيل إن المراد بـ﴿**الشَّفْعِ**﴾ الزوج ـ يعني العدد الزوجي ـ ، و﴿**وَالْوَتْرِ**﴾ الفرد، يعني العدد الفردي. وقيل: ﴿**الشَّفْعِ**﴾ يوم النحر، لكونه العاشر، و﴿**الْوَتْرِ**﴾ يوم عرفة،

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٣٤٨).
(٢) صحيح البخاري (٩٦٩).

لكونه التاسع. وقيل: ﴿الشَّفْعِ﴾ المخلوق و﴿الْوَتْرِ﴾ هو الخالق. وكأن قائل ذٰلك لاحظ معنىٰ قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ» متفق عليه[1].

وقيل: إن المراد بهما: الصلاة المفروضة؛ فمنها ما هو شفع، ومنها ما هو وتر. فصلاة المغرب وتر، وبقية الصلوات شفع. والصحيح في هٰذه الأقوال ما دل علىٰ العموم، وهو اختيار إمام المفسرين، ابن جرير الطبري[2].

فكل شيء إما أن يكون شفعًا، وإما أن يكون وترًا. فالقول بالعموم أولىٰ، لكي يتناول جميع مفرداته، فيدخل في ذٰلك يوم عرفة، ويوم النحر، ويدخل فيه الخلق، فما من شيء إلا وهو مندرج تحت هٰذين الوصفين.

﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ الليل معروف، ومعنىٰ ﴿يَسْرِ﴾ يعني مقبلًا، ومدبرًا. فذهب بعض المفسرين إلىٰ أن المراد بسريانه، حال إقباله، وحال إدباره. وقيل إن المراد به تحديدًا إذا ذهب، فكأنهم أرادوا بذٰلك الإدبار دون الإقبال، وجعلوا هٰذا بإزاء قوله ﴿وَالْفَجْرِ﴾، لأن الفجر هو إقبال النهار ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ إدبار الليل. وخصه بعضهم بليلة مزدلفة، ولا وجه لهٰذا التخصيص. ولٰكن لعله لما رأىٰ أن قول اللَّه تعالىٰ ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ ليالي عشر ذي الحجة، وقول من قال بأن ﴿الشَّفْعِ﴾ يوم النحر، وأن ﴿الْوَتْرِ﴾ يوم عرفة، جعل هٰذا ليلة مزدلفة. ولٰكن الآية أعم من ذٰلك.

وجواب القسم محذوف، وكأنه لبداهته، وعظمه، وشهرته، لم يحتج إلىٰ ذكر وتقديره: لتبعثن، ولتجازن علىٰ أعمالكم، ولتحاسبن. وهو الأمر الذي كان ينكره كفار مكة، ومشركو العرب.

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾: يعني هل في هٰذه المذكورات مقنع لصاحب عقل؟ فالقسم هنا المقصود به ما يحصل به الإقناع. والمراد بالحجر: العقل. وإنما سمي العقل «حجرًا»، لأنه يحجر صاحبه عن فعل القبيح. وكذٰلك سمي عقلًا، لأنه يعقله عن ذٰلك. فلا شك أن من كان ذا

(١) صحيح البخاري (٦٤١٠)، صحيح مسلم (٢٦٧٧).
(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٣٥٥).

عقل، وجد في هٰذه الأقسام المتتابعة مقنع علىٰ ثبوت المعاد، والجزاء، والحساب.

وهٰذا يدل علىٰ الثناء علىٰ العقل حقيقة. ولا شك أن العقل نعمة. العقل من أشرف الأدوات التي منحها اللَّه تعالىٰ للإنسان؛ ذٰلك أن العقل هو الأداة التي يستخدمها القلب للوصول إلىٰ الهدىٰ، لٰكن أين يصنع القرار في القلب أم العقل؟ في القلب لأن اللَّه قال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وفي آية أخرىٰ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]. إذًا القلب الذي في الصدر هو صاحب القرار النهائي. أما الدماغ الذي هو المخ، فهو بمنزلة المولد «الدينمو» فإذا كان عندنا مصباح كهربائي فإنه لا يضيء حتىٰ يسري فيه هٰذا التيار. مثال آخر: العقل بالنسبة للقلب، مثل المساعد «السكرتير» بالنسبة لمدير العمل. السكرتير يقدم لمدير العمل أوراقًا، وتقارير، ونتائج، وإحصاءات، ثم ينظر فيها صاحب العمل، ويتخذ القرار. فالعقل أداة، لٰكن صاحب القرار هو القلب. لذٰلك علق اللَّه الثناء، أو الذم عليه قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾ بعد أن ذكر اللَّه تعالىٰ هٰذه الأقسام الفخمة، ونوعها مما يدل علىٰ عظم المقسم عليه، أتىٰ بلون جديد من ألوان الإقناع، وهو الاستشهاد بالسنن الكونية، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، والخطاب موجه إلىٰ النبي ﷺ. والرؤية هنا رؤية علمية، لأن النبي ﷺ، لم يبصر بعيني رأسه، ما فعل اللَّه بعاد. وهٰذا الاستفهام، استفهام تقريري. وعاد قبيلة معروفة، كانت تسكن منطقة الأحقاف، ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١]، وتقع في طرف الربع الخالي، حاليًا، أجزاء من اليمن.

﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾: ﴿إِرَمَ﴾ هٰكذا بلا تنوين، ولا إضافة، بإجماع

القراء. وقد اختلف المفسرون اختلافًا واسعًا في تفسير ﴿إِرَمَ﴾ فمنهم من قال: هي عاد الأولىٰ. وقال بعضهم، قبيلة من عاد، وهو اختيار ابن جرير الطبري[١]. فكأن عاد هي الأم و﴿إِرَمَ﴾ فخذ من تلك القبيلة. فإذا قلنا إن ﴿إِرَمَ﴾ هي ذاتها عاد، فيكون ذٰلك عطف بيان، أو بدل، وقد منع من الصرف لسببين: للعلمية، والتأنيث، ويمكن أن يقال: والعجمة أيضًا. وقيل في تفسير ﴿إِرَمَ﴾: إنها اسم لمدينة عاد، أو قوم عاد، أو إحدىٰ مدنهم. حتىٰ إن من المفسرين من سماها، وقال: هي الإسكندرية! وقال بعضهم: هي دمشق! ولٰكن هٰذه الأقوال مستبعدة، لأن الإسكندرية لم تكن مسكنًا لعاد، ولا دمشق مسكنًا لهم. إلا أن يكون ذٰلك من اتفاق الأسماء.

وقال بعضهم: إن معنىٰ ﴿إِرَمَ﴾ أي القديمة، أو الهالكة. وأقرب الأقوال في هٰذا، ما اختاره إمام المفسرين ابن جرير الطبري[٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المراد بها قبيلة من عاد.

﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ هٰذا وصف لها بأنها ذات عماد. فإذا قلنا إن ﴿إِرَمَ﴾ اسم للقبيلة، فالمعنىٰ أنهم: طوال الأجسام، يعني أنهم أوتوا بسطة في الجسم، كما قال اللَّه تعالىٰ علىٰ لسان نبيهم «هود»: ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]. ولا شك أن قبيلة عاد قد أتاهم اللَّه تعالىٰ بسطة في الجسم، وقوةً، وطولًا، فهم عظام الأجسام، حتىٰ إن من المفسرين من أغرب في الخيال، وقال إن الطويل منهم طوله أربعمائة ذراع! أي مائتا متر! ولٰكن هٰذا، واللَّه أعلم، من الإسرائيليات. لأن النبي ﷺ قال: «**خَلَقَ اللَّه آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا**» متفق عليه[٣]. وفي رواية مسلم: «**فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدَهُ حَتَّىٰ الآنَ**». فينبغي إذًا، أن يكون قوم عاد، دون آدم. فهٰذا من الخيالات التي يغرب فيها بعض المفسرين، وينبغي لنا أن نقتصد، فلا نقول إلا ما دل عليه القرآن،

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٣٦٤).

(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٣٦٤).

(٣) صحيح البخاري (٣٣٢٦)، صحيح مسلم (٢٨٤١).

والسنة، ويكفينا أنهم عظام الأجساد، طوال القامة هٰذا إذا قلنا أن ﴿إِرَمَ﴾ هي القبيلة. وأما إذا قلنا: إنها المدينة، فحينئذ يكون معنىٰ ذات العماد: أي ذات أعمدة الخيام المرتفعة.

وقد استدل غير واحد من المفسرين، علىٰ أن القوم كانوا رُحَّلًا، وأنهم لا يستقرون في موضع، بل ينصبون خيامهم الهائلة الكبيرة، ثم يرتحلون، كما هو حال الأعراب. وذهب بعض المفسرين إلىٰ أن المقصود بـ﴿ٱلْعِمَادِ﴾ أي الأعمدة المبنية من الحجر، أو من الرخام. وعلىٰ كل تقدير، فإن هٰذا أيضًا يدل علىٰ أن القوم عظيمو الخلقة، لأنه لا يمكن أن تكون أعمدة خيامهم طويلة مرتفعة، إلا وهم كذٰلك. فإن الإنسان يرفع سقف بيته بما يتناسب مع خلقته. ففي هٰذا تفخيم لحالهم، وعظم خلقهم. وفيه إشارة إلىٰ تهوين قريش أمام هٰؤلاء، فقد كانوا أشد منهم قوة، وآثارًا في الأرض. ومع ذٰلك فعل اللَّه بهم ما فعل.

﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾، أي مثل تلك القبيلة في بطشها، وقوتها. وقد أهلكهم اللَّه بالريح، مع أن الهواء ألطف المخلوقات، فصاروا ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، سلط اللَّه تعالىٰ عليهم ريحًا صرصرًا ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧].

فكانت الريح تحمل أحدهم في الأعالي، ثم تدقه في الأرض. وكان بعضهم يدفن نصف جسمه، في الأرض ليتقي الريح أن تحمله، فتجتثه، فيبقي كأنه أصل نخلة مقطوعة: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠](١).

فاللَّه ﷻ يسلط جندًا من جنده، من ألطف الأشياء، وهو الهواء، فيحيله إلىٰ قوة مدمره، ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]. وربما دلت هٰذه الآية علىٰ أنه كان لهم، فعلًا، بيوتًا مبنية، لأنه لو قدر أنها كانت خيامًا، فالغالب أن الريح ستقتلع الخيام، وتطير بها كل مطار، ولم يبق مساكن ترىٰ.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٣٥).

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾﴾ هٰذا عطف علىٰ عاد. أي: وكيف فعل بثمود؟ وثمود قبيلة كانت تسكن الحجر، وادي القرىٰ، الواقع بين مكة والشام. ومعنىٰ ﴿جَابُواْ ٱلصَّخْرَ﴾ أي: شقوه وقطعوه. وذٰلك أن موطنهم، وادي القرىٰ، جزء منه جبال، وجزء منه سهول، فكانوا ينحتون من الجبال بيوتًا، ويتخذون من سهولها قصورًا. وذٰلك غاية ما يكون في العمران. ولا تزال أثارهم باقية، وهي المسماة الآن بمدائن صالح. يأتون إلىٰ الجبل الأشم، فيُعملون فيه المطارق، وينقشونه، ويتخذون فيه الغرف، والمساكن. ثم كان أن اللَّه أهلكهم بالسوط. والسوط هو الصيحة الهائلة، والرعب الفظيع، الذي قطع نياط قلوبهم في صدورهم. ما أهون الخلق علىٰ اللَّه! وهٰذا الكلام يساق لقريش، وهم كما قال اللَّه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨] في طريق تجارتهم للشام، يمرون بوادي القرىٰ. وينبغي أن يعلم أن من الآداب الشرعية، ألا يتفكه الإنسان بزيارة تلك الآثار، وأنه لا يحل أن يدخلها علىٰ سبيل النزهة والفرجة، فقد نَهَىٰ النبي ﷺ، عن ذٰلك.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما مر النبي ﷺ بالحجر قال: «**لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابهم إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ**» ثُمَّ قَنَّعَ رَأْسَهُ، وَأَسْرَعَ السَّيْرَ، حَتَّىٰ أَجَازَ الْوَادِيَ. متفق عليه[1]، وذٰلك لتعظيمه جناب اللَّه وأيام اللَّه، خلاف ما يفعله بعض الناس الآن؛ يأتون إلىٰ هٰذه الأماكن، والبقاع التي حل فيها وعيد اللَّه، عز وجل، فيتفكهون، ويتندرون، ويتنزهون، باسم السياحة، وباسم تعظيم الآثار، ولا يعتبرون. نعم! لو دخل الإنسان علىٰ سبيل الاعتبار، فلا حرج، يدخل، وينظر هٰذه المساكن الهائلة، ويستعبر، ويتعظ، فلا بأس. لٰكن الأعم الأغلب أن الناس الذين يغشون هٰذه الأماكن، يأتونها علىٰ سبيل النزهة، والمرح، والفرح. فإما أن يدخل علىٰ الصفة التي ذكر النبي ﷺ أو يدع.

---

(١) صحيح البخاري (٤١٥٧)، صحيح مسلم (٢٩٨٠).

﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠﴾ هٰذا هو المثال الثالث لفعل اللَّه ﷻ، وسنته الكونية في الأولين. فرعون معروف، وشهرته في الكفر ظاهرة. فإنه لا يعلم أحد من بني ادم إنكار الرب، سبحانه وبحمده، مثل فرعون؛ فإنه ادعىٰ الربوبية، وادعىٰ الألوهية، فقال لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]! ولذٰلك أذله اللَّه أيما إذلال. قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠﴾ وكأنه أراد فرعون ومن وافقه. اختلف المفسرون في المراد بـ ﴿ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ فقيل: المراد بها أوتاد التعذيب، وذٰلك أنه كان يتد الوتد في الأرض، من الخشب، أو من الحديد، ويربط المرء، ويعذبه. أو يضرب أربعة أوتاد، كما أعضاء الإنسان الأربعة؛ يداه، ورجلاه، فيربط كل يد بوتد، وكل رجل بوتد. وقيل إن المراد بالأوتاد: الجنود، لأن جنود الملك بمنزلة الأوتاد التي تثبت ملكه. وقيل: المراد بالأوتاد الحبال. وكأن هٰذا، واللَّه اعلم، من تفسير الشيء بلازمه، لأنه لا قيمة للوتد المضروب في الأرض، إلا بحبل يشد إليه. فيكون المقصود الحبال التي تتصل بِهٰذه الأوتاد. وقيل: إن الأوتاد عبارة عن مظلات، تحتها ملاعب يلعب بها. وهٰذا يدل علىٰ أن هٰذه المسابقات الرياضية، كانت موجودة منذ القدم، وأن فرعون كان يتخذ المظلات الهائلة، التي يجرىٰ تحتها أنواع اللعب، والفنون.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١﴾ عبر بالجمع، وقد كان الحديث عن فرد، وهو فرعون. وهٰذا يعزز أن الأوتاد معناها الجنود. وربما يراد بفرعون آل فرعون، وملؤه، وجنده عمومًا، يعني فرعون ومن وافقه، فعبَّر عنهم بزعيمهم، ورئيسهم. ومعنىٰ طغوا: أي تجاوزوا الحد وتجبروا. وقد كان فرعون طاغية؛ يذبح أبناء بني إسرائيل، ويستحيي نساءهم. هٰذا في تعامله مع الخلق، وأما مع الخالق، فقد طغىٰ، وتكبَّر، وأنكر وجود الرب، وزعم أنه الرب، وقال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] فينطبق عليه انطباقا تامًا وصف الطغيان.

﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢﴾ لم يفسدوا فقط، بل أكثروا من القتل والمعاصي

والكفر. كل هٰذا فساد. وإذا حل الفساد فما أوشك وقوع العذاب. ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ هٰذه الآية ترتجف منها قلوب المؤمنين العارفين باللَّه ﷻ. والصب يعني: الإنزال، لٰكنه إنزال متتابع. ﴿سَوْطَ﴾: يعني نوع عذاب لاذع، متتابع. لأن السوط فيه معنىٰ اللذع. فالسياط تلذع الجلود.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ إنَّ تفيد التأكيد، والتحقيق. يعني أنه يحصي أعمالهم، ولا يفلت منهم أحد. لأنه يأتيه علىٰ حين غرة. وهٰكذا اللَّه يمهل للظالم، حتىٰ إذا أخذه لم يفلته. فإذا أغلقت الأبواب، وأرخيت الستور فاذكر قول اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾. قال بعض الصالحين: «لا يكن اللَّه أهون الناظرين إليك».

فهٰذا المقطع، فيه نوع جديد من التأثير علىٰ منكري البعث، ومكذبي نبينا ﷺ، وتذكير لهم بحال الأمم السابقة، وما جرىٰ منها من تكذيب، وكيف أخذها اللَّه «أخذ عزيز مقتدر».

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: تعظيم القسم بتنوع المقسم به.

الفائدة الثانية: بيان قدر العقل ومنزلته.

الفائدة الثالثة: عظيم قدرة اللَّه حيث أهلك هٰذه الأمم الجبارة.

الفائدة الرابعة: قوة الأمم السابقة في أبدانهم، وآثارهم.

الفائدة الخامسة: إمهال اللَّه للظالم، وأخذه أخذًا شديدًا.

الفائدة السادسة: كمال رقابة اللَّه، واطلاعه، وإحاطته.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ الإنسان هنا، يحتمل أن يراد به جنس الإنسان، ويحتمل أن يراد به الكافر خاصة. وقد ذكر بعض المفسرين أن الغالب في «الإنسان» في السور المكية، أنه الكافر.

﴿ٱبْتَلَىٰهُ﴾ أي اختبره ﴿رَبُّهُۥ﴾ هٰذه ربوبية عامة. ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ أكرمه بالمال، والصحة، والجاه، وأي نوع من أنواع الإكرام، والإنعام.

﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ يصف اللَّه تعالىٰ حال الإنسان من حيث هو إنسان، أو الإنسان صاحب النفس المنحرفة، بأنه إذا رأىٰ في قدر اللَّه تعالىٰ له توسعة في الرزق، وصحة في البدن، ونيلا لما يهوىٰ، ويشتهي، ظن ذٰلك دليل كرامة، ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ أي: أنا كريم علىٰ اللَّه!

وبالمقابل: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ أي: ضيق، كما قال: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]، يعني ضيق عليه رزقه. ومنه قول النبي ﷺ «**فإن غمَّ عليكم فاقدُروا له**» متفق عليه[(١)]. والرزق يشمل رزق المال، ورزق الصحة، ورزق الجاه، وجميع أنواع الرزق.

﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ أي يظن أن تضيق اللَّه تعالىٰ عليه في الرزق، وحبس بعض ما يشتهي، دليل علىٰ هوانه علىٰ اللَّه! هٰكذا يقع في نفس الكافر، أوفي النفوس المنحرفة، أو ضعيفة الإيمان. فلأجل ذا عقب اللَّه تعالىٰ علىٰ هٰذين الحالين بقوله ﴿كَلَّا﴾ فهي إذًا متعلقة بما قبلها.

---

(١) صحيح البخاري (١٨٠٨)، صحيح مسلم (١٠٨٠).

و﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع، وزجر، يراد بها إبطال، وإسقاط ما تقدمها. ومعناها: ليس الأمر كما تظنون، فليس عطاؤنا دليل كرامة، وليس منعنا دليل هوان. علامة الكرامة: إذا أعطي شكر، وإذا منع صبر. وعلامة المهانة: إذا أعطي بطر، وإذا منع ضجر. وعليه قول النبي ﷺ: «**عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ. وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**» رواه مسلم[(١)].

وقد أدرك هٰذا المعنىٰ أهل الإيمان فقال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رأىٰ عرش ملكة سبأ مستقرًا عنده: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، فأدرك أن تمكين اللَّه تعالىٰ إياه بإحضار عرش ملكة سبأ، قبل أن يرتد إليه طرفه، مسيرة آلاف الأميال، أنه ابتلاء، وأن حق ذٰلك هو الشكر. بخلاف قارون؛ فإن قارون لما أتاه اللَّه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولىٰ القوة، وقال له قومه لا تفرح! أي فرح أشر، وبطر، رد عليهم بزهو، وتبختر: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨] ولم يثنِ بالنعمة علىٰ مسديها.

﴿بَل﴾: أي لٰكن حالكم أنكم:

﴿لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ اليتيم: من مات أبوه ولم يبلغ سن الاحتلام. وهو أحد الضعيفين، كما قال النبي ﷺ: «**اللَّهم إني أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمِ وَالْمَرْأَةِ**» رواه ابن ماجه وأحمد في «المسند»[(٢)]، فكان من حال العرب في الجاهلية، أن اليتيم لا يفرضون له من الميراث، ولا يأبهون به، ويأكلون ماله، ولا يحسنون إليه، لعدم أب يرجع إليه، ويعتضد به. وهٰذه أخلاق جاهلية، ناتجة عن فقد الإيمان أما المؤمن فلا يمكن أن يصدر منه ذٰلك، لأن إيمانه يزرع الرحمة في قلبه.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨﴾ يعني لا يحض بعضكم بعضًا، ولا تحضون أنفسكم. والحض: الحث. والمقصود بطعام المسكين: إطعام

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٩٩).

(٢) سنن ابن ماجه (٣٦٧٨)، مسند أحمد (٩٦٦٦)، حسنه الألباني.

المسكين. والمسكين هو من أسكنته الفاقة، والعوز، تجده يميل للسكون، والخمول، لا يكاد يرفع طرفه، بسبب فقره، وعوزه. وهٰذا أمر مشاهد! لأن ما في النفس يظهر علىٰ الجوارح. فإذا كان الإنسان في حال اضطرار، وافتقار، وقلة ذات يد، تجده إذا خاطب الناس تمسكن، وكلمهم بصوت خفيض، وتوسل إليهم. وإذا ما صار له حظ من الغنىٰ، انتشىٰ، وافتخر، إلا من عصم اللَّه ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦ ـ ٧].

﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ۝١٩﴾: «تأكلون» بالتاء، وقرئت بالياء. وهٰكذا جميع الأفعال الأربعة: تكرمون، وتحاضون، وتأكلون، وتحبون، بالتاء والياء. والتراث: هو الميراث. ﴿لَّمّٗا﴾ أي شديدًا. وفسرها بعضهم بقوله: سفًا، الذي يسف الطعام سفًا، كناية عن كثرته، حتىٰ أنه ربما لا يمضغه لعجلته، ونَهمه. وعبر بعضهم بلف كل شيء، وكلها ألفاظ متقاربة. وسبب ذٰلك أنهم كانوا لا يورثون النساء، واليتامىٰ، بل ولا يأتون النساء مهورهن، قال اللَّه تعالىٰ في مطلع سورة «النساء»: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ۝٢﴾ [النساء: ٢]. والمراد اليتمات.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ۝٢٠﴾ أي: كثيرًا، أو شديدًا. وهٰذا من طبيعة النفس في الأصل، ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: ٨] ولا يضبط هٰذه النزعات إلا الإيمان. فهٰذه أربعة أوصاف من صفاتهم الجاهلية، التي ذمهم اللَّه تعالىٰ عليها. وبه يتبين أن الأخلاق ثمرة للإيمان.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: تنوع الابتلاء؛ بالسراء، والضراء.

الفائدة الثانية: أن السراء ليست دليلًا علىٰ الكرامة، بل شكرها دليل عليها.

الفائدة الثالثة: أن الضراء ليست دليلًا علىٰ الهوان، بل الضجر منها

دليل عليه.

الفائدة الرابعة: تعظيم حق اليتيم، والمسكين.

الفائدة الخامسة: أن الفساد الخلقي، تابع للفساد العقدي.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾:

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾: هٰذا انتقال في الأسلوب، ينقل القلب والعقل إلىٰ ميدان آخر، وإلىٰ موضوع جديد. ومعنىٰ ﴿دُكَّتِ﴾ أي: زلزلت، وحطمت، ودقت. فالدك: يحمل هٰذه المعاني، الحركة المضطربة المزلزلة، ثم التحطيم، فلا يبقىٰ شيء علىٰ شيء، ثم الدق، والتفتيت.

﴿دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾: هٰذا التكرار للتأكيد، فإنه بليغ في إثبات المراد. وذٰلك يوم القيامة.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ الجائي هو اللَّه، فإنه أسند الفعل إليه.

﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أي: وجاء الملك. الملك: جمع ملاك، مأخوذ من الألوكة، أي: الرسالة، وذٰلك لأن اللَّه ـ تعالىٰ ـ يرسلهم بأمره ووحيه.

﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أي: مصطفين صفوفًا، إثر صفوف. وهٰذا من أعظم مشاهد القيامة؛ حينما تنشق السماء الأولىٰ، فيهبط ملائكتها، ويحيطون بأهل الأرض إحاطة السوار بالمعصم، ثم السماء الثانية، فيحيطون بمن قبلهم، فالثالثة، فالرابعة، حتىٰ السابعة. ثم بعد ذٰلك ينزل الرب ـ سبحانه وبحمده ـ لفصل القضاء بين العباد. وهٰذا هو المجيء المذكور في هٰذه الآية. وهو مجيء حقيقي يليق بجلاله وعظمته ﷻ نثبته، ولا ننكره، ولا نعطله، ولا نؤوله

بأنواع التحريفات، بل نثبته إثباتًا حقيقيًا علىٰ ما يليق بجلال ربنا. ولا يجوز تفسير المجيء بأنه مجيء أمره. فكيف يقال: إن قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ ليس علىٰ ظاهره، بل هو مجيء أمره، ومجيء الملائكة علىٰ ظاهره، وهما في آية واحدة؟!! هٰذا من العدوان علىٰ النصوص، ومن التحكم بلا دليل. بل هو مجيء حقيقي للرب، ومجيء حقيقي للملك. فمجيء الملائكة يليق بهم كمخلوقين، ومجيء الرب يليق به لكونه الخالق.

وهٰذه الآية، وسائر آيات الصفات، يجب التصديق بها، وإجراؤها علىٰ ظاهرها اللائق به ﷻ ونعتقد أن ذٰلك لا يستلزم تشبيهًا، ولا شيئًا من اللوازم الفاسدة، التي ظنها باللَّه أهل التمثيل، وأهل التعطيل. وهو سبحانه أصدق قيلًا، وأحسن حديثًا من خلقه، وأعلم بنفسه، وبخلقه. والتحريف في هٰذه المقامات الخطيرة، افتيات علىٰ اللَّه ﷻ، وطعن في القرآن، وطعن في الرسول. ولو شاء اللَّه ـ تعالىٰ ـ لعبر بما ادعوه، ولم يدع الأمر ملتبسًا كما ظنوه، لٰكنه أراد حقًّا، وصدقًا مدلول كلامه.

فنعتقد أنه يجيء ـ سبحانه وبحمده ـ يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده، وأن المجيء، كما النزول، كما الاستواء، من صفاته الفعلية، المتعلقة بمشيئته وحكمته، يفعلها متىٰ شاء، كيف شاء، إذا شاء، وأن فعله لها لا يتضمن نقصًا بحال.

وأما دعوىٰ النفاة بأن هٰذا يلزم منه حلول الحوادث بالرب، فدعوىٰ مردودة؛ لأن جنس الفعل صفة ذاتية للَّه، لأنه ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود: ١٠٧]، لم يزل، ولا يزال فعالًا، وأما صوره، وأفراده، وآحاده، فتتنوع كما يقدر ـ سبحانه ـ ويفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. وليس في إثبات ذٰلك نقص بل نفي أفعاله سبحانه هو النقص لأنه سلب لحقيقة مشيئته وقدرته.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ هٰكذا بصيغة الفعل الذي لم يسمىٰ فاعله، وذٰلك أن جهنم خلق لا يأتي بنفسه، بل يجيء بها ملائكة الرحمن. قال النبي ﷺ: **«يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ**

يَجُرُّونها» رواه مسلم[١]، وهٰذا مشهد رهيب، مشهد جر النار جرًا، مع هول حجمها، وبعد قعرها، قد أضرمت آلاف السنين، فهي سوداء مظلمة.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾: الإنسان الكافر الذي كان مكذبًا بالمعاد، رادًا خبر اللَّه، وخبر رسوله.

﴿أَنَّىٰ﴾: كلمة استبعاد، وتيئيس. لأنه لا ينتفع من ذكراه حينذاك ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾ [الأعلى: ٩] ففي ذٰلك الوقت لا تنفع الذكرىٰ. والاستفهام هنا للنفي.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾: ليت: أداة تمني. والمعنىٰ ليتني قدمت في حياتي الأولىٰ لحياتي الآخرة، من الإيمان والعمل الصالح. كما أنه عند الموت يقول: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠] فهو يندم ساعة الاحتضار، ويندم حينما يجاء بجهنم علىٰ هٰذه الصفة.

ثم قال اللَّه ﷻ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: ذٰلك اليوم ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾، هٰكذا بكسر الذال، وبكسر الثاء، وعلىٰ هٰذا فالضمير في ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾، و﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾ يرجع إلىٰ اللَّه سبحانه. وقرأت بالفتح فيهما، فيكون مرجع الضمير للكافر.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾: انتقل إلىٰ أسلوب الخطاب. وهو خطاب للنفس المطمئنة بالإيمان. ومعناها: الآمنة، وقيل الموقنة، وقيل المخبتة، وقيل المصدقة. وهي معانٍ متقاربة. والنفوس ثلاثة أنواع:

١ ـ نفس مطمئنة.

٢ ـ ونفس أمارة.

٣ ـ ونفس لوامة.

فأما النفس المطمئنة: فهي التي سكنت علىٰ محبة اللَّه، ورجائه، وخوفه،

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٤٢).

والتوكل عليه. فمن سمة النفس المؤمنة الطمأنينة؛ فتجد المؤمن مطمئنًا في اعتقاده، راضيا باللَّه ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا. وغير المؤمن نفسه تتلجلج، وتعصف بها الشبهات، والظنون الفاسدة، والاعتقادات الباطلة. فالمؤمن قد أوىٰ إلىٰ ركن متين، فهو يقابل نعم اللَّه بشكرها، ويقابل المصائب بالصبر عليها، وإحسان الظن باللَّه. نسأل اللَّه ـ تعالىٰ ـ أن يرزقنا أنفسًا مطمئنة، وقلوبًا سليمة، وألسنة صادقة.

وأما النفس الأمارة، فنفس متمردة شموس، لا تتعلق بخالقها، وبارئها، فهي علىٰ النقيض من الأولىٰ. وأما النفس اللوامة، فنفس تجري في مضمار بين النفسين السابقتين، فتتلوم علىٰ صاحبها؛ تتلوم أي: تتلون، تارة تلومه علىٰ الخير، وتارة تلومه علىٰ الشر. فهي بعد لم تطمئن، وربما آلت إلىٰ أحد الحالين؛ فتتمحض للخير، فتصير مطمئنة، وربما تتمحض للشر فتصير أمارة، وربما بقيت مترددة بين الحالين.

﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾ يعني عودي. أي: إلىٰ خالقك؛ وذٰلك للوقوف بين يديه، والتنعم بدار كرامته ومجاورته. وقيل: أن المقصود صاحبك الذي كنت فيه في الدنيا، أي للجسد الذي كنت تعمرينه في الدنيا.

ولٰكن القول الأول أولىٰ؛ لأن الآيات دلت علىٰ الرد إلىٰ اللَّه؛ قال اللَّه ﷻ: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٤٣]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: ٦٢]. ومن قال بالقول الثاني استدل بما جاء في حديث البراء بن عازب: «**فيقول اللَّهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَىٰ الْأَرْضِ، فَإني مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ**» أحمد في «المسند»[(١)].

﴿رَاضِيَةٗ﴾ بثواب اللَّه، وموعوده، وما أعده لعباده الصالحين.

﴿مَّرۡضِيَّةٗ﴾ اسم مفعول، يعني من قبل اللَّه ﷻ فهي راضية عن اللَّه، واللَّه تعالىٰ قد رضي عنها، وهٰذا يوافق قوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [البينة: ٨].

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩﴾ يعني: ادخلي في جملة عبادي الصالحين، وهٰذا

(١) المسند (١٨٥٣٤) صحح إسناده شعيب الأرنؤوط.

يشعرها بالأنس؛ لأن الإنسان إذا ضم لشكله، وجنسه استأنس بهم.

﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ أي: دار كرامتي، ومحل ثوابي.

۞ الفوائد الْمُستنبطة:

الفائدة الأولى: هول يوم القيامة.

الفائدة الثانية: إثبات صفة المجيء للَّه تعالىٰ علىٰ ما يليق بجلاله.

الفائدة الثالثة: إثبات الملائكة، وخضوعهم لربهم.

الفائدة الرابعة: إثبات النار، وشديد عذابها.

الفائدة الخامسة: شدة ندم الكافر يوم القيامة.

الفائدة السادسة: إثبات الوعيد وتحققه.

الفائدة السابعة: إثبات الوعد وتحققه.

الفائدة الثامنة: بيان سمة النفس المؤمنة، وهي الطمأنينة.

سورة البلد

سورة «البلد» سميت بِهٰذا الاسم لورود هٰذا اللفظ فيها. وهٰذه السورة والتي تليها تتشابهان في بعض المقاصد، بل في كثير من المقاصد، كما سيتبين ـ إن شاء اللَّه ـ.

فمن مقاصد هٰذه السورة سورة «البلد»:

١ ـ بيان طبيعة الحياة، والإنسان.

٢ ـ بيان بعض مظاهر الربوبية في النفس.

٣ ـ إعلاء القيم الإيمانية، والخلقية.

٤ ـ إثبات المعاد.

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾:

﴿لَآ أُقْسِمُ﴾: للمفسرين ثلاثة مذاهب في معناه:

١ ـ أنه نفي للقسم، يعني: أن هٰذا الأمر من الظهور، والبيان، بحيث لا يحتاج إلىٰ قسم.

٢ ـ أن المنفي محذوف: ﴿لَآ﴾ نافية، وتقدير الكلام: ليس الأمر كما زعمتم، فأُقسم بِهٰذا البلد، فـ﴿لَآ﴾ ليست متسلطة علىٰ القسم، بل متسلطة علىٰ محذوف، أي: ليس الأمر كما زعمتم، وادعيتم، أقسم بِهٰذا البلد، فالقسم إذًا، مثبت، خلافا للقول الأول.

٣ ـ أن ﴿لَآ﴾ لتأكيد القسم، فالزيادة في المبنىٰ، زيادة في المعنىٰ. فهٰذا من جنس قوله تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ [الواقعة: ٧٦]، فلم يكن قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ نفيًا للقسم، بل تأكيدًا له، بدليل قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ﴾.

وهٰذا القول الثالث أرجح الأقوال. وبينه وبين القول الأول صلة، فكأنه يدل علىٰ أن هٰذا الأمر بيِّن، واضح، جلي، ظاهر. ويكون هٰذا الحرف ﴿لَآ﴾ للتأكيد. ولا يليق التعبير بأن ﴿لَآ﴾ زائدة، وإن كان من قال إنها زائدة لا يقصد بالزيادة، الحشو ـ حاشا وكلا ـ فليس في كتاب اللَّه تعالىٰ حرف زائد عن الحاجة. وإنما قصد أنه لا يراد بها معناها المتبادر، وهو النفي.

والمراد بـ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾: مكة شرفها اللَّه، فتكون «أل» للعهد.

﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢﴾ الواو هنا حالية، يعني: أقسم بِهٰذا البلد، حالة كونك حل به، فيتضاعف شرف البلد، بشرف وجود النبي ﷺ وحصوله به. فمكة، أشرف البقاع ومحمد ﷺ أشرف بني آدم. فآجتمع الشرفان.

وقد اختلف المفسرون في قوله: ﴿حِلُّۢ﴾، بعد اتفاقهم علىٰ أن المراد بالبلد مكة:

ـ فذهب بعضهم إلىٰ أن المراد: وأنت يا محمد، قد أحلت لك ساعة من نهار، وذٰلك عام الفتح، أنه قد أحل لك القتال فيها مع حرمتها، وأنها لم تحل لأحد من قبله، ولن تحل لأحد من بعده. قالوا: وفي هٰذا دليل علىٰ صدق القرآن، وعلىٰ صدق نبوته ﷺ، فإنه علىٰ مقتضىٰ هٰذا القول، قيل له ذٰلك، وهو بعد في مكة مستضعف، فأخبر اللَّه تعالىٰ بما يكون بعد سنين، أن مكة ستدخل في طاعته، وهو إذاك ﷺ يَطَّرِد في شعابها، خائفا علىٰ نفسه، وعلىٰ أصحابه، ومع ذٰلك يبشر بِهٰذا. هٰذا هو القول الأول، وعليه جمع من المفسرين، وله حظ من النظر، والأثر.

ـ القول الثاني: أن معنىٰ ﴿حِلُّۢ﴾ أي: حلال، مقيم. يعني: الحل المقابل للارتحال، فاللَّه تعالىٰ يقسم بِهٰذا البلد حال كون نبيه ﷺ مقيمًا بها في العهد

المكي؛ لأن الآية نزلت في مكة.

ـ القول الثالث: وفيه بعد، أن المراد بـ﴿حِلٌّ﴾، أي: وأنت حلال الدم، قد أهدرت قريش دمك.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾: الوالد، والولد، متقابلان:

* فقيل إن المراد كل والد وولده، يعني: العموم. وإلىٰ هٰذا ذهب ابن جرير الطبري(١) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فيشمل من يلد من الأنس، والجن، والطير، والوحش، وكل شيء.

وخصه بعض المفسرين ببعض أنواعه:

ـ فقال بعضهم أي: آدم وذريته.

ـ وقال بعضهم إبراهيم وولده؛ لمناسبة ذكر مكة «البلد».

وهٰذا في الواقع يرجع إلىٰ القول الأول؛ لأنه من تفسير الشيء ببعض أنواعه، والأولىٰ العموم؛ لأن اللفظ العام يشمل جميع أفراده. علىٰ أنه قد قيل أيضًا: والد، وغير والد، علىٰ اعتبار أن «ما» نافية، كأنه قال: ووالد، وعاقر. وأما علىٰ ما تقدم من ذكر العموم، فإنها موصولة.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾: اللام جاءت في جواب القسم و«قد» تفيد التأكيد والتحقيق. والمراد جنس الإنسان، أو الكافر، خاصة.

﴿كَبَدٍ﴾: قيل في تفسيرها: الشدة، والنصب، والعناء. وعلىٰ هٰذا فإن قلنا أن المراد بالإنسان: جنس الإنسان، فالمعنىٰ: أن كل إنسان يكابد في هٰذه الحياة، ويعاني ويشقىٰ. كما قال تعالىٰ لآدم، حينما وصف له الجنة: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩﴾ [طه: ١١٧ ـ ١١٩]، فمن خرج من الجنة إلىٰ الدنيا فهو في شقاء، وهو المعاناة، والمكابدة، وما يلحق الإنسان في جميع أطواره، من عنت، وعسر. وهٰذا أمر يستوي فيه جميع بني ادم، فالإنسان، لو تأملت في

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٤٠٨).

سيرته من حين حمله، إلىٰ وضعه، إلىٰ رضاعه، فترعرعه، وتعرضه في حياته للمرض، والهم، والغم، والشقاء، وأنواع البلايا، إلىٰ حين وفاته، وتجرعه سكرات الموت، في كبد متصل.

تأمل حمل الإنسان، من حين أن يلقىٰ نطفة في رحم أمه، وهو يتقلب من حال إلىٰ حال، ثم إذا اكتمل خلقه، وتَهيأ للخروج، خرج من تلك المسالك الضيقة الحرجة، بحال تكون الأم فيها بين الحياة والموت، فيخرج إلىٰ هٰذه الدنيا، وأول ما يصدر منه أن يصرخ، كما أخبر النبي ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إلاَّ وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ إلاَّ مَرْيَمَ وَابْنَهَا**» متفق عليه[(١)]، وفي رواية مسلم: «**مِنْ نَخْسَةِ الشَّيْطَانِ**»، ثم يكابد بعد ذٰلك الإطعام، والرضاعة، ويطرأ عليه من أنواع التوعكات، والأمراض ما اللَّه به عليم، إلىٰ أن يشتد عوده، ثم بعد أن يشب يلحقه ما يلحق هٰذا المخلوق الضعيف من الألم، والمرض، والضعف، والهم وجميع أنواع المزعجات في هٰذه الدنيا، ثم بعد ذٰلك يلحقه الكبر، والهرم، والضعف، وما أدراك ما يلحق الكبير في آخر عمره من المشقة؛ في مشيته، وفي هضمه، وفي مزاجه. هٰكذا الدنيا كبد في كبد. ثم إذا حضره الموت، اعتصرته السكرات، والشدائد، والكرب، حتىٰ يسلم الروح إلىٰ بارئها. كل ذٰلك كبد يستوي فيه بنو آدم؛ المؤمن، والكافر، البر، والفاجر، فإنا ما وعدنا بنعيم في هٰذه الدنيا، وهٰذا من حكمة اللَّه البالغة. ولأجل ذٰلك كان في نفس كل مؤمن شوق دفين إلىٰ الجنة، إلىٰ المنازل الأولىٰ، لأنها هي الدار التي ينعم ساكنها، فلا يبأس ولا يحزن، ولا يقلق، ولا يجوع، ولا يضحىٰ، ولا يعطش، ولا يلحقه كبد. هٰذا الشوق الدفين حكمة بالغة، لما أن أخرجنا الشيطان من الجنة، بوسوسته، وكيده، بقي هٰذا التوق إلىٰ الرجوع إليها عميقًا في النفس، وفي الفطرة. وقد أنشد بن القيم ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ في هٰذا أبياتًا جميلة، تصور هٰذا المعنىٰ، فقال:

---

(١) صحيح البخاري (٤٢٧٤)، صحيح مسلم (٢٣٦٦).

فحـيَّ علـىٰ جـناتِ عـدنٍ فـإنها — مـنازلُك الأولـىٰ وفـيها المخـيَّمُ
ولٰكنـنا سـبيُ العـدوِّ فهـل تـرىٰ — نُـردُّ إلـىٰ أوطانـنا ونُـسلَّمُ

فقد سبانا عدونا الشيطان، وأخرجنا من الجنة بوسوسته وإغرائه لأبوينا. فنحن كالأسير، في سجن، في بقعة من بقاع الأرض، يعتلج في قلبه من الشوق إلىٰ موطنه، ومنازله الأولىٰ، مالا يوصف.

وقـد زعمـوا أن الغـريبَ إذا نـأىٰ — وشـطت بـه أوطانُـه فهـو مغـرمُ
وأي اغترابٍ فوق غربتنا التي لها — أضـحت الأعـداءُ فيـنا تحكـمُ

كأننا في غربة، فهٰذه الدنيا، جعلها اللَّه، ﷻ، بحكمته البالغة، علىٰ هٰذا النسق وعلىٰ هٰذه الوضعية؛ الواحد لا يكاد يفرح، حتىٰ يبتئس، ولا يكاد يصح، حتىٰ يمرض، ولا يكاد يهنأ، حتىٰ يشقىٰ، يتقلب في الأحوال، كما في قول اللَّه تعالىٰ ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ١٩﴾ [الانشقاق: ١٩] جعلها اللَّه تعالىٰ ذٰلك، حتىٰ لا نستنيم، ونسترسل، وننسىٰ عبادة ربنا ﷻ، بل نحس بالحاجة الماسة إلىٰ العود إلىٰ الحياة الهانئة، إلىٰ الحياة المستقرة، إلىٰ الحياة المطمئنة، إلىٰ الحياة الحقيقية: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]

فنعبده لنظفر بذٰلك.

ـ التوجيه الثاني: أن يقال إن الإنسان هنا المراد به: الكافر المنكر للبعث، ويؤيد هٰذا المعنىٰ أنه هو الذي يعيش الكبد الحقيقي، فإن اللَّه تعالىٰ قال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ١٢٤﴾ [طه: ١٢٤]، فالكافر يجد من العناء، والعنت، والمشقة، أضعاف ما يجده المؤمن في هٰذه الدنيا، وإن بدا خلاف ذٰلك، وإن بدا يرفل بالأثواب الفاخرة، ويركب المراكب الفارهة، ويسكن القصور العامرة، لٰكن في قلبه فاقة، ونكد، وشقاء، وضنك، كما قال اللَّه، ﷻ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾.

ـ وقيل إن من معاني ﴿كَبَدٍ﴾ أي: منتصبًا، معتدل القامة. وهٰذا يتناسب

مع ما سيذكر بعد ذٰلك ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾، لٰكن المعنىٰ الأول مقدم.

ـ وقيل معنىٰ ثالث، لٰكنه مغرب، وهو: أن المراد بـ«الكبد» السماء، كما يقال: في كبد السماء، وأن آدم خلق في السماء، فيكون المراد بالإنسان آدم.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ استفهام إنكاري، يعني: أيظن ذٰلك الإنسان أن لن يقهره، ويغلبه أحد، وهٰذا يؤيد أن المراد بالإنسان: الكافر.

ويقال إن هٰذه الآية نزلت في رجل من قريش، شديد، منيع، عزيز، قوي البنية، قوي الخلقة، شديد البطش، يقال له أبو الأشدين واسمه أسيد بن كلدة الجمحي كان معروفا بالقوة والشدة يجعل الأديم العكاظي تحت قدميه فيقول من أزالني فله كذا. فيجذبه عشرة رجال حتىٰ يمزق الأديم ولا تزول قدماه، وكان شديد الكفر والعداوة للنبي ﷺ[1].

ولا شك أن الأخذ بالعموم مقدم، ولا يمنع أن يكون هٰذا من صورها، وأن ذٰلك الكافر الذي زعم أن لن يقدر عليه أحد، يدخل في معناها.

﴿يَقُولُ﴾ أي: ذٰلك الإنسان الكافر.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ أي: أفنيت وأنفقت، وهو كناية عن كثرة الإنفاق، وعدم المبالاة. لأن هٰذه اللفظة ﴿أَهْلَكْتُ﴾ تدل علىٰ المجازفة، وعدم المبالاة، وكثرة المنفَق. وهٰذا من بلاغة القرآن؛ كل كلمة في موضعها، لا تقوم أخرىٰ مقامها تمامًا، بل يحتاج لتوضيح الكلمة الواحدة إلىٰ عدة مفردات.

﴿لُّبَدًا﴾ يعني: مالًا كثيرًا، قد تراكم بعضه فوق بعض لكثرته، فهٰذا الكافر يتفاخر بأنه يبذر الأموال يمنة ويسرة، ولا يبالي بالنفقة، ويفخر بِهٰذا الصنيع.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي أيظن ذٰلك الكافر أن اللَّه لم يطلع عليه، وهو يفرق هٰذه الأموال، وينفقها في الصد عن سبيل اللَّه؟ ولا شك أن في مثل

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٦٣).

هٰذا التعبير تهديد بليغ.

يحسب الكافر أنه بمنأىٰ عن اللَّه كما ذكر اللَّه، ﷻ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠] ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]. هٰذه الغفلة المطبقة عن اللَّه، ﷻ، وعن الشعور برقابته، هي التي أوردتهم المهالك. وهٰكذا، حينما يطيف بقلب المسلم نوع غفلة، فيسرف في المعاصي والذنوب، وإن كانت غفلة نسبية، لٰكن بقدر ما يقع في القلب من الغفلة، تزل به القدم، ويقع فريسة الذنوب، وفريسة هواجس الشيطان وحينما يستنير القلب بمصباح الذكرىٰ، والعلم باللَّه، فإن هٰذا النور الإلٰهي يحرق جميع الشهوات، وجميع الشبهات. ويبصر الأشياء كما هي، ويميز بين الحق والباطل، يكون عنده فرقان، وير كل هٰذه الشهوات، فتبدو أمامه، وكأنها لا شيء، لا يباليها، ولا يتأثر بها، بفضل هٰذه الذكرىٰ التي قامت في قلبه؛ من العلم باللَّه، ومعرفته. وهٰذا يدلنا علىٰ أهمية تعاهد القلب بالذكرىٰ، فإن حياة القلب بالذكرىٰ ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥] فليحذر الإنسان من الغفلة. قال اللَّه تعالىٰ: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦] فإذا آنست من قلبك قسوة، فاستلنه بالذكرىٰ، وابحث عن مثيرات الإيمان، ومثبتات اليقين، حتىٰ يرجع القلب إلىٰ صحته، وطبيعته. وإياك أن تتمادىٰ في الغفلة، فإنه كلما تماديت صعب العود.

ثم تغير أسلوب السورة، وأتىٰ لون جديد من وقع الآيات، والجمل، فقال تعالىٰ:

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾: في

القرآن من الوقع الجميل، والتأثير البليغ، والأسجاع الحسنة، ما يأخذ بمجامع القلوب.

﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨﴾ هٰذا استفهام تقريري، بمعنىٰ جعلنا له عينين، ولسانا وشفتين، وهديناه النجدين. وهٰذا من مظاهر ربوبية اللَّه في النفس؛ فإن مظاهر الربوبية تكون في النفس، وتكون في الآفاق، ففي هٰذه السورة ذكر اللَّه تعالىٰ مظاهر الربوبية في النفس، وفي السورة التالية، سيذكر مظاهر الربوبية في الآفاق. وقد قال ربنا، ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣].

جعل اللَّه تعالىٰ لكل إنسان عينين يبصر بهما، وهٰذا من عجائب الخلق! فما الذي أودع هٰذه الخلايا القدرة علىٰ الإبصار؟ لمَ لا يبصر الإنسان بإبهامه؟ كيف جعل اللَّه، ﷻ، هٰذه الحدقة، وفيها العين التي كاللؤلؤة تتألق، وتبصر الأشياء، وتتعرف عليها؟.

وفي هٰذه اللفتات، هز لهٰذه النفوس الغافلة، التي وجدت نفسها علىٰ هيئة معينة، ثم لم تتفكر في أنفسها. وقد قال ربنا ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢١].

﴿وَلِسَانٗا﴾ هٰذا اللسان يتكون من عشرات، وربما المئات، من العضلات، التي تعمل في كافة الاتجاهات؛ صعودًا، وهبوطًا، يمنَّة، ويسرَّة، إنقباضًا وامتدادًا، لتساعد في تكوين الكلمات، والنطق والبيان. لو قطع اللسان، أو شل، لصار الإنسان كالبهيمة العجماء، لا يستطيع أن يعرب عن نفسه.

﴿وَشَفَتَيۡنِ﴾ هاتان الشفتان اللتان كالبوابة لجوف الإنسان، يفتحهما، ويغلقهما بمقدار، فيهما جمال، وفيهما فائدة. لو تأمل الإنسان في فائدتهما، لوجد عجبا؛ هٰذه الأنسجة التي تغطي الشفتين، ذات طبيعة خاصة لحفظ الجوف. ويتبين ذٰلك حينما يصاب الإنسان بآفة في شفتيه؛ فيتعطل كلامه، أو يلتاث، ويسيل لعابه من فيه، كما المعتوه، أو البهيمة. يدرك الإنسان أن هٰذا الخلق خلق عجيب، وضع في موضعه. وهٰذا جزء من كل، وقليل من كثير،

من عجيب خلق اللَّه للإنسان. وإلا فإن في خلق الإنسان، ما إن يعد، لا يحصىٰ، من عجيب خلق اللَّه ﷻ.

ثم تأمل ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ هديناه أي: دللناه، وبينا له، وعرفناه. وهٰذه الهداية هداية دلالة، وبيان؛ لأن المراد بالنجدين: طريق الخير، أو الشر. يعني: أن اللَّه ﷻ، عرف هٰذا الإنسان الخير والشر، وأمره بالخير، ونهاه عن الشر.

والأصل أن النجد: ما ارتفع عن الأرض، فكأنه طريق بيِّن، واضح، لبروزه وظهوره. وقال بعض المفسرين إن المراد ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ الثديين. ومناسبة اللفظ للثديين واضح لأن الثدي بارز. وهٰذا القول ليس بعيدًا، وإن كان القول الأول أرجح. لٰكن مع ذٰلك فإن هٰذا القول وقد روي عن بعض الصحابة[1]، ليس بعيدًا، لأنه مناسب لما تقدم من ذكر اللسان، والشفتين، والعينين.

فلا يبعد أن يراد بالنجدين الثديين، وذٰلك أن اللَّه ﷻ ألهم المولود أن يلتقم ثدي أمه، دون أن يتلقىٰ دروسًا في طريقة الرضاعة! طفل لا يملك شيئا من المعرفة، ومع ذٰلك ما أن تضمه الأم إلىٰ صدرها، وتلقمه حلمة ثديها، حتىٰ يشرع في تناول رزقه، من ألهمه له ذٰلك؟ من عرفه ذٰلك؟.

۞ الفوائد المُسْتنبطة:

الفائدة الأولى: تعظيم مكة شرفها اللَّه لأن اللَّه تعالىٰ أقسم بها.

الفائدة الثانية: زيادة شرفها بحصوله ﷺ فيها.

الفائدة الثالثة: بيان اسم من أسماء مكة «البلد».

الفائدة الرابعة: أن الدنيا دار مكابدة وعناء، وهي علىٰ الكافر أشد.

الفائدة الخامسة: تسلية النبي ﷺ، وتسلية كل مؤمن.

الفائدة السادسة: سوء تقدير الكافر، وغروره. فحسابات الكافر دائمًا،

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٤٣٤)، الدر المنثور (٨/ ٥٢١ ـ ٥٢٢).

خاطئة ونتائجها خاطئة.

الفائدة السابعة: ذم الصلف، والمباهاة.

الفائدة الثامنة: غفلة الكافر عن اطلاع اللَّه عليه.

الفائدة التاسعة: كمال ربوبية اللَّه سبحانه.

الفائدة العاشرة: هداية الدلالة، والبيان، علىٰ أن المراد: «بالنجدين» طريق الخير أو الشر. وعلىٰ القول أن المراد: «الثديين»، فهي الهداية العامة، وهي هداية العبد لمصالحه المعاشية.

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾﴾:

يقول اللَّه ﷻ بعد أن بيَّن نعمه، وآلاءه، علىٰ ابن آدم، المتكبر، المتجبر، الذي يحسب أن لن يقدر عليه أحد، ويحسب أن لم يره أحد:

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾: ﴿فَلَا﴾ أي: فهلَّا ﴿ٱقۡتَحَمَ﴾، الاقتحام: هو مجاوزة الشيء بشدة، وسرعة.

﴿ٱلۡعَقَبَةَ﴾: العقبة في اللغة: الطريق الصعب، الوعر في الجبل. وعبور هٰذه العقبة يحتاج إلىٰ شدة، وسرعة، ومضي، وتحامل علىٰ النفس. فليس طريقًا مفروشًا سهلًا موطَّأً، بل فيه معاناة.

وقد فسرتها الآيات بعدها: ﴿﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾﴾. فالمراد باقتحام العقبة: القيام بالأعمال الصالحة، الشاقة علىٰ النفس. لأن القيام بِهٰذه الأعمال يحتاج إلىٰ مجاهدة، ويحتاج إلىٰ مفارقة للشهوات، وتحامل علىٰ النفس، واطراح لشهواتها، فلذٰلك شبهه باقتحام العقبة.

وقد عظم اللَّه ﷻ من شأنها فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢﴾ هٰذا الاستفهام للتعظيم، والتفخيم. ثم قال مبينًا لها ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي: أن اقتحام العقبة يحصل بفعل هٰذه الأشياء:

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ فكها من الرق، وذٰلك بالعتق.

﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾: ﴿أَوۡ﴾ للتنويع، ﴿يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ يعني: في يوم شديد المجاعة، لأن الإطعام في يوم المجاعة ليس كالإطعام في غيره. حين تعم المجاعة يصبح لدىٰ النفس شحًا مضاعفًا في المحافظة علىٰ ما تملك، خشية أن يلحقها ما لحق غيرها. فالذي يطعم في المسغبة، ليس كالذي يطعم في الوفرة. فالعمل، وإن كانت صورته واحدة، يتفاوت بتفاوت الأحوال. قال تعالىٰ: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْ﴾ [الحديد: ١٠].

ثم بيَّن نوع المطعم، فقال: ﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ١٦﴾ وهٰذا يبين، أيضًا، أن الإطعام كما أنه يتفاوت من جهة الحال، يتفاوت من حيث الـمُطعَم، فيعظم الأجر بكون ذٰلك الإطعام ليتيم تربطك فيه صلة قرابة، أو مسكين أسكنته الفاقة، ذي عيال.

واليتيم: من مات أبوه، ولم يبلغ الحلم. فإذا كان ذا مقربة زاد الثواب؛ لأن الصدقة علىٰ القريب، صدقة، وصلة. والأقربون أولىٰ بالمعروف، وابدأ بنفسك ومن تعول. فهٰذا يدل علىٰ فضل النفقة علىٰ القريب المحتاج، وأنه يقدم علىٰ غيره، ولهٰذا سوغ العلماء إخراج الزكاة عن البلد لقريب في بلد أخر.

والمسكين: هو من أسكنته الحاجة، يعني: خفضته، فتجد الفقير، صاحب الحاجة، يشعر بالضعة، والانحطاط، بخلاف الغني، المكتفي، الذي يشعر بالزهو، والترفع.

واختلفت عبارات المفسرين في معنىٰ متربة: فقيل أي: لصوق بالتراب،

لشدة فقره، كما يقول الناس عن الفقير المدقع: ما عنده إلا التراب! لأنه لا يملك إلا أن يبحث في التراب. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «المسكين: المطروح في التراب» وقال: هو الذي ليس له مأوًى إلا التراب[1].

وقيل في تفسير «المتربة» أي: شديد الحاجة. وقيل هو صاحب العيال، ولا مال. وهي معاني متقاربة.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾: ﴿ثُمَّ﴾ هنا، لم يرد بها الترتيب الزمني؛ بل الترتيب الذكري. يعني: ليس معنىٰ ذٰلك أنه صار من الذين آمنوا بعد أن اقتحم العقبة، بل المعنىٰ: وكان مع ذٰلك ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾.

﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾: أي أوصىٰ بعضهم بعضًا.

والصبر في اللغة: معناه الحبس، وهو ثلاثة أنواع:

١ ـ صبر علىٰ طاعة اللَّه، بالقيام بأوامره.

٢ ـ وصبر عن معصية اللَّه، بالكف عن محارمه.

٣ ـ وصبر علىٰ أقدار اللَّه المؤلمة، في نفسه، أو أهله، أو ماله، فيعلم أنها من عند اللَّه، فيرضي، ويسلم، ومنزلة الصبر من الدين، كمنزلة الرأس من الجسد. وقد أثنىٰ اللَّه تعالىٰ علىٰ الصابرين، في نحو أربعين موضعًا في القرآن.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾: «المرحمة» أي: رحمة الخلق. وهٰذا مناسب لما تقدم من عتق الرقاب، وإطعام اليتيم، والمسكين. وفي هٰذا دلالة علىٰ القيم الخلقية في هٰذا الدين العظيم، وأنه هو دين الرحمة، والإحسان، خلافًا لما يصمه به أعداؤه، وهم أولىٰ بذٰلك، من وصمه بالإرهاب، وغير ذٰلك من ألقاب السوء.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ المشار إليهم الذين اقتحموا العقبة، بفعل هٰذه

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٤٢٦).

الأعمال الجليلة. والناس: إما أصحاب ميمنة، وإما أصحاب مشأمة. فأصحاب اليمين، نخبتهم هم السابقون، يقابلهم أصحاب المشأمة، أصحاب الشمال. وهٰذا التقسيم موجود في كتاب اللَّه ﷻ في غير ما موضع.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩﴾ فالمشأمة أي: الشمال، وفيها أيضًا، معنىٰ الشؤم.

﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾ عبر بـ«علىٰ»، ولم يعبِّر بـ«في»؛ وذٰلك لإطباقها عليهم. فمعنىٰ ﴿مُّؤۡصَدَةُۢ﴾: مطبقة مغلقة ـ أجارنا اللَّه وإياكم ـ لا منفذ لهم، قد أوصدت أبوابها، وأغلقت عليهم، لا يخرجون منها ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢].

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: مشقة الأعمال الصالحة علىٰ النفس.

الفائدة الثانية: الحاجة إلىٰ المجاهدة.

الفائدة الثالثة: فضل عتق الرقاب، وإطعام الطعام لذوي القرابة والحاجة.

الفائدة الرابعة: أن من أبرز صفات المؤمنين الصبر، والمرحمة.

الفائدة الخامسة: حسن عاقبة المؤمنين.

الفائدة السادسة: شؤم عاقبة الكافرين.

الفائدة السابعة: إثبات البعث، والجنة، والنار.



سورة الشمس

هٰذه السورة، سورة «الشمس»، سميت بِهٰذا الاسم لأن اللَّه ﷻ أقسم بالشمس في مستهلها.

ومن مقاصد هٰذه السورة:

- بيان طبيعة النفس البشرية، وطريقة إصلاحها.
- تذكير الكفار بأيام اللَّه، في الغابرين.

استهل اللَّه ﷻ هٰذه السورة بعدة أقسام، فقال:

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾؛

وللَّهِ أن يقسم بما شاء من خلقه:

فأولها: الشمس، وهو الكائن العظيم، والمخلوق الكبير، والجرم الملتهب، الذي يمد حياتنا بالدفء والضياء، فلا حياة للحيوانات، ولا للنباتات، بدونه.

فقد جعل اللَّه ـ تعالىٰ ـ هٰذه الشمس ﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ۝١٣﴾ [النبأ: ١٣]؛ ففيها الإضاءة، وفيها الدفء، وفيها أثر لم يكن معروفًا للناس قديمًا؛ وهو أن هٰذا الضوء المنبعث من الشمس ضروري لعمليات التمثيل الضوئي في النباتات، التي يحصل بها النمو، كما هو معروف لدىٰ علماء الطبيعة، كما أن لها تأثيرًا في تكون بعض الفيتامينات «فيتامين د» تحت الجلد اللازم لبناء العظام لدىٰ الإنسان.

ثم أقسم ثانيًا بالضحىٰ، فقال: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾، وقد اختُلف في المراد بـ«ضحاها» هل هو النهار كله؟ أم أنه أول النهار؟ ولا شك أن معنىٰ الضحىٰ هو الضوء الذي يكون في أول النهار. وأجلىٰ ما يكون الضوء، في أول النهار، لأنه يأتي عقيب ظلمة، فيتبين فضل هٰذا الضوء، فلذٰلك أقسم اللَّه ـ تعالىٰ ـ به، وعطفه علىٰ الشمس التي هي مصدره.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾﴾ القمر: كوكب، وليس نجمًا كما الشمس، فالشمس جرم ملتهب، ولذٰلك يبعث الحرارة، أما القمر فإنه كوكب بارد، ليس فيه حرارة، وإنما هو مرآة يعكس نور الشمس علىٰ الأرض، ولذٰلك تكون إضاءته بحسب حاله من الشهر، فأول الشهر يكون هلالًا، لكون الأرض تحجب معظمه، فلا يقع عليه ضوء الشمس، ثم لا يزال يتسع، ويتسع حتىٰ يصل إلىٰ درجة الإبدار في منتصف الشهر، حينما يكون مستقلًّا، منفصلًا، وجاه الشمس، ثم يأخذ في آخر الشهر بالانحسار، حتىٰ يتدأدأ، ثم ينمحق، ويستسر، ثم يبدأ دورة من جديد. فحينما يقسم اللَّه تعالىٰ بِهٰذه المخلوقات ينبه علىٰ منافعها، وعلىٰ جريانها، الذي يدركه كل أحد.

﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ أي تبعها طالعًا بعد غروبها؛ وذٰلك أنه لا سلطان للقمر، مع سلطان الشمس، فإن ضوء الشمس يغلب ضوء القمر، حتىٰ لو رؤىٰ القمر أحيانًا، أثناء النهار، فإنما يرىٰ كما يرىٰ الغيم، أبيض، خافتًا، غير مشع، فسلطان الشمس، وضوؤها، أعلىٰ، وأقوىٰ من ضوء القمر؛ لأنه فرع عنه، فلذا قدمها بالذكر.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾﴾ يعني: إذا ارتفعت فيه الشمس، وبان ضوؤها. وكأنما هٰذا النهار صفحة لظهور الشمس؛ فالنور المنبعث من جهة ما، لا يعلم أنه نور حتىٰ يصطدم بحائل، فلذٰلك تحصل تجليتها بارتفاعها وبيان ضوئها علىٰ الأرض وقت النهار.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾﴾ أي: غطىٰ بظلمته عند المغيب. ومرجع الضمير للشمس؛ كما الضمائر السابقة، فكأنما الليل يغشىٰ الشمس الذي انسحب

ضوؤها، وحل محله الظلام.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾: السماء معروفة، وهي السقف المرفوع فوقنا. وإنما سميت سماء من السمو، وهو الارتفاع. وهٰذا التعبير ﴿بَنَىٰهَا﴾ يدلنا علىٰ أن السماء جسم، وليست عماء. قال اللَّه ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]. كما أنها طبقات، بعضها فوق بعض، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣].

﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ ما: تحتمل معنيين: إما أن تكون موصولة بمعنىٰ من، أو تكون مصدرية. فإن قلنا هي موصولة، فقد أقسم اللَّه تعالىٰ ببانيها، وهو اللَّه تعالىٰ نفسه.

وإن كانت المصدرية، فيكون تقدير الكلام: والسماء وبناءها. بمعنىٰ خلقها. ولا شك أن هٰذا البناء من اللَّه تعالىٰ لٰكن البناء نفسه، مخلوق، فيكون اللَّه تعالىٰ قد أقسم أيضا بخلقٍ من خلقه، كما أقسم بالسماء.

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾ المراد هٰذه الأرض المبصرة، وهي: التي يدب عليها الآدميون، والحيوان، والهوام، والزواحف، وغيرها.

﴿طَحَىٰهَا﴾ أي: بسطها، بمعنىٰ أنه جعلها منبسطة للسائرين، ممهدة لهم. ويقال في «مَا» ما قيل في ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾، فإما أن تكون «ما» بمعنىٰ من أو تكون «ما» بمعنىٰ المصدرية.

وهٰذه مشاهد كونية متقابلة. وهي مشاهد تتكرر علىٰ كل آدمي، ولٰكنه لا يلقىٰ لها بالًا، ولا يرفع بها رأسًا، ولا يتأمل بديع صنع اللَّه، وحكمته البالغة في تسيير هٰذا الكون، وما ينبغي أن يتوصل إليه من العبودية لهٰذا الخالق العظيم، الذي أوجد هٰذا النظام البديع، وهٰذا النسق المميز. ففيها تحريك لهٰذه القلوب الغافلة، والنفوس البليدة، لتبصر، وتتفكر فيما حولها، ولا تكتفي بالنظرة السطحية التي لا تثمر لها شيئا.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾: ﴿وَنَفْسٍ﴾ اسم جنس لكل نفس. ومعنىٰ ﴿سَوَّىٰهَا﴾ أي: خلقها سوية معتدلة. ﴿وَمَا﴾: يتكرر فيها ما تقدم من أن تكون

بمعنىٰ الذي، أو بمعنىٰ المصدر.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ هٰذا التفصيل جاء بين القسم والمقسم عليه. ومعنىٰ ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ كما قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مفردات القرآن»: «الإلٰهام: إلقاء الشيء في الروع، ويختص ذٰلك بما كان من جهة اللَّه تعالىٰ وجهة الملأ الأعلىٰ»[(١)].

وقد اختلف في المراد بالإلٰهام في هٰذا السياق:

- فقيل: بيَّن لها الخير والشر، أي: علمها.
- وقيل: جعل فيها القبول للخير والشر، أي: خلق فيها.

فمعنىٰ قوله ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ أي: جعل فيها الاستعداد لقبول الخير، والاستعداد لقبول الشر. ففيها تهيؤ لكلا الأمرين. وبذٰلك تميزت عن النفس الملَكية، وعن النفس الشيطانية. فإن النفس الملَكية، متمحضة للخير، فقط. فملائكة الرَّحمٰن يسبحون الليل والنهار ﴿لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت: ٣٨]، ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنبياء: ١٩]، لا تحدثهم نفوسهم إلا بطاعة اللَّه، وخشيته. والنفوس الشيطانية، نفوس متمحضة للشر، فقط. ليس فيها نازع خير. أما النفس الإنسانية فجاءت بين بين. ركب اللَّه تعالىٰ فيها نوازع للخير ونوازع للشر. ولأجل ذٰلك كانت محل الابتلاء، والاختبار. فبعد أن بيَّن اللَّه حقيقة النفس، قال إثر ذٰلك، وهو جواب الأقسام المتعددة السابقة.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ الفلاح: هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

﴿وَقَدْ خَابَ﴾ أي: خسر. ومعنىٰ ﴿دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ أي: أخفاها، من التدسية، وهي: الإخمال، والإخفاء، بالكفر، والذنوب، والأخلاق الدنيئة. ولفظ الكفر، نفسه، يدل علىٰ التغطية. ولهٰذا سمي الزراع كفارا؛ لأنهم يغطون

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (٢/ ٣٤٨).

البذور بالتراب. فأصل الكفر التغطية، لأن الكافر غطىٰ فطرته، وأخفاها. فالواجب أن يسعىٰ المرء إلىٰ الفلاح بتزكيتها، وأن يتجنب الخيبة، والخسار بتدسيتها. فوظيفة ابن ادم في هٰذه الحياة، أن يزكي نفسه، بتنمية بواعث الخير، وإخفاء، وإقصاء نوازع الشر. هٰذا مشروع العمر، وهٰذه خطة الحياة، لمن أراد النجاة من المرهوب، والفوز بالمطلوب.

ومن الدلالات التربوية لهٰذه الآية، أن يعلم الإنسان بأن في نفسه مخزونًا للخير، وأن عليه أن يستنبط هٰذا المخزون، ولا يدعه مطمورًا، مغمورًا، في مطاوي النفس.

كثير من الناس يحيا، ويموت، ولم يستخرج هٰذا الخير الذي ألهم إياه! ولأجل ذا، يجب علىٰ العاقل، أن يفكر جيدًا، كيف يستحث، ويستثير هٰذا الخير الذي في النفس.

فنفسك ليست نفس ملَك قد تمحض للخير، وليست نفس شيطان قد تمحض للشر، بل أُلهمت فجورها وتقواها، بمعنىٰ أنه قد أُودع فيها الاستعداد للخير، والاستعداد للشر، وهٰذا هو محل الابتلاء، فلأجل هٰذا قال اللَّه: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾**﴾ [الشمس: ١٠]، فالمؤمن يزكي نفسه وينقيها، لا يزال يصلحها، ويتعاهدها، حتىٰ تزكو، والكافر لا يزال يدسيها، ويخفي خيرها، حتىٰ تخيب. ومهمة المؤمن أن يجاهد، حتىٰ يرقىٰ في سلم الكمالات، والمراتب العالية. ألم تروا أن اللَّه قال: ﴿**۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾**﴾ [الأنبياء: ٥١]، إذًا! عندك رشد يمكن أن تؤتاه، ويمكن ألا تؤتاه. فالموفق هو الذي يستنبط هٰذا الرشد في نفسه، والمحروم هو الذي يدعه مطمورًا مغيبًا. فعن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لقي النبي ﷺ الحصين بن معبد الخزاعي قال له: «**يَا حُصَيْنُ كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلٰهًا؟**» قَالَ أَبِي: سَبْعَةً سِتَّةً فِي الأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «**فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟**» قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «**يَا حُصَيْنُ أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَسْلَمْتَ عَلَّمْتُكَ كَلِمَتَيْنِ تَنْفَعَانِكَ**». قَالَ: فَلَمَّا أَسْلَمَ حُصَيْنٌ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، عَلِّمْنِيَ الكَلِمَتَيْنِ

اللَّتَيْنِ وَعَدْتَنِي، فَقَالَ: قُلْ: «**اللَّهم أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَأَعِذني مِنْ شَرِّ نَفْسِي**» رواه الترمذي[١].

فالموفق هو من آتاه اللَّه رشده، كما آتىٰ إبراهيم رشده، وأعاذه اللَّه من شر نفسه. في نفسك التي بين جنبيك شر، لو خرج هٰذا الشر ألقاك في المهالك، فأنت تسال اللَّه أن يقمع هٰذا الشر، وتسأله أن يظهر هٰذا الخير. وما مثل ذٰلك، إلا كمثل بلد يوجد في أرضه نفط، ومعادن، وأحجار كريمة، فإن أهله قاموا عليه، واستنبطوا هٰذه الخيرات المكنونة، ازدهر البلد، وصار من الدول المتقدمة، وإن هم تركوا هٰذه الخيرات تحت أطباق الأرض لم ينتفعوا منها وبقوا متخلفين. كذٰلك النفس فيها من الخير المذخور، ومن الرشد ما يحتاج إلىٰ استنباط واستخراج. فإن أنت فعلت، واستنبطته، واستخرجته، وزكيت نفسك، انتفعت دنيا، وآخرة. وإن أنت أهملته وتركته حرمت.

وهٰذا في الحقيقة مبحث مهم، يتعلق بفقه النفس. ويوجد له علم مستقل، يسمىٰ «علم النفس» وهو من العلوم الإنسانية المعروفة. ولٰكن علم النفس الحديث، تكوَّن بعيدًا عن نور الكتاب والسنة، واعتمد علىٰ الملاحظة والاستنتاج، المجردين. ولا شك أن علم النفس قد توصل إلىٰ نتائج مفيدة، وكون تراكمات علمية صحيحة، إلا إنه لا يزال قاصرًا قصورًا عظيمًا، لأنه لم يستنر بنور الوحي. فعلماء النفس المعاصرون، ومن سبقهم، يرون أن مقتضىٰ البحث العلمي، تنحية جميع الأمور الغيبية، والدينية عن مجال بحثهم! وهٰذا في الحقيقة حرمان، وخسران، فإن اللَّه تعالىٰ هو خالق النفس، وقد قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾. فخالق النفس أعلم بمن خلق، وما خلق. فإذا حدثنا اللَّه تعالىٰ عن النفس الإنسانية، فكلامه كلام العليم الخبير، فمن زهد به، واستغنىٰ عنه، فإنه يقع في قصور عظيم، وضلال بعيد. ولأجل هٰذا نجد علماء الملة، الذين توجهوا إلىٰ العناية بتهذيب النفوس، وإصلاح القلوب، هدوا هداية عظيمة، بفضل استنارتهم بنور الكتاب والسنة، وتوصلوا

(١) سنن الترمذي (٣٤٨٣) ضعفه الألباني.

إلىٰ لب الموضوع، وأصابوا كبد الحقيقة، بأقصر طريق، كما تجد هٰذا النفس الإيماني المشرق، الذي ينفذ إلىٰ الحقيقة مباشرة، في كلام الأئمة الربانين مثل أبي بكر الآجري، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، ابن رجب، غيرهم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

بينما يتخبط علماء النفس القدامىٰ، والمحدثون، في نظريات مختلفة، تُطوِّح بهم يمينًا، وشمالًا، بسبب هٰذه النزعة العَلمانية، التي تنحي الدين جانبًا، وتتعامل مع الماديات فقط، فلا يهتدون إلىٰ الحقيقة الكاملة، وإن أدركوا بعضها.

وبِهٰذا يتبين اختلاف الخطة في فهم النفس الإنسانية، ومعالجتها، بين أهل الإيمان، وبين أرباب المدارس النفسية المختلفة. فمدرسة «سجموند فرويد» تنظر إلىٰ النفس الإنسانية نظرة جنسية بحتة، وتفسر دوافع الإنسان وتصرفاته المختلفة تفسيرًا جنسيًّا يلبي حاجاته بناءً علىٰ هٰذا الأساس.

وهناك من ينظر إلىٰ الإنسان بوصفه المادي، الحسي، البهيمي. فنظرته للإنسان نظرة الباحث عن الطعام، فيهتم بتلبية هٰذه الجوانب المادية، ولا يلقي بالا للجوانب الوجدانية، كما النظرية الشيوعية المادية.

وهناك، علىٰ النقيض، من ينظر إلىٰ الجوانب الإشراقية، والروحانية، فيُغرِق فيها، كما في الفلسفات الشرقية المختلفة، التي تدعو إلىٰ تعذيب الجسد، في سبيل انعتاق الروح، لبلوغ درجة «النرفانا»، كما يوجد في البوذية والهندوسية.

وكل هٰذه المذاهب، تتخبط في دياجير الظلمات. أما ما جاء من عند اللَّه، فهو القسطاس المستقيم، والميزان الدقيق، الذي يوائم بين أشواق الروح، وحاجات الجسد. فالكائن الإنساني خلقه اللَّه ـ تعالىٰ ـ من قبضة من تراب، ومن نفخة من روح، ففي بنيته عناصر معنوية، روحانية، وفيه مكونات بدنية، حسية. والعقيدة، والشريعة، أتتا لإصلاح الأمرين معًا، لم تحتفيا بجانب، وتُهملا جانبًا، بل تعاملتا مع النفس الإنسانية، كما خلقها بارئها.

ولهٰذا نجد في كتاب اللَّه ﷻ وفي سنة نبيه ﷺ ما يلبي أفراح الروح، وما يلبي نزعات الجسد. فلا رهبانية في الإسلام، وقد نهىٰ رسول اللَّه ﷺ، عن التبتل. وفي نفس الوقت لا اتباع للشهوات، وعبادة الجسد. نجد منظومة متناسبة بين هٰذين الأمرين، لا يجتمعان إلا فيما جاء به القرآن والسنة.

هٰذا هو «علم النفس الإسلامي» الذي ينبغي أن يخدم، وأن يعتني به، وأن تجمع مفرداته، وأن يؤسس تأسيسًا مستقلًّا، غير متأثر بالنظريات الأرضية. ولا يكفي، لمن أراد أن يؤسس علم نفس إسلامي، أن يأتي إلىٰ التراث الغربي، أو الشرقي، وينتخب منه، ثم يضع بعد كل جملة، لاحقة: «في حدود الشريعة الإسلامية» أو «في إطار الشريعة الإسلامية» هٰذا ليس أسلمة لعلم النفس، هٰذا نوع من التلفيق!

إذا أردنا أن يكون لدينا علم نفس إسلامي، فيجب أن نغوص في نصوص الكتاب والسنة، المتعلقة بالنفس الإنسانية، وأن نستنبط منها القواعد، والأسس، التي ترسم معالم هٰذه النفس، ثم نبوِّب الأبواب، ونفصل الفصول، فيكون لنا استقلالنا في نظرتنا إلىٰ النفس الإنسانية، بدلا من أن نجتر كثيرًا من تجارب، وأخطاء الآخرين من الشرق أو الغرب، كما هو الواقع، وللأسف، في الجامعات التي تدرس في أقسامها علم النفس.

۞ الفوائد المُسْتنبطة:

الفائدة الأولى: أن تنوع الأقسام وتعددها، دليل علىٰ أهمية المقسم به.

الفائدة الثانية: لفت النظر إلىٰ بديع صنع اللَّه، وتنبيه الغافلين.

الفائدة الثالثة: الطبيعة المزدوجة للنفس الإنسانية.

الفائدة الرابعة: الابتلاء والاختبار الذي يترتب عليه الثواب والعقاب.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾:

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾ ثمود: قبيلة قوية، من العرب البائدة، كانت تسكن وادي القرىٰ، أو منطقة الحِجر، الواقعة بين مكة، والشام، والمعروفة، حاليًا، بمدائن صالح.

﴿بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ أي: بتجاوزها الحد. فالباء سببية، يعني: هٰذا هو سبب تكذيبها. والطغيان هو تجاوز الحد، كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]

وقد آتاهم قوة، ومكنهم أن ينحتوا من الجبال بيوتًا، وأن يتخذوا من سهولها قصورًا، فبلغ بهم الطغيان أن كذبوا نبيهم صالح، وزادوا علىٰ ذٰلك بما وصف اللَّه:

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾: ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾ يعني: خرج بسرعة، أو انتدب. وأشقىٰ ثمود، هو «قُدار بن سالف» بضم القاف. وكان من قصة ثمود، أنهم طالبوا نبيهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بآية. وقد جرت سنة اللَّه أن الآيات المقترحة تكون شؤمًا علىٰ أصحابها. فقالوا: أخرج لنا من هٰذه الصخرة الصماء، ناقة عشراء، فنؤمن! فأقام عليهم الحجة، وأخرج لهم من صخرة صماء، ناقة عشراء. يعني: قد بلغت شهرها الأخير، فهي علىٰ وشك الولادة. فابتلاهم اللَّه بأن ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥٥] يعني: يومًا ترد، فتشرب كل الماء الذي تشربه القبيلة، ويشربون في اليوم الثاني. فضاقوا بذٰلك ذرعًا.

﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾ أي: صالح.

﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ يعني: احذروا المساس بها، وذروها تأكل في أرض اللَّه.

﴿وَسُقۡيَٰهَا﴾ أي: لا تتعرضوا لشربها في اليوم الذي لها، ولا تنازعوها فيه.

وناقة اللَّه: من باب إضافة المخلوق إلىٰ خالقه. وهي إضافة تشريف، لأن هٰذه الناقة آية، وليست كسائر النوق.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ردوا كلام نبيهم، ولا خافوا مما حذرهم منه.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ قيل إن العقر: هو ضرب قوائم الدابة، وتحديدًا، الوَتَر الذي يكون خلف العقب، أو الخف، فإنه إذا قطع لم تتمكن الدابة من السير، فتقع، ولا تستطيع المشي، فتهلك. وقيل: ضرب قوائمها، ثم قتلها بعد ذٰلك. المهم أن ذٰلك آل إلىٰ هلاكها.

وقد عبر بالجمع ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾، مع أن المنبعث، الذي باشر ذٰلك واحد، لأنهم راضون، والراضي كالفاعل. ولذٰلك أخذوا جميعًا بهٰذه الجريمة. قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في رجل قتل في صنعاء: «لَوِ اشْتَرَكَ فِيهَا أَهْلُ صَنْعَاءَ لَقَتَلْتُهُمْ»[1]، فالراضي كالفاعل، والمشارك يدخل في القوَد.

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ أي: أطبق عليهم بعذابه.

﴿بِذَنبِهِمْ﴾ الباء في قوله بذنبهم للسببية، يعني: بسبب ذنبهم.

والعذاب الذي أطبق عليهم، صيحة، ورجفة، عياذًا باللَّه! صيحة قطعت نياط قلوبهم في صدورهم، ورجفة زلزلت أرضهم، فهلكوا جميعًا. قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ يعني: أنهم استووا في العقوبة، فلم يفلت أحد، لأن القوم كانوا راضين بفعل أشقاهم، موافقين، فلذٰلك اشتركوا جميعا في العقوبة.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ أي أن اللَّه تعالىٰ، لا يخاف تبعتها. وذٰلك أن غير اللَّه تعالىٰ إذا عاقب أحدًا، يتوجس خيفة أن هٰذا الذي وقع عليه عقوبة، هو، أو جماعته، ربما ينتقمون منه، فيخاف العاقبة. أما الرب سبحانه وبحمده

---

(١) صحيح البخاري (٦٨٩٦).

تعالىٰ فلا يخاف عقباها، لأنه القوي، العزيز، القادر.

۞ الفوائد المُسْتنبطة:

الفائدة الأولى: شؤم عاقبة الطغيان.

الفائدة الثانية: تفاوت الكفار في كفرهم وشقاوتهم.

الفائدة الثالثة: أن التذكير موعظة، وإقامة حجة، وإبراء ذمة.

الفائدة الرابعة: أن الراضي كالفاعل.

الفائدة الخامسة: شدة أخذ اللَّه للظالمين.

الفائدة السادسة: كمال قدرة اللَّه سبحانه وسلطانه.

سورة الليل

سورة «الليل»، سميت بذٰلك، لاستهلالها بالقسم بالليل في قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾.

ولهٰذه السورة مقاصد متعددة منها:

١ ـ الإيمان بالقدر وهو أحد أركان الإيمان.

٢ ـ مسؤولية العبد عن أفعاله وترتب الثواب والعقاب عليها.

٣ ـ إعلاء القيم المثلىٰ، والأعمال الصالحة.

٤ ـ الحط من الأخلاق الذميمة، والأعمال السيئة.

٥ ـ إثبات البعث، والحساب، والجزاء.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ١٣ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾:

﴿وَٱلَّيۡلِ﴾: خلق عظيم من مخلوقات اللَّه، يتعاقب مع النهار، علىٰ الكون.

﴿إِذَا يَغۡشَىٰ﴾: يغطي بظلمته ما بين السماء والأرض. فهٰذا الليل أشبه بثوب أسود، يلقىٰ علىٰ الأرض، فيغطيها. ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾ [يس: ٣٧]. ثم قال علىٰ سبيل المقابلة:

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾: أي: تكشف، وظهر، وأضاء الأرض بنوره.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾: «ما» هنا، تحتمل أن تكون موصولة، بمعنىٰ «من»، وتحتمل أن تكون مصدرية.

فإن كانت موصولة، فاللَّه تعالىٰ قد أقسم بنفسه، يعني: أقسم بمن خلق الذكر والأنثىٰ. وإن كانت مصدرية فمعنىٰ الكلام: أقسم بخلْق الذكر والأنثىٰ، فيكون إقسامًا بالخلق نفسه. وللَّه تعالىٰ أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

ويؤيد هٰذا المعنىٰ الثاني قراءة منسوخة؛ فإنه قد وقع في قراءة أبي الدرداء، وابن مسعود، «والذكر والأنثىٰ». وقد نسخت بالعرضة الأخيرة علىٰ النبي ﷺ. ومعلوم أنها لا ينطبق عليها حد القراءة السبعية المعتمدة، لأن حدها كما قال الناظم:

وكل ما وافق وجه نحوِ	وكان للرسم احتمالًا يحوي
وصح إسنادًا هو القرآن	فهٰذه الثلاثة الأركان
وحيثما يختل شرط اثبتِ	شذوذه لو انه في السبعة

والشرط الثاني: ينفي قراءة «والذكر والأنثىٰ»؛ لأنه لا يوافق رسم المصحف.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾: هٰذا جواب القسم. ومعنىٰ ﴿سَعْيَكُمْ﴾ أي: عملكم. ﴿لَشَتَّىٰ﴾: اللام واقعة في جواب القسم. «شتىٰ» أي: مختلف، فمساعيكم مختلفة؛ فعامل بالطاعة، وعامل بالمعصية، كما هو مشاهد.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾ الفاء للتفريع. يعني أعطىٰ حق اللَّه، أو أنفق في سبيل اللَّه. فيشمل العطاء الواجب، والعطاء المستحب.

﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ التقوىٰ: أن يجعل العبد بينه وبين عذاب اللَّه، وقاية؛ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾: اختلف المفسرون في المراد ﴿بِٱلْحُسْنَىٰ﴾:

ـ فمنهم من قال إن المقصود ﴿بِٱلْحُسْنَىٰ﴾: كلمة التوحيد «لا إلٰه إلا اللَّه».

ـ ومنهم من قال الحسنىٰ: الجنة، لأن اللَّه ـ تعالىٰ ـ قال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنىٰ هي الجنة، والزيادة هي النظر إلىٰ وجه اللَّه الكريم. كما فسرها بذٰلك النبي ﷺ. قَالَ ﷺ «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، يَقُولُ اللَّهُ تبارَكَ وَتعَالَىٰ تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ؛ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ ربهم** ﷻ» ثُمَّ تَلاَ هٰذه الآيَةَ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ رواه مسلم[١].

ـ ومنهم من قال، وهو اختيار ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن المراد الخلف من اللَّه علىٰ المعطي[٢]، بمعنىٰ: أن اللَّه ﷻ وعد المنفق بالخلف، فالذي يثق بموعود اللَّه ﷻ فهو مصدق بالحسنىٰ. ويشهد لهٰذا المعنىٰ قول النبي ﷺ «**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهم أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهم أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**» متفق عليه[٣].

وبين هٰذه المعاني الثلاث تلازم، فإن من صدق بموعود اللَّه، مصدق بـ«لا إلٰه إلا اللَّه»، وهو من وراث جنة النعيم. لٰكن السياق يرجح ما اختاره ابن جرير الطبري، بأن «الحسنىٰ»: الخلف.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ هٰذا جواب الشرط. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾: يعني فسنهيِّئه بيسر، وسهولة. و«اليسرىٰ» هي الجنة، أو عمل الصالحات.

وبإزاء ذٰلك قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨﴾ بخل بحق اللَّه، بخل بالزكاة، كما قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا من أغناه اللَّه، فبخل بالزكاة[٤].

﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ يعني استغنىٰ بماله وجاهه عن ثواب اللَّه، كأنما قال: لا حاجة

---

(١) صحيح مسلم (١٨١).

(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٤٦٧).

(٣) صحيح البخاري (١٤٤٢)، صحيح مسلم (١٠١٠).

(٤) تفسير الطبري (٢٤/ ٤٦٧).

لي، وأنا عندي ما يكفيني، كما قال قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨].

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠﴾ هي النار، أو عمل الشر.

ونجد أن اللَّه تعالىٰ أسند هٰذه الأفعال إلىٰ العباد، فهم الفاعلون لها حقيقة. وأن كان لا يخرج عن قدر اللَّه. وهٰذا مذهب أهل السنة والجماعة خلافًا للجبرية الذين يزعمون أن العبد كالآلة، لا يفعل حقيقة، والأشاعرة القائلون بنظرية «الكسب». وأثبات قدرة غير مؤثر يحصل الفعل عندها لا بها! وهي دعوىٰ باطلة، غير معقولة.

قال الناظم[(١)]:

ممَّـا يقــال ولا حقــيقة عــنده معقــولة تدنــو إلــىٰ الأفهــامِ

الكسب عند الأشعري والحال عــند البهـشمي وطفـرة الـنظامِ

فيزعمون أن هٰذا كسب، وليس فعلًا للعبد حقيقة، بل هو فعل اللَّه ﷻ وحسب! ولهٰذا سلبوا الأشياء خصائصها، حتىٰ قالوا: إنه ليس في النار خاصية الإحراق، وليس في الماء خاصية الري، ولا في السكين خاصية القطع، وإنما تقع هٰذه الأشياء عندها لا بها! وأنكروا الحكمة والتعليل، وصاروا ضُحَكة للعقلاء.

وبالمقابل، فإن «القدرية» أنكروا القدر السابق، وزعموا أن العبد يخلق فعل نفسه، وجحدوا حقيقة «التيسير» المذكور في الآيات، وأتوا بنظرية «اللطف»؛ فيقولون: إن هٰذا التيسير هو أن اللَّه تعالىٰ، خلق للإنسان الأدوات والآلات، فقط. وأما المشيئة، فهي مشيئة العبد، دون مشيئة الرب، وأما الخلق فهو خلق العبد، دون خلق الرب. وهٰذا مذهب المعتزلة، ومن جرىٰ مجراهم، من الشيعة، والخوارج.

﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾ يعني: ما يغني عنه ماله الذي افتخر به،

---

(١) منهاج السنة النبوية (١/ ٤٥٩).

واستطال، إذا هوىٰ، وسقط في النار، وقيل: بمعنىٰ مات، من قولهم: ردىٰ الرجل. ولٰكن استبعد ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هٰذا المعنىٰ؛ قال: لأن العرب لا تستخدم تردىٰ إلا في التعبير عن السقوط من شاهق.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ يعني: بيان طريق الهدىٰ. فهٰذا مما أوجبه اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ نفسه؛ أن يبين للناس طريق الحق، وطريق الباطل، طريق الهدىٰ، وطريق الضلال. وهٰذه هداية دلالة، وبيان، وإرشاد، وهي إقامة الحجة الرسالية.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أي: لنا ملك الآخرة، والأولىٰ، نَهبها من نشاء، ونمنعها من نشاء، حسبما تقتضيه الحكمة الإلٰهية.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ أي: خوفتكم، وحذرتكم؛ والنذارة هي الإعلام بما يسوء.

﴿تَلَظَّىٰ﴾ أي: تتلهب، وتتوهج، وتتوقد. وقد أوقد عليها لآلاف السنين، حتىٰ صارت سوداء مظلمة. وهي موجودة الآن، تنتظر أهلها.

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾ أي: لا يدخلها، ويقاسي حرها، فتشويه، إلا الأشقىٰ. ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ أي: البالغ في الشقاوة أقصاها. وهو الكافر. ولهٰذا وصفه اللَّه تعالىٰ بقوله: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ كذب بنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتولىٰ عن طاعته. وهٰذا ينطبق علىٰ كثير ممن كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بين ظهرانيهم من المشركين.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾ أي: يبعد عن تلكم النار التي تلظىٰ. و﴿ٱلْأَتْقَى﴾ بمقابل ﴿ٱلْأَشْقَى﴾، لأن ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ هو من بلغ الغاية في التقوىٰ. وقيل إن هٰذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه وصفه بقوله: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ أي: يتطهر. فقد كان أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يبذل ماله في سبيل اللَّه، يريد تطهير نفسه. ولا شك أن أبا بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يدخل دخولًا أوليًّا في هٰذه الآية، لٰكنها تنطبق علىٰ كل من بذل ماله، يريد تزكيه نفسه، وتخليصها من آفة الشح، ومن الذنوب، ويريدها كفارة لما بدر منه، فإنه يدخل في عموم هٰذه الآية. والقاعدة عند المفسرين: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»، فحتىٰ لو نزلت الآية في فلان أو فلانة، فإنها لا تختص به، بل

تنسحب علىٰ جميع من شابههم في الحال.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩﴾ أي: أن أبا بكر، وغيره من المحسنين الصادقين، لا يفعلون هٰذا الإحسان ليكافئوا نعمة سابقة، ويقابلوها بمثلها.

﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠﴾: ﴿إِلَّا﴾ هنا بمعنىٰ لٰكن. فالاستثناء منقطع؛ أي: لٰكنه فعل ذٰلك طلبًا للمذكور، وهو ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾. فدل علىٰ أن ذٰلك ﴿ٱلۡأَتۡقَى﴾ بذل ماله، وأنفقه، رغبة في لقاء اللَّه، تعالىٰ، والتنعم بالنظر إلىٰ وجهه الكريم، ورجاء ما يحصل له من ثواب اللَّه.

﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾ هٰذا وعد من اللَّه ﷻ أن يرضيه، واللَّه لا يخلف الميعاد.

۞ الفوائد المُسْتنبطة:

الفائدة الأولى: الإقسام بدلائل الربوبية.

الفائدة الثانية: تفاوت الخلق في مسعاهم.

الفائدة الثالثة: إثبات القدر السابق.

الفائدة الرابعة: إثبات أفعال العباد، والرد علىٰ الجبرية.

الفائدة الخامسة: الرد علىٰ القدرية، وذٰلك بإثبات التيسير.

الفائدة السادسة: إثبات الحكمة والتعليل.

الفائدة السابعة: إثبات الأسباب فمن أنكرها، فهو مناقض للعقل، والفطرة، والدين.

الفائدة الثامنة: انتفاء الشفاعة عن الكافر. قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ فإذا كان ماله الذي يختص به، لا يغني عنه، فلأن تكون شفاعة الشافعين، لا تغني عنه، من باب أولىٰ.

الفائدة التاسعة: إثبات هداية الدلالة، والبيان.

الفائدة العاشرة: إثبات ملك اللَّه الشامل لكل شيء.

الفائدة الحادية عشرة: التحذير من النار.

الفائدة الثانية عشرة: الموعظة بالنار.

الفائدة الثالثة عشرة: نجاة المؤمن من النار.

الفائدة الرابعة عشرة: فضيلة التقوىٰ.

الفائدة الخامسة عشرة: أن الأعمال الصالحة سبب للتطهر، وزيادة الإيمان.

الفائدة السادسة عشرة: أن العمل من الإيمان.

الفائدة السابعة عشرة: فضيلة الإخلاص.

الفائدة الثامنة عشرة: حسن موعود اللَّه للمؤمن.



سورة الضُّحى

سورة «الضحىٰ»، سميت بذٰلك للإقسام به في مستهلها. ولها مقصدان:

١ ـ أولهما: بيان منزلة النبي ﷺ عند ربه، ومنة اللّٰه عليه.

٢ ـ ثانيهما: إعلاء القيم الخلقية.

﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾﴾:

﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ قد تقدم ذكر الخلاف في المراد بالضحىٰ، عند قول اللّٰه تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾﴾ [الشمس: ١]، هل هو أول النهار، أم أنه يشمل النهار كله.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ إذا للظرفية. ومعنىٰ ﴿سَجَىٰ﴾: استوىٰ، وسكن. وقيل معناها: غطىٰ بظلامه. وقيل: معناها: أقبل. وهٰذه المعاني الثلاث متقاربة، ولا تعارض بينها؛ فإنه إذا اقبل، غطىٰ بظلامه، وإذا غطىٰ بظلامه استوىٰ، وسكن. فهي معان متقاربة، يقسم فيها الرب ﷻ بإقبال الليل، وما يصحبه من تغشية هٰذا الكون كله بسواده، وما ينتج عن ذٰلك من سكون وطمأنينة. وهٰذا يتضح في الأزمنة السابقة؛ فإذا غربت الشمس، أوىٰ كل أحد إلىٰ منزله، وسكنت الأصوات، وهدأ الكون. فاللّٰه تعالىٰ يقسم بِهٰذه الحالة. وهٰذا يقوي أن يكون المراد بالضحىٰ أول النهار؛ لكي يكون مقابلا لليل إذا سجىٰ، أي: أول الليل.

وقد قيل قول رابع في معنىٰ ﴿سَجَىٰ﴾، لٰكن فيه غرابة، أي: ذهب! فإن كان صحيحًا في اللغة، فمعنىٰ ذٰلك أن كلمة ﴿سَجَىٰ﴾ من الأضداد.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ «ما»: نافية. والودع هو الترك.

﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ يعني: وما قلاك. ومعنىٰ ﴿قَلَىٰ﴾: أبغض، وجفا. فالمعنىٰ: ما تركك، ربك يا محمد، ولا أبغضك، ولاجفاك، كما زعم المشركون.

وذٰلك أن النبي ﷺ كان ينزل عليه الوحي متتابعًا. فأول ما أنزل اللَّه سبحانه وتعالى عليه سورة «اقرأ»، ثم بعد ذٰلك نزلت سورة «المدثر»، وتتابع الوحي. ثم انقطع عنه الوحي، كما جاء في السير، خمسة عشر يومًا، حتىٰ إن النبي ﷺ اشتاق له شوقًا عظيمًا، ولحقه من اللَّهف شيء عظيم، ووقع في نفسه شيء أن يكون اللَّه عز وجل قلاه.

والصحيح ما رواه البخاري، عن جُنْدُبَ بْنَ سُفْيَانَ رضي الله عنه قَالَ: اشْتَكَىٰ رَسُولُ اللَّه ﷺ، فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا. فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ! إني لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ. لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثَةٍ. فَأَنْزَلَ اللَّه عز وجل: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾. متفق عليه[(١)]. وفي الترمذي، عنه: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَارٍ، فَدَمِيَتْ أُصْبُعُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ   وفي سَبِيلِ اللَّه مَا لَقِيتِ

قَالَ: وَأَبْطَأَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ عليه السلام، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: قَدْ وُدِّعَ مُحَمَّدٌ. فَأَنْزَلَ اللَّه تَعَالَىٰ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾. قَالَ أَبُو عِيسَىٰ: هٰذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ[(٢)].

ففي هٰذه الآيات يطمئن اللَّه نبيه ﷺ، ويسليه عما قاله المشركون، ويبطل دعواهم.

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٥٠)، صحيح مسلم (١٧٩٧).

(٢) سنن الترمذي (٣٣٤٥) صححه الألباني.

ولم يزل أنبياء اللَّه تعالىٰ يعانون من هٰؤلاء الطاعنين، كما قال اللَّه ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٣١]. ولم يزل أعداء الرسل ينالون منهم، ويؤذونهم بالمسبة. وحتىٰ يومنا هٰذا يلقىٰ أنبياء اللَّه، عامة، ونبينا ﷺ خاصة، الأذىٰ، والطعن. كان المستشرقون ينالون من شخص نبينا ﷺ ويوجهون له المطاعن ليستزلوا المسلمين عن إسلامهم. وجاء هٰؤلاء الغربيون، اليوم، ليؤذوا النبي ﷺ بالرسوم المسيئة، وبالأفلام، وبالمقالات السيئة، ولٰكن أنىٰ لهم! فمقام نبينا ﷺ في القمة السامقة، لا يتمكن هٰؤلاء الأدعياء المزيفون من أن يطالوه بقلامة ظفر. ولٰكن هٰذا لايعفي من عن الرد، وذٰلك حفظا لدين اللَّه، وغيرةً علىٰ نبيه ﷺ وانتصارًا له، وإلا فإن اللَّه ناصر دينه، ومعز نبيه، ﷺ.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ اللام في قوله ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ لام القسم. والمعنىٰ: ما أعد اللَّه لك في الدار الآخرة، من الكرامة والنعيم ﴿خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: الدنيا.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ «سوف» للمستقبل، و«اللام» للقسم، أيضًا. فاللَّه تعالىٰ يعد نبيه بجزيل العطاء، حتىٰ يبلغ درجة الرضا.

وهٰذه الجمل، جواب القسم، في مطلع السورة. وجواب القسم: أمران منفيان، وأمران مثبتان:

- فالمنفيان ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾.
- والمثبتان ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾.

قال بعض المفسرين، وروي في ذٰلك حديث: أن النبي ﷺ قال: «**إذًا لا أرضىٰ واحد من أمتي في النار، أو لا أرضىٰ أن يدخل أحد من أمتي في النار**»[(١)]. ولٰكن هٰذا حديث ضعيف، ويتعلل به أصحاب الأماني الباطلة، من أهل

---

(١) الدر المنثور (٨/ ٥٤٢). ضعيف لم يثبت عن النبي ﷺ، «شعب الإيمان» عن ابن عباس موقوفًا عليه (٢/ ١٦٤)، الوجيز (١٢١٠).

الفسق، فيسوغون لأنفسهم ارتكاب المعاصي والفجور، وهٰذا من تسويل، وتزيين، وإملاء الشيطان لهٰؤلاء ليتمادوا في معاصيهم.

وقد أطال ابن القيم، رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] في رد هٰذا القول، وأن النبي ﷺ إنما يرضيه ما يرضي ربه. فإذا كان اللَّه لا يرضىٰ عن الفاسقين، ولا يرضىٰ عن الظالمين، ولا يرضىٰ عن المجرمين، فكيف يرضىٰ نبيه ﷺ بما لم يرض به اللَّه؟!

ثم إن السياق بعد ذٰلك توجه بالخطاب إلىٰ النبي ﷺ فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾: هٰذا استفهام تقريري؛ لأن معنىٰ ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾: أي وجدك. والجواب علىٰ السؤال المبدوء بِهَمزة:

- في حال الإثبات «بلىٰ».
- وفي حال النفي «كلا».

فجوابه: بلىٰ! وجده يتيمًا فأواه.

ذٰلك أن نبينا ﷺ توفي أبوه عبد اللَّه، وهو حمل، فعطف عليه جده عبد المطلب، ثم لم يلبث بعد أن بلغ ست سنين، فتوفيت أمه، فهٰذا اليتم أشد ما يكون؛ بذهاب الأبوين. ثم مات عمه عبد المطلب، فأواه عمه أبو طالب. فمعنىٰ آوىٰ: أي: ضمك عمك أبو طالب إليه، أو: ضمك اللَّه ﷻ إلىٰ عمك أبي طالب.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾: ﴿ضَآلًّا﴾ المقصود هنا أي: جاهلا بدينه. وليس المقصود بالضلال هنا أنه قارف شيئا مما يقارف الضالون، ولٰكن المقصود تائهًا عن طريق الحق، الذي هو دين اللَّه تعالىٰ، فقد كان النبي ﷺ يتلمس الحق، ويبحث عنه، حتىٰ إنه آل به الأمر إلىٰ أن يتحنث الليالي ذوات العدد في «غار حراء»، يتأمل، ويتعبد للخالق، لٰكن دون أن يكون عنده شريعة يعمل بها، حتىٰ أكرمه اللَّه بالنبوة، وهداه لدينه. ويالها من هداية، هي

---

(١) التبيان (١١٢).

أعظم هداية، فقد أنزل اللَّه تعالىٰ عليه الوحي، وعلمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل اللَّه عليه كبيرًا.

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ ۝٨﴾: يعني فقيرًا، عالة علىٰ غيرك، فأغناه اللَّه تعالىٰ أيما غنىٰ، فصار له الفيء، والخمس من الغنيمة، ينفق منها نفقة من لا يخشىٰ الفقر، مع أنه ﷺ كان يتقلل في ذات نفسه، وذٰلك أن الغنىٰ هو غنىٰ النفس، كما قال بأبي هو وأمي: «**لَيْسَ الْغِنَىٰ عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلٰكن الْغِنَىٰ غِنَىٰ النَّفْسِ**» متفق عليه[1].

ومن تأمل في حال الناس، أدرك أن الغنىٰ ليس عن كثرة العرض؛ من عقار، وأسهم، ومراكب، ودور، وقصور، وثياب. فكم من إنسان ملك هٰذه جميعًا، لٰكن في قلبه فقر، وشح، فلا يستمتع بشيء مما أوتي، فهو مسكين، وإن ملك الملايين. وكم من إنسان رزق القناعة، وغنىٰ النفس، واكتفي بما تيسر، فطابت نفسه، وقرت عينه، ورأىٰ أنه من أغنىٰ العالمين.

وينبغي للإنسان أن يربي نفسه علىٰ القناعة، فإنك لن تأكل أكثر من ملء بطنك، ولن تلبس أكثر من طول بدنك، ولن تسكن في أكثر مما يكنك. فإذا رزقت هٰذه القناعة فكأنما حيزت لك الدنيا بحذافيرها. ترىٰ الرجل، تغرِّب أمواله، وتشرِّق، يموت، فلا يذهب إلىٰ قبره إلا بثوبين، لا يتجاوزان بضعة أمتار، ويأوي إلىٰ بيت موحش، طوله قدر طوله فقط. ويترك الأراضي، والدور، والقصور، لوارثه.

فلا بد من اعتبار هٰذه المعاني، وعيشها حقًّا، وصدقًا. وإذا أجرىٰ اللَّه تعالىٰ في يده خيرًا، فليرتفق به، ولٰكن يعلم أنه عارية، تنتقل منه إلىٰ غيره، كما انتقل من غيره إليه. فيرتفق بما أباح اللَّه تعالىٰ له، فلا يتكلف مفقودًا، ولا يرد موجودًا. بِهٰذا يسير الإنسان علىٰ هيِّنته مطمئنًا، دون أن يشعر بالنقص.

بعض الناس إذا التفت يمنةً ويسرةً، ورأىٰ بعض أقرانه، ومن قد كان

---

(١) صحيح البخاري (٦٤٤٦)، صحيح مسلم (١٠٥١).

دونه، قد سبقوه في مضامير الدنيا، صار في قلبه حرقة، وقد قال نبينا ﷺ: **«انْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّه»** رواه مسلم[1]، فهٰذا درس بليغ.

بعد هٰذه المنن الحسية، والمعنوية، التي غمر اللَّه تعالىٰ بها نبيه ﷺ أمره بما يناسب المقام، فقال له:

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾:

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ﴾ الفاء هٰذه يسمونها الفاء الفصيحة؛ لأنها تفرع علىٰ ما سبق.

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ذكر اليتيم، لأنه قال آنفًا: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾. فينبغي أن يكون شكر النعمة، من جنس النعمة، فإن كنت يتيمًا يومًا من الدهر، فجدير بك أن ترفق باليتامىٰ، وإن كنت فقيرًا يومًا من الدهر، فحري بك أن تعطف علىٰ الفقراء.

﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي: لا تغلبه بأخذ ماله، أو غير ذٰلك. وقد كان اليتامىٰ في الجاهلية يغلبون علىٰ أمرهم، وتؤخذ أموالهم، ولا يورثون، فحفظ الإسلام حقهم، وأوصىٰ بهم.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾: ﴿ٱلسَّآئِلَ﴾ هو المستجدي الفقير، فلا تزجره لفقره. والسائل، مظنة الزجر؛ لأنهَ يتَّضِع، ويذل نفسه لكي يحصل علىٰ مطلبه، فيجرأ غيره عليه، وربما نهره وزجره.

والحقيقة أن كلمة السائل أوسع من أن تختص بالسائل بسبب الفقر، بل تتناول السائل عن أي مصلحة من المصالح؛ دينية كانت، أو دنيوية، فإنه لا ينهر، فإذا سألك سائل عن أمر من أمور دينه، فلا تنهره، بل سهل، ورحب، وأجب طلبته، إذا كان عندك علم تجيبه به. وكذٰلك لو سألك عن أمر من الأمور التي تحسن، فأعنه، ولو سألك عن الطريق فدله.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ يعني: فأخبر الناس بما أنعم اللَّه تعالىٰ

(١) صحيح مسلم (٢٩٦٣).

عليك، ولا تكتم ذٰلك، وتجحده. فإن الحديث بذٰلك من شكر النعمة.

وقد قال القائل:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

فشكر نعمة المنعم يكون بالقلب، وباللسان، وبالجوارح.

فيشكر العبد ربه بقلبه: بمعنىٰ أن يغتبط قلبه بنعمة اللَّه عليه، ويعلم أنها من عنده.

وبلسانه: فلا يزال يحدث بنعمة اللَّه عليه، وأنه في خير وعافية من اللَّه، ونحو ذٰلك.

وبجوارحه: فيسخِّر جوارحه في طاعة اللَّه، من السعي علىٰ الأرملة، والمسكين، ومساعدة الملهوف، وإغاثة المضطر، وامتثال أوامر اللَّه، واجتناب نواهيه، فبذٰلك يحصل الشكر.

وشكر النعم يكون من جنسها فمثلا إذا أنعم اللَّه عليك بالمال فإن من شكر نعمة اللَّه بالتوسعة في المال، أن تتوسع في الصدقة، والنفقة، وألا تمسك. وإذا انعم اللَّه عليك بالعلم، فإن من شكر اللَّه نعمة اللَّه بالعلم، أن تبذله لطالبيه؛ وتعلم الجاهل، وتذكر الناسي، وتنبه الغافل. وهٰكذا في كل باب من الأبواب اجعل شكر النعمة بالدرجة الأولىٰ من جنسها.

وقيل: إن معنىٰ «حدِّث»: يعني جدد، شكرًا إثر شكر. والناس يتفاوتون في استقبال نعمة المنعم؛ فمنهم من يغتبط بنعمة اللَّه، ويثني بها عليه، ويحدث بِهٰذا الفضل، ومن الناس من يجحد النعمة، وينسبها إلىٰ نفسه، كما فعل قارون، قال ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]. وهٰذا بأقبح المراتب. وثمَّ فئة ثالثة، وهم الذين ينعم اللَّه تعالىٰ عليهم، ثم يكتمون نعمة اللَّه عليهم، خوفًا من العين! فيتظاهرون بالبؤس، وسوء الحال. وهٰذا في الحقيقة نوع شرك، لأنه خوف زائد، وفيه كفران للنعمة، وفيه ضعف شخصية.

والذي ينبغي للعبد إذا أنعم اللَّه تعالىٰ عليه أن يحدث بنعمة اللَّه عليه.

وليس المقصود أن يفتخر في المجالس، ويفيض في التفاصيل، كلا! وإنما يتكلم بكلام عام، مجمل، يتضمن ذكر نعم اللَّه، والثناء بها عليه. وعلىٰ العبد أن يقوي توكله علىٰ اللَّه، ويعلم أنه لا يأتي بالحسنات إلا اللَّه، ولا يدفع السيئات إلا اللَّه، وأن اللَّه تعالىٰ هو الذي يعصمه، وأن عليه أن يخشىٰ أن يسلبه اللَّه النعمة، بسبب التكتم والجحود.

وهٰذه السورة قد ورد أن النبي ﷺ كبر في آخرها. وقد اختلف في ثبوت هٰذا، وهل هو من سنن القراءة، أن يكبر في أخرها وما بعدها، من السور، فاعتمد ذٰلك بعض القراء، وبعضهم رده. وللشيخ بكر بن عبد اللَّه أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ بحث رائق في هٰذا في كتابه «بدع القراء».

الفوائد المُسْتنبطة:

الفائدة الأولى: مشروعية رد شبه الطاعنين.

الفائدة الثانية: كرامة النبي ﷺ علىٰ ربه في الدنيا والآخرة.

الفائدة الثالثة: منة اللَّه تعالىٰ علىٰ نبيه ورعايته له

الفائدة الرابعة: أن شكر النعم يكون من جنسها.

الفائدة الخامسة: إظهار فضل اللَّه تعالىٰ علىٰ العبد، والثناء به عليه.

الفائدة السادسة: فساد مسلك أهل الجحود للنعم، علىٰ اختلاف أنواعهم.

سورة الشرح

سميت بِهٰذا الاسم استمدادًا من الآية الأولىٰ.

من مقاصد هٰذه السورة المباركة:

١ ـ بيان منة اللَّه علىٰ نبيه ﷺ.

٢ ـ وجوب شكر المنعم.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾:

﴿أَلَمْ﴾: هٰذا الاستفهام: استفهام تقريري، تقديره: «شرحنا لك صدرك».

﴿نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾: الشرح: هو التوسعة، كما قال اللَّه ﷻ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

والمقصود بالشرح هنا، الشرح المعنوي، كما في الآيتين السابقتين.

ويحتمل أن يشمل الشرح الحسي، أي فلق الأضلاع، كما في حادثة شق الصدر، فعن أنس: أن رسول اللَّه ﷺ أَتاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هٰذا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ في طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ في مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَىٰ أُمِّهِ ـ يَعْنِي

ظِئْرَهُ ـ فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ. قَالَ أَنَسٌ: «وَقَدْ كُنْتُ أَرَىٰ أَثَرَ ذٰلك الْمِخْيَطِ في صَدْرِهِ» رواه مسلم[1].

وروىٰ ابن إسحاق، بسنده عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول اللَّه ﷺ أنهم قالوا له: أخبرنا عن نفسك، قال: «**نعم! أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ورأت أمي، حين حملت بي، أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا في بهم لنا، أتاني رجلان، عليهما ثياب بيض، معهما طست من ذهب مملوء ثلجًا، فأضجعاني، فشقا بطني، ثم استخرجا قلبي، فشقاه، فأخرجا منه علقة سوداء، فألقياها، ثم غسلا قلبي، وبطني، بذٰلك الثلج، حتىٰ إذا أنقياه، رداه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته، فوزنني بعشرة، فوزنتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزنني بمائة فوزنتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزنني بألف، فوزنتهم، فقال: دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنهم**».

قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٢٧٥): «وهٰذا إسناد جيد قوي»[2].

لٰكن المقصود الأعظم: الشرح المعنوي؛ وذٰلك أن اللَّه تعالىٰ امتن علىٰ نبيه ﷺ أن جعل صدره متسعًا، أريحيا، مستوعبًا لكل ما يرد عليه من أمور العلم، والإيمان، والأخلاق. وشرح الصدر أمر يتفاوت فيه الناس، فيقال: فلان ما أوسع صدره!، يعني يحتمل، ولا ينفعل. وفلان ضيق الصدر، لكونه سريع الانفعال، لا يصبر. فلنبينا ﷺ من شرح الصدر، القدر الأعظم، الذي حصل به قبول خصال الإيمان، وإدراك العلم، والتحلي بالأخلاق الكريمة، التي وسع بها الناس، علىٰ اختلاف فئاتهم، وطبقاتهم.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾: هٰذه المنة الثانية؛ أي: حططنا عنك وزرك. والوزر هو: الذنب، والإثم، وكل ما يهمه، ويغمه، ويثقله. والنبي ﷺ بشر،

(١) صحيح مسلم (١٦٢).
(٢) انظر: السلسلة الصحيحة (١٥٤٥).

يلحقه الذنب. فقد قال اللَّه تعالىٰ في سورة «الفتح»: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١ ـ ٢]، وقال في سورة «محمد»: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]. فالصحيح: أن النبي ﷺ ربما وقع منه الخطأ، وصغائر الذنوب؛ وذٰلك لبشريته. وهٰكذا القول في جميع أنبياء اللَّه.

فأنبياء اللَّه تعالىٰ وعلىٰ رأسهم نبينا محمد ﷺ معصومون في باب التحمل، والبلاغ؛ فهم إذا تحملوا عن اللَّه، وأدوا إلىٰ عباد اللَّه، معصومون، لا يمكن أن يُدرج، أو يدخل فيما يبلغونه عن اللَّه ﷻ شيء سواه؛ لا من قبل أنفسهم، ولا من قبل غيرهم. قال اللَّه تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النجم: ١ ـ ٣]، أي لا يحمله غضب، ولا انفعال، ولا حمية، ولا رغبة، ولا رهبة، أن يقول في دين اللَّه ما ليس منه. فلا يخرج من فيه إلا الحق.

كما أنه لا يدرج فيه، ولا يدخل، شيء من قِبَل غيرهم، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢﴾ [الحج: ٥٢]، يعني ما أرسل اللَّه تعالىٰ قبل نبينا محمد ﷺ من رسول، ولا نبي، إلا إذا تلا ما أوحي إليه، حاول الشيطان أن يدخل في قراءته ما ليس منها، لٰكن اللَّه يمحو، ويزيل إلقاء الشيطان، وينفيه، ويحكم آياته، فلا يختلط بها شيء ليس منها، واللَّه عليم حكيم.

حتىٰ حين سحر النبي ﷺ كما ثبت في صحيح البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُحِرَ حَتَّىٰ كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ صَنَعَ شَيْئًا وَلَمْ يَصْنَعْهُ»[(١)]، لم يكن ذٰلك السحر مؤثرًا في تبليغه، وإنما كان مؤثرًا في ماجريات حياته

(١) صحيح البخاري (٣١٧٥).

المعيشية، فيظن أنه قد فعل الشيء، ولم يفعله، ونحو ذٰلك. أما جانب التشريع، والوحي فمحفوظ. قال اللَّه تعالىٰ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

وأما الكبائر: فإن أنبياء اللَّه معصومون منها، وأما الصغائر، والخطأ: فجمهور العلماء علىٰ أنها تجوز في حقهم. ولهٰذا أمثلة كثيرة:

- منها: نسيان آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥].
- ومنها: سؤال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه بقوله: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥].
- ومنها: أن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وكز القبطي، قال تعالىٰ: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ﴾ ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القصص: ١٥] وهٰذا قتل خطأ لأنه لم يرد قتله؛ وإنما وكزه حمية، ونصرة، للإسرائيلي الضعيف.
- ومنها: أن ذا النون خرج مغاضبا.
- ومنها: أن نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسألة الأسرىٰ، مال إلىٰ الفداء، حتىٰ أنزل اللَّه تعالىٰ عليه: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٨].
- وفي قصة الأعمىٰ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾ [عبس: ١ ـ ٢].
- وفي قصة التحريم، حينما حرم علىٰ نفسه شيئا من المباح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ [التحريم: ١]
- وقد استدرك اللَّه تعالىٰ علىٰ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة «تبوك» بقوله: ﴿عَفَا﴾ ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].
- ونهاه اللَّه أن يصلىٰ علىٰ المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: ٨٤].

والمقصود أنه ربما وقع من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن غيره من الأنبياء، ما يستدرك، من ذنب، أو خطأ.

لٰكن العصمة تكون من جهتين:

أولاً: أن ذنبهم مغفور.

وثانيًا: أن خطئهم لا يقرون عليه، بل ينبهون عليه. وهٰذا هو القول الفاصل في مسألة العصمة.

واعلموا أن بعض الناس، ظنوا أنه لا يجوز أن ينسب إلىٰ نبي أي خطأ بشري، فقالوا في قوله تعالىٰ ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ﴾ [يوسف: ٢٤]: همت به تريده علىٰ الفجور، وهم بها يضربها! وهٰذا من التكلف. والحقيقة، أنه قام عنده ما يقوم عند بني آدم، من الشهوة الغريزية، لٰكن اللَّه عصمه بأيمانه، كما قال تعالىٰ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]، فهٰذه منقبة له. لٰكن بوصفه بشر يمكن أن يقع في قلبه، ما يقع في قلوب بني آدم.

وكذٰلك تكلفوا في قوله ﷻ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ [الفتح: ٢]:

- فقال بعضهم: ذنب أبيك آدم.
- وقال بعضهم: ذنب أمتك.

فمن قال ذنب أبيك آدم، فقد ضاهىٰ قول النصارىٰ في الخطيئة، أن البشر مدينون بخطيئة آدم! وقد قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وأما من قال: ذنوب أمتك، فقد غفل عن قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [محمد: ١٩] فَفَرَّقَ بين ذنبه، وذنوب المؤمنين، والمؤمنات. لٰكن نقول ـ كما قال اللَّه ـ : إنه ذنب، لٰكنه ذنب مغفور، وخطأ لا يقر عليه.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾: يعني أثقل، وأكهل. ذٰلك أن نبينا ﷺ لشفافيته الإيمانية، تكون هٰذه الذنوب، وإن صغرت، ثقيلة جدًّا علىٰ نفسه، لكماله الإنساني، والإيماني.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾: بقرن اسمك مع اسم اللَّه، في الأذان، والخطبة، والتشهد. فلا يكاد يذكر اسم اللَّه ﷻ إلا ويقرن به ذكر نبيه ﷺ كما يقول

المؤذن: «أشهد أن لا إلٰه إلا اللَّه، أشهد أن محمد رسول اللَّه»، وكذٰلك الخطيب، وغيرهما. فلا تكاد تجد قرية، ولا بلدة ـ فضلًا عن المدن، والحواضر ـ ، في أرجاء الأرض، وقاراتها المختلفة، إلا وذكر النبي ﷺ يجلجل علىٰ المنابر، وفي المنائر، وفي المناسبات.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ٥﴾: «العسر» هو: الشدة، و«اليسر» هو: الفرج والسهولة.

﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ٦﴾ فائدة هٰذا التكرار، المعنىٰ المذكور حديث: «**لن يغلب عسرٌ يسرين**»[1]؛ إلا إنه أعلَّ بالإرسال. وصح عن عمر، وعلي، رضي الله عنهما.

فهٰذه الآية وقعها في النفوس وقع حميد، فهي كالبلسم للجروح، فكلما وقع الإنسان في ضائقة، وذكر قول اللَّه تعالىٰ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ٦﴾ سري عنه. فما من شدة إلا سيأتي لها من بعد شدتها رخاء، وما من عسر في هٰذه الدنيا وإلا يكتنفه يسر. فلا تيأس، ولا تحبط، ولا يضق صدرك، فإن اللَّه سبحانه وتعالى له نفحات تخفف هٰذه السحابة، فعما قليل تقشع. فاصبر.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ اختلفت عبارات المفسرين في ذٰلك:

- فقيل: فإذا فرغت من صلاتك.
- وقيل: فإذا فرغت من جهاد عدوك. وكأن هٰذا لا يستقيم، والسورة مكية.
- وقيل: فإذا فرغت أي: من أمور دنياك

والأولىٰ ما ذهب إليه ابن جرير الطبري رحمه الله من حمل الآية علىٰ العموم[2]، وأن المقصود إذا فرغت من كل ما يشغلك، من أمر دينك، ودنياك. والمقصود بأمر دينك، الولايات اللازمة، والوظائف الراتبة.

---

(١) موطأ الإمام مالك (٢/٤٤٦) (باب الترغيب في الجهاد)، والمستدرك (٣٩٤٩) ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٤٣٤٢).

(٢) تفسير الطبري (٢٤/٤٩٩).

﴿فَٱنصَبۡ﴾: أي: اتعب في عبادة ربك، ودعائه، ففي هٰذا أمر للنبي ﷺ أن يتوفر علىٰ طاعة اللَّه، كلما أمكنه ذٰلك، وقد كان، فإنه سيد الذاكرين، وإمام المتعبدين.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾ قدم الجار والمجرور؛ لكي يحصل به الاختصاص، والحصر.

﴿فَٱرۡغَب﴾: اطلب، وتضرع.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: انشراح صدر النبي ﷺ بالإسلام، علما ودعوة، وخلقًا. وهٰكذا ينبغي أن يكون الداعي إلىٰ دينه.

الفائدة الثانية: مغفرة ذنبه ﷺ، ووضع جميع ما يثقله.

الفائدة الثالثة: إمكان وقوع الذنب منه ﷺ، وأن ذٰلك لا ينافي العصمة.

الفائدة الرابعة: تحقق وعد اللَّه تعالىٰ برفع ذكر نبيه في الخافقين.

الفائدة الخامسة: لطف اللَّه تعالىٰ الظاهر، والخفي. فاللطف الظاهر: هو ما تدركه من الأمور، والحوادث، التي يخفف اللَّه تعالىٰ عنك بها المصاب، ويجلب لك الرحمة.

واللطف الخفي: هو مالا تدركه من الأمور التي يقضيها اللَّه تعالىٰ، ولا تشعر بها. فاشكر اللَّه علىٰ لطفه الظاهر، والخفي. ولذٰلك كان من أسماء اللَّه الحسنىٰ (اللطيف). واللطف هو ما دق، وخفي.

الفائدة السادسة: الأمر بالاشتغال بعبادة اللَّه تعالىٰ، والاجتهاد في ذٰلك.

الفائدة السابعة: الأمر بالرغبة إليه سبحانه.

الفائدة الثامنة: فائدة أصولية، وهي: أن الخطاب للنبي ﷺ خطاب لجميع الأمة، ما لم يرد دليل علىٰ التخصيص. فالأصل أن ما أمر اللَّه تعالىٰ به نبيه ﷺ ينسحب علىٰ عموم الأمة، وذٰلك في قوله ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧

وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ﴿٨﴾﴾ فلا يقال هٰذا من خصائصه ﷺ وكما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١﴾ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [التحريم: ١ ـ ٢]. إلَّا أن يرد مخصص، كما في قوله: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

سورة التيـن

سورة «التين» سورة مكية، آياتها قليلة، ولٰكنها تتضمن معاني عظيمة.

ولهٰذه السورة مقاصد منها:

أولاً: بيان ترابط الشرائع السماوية.

الثانية: بيان الصلة بين الفطرة، والإيمان.

الثالثة: إثبات البعث.

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨﴾:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١﴾ اختلف المفسرون في المراد بهما:

ـ فقيل: النباتان المعروفان، التين الذي يؤكل، والزيتون الذي يعصر.

ـ وقيل: أماكن نباتهما، فالمراد «بالتين»: أرض الشام، وبـ«الزيتون» أرض فلسطين. أو تحديدًا: المراد «بالتين»: مسجد دمشق، و«بالزيتون»: مسجد بيت المقدس. فعبَّر عن منبتهما بهما.

ـ وقيل: إن المراد بـ«التين»: مسجد نوح، و«بالزيتون»: مسجد بيت المقدس.

ـ وقيل: إنهما جبلان بأرض الشام.

ومؤدىٰ هٰذه الأقوال إلىٰ أن اللَّه ﷻ أقسم بهاتين الشجرتين المعروفتين، وفيه إشارة إلىٰ مواضع نباتهما.

وللَّه تعالىٰ أن يقسم بما شاء، لٰكنه أقسم بهما سبحانه لشرفهما علىٰ النبات ولشرف مواضع نباتهما؛ فإن أرض الشام، وبيت المقدس، أرض النبوات السابقة.

﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ عطف علىٰ ما تقدم. واختلفت أقوال المفسرين في المراد به:

- فقيل: الجبل الذي كلم اللَّه تعالىٰ عليه موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو جبل في سيناء. وعلىٰ هٰذا فكلمة ﴿سِينِينَ﴾ لغة من سيناء. وقد قال تعالىٰ في سورة (المؤمنون): ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

- وقيل: الجبل الذي فيه نبات. فإذا كان الجبل فيه شجر، قيل عنه: طور.

- وقيل: أن ﴿سِينِينَ﴾ صفة للطور، وهي بمعنىٰ: حسن، أو مبارك. واعتمد قائل هٰذا القول علىٰ ما رواه البخاري من حَديث أُمِّ خَالِدٍ بِنْتُ خَالِدٍ، قَالَتْ: أتي رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِثِيَابٍ فِيهَا خَمِيصَةٌ سَوْدَاءُ، قَالَ: «**مَنْ تَرَوْنَ نَكْسُوهَا هٰذه الْخَمِيصَةَ؟**»، فَأُسْكِتَ الْقَوْمُ. قَالَ: «**ائْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ**»، فَأتي بِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَلْبَسَهَا بِيَدِهِ، وَقَالَ: «**أَبْلِي، وَأَخْلِقِي**» مَرَّتَيْنِ. فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَىٰ عَلَمِ الْخَمِيصَةِ، وَيُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَيَّ، وَيَقُولُ: «**يَا أُمَّ خَالِدٍ! هٰذا سَنَا**». وَالسَّنَا ـ بِلِسَانِ الْحَبَشِيَّةِ ـ الْحَسَنُ. رواه البخاري[(١)].

وهٰذا القول الأخير يستدرك عليه أن اللفظ الذي ذكره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخالف للوارد في الآية؛ فإن روايات البخاري فيها: «سنا» بالمد، وسنه بالهاء، وليس فيه سينين. ثم إنه لو كان المراد به صفة الطور، لنُوِّن «الطور» فقال: وطورًا سنين، وهٰذا لم يقع.

فأرجح الأقوال: أن المراد به الموضع الذي كلم اللَّه تعالىٰ عنده موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، في صحراء سيناء، حينما خرج بأهله، وأبصر نارًا، وقصدها، ثم جرىٰ ما ذكر اللَّه تعالىٰ من القصة المعروفة.

---

(١) صحيح البخاري (٥٨٢٣).

﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ أشار إليه بلفظ «هٰذا» لقربه.

﴿ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ مكة؛ وذٰلك لأن كل شيء يأمن فيه، فقد حرمه اللَّه تعالىٰ حينما خلق السماوات والأرض، وجدد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حرمته، فلم تزل العرب منذ زمن إبراهيم يعظمون البيت، حتىٰ إن الرجل ليلقىٰ قاتل أبيه في الحرم، فلا يتعرض له، وحتىٰ إن الطير، والوحش يأمن فيه، فهو أمين. ثم جاء محمد ﷺ ووثق هٰذا الأمان، فقال: «**إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ، فَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَلاَ تَحِلُّ لأَحَدٍ بَعْدِي. وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نهارٍ؛ لاَ يُخْتَلَىٰ خَلاَهَا، وَلاَ يُعْضَدُ شَجَرُهَا، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلاَ تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا، إِلاَّ لِمُعَرِّفٍ**»، وَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِلاَّ الإِذْخِرَ، لِصَاغَتِنَا، وَقُبُورِنَا. فَقَالَ: «**إِلاَّ الإِذْخِرَ. الإِذْخِرَ**» متفق عليه[(١)].

ولو تأملنا في هٰذه الأقسام الأربعة، لوجدنا بينها ترابطًا عجيبًا؛ إذ أنها تشير إلىٰ مواطن الرسالات السماوية الكبرىٰ:

ـ فالتين والزيتون: تنبت في أرض الشام، وهي موطن أكثر أنبياء بني إسرائيل، ومنهم عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذ كان عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ آخر أنبياء بني إسرائيل، وتبعه فئام كثير من البشر.

ـ وأما طور سينين: فهو الموضع الذي أرسل منه موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ـ وأما البلد الأمين: فمكة، موطن أشرف الرسالات؛ رسالة محمد ﷺ.

فهٰذه المواضع الثلاثة مواضع شريفة، معظمة، وتعظيمها ليس في القرآن وحده، بل فيما يجده أهل الكتاب في كتبهم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «في آخر السفر الخامس، وهو آخر التوراة التي بأيديهم: «جاء اللَّه من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران: وظهر من ربوات قدسه، عن يمينه نور، وعن شماله نار، عليه تجتمع الشعوب». أي جاء أمر اللَّه، وشرعه من طور سيناء ـ وهو الجبل الذي كلم

---

(١) صحيح البخاري (١١٢)، صحيح مسلم (١٣٥٥).

اللَّه موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عنده ـ وأشرق من ساعير، وهي جبال بيت المقدس ـ المحلة التي كان بها عيسىٰ بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ واستعلن، أي ظهر، وعلا أمره، من جبال فاران، وهي جبال الحجاز، بلا خلاف. ولم يكن ذٰلك إلا علىٰ لسان محمد ﷺ فذكر تعالىٰ هٰذه الأماكن الثلاثة، علىٰ الترتيب الوقوعي، ذكر محلة موسىٰ، ثم عيسىٰ، ثم بلد محمد ﷺ ولما أقسم تعالىٰ بِهٰذه الأماكن الثلاثة ذكر الفاضل أولا، ثم الأفضل منه، ثم الأفضل منه، علىٰ قاعدة القسم، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ١﴾، والمراد بها محلة بيت المقدس، حيث كان عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَطُورِ سِينِينَ ٢﴾، وهو الجبل الذي كلم اللَّه عليه موسىٰ. ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ٣﴾ وهو البلد الذي ابتعث منه محمدًا ﷺ. قاله غير واحد من المفسرين في تفسير هٰذه الآيات الكريمات»[(١)].

ففي هٰذا النص إشارة إلىٰ الترابط بين الملل، والشرائع السماوية، الكبرىٰ، وهي: دين موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ودين عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ودين محمد ـ صلىٰ اللَّه عليهم جميعًا وسلم ـ ودينهم جميعًا هو الإسلام.

ولهٰذا لا نقول: اليهودية، والنصرانية، أديان سماوية ـ كما يقول بعض الناس ـ فإن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يبعث باليهودية، وعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يبعث بالنصرانية، وإنما بعثوا جميعًا بالإسلام، قال اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤] فدين الأنبياء جميعًا هو الإسلام، ولذٰلك قال الحواريون: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ٥٢﴾ [آل عمران: ٥٢]، وفي موضع: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

فدين اللَّه ـ تعالىٰ ـ واحد، وهو الإسلام، وإنما تتنوع الشرائع، قال رسول اللَّه ﷺ: «**الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلاَّتٍ، وَأُمَّهَاتهم شَتَّىٰ، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**» رواه مسلم[(٢)].

فاليهودية: هي ما آل إليه دين موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بعد تحريف الأحبار،

---

(١) البداية والنهاية (٦/ ١٩٩).

(٢) صحيح مسلم (٢٣٦٥).

والحاخامات.

والنصرانية: هي ما آل إليه دين عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بعد ما أحدثه الرهبان، والقسس، والأساقفة.

فلم يكن أحدٌ من أنبياء اللَّه، يهوديًّا ولا نصرانيًّا، كما قال اللَّه عن أبيهم إبراهيم: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧]، وقال: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، فلا يمكن أن يكون عيسىٰ، وموسىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ رغبًا عن ملة إبراهيم، التي هي الإسلام. حاشا، وكلا!

وقد أنكر اللَّه تعالىٰ علىٰ من دعا إلىٰ يهودية، أو نصرانية، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة: ١٣٥]، وقال تعالىٰ ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٤٠].

فدين اللَّه تعالىٰ واحد، وهو الإسلام، ولٰكنه الإسلام بالمعنىٰ العام، الذي يعني: الاستسلام للَّه بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

والإسلام، بالمعنىٰ الخاص: هو ما بعث اللَّه به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العقائد الصحيحة، والشرائع العادلة، والأخلاق القويمة، والآداب الرفيعة.

ثم إن كل شريعة أنزلت علىٰ كل نبي، هي الإسلام في ذٰلك الزمان، فإذا جاء ما ينسخها، صار الإسلام هو الدين الناسخ. حتىٰ في شريعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكون الشيء مشروعا في أول الأمر، ثم ينسخ، فقد كان دين الإسلام في أول الأمر هو التوجه في الصلاة إلىٰ بيت المقدس، ثم نسخ بعد ذٰلك، فصار التوجه في الصلاة إلىٰ الكعبة المشرفة. فاللَّه تعالىٰ يمحو ما يشاء ويثبت. قال تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، لٰكن

الذي لا يتغير أبدًا، هو الدين الذي بمعنىٰ أصول الاعتقاد، وأمهات العبادات، والأخلاق. وأما تفاصيل الشرائع، فإنها تتنوع.

فحينما يسمع المؤمن القسم بِهٰذه المذكورات، يذهب وهله إلىٰ مواطنها، وإلىٰ من كان في تلك المواطن من أنبياء اللَّه، فيعلم أن التين والزيتون إنما تنبت في بلاد الشام، التي عاش فيها أنبياء بني إسرائيل، وتُوجوا بعيسىٰ عليه السلام، وحينما يسمع ذكر ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾، يذهب وهله إلىٰ موسىٰ عليه السلام.

وحينما يسمع ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ مكة، فيتبادر ذهنه إلىٰ محمد ﷺ، فيبصر هٰذه الملل، كالحلقات المتصلة، في سلسلة واحدة، يشد بعضها بعضًا، حتىٰ ختمت بالرسالة المحمدية الخالدة، فهيمنت علىٰ ما سبقها، وصارت حاكمة، وقاضية، وناسخة، لما سواها.

ثم قال اللَّه ﷻ مجيبًا علىٰ هٰذه الأقسام: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا﴾ اللام في ﴿لَقَدْ﴾ لام القسم، و«قد» للتحقيق.

﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ المراد به جنس الإنسان.

﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ قيل فيها معاني متقاربة:

- معتدل الخلقة، حسن الصورة.

- وقيل: ـ وهو يرجع إلىٰ المعنىٰ الأول ـ: إنه ما من مخلوق إلا وخلقه اللَّه مكبًّا علىٰ وجهه، إلا ابن آدم، فسائر الحيوانات، والطيور، تجدها مكبة علىٰ وجوهها، أما الإنسان فإنه معتدل الخلقة، منتصبًا علىٰ قدميه. فيرجع هٰذا إلىٰ كمال خلقته، واستوائها، ويدخل في هٰذا المعنىٰ، سلامة الفطرة، وأنه خلق سويًا، علىٰ الفطرة الأصلية؛ الموافقة لدين اللَّه، قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، فالفطرة هي خلق اللَّه، التي يسعىٰ الشيطان لإغراء الناس بتغييرها: ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩].

فالفطرة إذًا خلق اللَّه الأصلي لابن آدم، فقد خلقه في أحسن تقويم، في

أحسن صورة ظاهرة، معتدل البنية، وفي أحسن صورة باطنة، كما قال النبي ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ؛ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟**» متفق عليه[١].

وهٰذا المعنىٰ يدل علىٰ مبدأ من مبادئ فقه النفس، وهو أن اللَّه ﷻ خلق الإنسان علىٰ الفطرة الأصلية السوية، كما في الحديث القدسي: «**خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإنهم أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ، فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**» رواه مسلم[٢].

فالإنسان حينما يولد، يولد نقيًّا، غير ملوث، لم يتعرض له الشيطان بعد. ثم يكثف الشيطان حملاته الشهوانية، وشبهاته العقلية، فيخرجه عن الجادة، فيقع نقص، وثلم لكل أحد، بمقدار استجابته للشيطان. والإيمان يصون الفطرة، ويحفظها، ويزكيها. وأما فاقد الإيمان، فإنه لا يزال يتردىٰ في مهاوي الردىٰ، حتىٰ يطمس فطرته. ولذٰلك سمي الكفر كفرًا، لأن الكفر في اللغة بمعنىٰ التغطية، فهو يغطي الفطرة، ويحجبها عن الاتصال بخالقها، فيفقد الإنسان إنسانيته، وإن ادعىٰ الإنسانية. فلا يغرنكم ما تسمعون من دعاوىٰ الإنسانية، من قبل أناس محجوبين عن اللَّه، ودينه. هٰؤلاء، في الواقع، أبعد الناس عن الإنسانية. فلا يمكن أن تحصل الإنسانية الحقة، إلا بالاتصال بخالق الإنسان، والإيمان به. ليست الإنسانية مجرد ذرف دموع، أو رقة عاطفية، أعظم الإنسانية أن يحافظ الإنسان علىٰ خَلْقِه القويم، فيكون عبدًا للَّه حقًّا. وإذا تحقق ذٰلك صلح كل شيء.

- وقيل أيضًا: خلقناه شابًا، جلدًا، قويًا، وذٰلك حينما يكتمل شبابه، ما بين الثالثة والثلاثين، إلىٰ الأربعين؛ لقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥] فهٰذا السن، ذروته سن الأربعين، ولٰكنه يبدأ في اكتمال

---

(١) صحيح البخاري (١٣٥٨)، صحيح مسلم (٢٦٥٨) (هل تحسون فيها: أي ترون. من جدعاء بالمد: أي مقطوعة أذن أو غيرها من الأعضاء المعنىٰ، كما تلد البهيمة بهيمة كاملة لا نقص فيها وإنما يحدث النقص فيها والجدع بعد ولادتها).

(٢) صحيح مسلم (٢٨٦٥).

القوة العقلية، والبدنية، من الثالثة والثلاثين، فيكون المراد حال الشباب، والقوة، والجلد.

وينبني علىٰ هٰذا الخلاف، معنىٰ بقية الآية، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، فقد ذكر المفسرون في معناها، وجهين:

ـ الوجه الأول: أي: أرذل العمر، وهو سن الهرم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠]؛ فبعد أن كان منتصب القامة، احدودب ظهره. وبعد أن كان فتيًا، جلدًا، صار ضعيفًا، لا يقوىٰ.

ووجهوا قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بأن المؤمن الذي يعمل الصالحات، إذا رد إلىٰ أرذل العمر، فإنه يكتب له ما كان يعمله من العمل، صحيحًا مقيمًا، كما دل علىٰ ذٰلك قول النبي ﷺ: «**إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ، أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**» رواه البخاري[(١)].

وممن ذهب إلىٰ هٰذا القول ابن جرير الطبري[(٢)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لٰكن يضعفه أنه لا ينطبق علىٰ كل أحد، بل إن الأعم الأغلب، أن يموت الإنسان قبل أن يبلغ الهرم. فكيف تحمل الآية علىٰ الأقل ويترك الأكثر؟!

وقيل في توجيهها، أيضًا، معنىٰ قريب من ذٰلك، وهو أن اللَّه تعالىٰ لا يؤاخذه بما يصدر منه في حال الهرم، فإن الإنسان إذا هرم، ربما صار عنده نوع جزع، وضجر، وغير ذٰلك، فلا يؤاخذ عليه.

ـ الوجه الثاني: أن أسفل سافلين هي النار، وأن الإنسان لما تنكر لربه، وكفر به، حطه اللَّه تعالىٰ في أقصىٰ دركات النار.

فإن قال قائل لٰكن هٰذا لا ينطبق علىٰ جميع الناس! قلنا: هٰذا صحيح، ولهٰذا استثنىٰ اللَّه ـ تعالىٰ ـ فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، ولٰكن لما كان أكثر الناس علىٰ خلاف الاستقامة، جعل هٰذا أصلا، وجعل الأقل هو الاستثناء.

---

(١) صحيح البخاري (٢٩٩٦).

(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٥١٨).

ويدل علىٰ ذٰلك حديث بعث النار: «**يَقُولُ اللَّه تَعَالَىٰ: يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ، وَسَعْدَيْكَ. وَالْخَيْرُ في يَدَيْكَ. فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ. قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ، تِسْعَمِئَةٍ، وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ. فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَىٰ النَّاسَ سُكَارَىٰ، وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ، وَلٰكن عَذَابَ اللَّه شَدِيدٌ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه! وَأَيُّنَا ذٰلك الْوَاحِدُ؟ قَالَ: أَبْشِرُوا! فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلٌ، وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفٌ. ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إني أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: مَا أَنْتُمْ في النَّاسِ إِلاَّ كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ في جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ في جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ**» متفق عليه[1].

فهٰذا يدل علىٰ أن أكثر بني آدم علىٰ الضلال، والانحراف؛ ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣].

وحين نتأمل هٰذين الوجهين في التفسير، يتبين أن تفسير من فسر ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أنها النار، أوجه وأرجح، وإلىٰ هٰذا ذهب ابن القيم ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ ونصره نصرًا مؤزرًا، في كتابه «التبيان في أقسام القرآن»[2]، وعد نحو عشرة أوجه في الترجيح، وأنه مقتضىٰ القسمة: فكما وصف اللَّه تعالىٰ جزاء المؤمنين بأنه: ﴿أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦﴾ فينبغي أن يكون جزاء مخالفيهم ـ وهم الكافرون ـ ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ لكي تتقابل الصورتان.

ويؤيد هٰذا ـ أيضا التنظير ـ علىٰ قول اللَّه تعالىٰ في أخر سورة «الانشقاق» ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ٢٥﴾ [الانشقاق: ٢٢ ـ ٢٥].

وخلاصة ما تقدم: أن اللَّه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ أقسم بِهٰذه الأقسام الأربعة، مبينا أنه: خلق ابن آدم خلقة سوية، معتدلة من الناحية الظاهرية، وخلقة سوية، معتدلة من الناحية الباطنية، لكونها علىٰ الفطرة الأصلية، ثم أن الكافر أفسد ذٰلك

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٤٨)، صحيح مسلم (٢٢٢).

(٢) التبيان (٧٣ ـ ٧٧).

بكفره، فكان جزاؤه أن رد في «أسفل سافلين»، فهوىٰ في الدرك الأسفل من النار، وأما المؤمن فقد عصمه اللَّه تعالىٰ بإيمانه، وعمله الصالحات، فكافئه بالأجر غير الممنون.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: هٰذا هو الاستثناء. وقد تضمنت الجملة مسألة عقدية كبيرة: هل العمل داخل في مسمىٰ الإيمان، وحده، وتعريفه، أم لا؟

- فأهل السنة يرون أن مثل هٰذه الآيات التي فيها اقتران الإيمان بالعمل الصالح دليل يؤيد ما ذهبوا إليه من أنه لا إيمان بلا عمل، حيث إن اللَّه تعالىٰ غالبًا، لا يذكر الإيمان إلا ويقرنه بالعمل.

- ولٰكن مخالفيهم من المرجئة، استدلوا بها علىٰ عكس ذٰلك! فقالوا: العطف يقتضي المغايرة، فلو كان العمل داخلًا في مسمىٰ الإيمان، ما عطف عليه؛ فإذا قلت: جاء زيد وعمرو، فهٰذا يقتضي أن عمروًا غير زيد.

ولٰكن يجاب عن ذٰلك بأحد جوابين:

الجواب الأول: أن يقال: هٰذا من عطف الخاص علىٰ العام. وهٰذا موجود في القرآن، وفي اللغة. مثاله من القرآن: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣]، مع دخول المذكورين في لفظ «النبيين». ولو قلت: جاء الطلبة، ومحمد، ومحمد من الطلبة، عطفت الخاص علىٰ العام. فهٰذا سائغ لغة. وللعطف في اللغة أنواع متعددة، لا نستطرد بذكرها.

الجواب الثاني: أن يقال: إن من الألفاظ ما يكون له دلالة عند الإنفراد، ودلالة عند الاقتران. فإذا انفردت عمت، وإذا اقترنت خصت. مثل: الفقير والمسكين، ومثل: البر والتقوىٰ، ومثل: الإثم والعدوان. فلو أعطاك إنسان مبلغًا من المال، وقال: أعطه فقيرًا، صح بذله لكل ذي فاقة. ولو أعطاك درهمين، وقال: أعط هٰذا فقيرًا، وأعط هٰذا مسكينًا، فينبغي أن يكون

للمسكين معنىٰ غير معنىٰ الفقير، كما ميز اللَّه بينهما، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]. فيكون الفقير: هو الذي كسرت الحاجة فقاره يعني: أنه أشد فاقة. والمسكين: من أسكنته الحاجة، وكان دون الأول. وفرق الفقهاء بينهما في باب الزكاة، فقالوا: الفقراء: من لا يجدون شيئًا، أو يجدون بعض الكفاية. والمساكين: يجدون أكثرها، أو نصفها. ومثل: التوبة، والاستغفار، عند الانفراد يجتمعان في معنىٰ الندم، والإقلاع، والعزم علىٰ عدم العود. وعند الاقتران ينبغي أن يكون للتوبة معنىٰ، غير معنىٰ الاستغفار، كما قال تعالىٰ علىٰ لسان غير واحد من رسله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]. فيكون الاستغفار عما مضىٰ، والتوبة لما يستقبل.

فكذٰلك الإيمان والعمل الصالح؛ إذا جاء الإيمان منفردًا، شمل القول، والعمل معًا، وإذا جاء الإيمان مقترنًا بالإسلام، أو بالعمل الصالح، فإنه يختص بالعقائد الباطنة. كما في حديث جبريل المشهور.

وعلىٰ هٰذا فليس للمرجئة مستمسك بِهٰذه الآية، وأمثالها، بل أهل السنة والجماعة أسعد بها، فإن اللَّه تعالىٰ يقرن كثيرًا بين الإيمان، والعمل الصالح، لتلازمهما؛ فلا إيمان بلا عمل.

﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ أي: غير مقطوع. وتأتي بمعنىٰ: محسوب أي: أنه لا يعد عليه، وتأتي بمعنىٰ: منقوص، بل يعطىٰ عطاءً كثيرًا، وافيًا، لا منة فيه، ولا حسبان، ولا انقطاع.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾: اختلف في معنىٰ الدين هاهنا:

- قيل: هو الدينونة، التي بمعنىٰ الجزاء، والحساب، والعرب تقول: دنته، فدان. فيكون الاستفهام: للاستنكار، يعني: كيف يكذب الإنسان بالدينونة؟ واللَّه ـ تعالىٰ ـ قد بين أنه قد خلقه في أحسن تقويم، وأن جزاء الكافر أن يرد في أسفل سافلين، وأن جزاء المؤمن أجر غير ممنون، فكيف يكذب الإنسان بعد ذٰلك بالدينونة؟ ويكون الخطاب في قوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾ موجه إلىٰ المكذب، الذي هو الكافر، المنكر للبعث.

ـ وقيل: «الدين» بمعنىٰ الحكم والقضاء. فلا يسوغ إذا كان الإنسان يعلم بأن الكافر يرد إلىٰ: «أسفل سافلين»، وأن المؤمن يؤتىٰ أجرًا غير ممنون، أن يعصي اللَّه ﷻ، بل يجب عليه أن يمتثل أمره، وأن يجتنب نهيه، وأن يصبر علىٰ قضائه؛ لأن اللَّه ﷻ هو المثيب، وهو المعاقب، فإذا كان هو المثيب وهو المعاقب، فلابد أنه يأمر وينهىٰ، ويقضي ويحكم. ولهٰذا قال:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾: والجواب: بلىٰ! فيكون الاستفهام: تقريريًّا. وقد وصف اللَّه نفسه ﴿بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، ومعنىٰ ذٰلك أنه أثبت وصف الحكم لغيره، لٰكنه ـ سبحانه ـ أحكمهم. وهٰذا يدل علىٰ إمكان الاشتراك في أصل الصفة، أي المعنىٰ المشترك الكلي، المطلق، الموجود في الأذهان، لا خارج الذهن. ولٰكن اللَّه ـ تعالىٰ ـ له المثل الأعلىٰ، فلا يقع حينئذ اشتراك في الأعيان؛ لأنه إذا انفرد ـ سبحانه بالمثل الأعلىٰ للصفة، فإنه لا يمكن أن يشابهه، ويماثله أحد في ذٰلك، فيزول المحظور الذي تدعيه سائر فرق المعطلة.

ولهٰذا لَمَّا وَفَدَ أبو شريح رضي الله عنه إِلَىٰ رَسُولِ اللَّه ﷺ مَعَ قَوْمِهِ سَمِعَهُمْ يَكْنُونَهُ بِأَبِىٰ الْحَكَم فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ فَقَالَ: «**إِنَّ اللَّه هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ فَلِمَ تُكْنَىٰ أَبَا الْحَكَم**». فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِىٰ إِذَا اخْتَلَفُوا فِىٰ شَيْءٍ، أَتَوْنِىٰ فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلاَ الْفَرِيقَيْنِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ «**مَا أَحْسَنَ هٰذا فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ**». قَالَ: لِىٰ شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُاللَّه. قَالَ: «**فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ**». قُلْتُ: شُرَيْحٌ قَالَ: «**فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ**» رواه أبوداود[(١)].

وذٰلك لما يوهمه لقب «أبو الحكم» من بلوغ الغاية في الحكم، فإن أبا الشيء، كأنه المستبد به، المستوعب له، والمستولي عليه، وهٰذا لا يكون إلا للَّه ﷻ؛ فإن اللَّه تعالىٰ له المثل الأعلىٰ.

وقد ورد أنه يقال في آخر هٰذه السورة: «بلىٰ، وأنا علىٰ ذٰلك من الشاهدين»؛

---

(١) سنن أبي داود (٤٩٥٥)، سنن النسائي (٥٣٨٧) وصححه الألباني.

جوابًا للسؤال. ولٰكن الرواية جاءت من طريق قتادة، مرسلة، وجاءت عن قتادة منسوبة إليه، يعني: بسند مقطوع. فالإسناد الأول، يسمىٰ «منقطعًا»، والثاني «مقطوعًا». فهو لم يثبت[1]، وممن ضعفه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ[2]، وكذٰلك الحال عند قول اللَّه تعالىٰ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة: ٤٠]، لم يصح في جوابه رواية مرفوعة.

ولا بأس أن يأتي الإنسان بجواب مناسب لسؤالٍ ملقىٰ، لٰكنه لا يفعل ذٰلك علىٰ سبيل الالتزام، لأن هٰذا يحتاج إلىٰ توقيف.

الفوائد المُسْتنبطة:

الفائدة الأولى: أن للَّه تعالىٰ أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

الفائدة الثانية: ترابط الشرائع السماوية، وأن دين اللَّه واحد.

الفائدة الثالثة: أن الأصل سلامة الإنسان، واستواء خلقه، ظاهرًا وباطنًا.

الفائدة الرابعة: إفساد الكافر لفطرته السوية، وتغييره لخلق اللَّه.

الفائدة الخامسة: أن الإيمان يحفظ الفطرة السوية ويزكيها.

الفائدة السادسة: اقتران العمل بالإيمان، وأنه لا إيمان بلا عمل.

الفائدة السابعة: سعة فضل اللَّه، وعطاءه.

الفائدة الثامنة: إثبات الجزاء، والحساب، إذا قلنا: إن المراد بالدين الجزاء.

الفائدة التاسعة: إثبات حكم اللَّه، وحكمته.

الفائدة العاشرة: إثبات المثل الأعلىٰ للَّه تعالىٰ.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٥٢٦).

(٢) انظر: أصل صفة صلاة النبي ﷺ (٤٠٨).

سورة العلق

الآيات الخمس الأول، من هٰذه السورة، هي أول ما أنزل اللَّه ـ تعالىٰ ـ علىٰ نبيه، ﷺ، كما في قصة بدء الوحي المشهورة، التي رواها البخاري، وغيره، من حديث عائشة رضي الله عنها وفيه: «كَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ ـ وَهُوَ التَّعَبُّدُ ـ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذٰلك، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّىٰ جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: «**فَأَخَذني فَغَطَّنِي حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذني فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذني فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ:** ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾» رواه البخاري[1].

من مقاصد هٰذه السورة:

١ ـ شرف العلم، وما يوصل إليه من القراءة، والكتابة.

٢ ـ بيان طبيعة النفس الإنسانية.

٣ ـ بيان مآلات الناس.

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ

---

(١) صحيح البخاري (٣).

﴿وَتَوَلَّىٰٓ ١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ١٩﴾:

﴿ٱقْرَأْ﴾: هٰذا فعل أمر؛ الآمر هو اللَّه، تعالىٰ. والمأمور نبيه، ﷺ. وأصل القرء: الجمع، لاجتماع الكلمات بعضها مع بعض.

﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾: الباء للاستعانة، أي: أقرأ مستعينًا باسم ربك، فهي ليست قراءة مجردة، بل قراءة متلبسة بالاستعانة باللَّه، تعالىٰ.

وليس المقصود مجرد القراءة، كما يستشهد كثير من الناس بِهٰذه الآية، حينما يحضون علىٰ القراءة، والاطلاع؛ فيقولون: أقرأ! لا ريب أن هٰذه الآية أصل عظيم في شرف القراءة، لٰكن القراءة المقصودة، التي هي محل الحمد، والشرف، هي التي باسم ربك، لا القراءة المجردة، فإن من القراءة ما تضر بصاحبها، وتنقله إلىٰ عالم من الشهوات، والشبهات. لٰكن القراءة المحمودة، هي التي تكون باسم اللَّه، يعني مستعانًا فيها باللَّه، مرادًا بها وجهه، تعالىٰ.

﴿رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ عبَّر بوصف الربوبية، لأن المقام مناسب لذٰلك، فهو الرب المالك، المدبر، الذي يربي عبده بنعمه، ولهٰذا قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ كل شيء. فعرف الربوبية بأخص أوصافها، وهو الخلق.

وبين نوعًا من أنواع الخلق فقال:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٢﴾ جنس الإنسان. والعلق هو: الدم اليسير، المتجمد، الملتصق بجدار الرحم.

وذٰلك أن خلق الإنسان يمر بأطوار، كما في حديث الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ﷺ قال: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذٰلك**» متفق عليه[1] الحديث. فإذا قذف الرجل الماء في رحم المرأة، ومضىٰ

(١) صحيح البخاري (٣٢٠٨)، صحيح مسلم (٢٦٤٣).

عليه أربعون يومًا، اخترقته الأوعية الدموية، المستمدة من جدار الرحم، فيستحيل إلىٰ علقة، كما هو معروف في علم الأجنة.

وفي هٰذا لفتة للنقلة الكبيرة، الواسعة، بين هٰذا العلق الذي يشبه الدود، وبين هٰذا الكائن، السوي، البصير، السميع، الذي يغدو، ويروح، ويتكلم.

و﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الثانية تأكيد لـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الأولىٰ.

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾: الواو ها هنا، واو الحال، يعني: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ والحال أن ربك هو الأكرم، فهو خلق، وهو قد تكرم. فهٰذا وصف زائد علىٰ مجرد الخلق.

﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤﴾: فتعليمه بالقلم من مظاهر الكرم. والمراد بالقلم، جنس الأقلام التي يكتب بها. ويقال إن أول من خط بالقلم، إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والكتابة بالأقلام لم تزل منذ فجر البشرية، إلىٰ يومنا هٰذا، لا يُستغنىٰ عنها، وإن تنوعت مادة الأقلام، فكانت من الخشب، كما قال اللَّه تعالىٰ ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ﴾ [لقمان: ٢٧]؛ تؤخذ من الأشجار، تقلَّم، وتبرىٰ، وتغمس في المواد الملونة، ويكتب بها. وإلىٰ عهد ليس بالبعيد، كان الناس يكتبون بالعصفر، وبأنواع الأحبار، ثم تطورت طرائق الكتابة حتىٰ كانت هٰذه الأقلام الحديثة. ويبقىٰ القلم قلما.

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾: إذًا هٰذا الكرم، في التعليم، فكأن التعليم مرحلة تالية للخلق، كما قال اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾ فبين الخلق، والتعليم صلة، وترابط. فالرب الأكرم علم الإنسان ما لم يكن يعلمه من قبل، قال اللَّه تعالىٰ ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: ٧٨]. هٰذه منافذ العلم. فحينما يخرج الإنسان من بطن أمه، ليس عنده علم البتة، لٰكن عينيه وما تبصران، وأذنيه وما تسمعان، وعقله وما يفقه، تكوِّن مفردات المعلومات، حتىٰ يبلغ شأوًا عظيمًا، لٰكنه بعد ذٰلك يؤول إلىٰ هرم، وينحط إلىٰ الجهل، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠﴾ [النحل: ٧٠].

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ٦﴾: ﴿كَلَّآ﴾: كلمة ردع، وزجر، والمراد نفي شيء، وإنكاره، وهو إنكارهم للبعث، وطغيانهم. والإنسان، هنا، الكافر. والطغيان هو تجاوز الحد، كما قال اللَّه ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ١١﴾ [الحاقة: ١١].

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ٧﴾ أي: لأن رآه، يعني: أن رأىٰ نفسه.

ورأىٰ تنصب مفعولين أولهما الضمير في ﴿رَّءَاهُ﴾ يعني أن رأىٰ نفسه.

﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾: يعني زهد في عطاء اللَّه، وفضله. وجملة ﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ هي المفعول الثاني.

والمعنىٰ: أن هٰذا الإنسان الكافر، إذا آنس من نفسه غنىٰ في رزقه، وصحة في بدنه، نسي ربه، ولم يلجأ إليه، ولم يضرع إليه، وخيل إليه أنه مكتف، وغير مفتقر إلىٰ اللَّه ﷻ فقال اللَّه:

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ٨﴾ أي المردُّ. إذا كان يظن الإنسان أنه قد استغنىٰ ببنيه، وذويه، وعشيرته، وماله، وغير ذٰلك، واستدام له في دنياه، فـ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ٨﴾.

وهٰذا المعنىٰ قائم في ضمير كل مؤمن، وبقدر حضوره، تحصل التقوىٰ.

لقي الفضيل بن عياض ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ رجلًا، فقال له: «كم أتت عليك؟ قال: ستون سنة. قال: فأنت منذ ستين سنة، تسير إلىٰ اللَّه، توشك أن تبلغ! فاسترجع الرجل؛ قال: إنا للَّه وإنا إليه راجعون. فقال له الفضيل: أتدري ما تقول؟! من علم أنه للَّه راجع، علم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف، علم أنه مسؤول، ومن علم أنه مسئول، أعد للسؤال جوابًا. فقال الرجل: فما الحيلة؟ قال: يسيرة؛ تحسن فيما بقي، يغفر لك ما قد مضىٰ، فإنك إن أسأت فيما بقي، أخذت بما مضىٰ وما بقي»[(١)].

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ٩﴾ استفهام يراد به الإنكار. والرؤية هنا: رؤية علمية،

(١) لطائف المعارف (١٠٢).

بمعني أعلمت، أدريت. والمخاطب مبهم، لا يختص بالنبي ﷺ، وكأنما الخطاب لكل من يسمع. والناهي: أبو جهل، والمنهي: نبينا محمد ﷺ. وذٰلك أن أبا جهل ـ لعنه اللَّه ـ انتهر نبينا ﷺ، وهدده، وقال: لأملأن عليك هٰذا الوادي خيلًا جردًا، وشبابًا مردًا. قد علمت أني من أكثرهم ناديًا. يفتخر، ويستطيل علىٰ النبي ﷺ. وفي بعض الروايات: أنه تهدده، وقال: لئن صليت في البيت، لأطأن علىٰ عنقك.

﴿عَبْدًا﴾ المراد بالعبد هنا محمد ﷺ.

﴿إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ تشنيعًا لمقالته، وتعجبًا من نهيه، إشارة إلىٰ تهديده الوقح، بأن يطأ عنق النبي ﷺ في حال سجوده.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ الخطاب للسامع لهٰذه الجمل.

﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ وهٰذا هو حال النبي ﷺ.

﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾ كلمة ﴿أَوْ﴾ هنا للتقسيم، والتنويع، وليس المقصود بها: هٰذا، أو ذاك، ففي كلا الحالين، هو حال النبي ﷺ، أنه كان علىٰ الهدىٰ، وأنه كان يأمر بالتقوىٰ. فكأنما يقول: كيف يستقيم، ويليق، ويسوغ، أن تتهدده، وتتوعده بِهٰذا التوعد الخبيث، وهٰذا حاله؟!

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ المراد أبو جهل، وأضرابه، فقد كذب، وفوق التكذيب تولىٰ، وأعرض. وبِهٰذا تبدو المقابلة المستنكرة؛ رجل علىٰ الهدىٰ، ويأمر بالتقوىٰ، يتهدده رجل كَذَّب، وتولىٰ.

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ غاب عنه، وخفي عليه أن اللَّه تعالىٰ يرىٰ. والمراد بالرؤية هنا: الرؤية الحقيقية؛ فإن اللَّه ﷻ يسمع، ويرىٰ، يبصر، بعينيه ﷻ، وله عينان حقيقيتان، كريمتان، كما دلت علىٰ ذٰلك النصوص الصحيحة؛ من الكتاب، والسنة، لا تشبهان أعين المخلوقين، يبصر بهما. قال اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، فهٰذا المسكين التائه، أبو جهل ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾، أكان اللَّه يدعه يفعل فعلته في حق النبي ﷺ؟!

﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع، وزجر، فليس الأمر، كما يتوهم أبو جهل.

﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ اللام، لام القسم، يعني: لم ينتهِ عن دعواه هٰذه.

﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥﴾ ومعنىٰ السفع بالناصية أي: جذبها بشدة، والناصية هي: مقدم الرأس. والمراد جميعه، لٰكنه عبر بالبعض عن الكل؛ لأن أشرف، وأعلىٰ ما في الإنسان، ناصيته، التي يستقبل بها، وهي مقدم رأسه. وهٰذا تهديد بليغ من اللَّه ﷻ وقد جاء أنه لو هم بذٰلك، لأخذته الزبانية، والناس ينظرون.

﴿نَاصِيَةٍ﴾ هٰذه نكرة، بدل من معرفة؛ لأن «النَاصِيَة» الأولىٰ، معرَّفة، وهنا منكَّرة.

﴿كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾ وصفها بالكذب، والخطيئة، وبئس الوصفان؛ قولًا، وعملًا.

﴿فَلْيَدْعُ﴾ لينفذ تهديده، إن كان صادقًا أنه سيملأ عليه الوادي خيلًا جردًا، وشبابًا مردًا.

﴿نَادِيَهُ ۝١٧﴾ يعني ذٰلك الجمع الذي يفتخر بكثرته، ويقول للنبي ﷺ: قد علمت أني من أكثر أهل هٰذا الحي ناديًا، يريد أن الناس مجتمعون عليه. وهٰذا من التفاخر؛ فقد كان من بني مخزوم، وهم من أشرف بطون قريش، وهٰذا يدل علىٰ مكانته، عند قومه، لٰكن ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧﴾ ليدعو كما زعم.

﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾ هم الملائكة الغلاظ، الشداد، فلو وقع ما ادعاه، لسلط اللَّه عليه الزبانية، لٰكنه لم يجرأ.

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ لا تطعه إلىٰ ما يساومك عليه، من التخلي عن دعوتك، أو عدم ذم آلهته المزعومة، بل عوضًا عن ذٰلك:

﴿وَاسْجُدْ﴾ عبَّر عن الصلاة بالسجود؛ لأن السجود أشرف ما فيها؛ فإن السجود عنوان العبودية للَّه ـ تعالىٰ ـ ، حيث يضع العبد أشرف ما فيه، وهي جبهته علىٰ الأرض، يعفرها بالتراب، فهٰذه عبودية خالصة للَّه تعالىٰ.

﴿وَاقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾ يعني: تقرب إلىٰ للَّه ﷻ فقرن بين السجود، والقرب.

ويشهد لهٰذا المعنىٰ قول النبي ﷺ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**» رواه مسلم[(١)].

فمن أراد أن يدعو اللَّه، ويتملقه، ويلح عليه، ويسأله، فليدع اللَّه ساجدًا، قال نبينا ﷺ: «**أَلاَ، وَإِنِّىْ نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ، رَاكِعًا، أَوْ سَاجِدًا، فَأَمَّا الرُّكُوعُ، فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ ﷻ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِىْ الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**» رواه مسلم[(٢)]. أي: حري أن يستجاب لكم.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: فضل القراءة النافعة.

الفائدة الثانية: الاستعانة باللَّه في جميع الأمور، ولو دقت.

الفائدة الثالثة: فضل الاسم الشريف، اسم اللَّه؛ فإنه ما كان في شيء إلا حلت فيه البركة.

الفائدة الرابعة: التنويه بالربوبية، المتضمنة للخلق.

الفائدة الخامسة: التذكير بأصل خلق الإنسان.

الفائدة السادسة: إثبات اسم اللَّه الأكرم، وما تضمنه من وصفه بالكرم.

الفائدة السابعة: فضل الكتابة ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ [العلق: ٤].

الفائدة الثامنة: شرف العلم وأنه من اللَّه تعالىٰ.

الفائدة التاسعة: بيان طبيعة النفس الإنسانية.

الفائدة العاشرة: وجوب الافتقار إلىٰ اللَّه؛ لأن اللَّه تعالىٰ أنكر استغناء العبد عن ربه.

الفائدة الحادية عشرة: إثبات المعاد.

الفائدة الثانية عشرة: شدة ما كان يلقاه النبي ﷺ من أذىٰ قومه.

---

(١) صحيح مسلم (٤٢٨).
(٢) صحيح مسلم (٤٧٩).

الفائدة الثالثة عشرة: أنه ﷺ بعث بالهدىٰ، والتقوىٰ.

الفائدة الرابعة عشرة: غلظ كفر أبي جهل.

الفائدة الخامسة عشرة: إثبات صفة الرؤية للَّه تعالىٰ.

الفائدة السادسة عشرة: الخوف من انتقام اللَّه تعالىٰ.

الفائدة السابعة عشرة: ضعف بني آدم، وأنهم لا يقومون لغضب اللَّه.

الفائدة الثامنة عشرة: التحذير من طاعة الكفار.

الفائدة التاسعة عشرة: فضل السجود.

الفائدة العشرون: أن أقرب ما يكون العبد من ربه ﷻ وهو ساجد؛ لقرنه بينهما.

سورة القدر

سورة «القدر»: سورة مكية.

سميت بِهٰذا الاسم: نسبة إلىٰ ذكر الليلة المباركة «ليلة القدر».

ولهٰذه السورة مقصدان:

أحدهما: الإيمان بالقرآن، بوصفه كلام اللَّه. وهو أمر كان ينازع فيه كفار قريش، وكفار العرب، ويأبون التصديق بأن هٰذا الكلام الذي يأتي به محمد ﷺ من عند اللَّه! ويزعمون أنه كهانة، أو أنه أساطير الأولين، أو أنه من كلام بعض أهل الكتاب، ألقاه إلىٰ النبي ﷺ أو غير ذٰلك من الدعاوىٰ، فجاءت هٰذه السورة لتبين مصدر هٰذا القرآن، وأنه من عند اللَّه.

أما المقصد الثاني: فهو شرف هٰذه الليلة العظيمة «ليلة القدر».

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾: ﴿إِنَّآ﴾ هٰذا ضمير للدلالة علىٰ اللَّه ﷻ، أتىٰ بصيغة الجمع، للتعظيم، فإن من شأن العظيم أن يعبر عن نفسه بصيغة الجمع، كما يقع من بعض سلاطين الدنيا، يقول: «نحن» و«أمرنا» و«نَهينا» و«قضينا» و«رسمنا» وغير ذٰلك، وهو شخص واحد. فاللَّه ﷻ أحق بالتعظيم، فلذٰلك يقول عن نفسه سبحانه ﴿إِنَّآ﴾.

﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ ولم يصرح بذٰلك المبهم، وذٰلك لمزيد تعظيمه، وإجلاله، وهو القرآن.

وهل المراد أن اللَّه ﷻ أنزل القرآن جملةً واحدة، في ليلة القدر؟ أم

المراد ابتدأ تنزيله؟ قولان للعلماء:

فمنهم من قال: إن المراد: ابتداء تنزيله؛ لأن القرآن العظيم لم ينزل جملة واحدة؛ بل نزل منجمًا، حتىٰ إن المشركين احتجوا وشبهوا ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، فرد اللَّه تعالىٰ عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢].

والقول الثاني: أنه أنزل إلىٰ السماء الدنيا، من اللوح المحفوظ، جملة واحدة، وأن في السماء الدنيا بيت يقال له «بيت العزة»، أنزل اللَّه فيه القرآن جملة واحدة، ليلة القدر، ثم صار ينزل منجما، علىٰ حسب الوقائع، علىٰ قلب محمد ﷺ.

وعند التأمل في القولين: نجد أن القول الأول، يتوافق مع ما دلت عليه آية الفرقان: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢]، ويتوافق مع عقيدة أهل السنة والجماعة، في أن اللَّه سبحانه وتعالى يتكلم بالوحي علىٰ حسب الوقائع، ثم ينزل به جبريل علىٰ قلب محمد ﷺ، والعبارة تحتمل ذٰلك؛فقد يعبر بالجزء عن الكل.

والقول الثاني يعضده أثر عن ابن عباس رضي الله عنهما وهٰذا الأثر قد صح إليه، من أن اللَّه سبحانه وتعالى أنزل القرآن جملة واحدةً إلىٰ السماء الدنيا، ثم صار ينزل منجمًا، علىٰ النبي ﷺ علىٰ حسب الحوادث[1]، ومثل هٰذا، لا يمكن أن يقوله ابن عباس، من عند نفسه، بل ينبغي أن يكون له حكم الرفع. ولا يمكن ـ أيضا ـ أن يقوله بناءً علىٰ ما قرأ في كتب أهل الكتاب؛ لأن هٰذا أمر يتعلق بِهٰذه الأمة، لا بأخبار الأولين.

ويمكن الجمع بين القولين، فيقال: إن اللَّه سبحانه وتعالى أنزل القرآن من اللوح المحفوظ، إلىٰ السماء الدنيا، وذٰلك أن اللوح المحفوظ متضمن للقرآن؛ كما قال اللَّه عز وجل: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٧]. فهٰذا

(١) تفسير الطبري (٣/ ١٩١)، (٢٤/ ٥٤٣).

القرآن العظيم، مسطور في اللوح المحفوظ، ولا يمنع أن يكون اللَّه ﷻ أنزله مكتوبا إلىٰ السماء الدنيا، ثم تكلم اللَّه به حسب الوقائع، وأنزله وحيًا إلىٰ النبي ﷺ، متىٰ شاء، كيف شاء.

ولتقريب ذٰلك للأذهان، وللَّه المثل الأعلىٰ: ربما كتب الخطيب خطبة الجمعة، أو المحاضر نص المحاضرة، وبقيت محفوظة في الأوراق، لٰكنه يتكلم بها إذا صعد المنبر، أو اعتلىٰ المنصة. فلا يمنع أن يكون اللَّه ﷻ قد أودع كلامه الذي سيتكلم به، في اللوح المحفوظ؛ لأن اللوح المحفوظ هو أم الكتاب، فيه كل شيء، حتىٰ القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨﴾ [الواقعة: ٧٧ ـ ٧٨]، وقال: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾ [البُروج: ٢١ ـ ٢٢]. وليس المقصود، علىٰ الراجح، مجرد ذكره فيه، بل هو بحروفه، فيه. ثم إن اللَّه ﷻ إذا تكلم بالوحي، حسب مشيئته، نزل به جبريل، وهٰذا الوحي الذي يتكلم به يكون مطابقًا للمكتوب في اللوح المحفوظ، وبهٰذا يزول التعارض، إن شاء اللَّه.

﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ هٰذا بيان لزمن الإنزال، وهو ليلة القدر.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ يعني: ما أعلمك؟، والمخاطب هو: النبي ﷺ، والمقصود من هٰذا الاستفهام هو: التفخيم، والتعظيم. والمراد بالقدر:

ـ الشرف، والرفعة. حينما تقول: «فلان ذو قدر»، فالمقصود: أنه شريف، رفيع.

ـ التقدير: لأن اللَّه يقدر فيها مقادير السنة القادمة. قال ﷻ في مستهل سورة «الدخان»: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٥﴾ [الدخان: ٣ ـ ٥].

ولا تنافي بين المعنيين؛ فهٰذه الليلة، ليلة شريفة، عظيمة، جليلة، ومن شرفها، وقدرها، أن اللَّه تعالىٰ يقدر فيها ما يكون في العام التالي، من حياة، وموت، وصحة، ومرض، وعز، وذل، وكرب، وفرج.

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣﴾: هٰذا جواب الاستفهام. يعني أن

العمل الصالح فيها، خير من العمل في ألف شهر، ليست فيه؛ فلو قدرنا ألف شهر، خاليًا من ليلة القدر، فإن ليلة القدر خير منه.

ولا شك أن هٰذا يدل علىٰ عظم قدرها. وذٰلك يعدل ألف شهر ثلاث وثمانين سنة، يعني أنه عمر إنسان معمر، فلو أن هٰذا الإنسان المعمر عمل طوال عمره، لقابل ذٰلك عمل ليلة قدر واحدة! واللَّه ذو الفضل العظيم.

ومحلها في شهر رمضان، كما دل علىٰ ذٰلك القرآن العظيم، بدليل مركب من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ١﴾، وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وبهٰذا جاءت السنة النبوية.

فعَنْ أَبِي سَلَمَةَ، قَالَ: انْطَلَقْتُ إِلَىٰ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقُلْتُ: أَلاَ تَخْرُجُ بنَا إِلَىٰ النَّخْلِ، نَتَحَدَّثْ، فَخَرَجَ، فَقَالَ: قُلْتُ: حَدِّثْنِي مَا سَمِعْتَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ في لَيْلَةِ الْقَدْرِ. قَالَ: اعْتَكَفَ رَسُولُ اللَّه ﷺ عَشْرَ الأُوَلِ مِنْ رَمَضَانَ، وَاعْتَكَفْنَا مَعَهُ. فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: «**إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ**». فَاعْتَكَفَ الْعَشْرَ الأَوْسَطَ، فَاعْتَكَفْنَا مَعَهُ. فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: «**إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ**». فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ خَطِيبًا، صَبِيحَةَ عِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ، فَقَالَ: «**مَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلْيَرْجِعْ، فَإِني أُرِيتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَإِني نُسِّيتُهَا، وَإِنها في الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ، في وِتْرٍ، وَإِني رَأَيْتُ كَأَني أَسْجُدُ في طِينٍ وَمَاءٍ**». وَكَانَ سَقْفُ الْمَسْجِدِ جَرِيدَ النَّخْلِ، وَمَا نَرَىٰ في السَّمَاءِ شَيْئًا، فَجَاءَتْ قَزْعَةٌ، فَأُمْطِرْنَا، فَصَلَّىٰ بِنَا النَّبِيُّ ﷺ، حَتَّىٰ رَأَيْتُ أَثَرَ الطِّينِ، وَالْمَاءِ، عَلَىٰ جَبْهَةِ رَسُولِ اللَّه ﷺ وَأَرْنَبَتِهِ، تَصْدِيقَ رُؤْيَاهُ. رواه البخاري(١).

فاتفق تلك السنة، أن وقعت ليلة إحدىٰ وعشرين. وليلة القدر لا تختص بليلة سبع وعشرين ـ كما يعتقد كثير من الناس ـ وإن كانت أرجاها، لٰكنها ـ علىٰ الصحيح ـ تتنقل في ليالي العشر، لا سيما ليالي الوتر منه، وأرجاها ليلة سبعة وعشرين. وإنما أخفيت لحكمة! ومن حكمة اللَّه في إخفائها، وعدم القطع بموعدها: أن يجتهد الناس في إصابتها؛ بطول القيام، ليالي

---

(١) رواه البخاري (٨١٣).

العشر كلها. ولهٰذا ترىٰ المسلمين يحرصون علىٰ التهجد في ليالي عشر؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «**مَنْ يَقُمْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا، وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**» متفق عليه[1].

اللَّه أكبر! يقوم الإنسان ليلة واحدة، فيبيض اللَّه صحائفه! فلا شك أنها ليلة شريفة، عظيمة، جليلة.

﴿تَنَزَّلُ﴾: أي تتنزل، فأدغمت التاءان

﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾: جمع ملَك، وأصله: مألك، من الألوكة، وهي الرسالة. وهم عالم غيبي كريم، خلقهم اللَّه من نور، قال رَسُولُ اللَّه ﷺ: «**خُلِقَتِ الْمَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ**» رواه مسلم[2]، واستعملهم في طاعته، وعبادته، وتسبيحه، وأعطاهم القوة علىٰ ذٰلك؛ فهم يسبحون الليل والنهار، ﴿لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ۝٣٨﴾ [فصلت: ٣٨]، ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩﴾ [الأنبياء: ١٩]، وليس لهم من خصائص الربوبية، والألوهية شيء، قال تعالىٰ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٢٩﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩].

﴿وَٱلرُّوحُ﴾ الروح هنا هو: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو سيد الملائكة؛ لكونه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الموكل بحياة القلوب؛ إذا أنه ينزل بالوحي. ولهٰذا خصه بالذكر، مع أنه أحدهم، وهٰذا من عطف الخاص علىٰ العام.

﴿فِيهَا﴾ أي في تلك الليلة؛ لأن هٰذا هو المقصود.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي بأمره، فمن أمره اللَّه أن ينزل من الملائكة نَزل، فلا يلزم أن يكون جميع ملائكة الرَّحمٰن ينزلون؛ إذ أن ملائكة الرحمن لا يحصيهم كثرة إلا هو، كما قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

---

(١) صحيح البخاري (٣٥)، صحيح مسلم (٧٦٠).
(٢) صحيح مسلم (٢٩٩٦).

وعن أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إني أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للَّهِ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَىٰ الفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَىٰ الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَىٰ اللَّه، لَوَدِدْتُ أني كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ**» رواه الترمذي(١). والجملة الأخيرة، تروىٰ من كلام أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

و«أطت» يعني: ثقلت، وسمع لها أطيط، وهو الصوت الذي يسمع من سيور الرحل إذا ثقل بالراكب.

﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٍ ٤﴾: ﴿مِّن﴾ هنا سببية، أي بسبب، يعني بسبب تقدير اللَّه لكل أمر. والمقصود: من قضاء اللَّه إلىٰ السنة القادمة، ثم وصفها بوصف آخر، فقال:

﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾: قال ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾، ولم يقل هي سلام، فقدم الخبر، وأخر المبتدأ، لبيان الاختصاص، أي أنها موصوفة بذٰلك. وقيل في معناها:

- لكثرة السلام فيها؛ فإن الملائكة لا تمر علىٰ طائفة من المؤمنين، إلا وألقت عليهم السلام، فيكثر السلام فيها. وإن كان المؤمنون لا يشعرون، ولا يسمعون هٰذا السلام، لٰكن هٰذا لا يضر، فإنه نوع دعاء.

- وقيل: أي أنها سالمة من الشر.

﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾: ﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية. يعني: وقت طلوعه، فهٰذه الليلة المباركة يبتدئ زمانها من مغيب الشمس، وينتهي بطلوع الفجر؛ لأن هٰذا هو زمان الليل، فتتنزل ملائكة الرَّحمٰن، وتغمر الأرض بالسلام، والسلامة، إلىٰ أن يطلع الفجر، ثم تشرع في العروج إلىٰ ربها. قال بعض العلماء: إن معنىٰ قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في ذكر علامات ليلة القدر: «**تُصْبِحُ الشَّمْسُ صَبِيحَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ**

(١) سنن الترمذي (٢٣١٢)، سنن ابن ماجه (٤١٩٠) حسنه الألباني دون قوله (لوددت أني كنت شجرة...).

مِثْلَ الطَّسْتِ، لَيْسَ لَهَا شُعَاعٌ، حَتَّىٰ تَرْتَفِعَ» رواه أبو داود[(١)]، بسبب كثرة عروج الملائكة، إلىٰ السماوات، وحيلولتهم دونها، لا يكاد يرىٰ لها شعاع، بل ترىٰ بيضاء، كالطست.

وهي ليلة مطمئنة، معتدلة، ليست باردة، ولا حارة، بل متوسطة بالنسبة لليالي التي حواليها. وإلا فمن المعلوم أن رمضان قد يوافق شدة البرد، وقد يوافق شدة الحر، ولٰكن المقصود مقارنةً بما قبلها، وما بعدها من الليالي.

۞ الفوائد الْمُستنبطة:

الفائدة الأولى: القرآن كلام اللَّه، منزل من عند اللَّه، غير مخلوق، فهو صفة للخالق، وصفات الخالق لا يمكن أن تكون مخلوقة، وفي هٰذا رد علىٰ المعتزلة الذين زعموا خلق القرآن.

الفائدة الثانية: إثبات علو اللَّه، لأن التنزيل يكون من الأعلىٰ. فاللَّه ﷻ فوق جميع خلائقه، مستوٍ علىٰ عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه، ولا في خلقه شيء منه.

الفائدة الثالثة: شرف تلك الليلة.

الفائدة الرابعة: اصطفاء اللَّه واختياره لما يشاء من الأزمنة، والأمكنة، والذوات، والأحوال، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

الفائدة الخامسة: إثبات الملائكة، ونزولها، وعروجها؛ لأن الذي ينزل يعرج.

الفائدة السادسة: شرف جبريل عليه السلام؛ لأنه خصه بالذكر.

الفائدة السابعة: إثبات القدر السابق، وإثبات التقدير السنوي.

---

(١) سنن أبي داود (١٣٧٨)، صحيح ابن خزيمة (٢١٩٣) قال الألباني حسن صحيح.

سورة البيِّنة

سبب تسمية هٰذه السورة بسورة البينة، وورود هٰذا اللفظ في مستهلها.

وهو اسم علىٰ مسمىٰ، فقد حصلت بها البينة العظيمة.

فمن مقاصد هٰذه السورة:

الأول: تحقيق البينة، ورفع الالتباس.

الثاني: إثبات الرسالة الخاتمة، وصاحبها ﷺ.

الثالث: بيان حقيقة الدين، واستقامته.

الرابع: بيان مآلات الناس.

ويلاحظ أن هٰذه السورة تختلف عن سابقاتها ولاحقاتها، من سور «جزء عم»، بطول الفواصل، فغالب سوره آياتها قصيرة، أما هٰذه السورة ففي آياتها نوع طول.

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾:

﴿لَمْ﴾ أداة نفي.

﴿يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: اسم كان، وأما خبرها: ﴿مُنفَكِّينَ﴾.

﴿أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ اليهود، والنصارىٰ، لنزول التوراة، والإنجيل فيهم، إلا أنهم حرفوه، وأضاعوه، وأفسدوا دينهم، بما أدخله أحبار السوء، ورهبان الضلالة من الكفر والبدع.

ومن العجب العجاب أن تجد من الناس من ينازع في كفر أهل الكتاب،

وقد صرح اللَّه بكفرهم هاهنا، وفي قوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]

﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عبدة الأوثان من جميع الأمم، ومنهم مشركو العرب.

﴿مُنفَكِّينَ﴾ منتهين، ومنفصلين عما هم فيه من الكفر والضلال. والانفكاك لفظ يدل علىٰ سبق علوق، يعني أنهم عالقون، ساقطون في وضع لا يمكن أن يخرجوا منه، إلا بنفحة علوية، ورسالة سماوية.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ البينة: الحجة الواضحة، والمراد بها هنا تحديدًا: بعثة محمد ﷺ، فهٰذه هي البينة التي ترفع كل التباس، وتزيل كل إشكال. ومعنىٰ هٰذه الآية الاستهلالية: أن الكفار علىٰ مختلف أصنافهم؛ من المشركين، عبدة الأوثان، ومن كفرة أهل الكتاب؛ من اليهود والنصارىٰ، ما كان لهم أن ينفكوا، ويزولوا، وينفصلوا عما هم فيه من الضلال، إلا بمجيء البينة، وهي الدليل الواضح، والبرهان الساطع، الذي يكشف كل التباس، ويرفع كل خلاف.

وفي هٰذه إشارة إلىٰ حال الناس قبل بعثة النبي ﷺ. فقد كان الناس في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، فهم ما بين مشرك يعبد صنمًا، أو شجرًا، أو حجرًا، أو غير ذٰلك من أنواع المعبودات، وهم الوثنيون، ومنهم مشركو العرب، الذين بعث فيهم النبي ﷺ، فكانوا يعبدون أنواع الآلهة: اللات، والعزىٰ، ومناة، وهُبَل، وودًا، وسواعًا، ويغوث، ويعوق، ونسرا.

وكان أحدهم إذا نزل منزلًا، بحث عن أربعة أحجار، فجعل ثلاثة منها أثافي لقدره، والرابع إلٰها يعبده!. وإذا نزل أرضًا سهلة ليس فيها حجر، جمع كثيبًا من رمل، ثم حلب عليه ناقته، ثم عبده! وربما جمع أحدهم التمر، وعبطه، فعبده، فإذا جاع أكله! وكانوا يعبدون الجن، والملائكة، ويعبدون كل شيء. وذكر «الكلبي» في كتاب «الأصنام» أكثر من هٰذا. هٰذا من ناحية الاعتقاد.

وكانوا من الناحية الأمنية، والاجتماعية علىٰ أسوء حال؛ يقتل بعضهم بعضًا، ويغزو بعضهم بعضًا، فكانوا في حروب وثارات مستمرة. وكانوا يظلمون الضعيف، ويأكلون مال اليتيم، والمرأة، فلا يورثونهما، ويغمطونهما حقهما.

ولم يكن أهل الكتاب، في ذٰلك الوقت، بخير حال منهم. فأما اليهود، المغضوب عليهم، فإنها أفسدت دين موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخرجته من التوحيد الصرف، إلىٰ أنواع من الشرك، وسوء الأدب مع اللَّه عَزَّوَجَلَّ والتطاول علىٰ جنابه، والنيل من أنبيائه، إضافة إلىٰ أخلاقهم الدنيئة، الوضيعة في التعامل مع الناس؛ من الكبر، والحسد، والسعي في الأرض فسادًا، ولهٰذا عوقبوا بأن شتتهم اللَّه في الأرض، شذر مذر، حتىٰ آل طائفة منهم إلىٰ يثرب ـ كما كانت تسمىٰ في الجاهلية ـ يترقبون بعثة النبي الخاتم.

وأما النصارىٰ الضالون، فقد تفرقوا فرقًا كثيرة، وتناحروا فيما بينهم، حتىٰ كانوا يعقدون المجامع، فلا ينفضُّون إلا بين لاعن وملعون! فأغرىٰ اللَّه بينهم العداوة والبغضاء، وسالت الدماء بسبب ذٰلك، فكانوا مضطربين في معتقدهم، حتىٰ تسيَّد قول القائلين منهم، بأن اللَّه ثالث ثلاثة، تعالىٰ اللَّه عما يقولون، وصاروا يحملون الناس علىٰ هٰذا، وجرت حروب عظيمة.

وقد وصف أبو الحسن الندوي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»[(١)] حال البشرية قبل بعثة النبي ﷺ، علىٰ اختلاف أممها، وكيف كانوا بأمس الحاجة إلىٰ من يستنقذهم من هٰذا التيه والضلال، الذي ترددوا فيه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: ٧٦] فبعث اللَّه محمدًا ﷺ من العرب، ووصف بالبينة، فقد أنزل اللَّه تعالىٰ كلاما بينًا، واضحًا، لا يستعصي فهمه علىٰ الأعرابي البسيط، ولا يستنكف عنه العالم الضليع، بل تخضع له الرقاب، ويقبله كل

(١) وهو من أحسن من كتب في هٰذا الصدد، وقد ألف قبل نحو خمسين سنة، وهوكتاب نافع ماتع، أوصي بقراءته.

صاحب فطرة سوية، وكل صاحب عقل سليم، ولا يرون فيه تفاوتًا، ولا تناقضًا، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾: ﴿رَسُولٌ﴾، بالرفع، بدل من ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾. وهٰذا الرسول هو محمد ﷺ الذي دلت الدلائل المتكاثرة علىٰ صدقه. قال اللَّه تعالىٰ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]. كانت بعثة محمد ﷺ فتحًا، وفرجًا، ونفسًا، من اللَّه ﷻ، وإلا فإن الناس كانوا علىٰ شفير هلكة، وفي الحديث: «**إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ؛ عَربهم، وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ، وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ**» رواه مسلم[(١)].

وكان قد بقي بقية من صالحي أهل الكتاب، في الصوامع، والديارات، باقون علىٰ الدين الصحيح، فكانوا أعظم الناس فرحًا ببعثة محمد ﷺ. قال تعالىٰ: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص: ٥١ ـ ٥٤]، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٣]. فحينما جاء محمد ﷺ فرح به أولٰئك المؤمنون، ورأوا فيه امتدادًا طبيعيًا لرسالة الأنبياء السابقين، وإحياءً لدين اللَّه الحق.

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إذًا رسالته من عند اللَّه، ليس صاحب نظرية فكرية، أو

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٦٥).

فلسفية، كلا!، وليس مجرد مصلح اجتماعي ساءه ما رأىٰ من حال الناس، فانتدب للإصلاح الاجتماعي، كلا! هي رسالة ربانية قبل كل شيء. وقد حاول المستشرقون أن يقولوا إنه كان مصلحًا اجتماعيًا، أو أنه كان مثقفًا ثقافةً دينية، يريدون أن يزيلوا عنه وصف النبوة ـ خابوا وخسروا ـ هو رسول من اللَّه.

﴿يَتْلُواْ صُحُفًا﴾ أي: يتبع، وهي القرآن العظيم.

﴿مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾ أي: مبرئة من كل شائبة باطل؛ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢].

لهٰذا كانت هٰذه الرسالة تحمل صفة البينة؛ لأن الرسول من اللَّه، والكتب التي يتلوها، وتورث من بعده مطهرة. وفي هٰذا إشارة إلىٰ أنه لا يأتيها الباطل، ولا يمكن أن يلحقها تحريف، ولا تغيير، ولا زيادة، ولا نقصان؛ لأن اللَّه تعالىٰ تكفل بحفظها. قال اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، فلذٰلك لم يخرم منه حرف واحد، ولم يقع بين المسلمين خلاف في موضع واحد. دعك من الرافضة! الذين يزعمون أن القرآن ناقص، أو أن القرآن فيه تحريف، حتىٰ ألف أحد خبثائهم ـ قبحه اللَّه ـ كتابًا سماه: «فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب»، ويزعمون أن عندهم مصحف فاطمة، ثلاثة أضعاف المصحف الذي بين أيدي المسلمين. هٰؤلاء زنادقة لا يلتفت إلىٰ كلامهم.

أما كتب من قبلنا فإن اللَّه تعالىٰ قد وكل إليهم حفظ كتبهم، فأضاعوها قال اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٤٤﴾ [المائدة: ٤٤] فاللَّه ـ تعالىٰ ـ وكَل إلىٰ الأحبار والرهبان حفظ كتبهم، لٰكنهم أضاعوها.

﴿فِيهَا كُتُبٌ﴾: كُتُبٌ، جمع كتاب، بمعنىٰ مكتوب، أي آيات مكتوبة.

﴿قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ أي: مستقيمة، لا اعوجاج فيها، ولا خلل.

۞ الفوائد المُسْتنبطة:

الفائدة الأولى: بيان حال الناس قبل بعثة النبي ﷺ.

الفائدة الثانية: كفر أهل الكتاب.

الفائدة الثالثة: أن الكفر أنواع:

- كفر المشركين: المتمثل بعبادة الأوثان، واتخاذ الأنداد.

- وكفر أهل الكتاب: المتمثل، بكفر اليهود، كقولهم: «يدُ اللَّهِ مغلولة»، وقولهم: «إن اللَّهَ فقيرٌ ونحن أغنياء»، وقولهم: «عزير ابن اللَّه»، وقولهم: «إن اللَّه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع»، وكفر النصارىٰ بقولهم: «إن اللَّه ثالث ثلاثة»، وقولهم: «المسيح ابن اللَّه».

- وكفر المنافقين: المتمثل بإظهارهم الإيمان، وإبطانهم خلافه.

- وكفر إبليس: المتمثل بالإباء، والاستكبار.

- وكفر الغافلين، المتمثل بالتولي، والإعراض.

- وكفر الجاحدين المكذبين، كفرعون.

الفائدة الرابعة: أن رسالة النبي ﷺ بيِّنة، واضحة، رافعة لكل اشتباه، والتباس: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾.

الفائدة الخامسة: إثبات رسالة النبي ﷺ من اللَّه.

الفائدة السادسة: إثبات تنزيل القرآن.

الفائدة السابعة: حفظ القرآن من كل تحريف، ونقص.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ

وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾:

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لم يقل هنا: والمشركون! والسبب، واللَّه أعلم، لكون أهل الكتاب صدروا عن أصل صحيح واحد ثم افترقوا، بخلاف المشركين. وقد ذهب بعض المفسرين إلىٰ أن المراد بقوله ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني في شأن الإيمان بمحمد ﷺ ما بين مصدق، ومكذب.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ قيل: إلا من بعد أن جاءهم محمد ﷺ أو: إلا من بعد ما جاءهم القرآن!

وفي هٰذا نظر؛ لأن البينة هنا، ليست هي البينة التي في الآيات الأولىٰ، لأن هٰذه الآية لبيان سبب تفرق أهل الكتاب عن دين أنبيائهم، كما قال اللَّه ﷻ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورىٰ: ١٣ ـ ١٤]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية: ١٧].

فالذي يظهر، كما تدل الآيات السابقات، أن هٰذه الآية إشارة إلىٰ تفرق

سابق، وأن البينة، هي قيام الحجة الرسالية السابقة عليهم؛ لأن هٰذه السورة سورة مكية، وبعض أهل الكتاب لم تبلغهم بعثة النبي ﷺ ولا دعوته، بعد. ولم يدعُ النبي ﷺ هرقل، والمقوقس، والنجاشي، إلا بعد أن هاجر إلىٰ المدينة، بعد صلح الحديبية، فلم يقع التفرق في شخصه ﷺ من قبل أهل الكتاب، إلا في العهد المدني.

فهٰذه الآية إنما تدل علىٰ تفرقهم السابق في دينهم، وتكفير بعضهم بعضًا، ولعن بعضهم بعضًا، مع أن اللَّه ﷻ أقام عليهم الحجة الرسالية، لٰكنهم تنكبوا الطريق، بعد حصول العلم.

وعليه فيكون معنىٰ: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝٤﴾ يعني: التي بينها اللَّه لهم سابقا، حتىٰ لا يقول قائل: إن القوم معذورون بتفرقهم، بدعوىٰ تأخر البينة، فرد اللَّه ذٰلك، وبين أن تفرقهم، كان عن سبق علم، واتباع هوىٰ.

وهٰذا التوجيه، يزيل الإشكال في عدم قرن المشركين بأهل الكتاب، في هٰذه الآية، لأنه لا محوج؛ فالمشركون لم يقع تفرق منهم عن أصل رسالة؛ بخلاف أهل الكتاب، فإنهم كانوا يرجعون إلىٰ دين صحيح، فرغبوا عنه.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا﴾ هٰذا الاستثناء استثناء مفرغ من أعم الأحوال، مثل قولنا: «لا إلٰه إلا اللَّه»، فهو يدل علىٰ كمال الحصر.

﴿لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ يعني: أن يعبدوا اللَّه.

﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ أي أن أهل الكتاب، وغيرهم، ما أمروا إلا بِهٰذه الخصال العظيمة:

١ ـ عبادة اللَّه وحده، والإخلاص له في ذٰلك.

٢ ـ إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة.

وهٰذه هي أمهات العقائد، والعبادات.

﴿مُخۡلِصِينَ﴾ حال من: «يعبُدوا». فلا تتحقق عبادة اللَّه، ولا تصح، إلا بالإخلاص. فلو أن إنسانا عبد اللَّه، وعبد غيره معه، فإنه لا يكون عابدًا للَّه.

وفي الحديث القدسي قال تعالىٰ: «**أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِىٰ غَيْرِىٰ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**» رواه مسلم(١).

﴿حُنَفَآءَ﴾ أي: مستقيمين علىٰ التوحيد، مائلين عن الشرك؛ لأن الحنف في اللغة، معناه: الميل، ولذٰلك يلقب من كان في مشيته ميل بالأحنف. فالمراد: الميل عن الشرك إلىٰ الإسلام.

﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني: يؤدوها علىٰ وجه الاستقامة، ولم يقل: ويفعلوا الصلاة، لأن ثَمَّ فرق بين فعل الصلاة، وبين إقامتها؛ فإقام الصلاة: أداؤها علىٰ وجه الاستقامة؛ بأركانها، ووجباتها، وسننها، وخشوعها، وشروطها.

﴿وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الزكاة في اللغة: الطهرة، والنماء. والمراد بها هنا: زكاة المال.

وكثيرا ما يقرن اللَّه تعالىٰ بين هٰذين الركنين العظيمين:

قال اللَّه تعالىٰ في سورة براءة: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

ولأجل هٰذا قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في حرب المرتدين: «وَاللَّه لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ» متفق عليه(٢).

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ المشار إليه مجموع هٰذه الخصال هو: الملة المستقيمة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾: أعاد ذكر المشركين مع كفرة أهل الكتاب، لأنهم يشتركون في الجزاء.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾: الخليقة.

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٨٥).

(٢) صحيح البخاري (١٤٠٠)، صحيح مسلم (٢٠).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾: هٰذه مآلات الناس: فإما أن يكون المرء كافرًا، أو مؤمنًا، ليس شيء ثالث؛ قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ [التغابن: ٢]، فهما حالان فقط. وليس هناك منزلة بين منزلتين، كما زعمت المعتزلة. ولٰكن الإيمان درجات، والكفر دركات، وبينهما حدود فاصلة.

فبين اللَّه تعالىٰ مآل الكافرين؛ من أهل الكتاب والمشركين، وأنهم في النار المظلمة، التي يحطم بعضها بعضًا، خالدين فيها، خلودًا أبديًا، كما دلت علىٰ ذٰلك ثلاث آيات في كتاب اللَّه. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ۝١٦٩﴾ [النساء: ١٦٨ ـ ١٦٩]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ۝٦٥﴾ [الأحزاب: ٦٤ ـ ٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۝٢٣﴾ [الجن: ٢٣].

وسبب ذٰلك: أنهم شر الخليقة، فإن من كفر باللَّه فقد تنكر لفطرته، وإنسانيته، وصار شر الخليقة. وفي المقابل، فالذي آمن باللَّه، وعمل الصالحات، فقد وافق فطرته، ووفىٰ لربه، وصار خير البرية. ولهٰذا كافأه اللَّه ـ ﷻ ـ بهٰذا الثواب العظيم، بفضله، ومنه.

﴿جَنَّٰتُ﴾: هي البساتين المستترة بكثرة أشجارها.

﴿عَدۡنٖ﴾ أي: إقامة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ يعني أنهم في الخلود المطلق، الذي لا ينقطع، عطاء غير مجذوذ، وأجر غير ممنون.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ بيّن سبب استحقاقهم للخلود في الجنان، وأنه خشيتهم لربهم ﷻ، لأنها حملتهم علىٰ الإيمان، وعمل الصالحات.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: أن تفرق أهل الكتاب عن علم؛ واتباع للهوى.

الفائدة الثانية: بيان أصول الدين: من العقائد، وأمهات العبادات.

الفائدة الثالثة: أن دين اللَّه واحد، وهو الإسلام بالمعنىٰ العام، الذي هو الاستسلام للَّه بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك. والإسلام بالمعنىٰ الخاص هو ما بعث اللَّه به محمد ﷺ. وإنما تتنوع الشرائع.

وليس للَّه عدة أديان؛ ليس للَّه دين اسمه اليهودية، أوالنصرانية. الإسلام هو دين اللَّه ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فاللَّه تعالىٰ بعث جميع أنبيائه بدين الإسلام، لٰكن الشرائع متنوعة، كما قال نبينا ﷺ «**وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتهم شَتَّىٰ، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»، رواه البخاري[(١)]. فدين الأنبياء واحد؛ فموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يبعث باليهودية، وعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يبعث بالنصرانية. اليهودية: هي ما آل إليه دين موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن حرفها الأحبار. والنصرانية: هي ما آل إليه دين عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد ما حرفها الرهبان. وموسىٰ، وعيسىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وسائر أنبياء اللَّه، دعوا إلىٰ ملة إبراهيم. ولهٰذا قال اللَّه ﷻ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧]، وقال منكرًا عليهم: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، وقال ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رغب عن ملته اليهود، والنصارىٰ، واتخذوا اليهودية، والنصرانية، بدعة ليست من اللَّه، وتركوا ملة إبراهيم ـ يعني الإسلام ـ حنيفًا؛ كذٰلك بعث اللَّه نبيه محمدًا ﷺ بملة إبراهيم»[(٢)].

الفائدة الرابعة: خطأ طريقة بعض الأصوليين في تقسيم الدين إلىٰ أصول

---

(١) صحيح البخاري (٣٤٤٣).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٨٩).

وفروع؛ فيجعلون الأصول العقائد فقط، والفروع العبادات، والمعاملات. وهٰذه السورة تدل علىٰ أن من العبادات ما يكون أصلا.

الفائدة الخامسة: أن التوحيد هو أصل دين اللَّه.

الفائدة السادسة: اقتران العمل بالإيمان.

الفائدة السابعة: أن دين اللَّه مستقيم، لا اعوجاج فيه، ولا تفاوت.

الفائدة الثامنة: خلود الكفار في النار.

الفائدة التاسعة: شناعة الكفر، ومنافاته للإنسانية.

الفائدة العاشرة: فضيلة الإيمان، وموافقته للحق، والفطرة.

الفائدة الحادية عشرة: خلود المؤمنين في الجنة.

الفائدة الثانية عشرة: إثبات صفة الرضا للَّه ﷻ وأنها من الصفات الفعلية، ووقوع الرضا من الطرفين، ولكل ما يليق به.

الفائدة الثالثة عشرة: فضل الخشية، وأنها أصل التدين، وسبب النعيم.

سورة الزلزلة

سورة الزلزلة مع السور الثلاثة التالية لها «العاديات ـ القارعة ـ التكاثر» موضوعاتها متقاربة؛ إذ أنها تتكلم عن البعث، وهي قضية يركز عليه القرآن المكي، وتبدو أهميتها في باب الإيمان باللَّه ﷻ، أو في باب الإيمان عموما علىٰ درجة كبيرة؛ ذٰلك أن الإيمان باليوم الآخر هو الذي يضبط العمل، ويحمل الإنسان علىٰ التقوىٰ، ويحجزه عن غشيان محارم اللَّه تعالىٰ.

مقصد السورة:

سورة «الزلزلة» مقصدها العام هو: تقرير الإيمان باليوم الآخر وما يتضمنه.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾: ﴿إِذَا﴾ ظرفية.

﴿زُلْزِلَتِ﴾ أي: حركت تحريكًا شديدًا ورُجت، كما قال في الآية الأخرىٰ ﴿رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾ [الواقعة: ٤] فالزلزلة هي التحريك الشديد؛ بدليل قوله ﴿زِلْزَالَهَا ۝١﴾، وكأن هٰذا أمر معروف بَيِّن، فعرفه بالإضافة إليها ﴿زِلْزَالَهَا﴾ وذٰلك أنه في يوم القيامة يقع تغيرات كونية، فمن ذٰلك: أن الأرض تبدل غير الأرض، فهٰذه الأرض الكروية القارَّة يقع لها اهتزاز عظيم، وتمد مد الأديم،

وتعود كالقرص أوالخبزة ليس فيها معلم لأحد، لا جبل يشرف عليه، ولا وادي يكن من فيه، أرض لم يسفك عليها دم، وذٰلك لكي تتسع للمحشر العظيم.

﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ٢﴾ الأرض هي التي ذكرت آنفًا.

﴿أَثۡقَالَهَا ٢﴾ أي: ما في بطنها من الموتىٰ المقبورين.

وعبَّر بعض المفسرين بقولهم: كنوزها ونحو ذٰلك، ولٰكن المقصود هو ما في بطنها من المقبورين؛ إذ أن المقصود ها هنا هو إثبات البعث، ولا شك أن الأرض قد امتلأت بالقبور، والأجداث، كما قال المعري:

رُبَّ قبرٍ قد صار قبرًا مرارًا ... ضاحكٍ من تزاحُمِ الأضدادِ

سر إن اسطعت في الهواءِ رويدًا ... لا اختيالًا علىٰ رفاتِ العبادِ

إلىٰ آخر ما قال.

فلا شك أن هٰذه الأرض من لدن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ يومنا هٰذا إلىٰ قيام الساعة مستودع للأموات، فهي بمنزلة الأم لهم، ثم يوم القيامة تلفظ ما فيها، وتخرج ما في رحمها، فمن كان في بطنها خرج علىٰ ظهرها.

﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الإنسان هنا.

- يحتمل أن يكون جنس الإنسان.

- ويحتمل أن يكون المكذب والمنكر بالبعث؛ وربما يؤيد هٰذا الثاني كون هٰذا الاستفهام استفهام إنكاري، ﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ٣﴾، فهٰذا الاستنكار إنما يقع من الكفار؛ كما أخبر اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ٥١ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٥٢﴾ [يس: ٥١ ـ ٥٢]، فهٰذا التعجب والاستنكار منهم يؤيد أن المراد بالإنسان ـ هاهنا ـ منكر البعث علىٰ وجه الخصوص.

﴿مَا لَهَا﴾ يعني: ما الذي جرىٰ لها؟ ماذا حل بها؟

وقارنوا بين هٰذين القولين:

ـ قول من يقول: ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: ٥٢].

ـ وبين من يقول: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٥٢﴾.

الأول: مدهوش، مفزوع، مصدوم، مفجوء.

والثاني: مطمئن، مصدق، مستوعب لما جرىٰ.

﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: في ذٰلك اليوم الموصوف.

﴿تُحَدِّثُ﴾ انطقها اللَّه الذي أنطق كل شيء؛ فإن اللَّه ﷻ قادر علىٰ إنطاق الجماد، وقادر علىٰ إنطاق أعضاء الإنسان يوم القيامة ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ [النور: ٢٤] فاللَّه علىٰ كل شيء قدير، فمن قدرته أن تخبر هٰذه الأرض بما عمل عليها من خير أو شر.

وهٰذا رد علىٰ هٰؤلاء الماديين والعقلانيين، الذين حجروا عقولهم في الشيء المادي المحسوس، الذي يقع تحت الحواس، ولا تتسع أفاقهم، لأن يخلف اللَّه تعالىٰ هٰذه السنن، ويجري الأمور علىٰ غير النسق الذي هو عليه.

﴿أَخۡبَارَهَا﴾ أي تخبر بما عمل عليها من خير أو شر.

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ٥﴾ الباء هنا للسببية، والتقدير: لأن رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا، أو بسبب أن رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا.

والمقصود بـ﴿أَوۡحَىٰ لَهَا﴾ يعني: أعلمها، وأمرها بالتحديث.

وقد ورد في ذٰلك حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قرأ رَسُول اللَّه ﷺ: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ٤﴾ [الزلزلة: ٤] ثُمَّ قَالَ: «**أَتَدْرونَ مَا أَخْبَارهَا**»؟ قالوا: اللَّه وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**فإنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَىٰ كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بما عَمِلَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا، تَقُولُ: عَملْتَ كَذَا وكَذَا في يَومِ كَذَا وكَذَا! فَهٰذه أَخْبَارُهَا**». رواه أحمد والترمذي[1].

وقد جاءت أيضًا آثارٌ أخرىٰ في أن البقاع تشهد لمن مر عليها، أو عمل

(١) المسند (٨٨٥٤)، سنن الترمذي (٢٤٢٩) وضعفه الألباني.

عليها عملًا.

وهٰذه الآية أصل في أن الأرض تحدث وتخبر بما جرىٰ علىٰ ظهرها، وهي من شهود اللَّه.

فإن شهود اللَّه كثر:

- فمما يقيم اللَّه تعالىٰ به الحجة علىٰ الظالم وعلىٰ الكافر: أن تشهد عليه الملائكة الكرام، ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾ [الزخرف: ٨٠].

- ومن إقامة اللَّه الحجة: أن تشهد عليهم جوارحهم؛ كما جاء في حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ، فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟**»، قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجِرْني مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَىٰ، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِني لاَ أُجِيزُ**[1] **عَلَىٰ نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ: انْطِقِىٰ، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ، قَالَ: فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكن وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ**[2]» رواه مسلم[3] فهٰذا سبب ضحك النبي ﷺ.

- ومن شهود اللَّه تعالىٰ: هٰذه الأرض، فإنها تشهد أيضا بما عمل علىٰ ظهرها؛ فحجة اللَّه بالغة.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾: ﴿يَصْدُرُ﴾ أي: ينصرف، ويرجع. فالناس يصدرون من موقف الحساب، بمعنىٰ أنهم ينصرفون إلىٰ مآلاتهم.

﴿أَشْتَاتًا﴾ أي: متفرقين بحسب ما أسلفوا من العمل، فهم ليسوا علىٰ نسق واحد، ولا يساقون مساقا واحدا، بل لكل وجه ولكل طريق، كما كانوا أشتاتًا في الدنيا.

---

(١) لا أجيز اليوم: أي: لا أمضي ولا أقبل علي شاهدا (جامع الأصول في أحاديث الرسول) لابن الأثير.

(٢) أناضل: أي أدافع وأجادل. من (شرح مسلم للنووي).

(٣) صحيح مسلم (٢٩٦٩).

﴿لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٦﴾ أي:

- لِيُرَوْا نتائج وجزاء أعمالهم؛ لأنه بعد صدورهم يكون قد قضي بينهم ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧﴾ [الشورى: ٧]، وهٰذا الراجح في المعنىٰ المراد.

- ويحتمل أن يكون المعنىٰ: لكي يروا ما قدموا من خير، أو شر، ويجازوا عليه، فتشمل: رؤية العمل بمعنىٰ أن اللَّه يوقفهم عليه، والمجازاة عليه.

وربما يؤيد الأول أنه جعلها بعد قوله: ﴿يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا﴾؛ فصدورهم هٰذا يكون بعد أن أروا أعمالهم، فبقي أن يروا جزاء أعمالهم.

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾: «الفاء» للتفريع.

والمقصود بـ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ يعني: وزن ذرة، والذرة: هي النملة الصغيرة، ويضرب بها المثل في دقة الشيء، وحقارته، وصغره.

وهٰذا هو الذي تفهمه العرب من لغتها، ودعك من قوم أرادوا أن يحملوا القرآن علىٰ غير مراده، فزعموا أن الذرة هنا هي الذرة المعروفة في علم الفيزياء الآن، «الذرة الفيزيائية» فإن هٰذا لم يكن معروفًا عند المخاطبين، ولا يمكن أن يخاطب اللَّه الناس بغير ما يعلمون.

فالحساب علىٰ مثاقيل الذر، وهٰذا يدل علىٰ أن كل ما يصدر من الإنسان من خير، أو شر، فهو محفوظ كما قال قائلهم ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]، فهناك دقة في الإحصاء وعدل في الأحكام.

الفوائد المُسْتنبطة:

الفائدة الأولى: هول يوم القيامة، وانقلاب الأرض.

الفائدة الثانية: إثبات البعث.

الفائدة الثالثة: مفاجئة منكري البعث.

الفائدة الرابعة: قدرة اللَّه علىٰ إنطاق كل شيء.

الفائدة الخامسة: إثبات الجزاء

الفائدة السادسة: كمال عدل اللَّه، وإحاطته، وإحصائه؛ حيث انه لم يترك صغيرةً، ولا كبيرةً، من خير، أو شر، إلا أحصاها، وأحاط بها، وجازىٰ عليها بالعدل.

سورة العاديات

مقاصد السورة:

١ ـ إثبات البعث، والحساب.

٢ ـ بيان حال النفس المنكرة للبعث، وتوصيفها.

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾:

هٰذه ثلاثة أقسام أقسم اللَّه بها، والمقسم به هي الخيول، علىٰ القول الراجح، في المواضع الثلاثة:

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾: هي الخيل التي تجري جريا شديدًا.

﴿ضَبْحًا ۝١﴾: أي أنها تحمحم، والحمحمة: الصوت الذي يصدر من جوف الفرس، في حال شدة العدو، فإنه يسمع من صدره هدير، هو الضبح الذي ذكره اللَّه تعالىٰ.

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾: الفاء هنا للتعقيب، يعني: أنها إذا عدت أورت.

ـ ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾ علىٰ القول الراجح: الخيل حين توري النار، عند وقع حوافرها علىٰ الصفا، فإنها تحدث هٰذا الشرر، الذي هو القدح. وهٰذا ينم عن شدة وقعها، وسرعتها.

ـ وقيل في معنىٰ ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾: جماعات المقاتلين، الذين يقدحون الزناد، ليشعلوا النار في الحروب.

ـ وقيل المراد بـ«الْمُورِيَاتِ»: الألسنة! فإن اللسان يثير الفتنة بما يلقيه، وما يهيجه في النفوس. ولا ريب أن الكلمة أحيانًا تفعل فعل النار في الهشيم، فمن الألسنة ما تذكي في النفوس شرر الحمية، والغضب.

ـ وقيل إن «الْمُورِيَاتِ»: مكر الرجال، بمعنىٰ: أن ما يحيكه الرجال من خطط، كإيراء النار، ولو لم تتكلم الألسنة. ولهٰذا استعاذ النبي ﷺ من غلبة الرجال، كما جاء في حديث أَنَس بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**اللَّهم إني أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ، وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْبُخْلِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ**» رواه البخاري[(١)].

ـ وقيل: إنها الإبل خاصة.

ـ وقيل: بالعموم، وإلىٰ هٰذا ذهب الحافظ، إمام المفسرين، ابن جرير الطبري[(٢)]، إلىٰ أن كل ما يتناوله الإيراء، فهو داخل في عموم الآية، فتشمل الخيل التي تقدح بحوافرها علىٰ الصفا، فينطلق الشرر، والإبل، والرجال المقاتلة التي تقدح بالزناد، والألسن الحادة التي تستثير العواطف والانفعالات، والخطط الماكرة، التي تبدر عن الدهاة من الرجال. فكل ذٰلك يدخل في عموم «الموريات».

والذهاب إلىٰ العموم يجمع الأقوال، لٰكن سياق الآيات يشعر بأنها موصوف لشيء واحد؛ لأنه ابتدأ بالعاديات، التي هي الخيل، إلىٰ أن قال ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾ أي: الغبار، فيبعد أن يتفرق الوصف، أو يتخلَّله في أثنائه ما ليس منه، فالأقرب: أن تحمل علىٰ الخيل، فقط.

وللخيل فضيلة، ومزية، ففي الحديث: «**الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**» متفق عليه[(٣)]، فالخيل إلىٰ يومنا هٰذا، لا تستغني عنها الجيوش، فلا يزال في الفرق العسكرية الحديثة ما يسمىٰ بـ«الخيالة». وستبقىٰ إلىٰ يوم القيامة، حتىٰ إن بعض أحاديث الفتن والملاحم، فيها ذكر الخيول، والقتال عليها، في آخر الزمان.

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾: هي الخيل، تقتحم أول النهار، وذٰلك أن أحسن

(١) صحيح البخاري (٦٣٦٩).
(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٥٧٨).
(٣) صحيح البخاري (٢٨٤٩)، صحيح مسلم (١٨٧٣).

أوقات الإغارة في الصباح، كما قال اللَّه ﷻ: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝١٧٧﴾ [الصافات: ١٧٧]. وقيل: إن المراد: أهلها، يعني القوم المغيرون هم المغيرات. والأقرب: أن نحملها علىٰ ما حملنا عليه ما سبق، أنها الخيل نفسها ولهٰذا قال: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾.

﴿فَأَثَرْنَ﴾ أي: هيجن.

﴿بِهِۦ﴾ يعني: بمكان العدْو، أو: في ذٰلك الوقت، الذي هو الصبح.

﴿نَقْعًا﴾ النقع: هو الغبار المتصاعد، يقول حسان:

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدُها كداءُ[1]

وذٰلك أن الخيول إذا اقتحمت، وصالت، ارتفع لها غبار، إلىٰ عنان السماء، من جراء الصولات والجولات المتتابعة.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾: إما بالغبار، أو بالمكان. يعني: سرنَ في وسط جمع العدو.

وهٰذه الآيات إذا أريد بها الخيل، فتحمل علىٰ ما تصنعه في أثناء الغزو، والحروب. وذهب بعض المفسرين، إلىٰ أن المراد الإبل، وأن هٰذا محمول علىٰ ما يقع في المناسك؛ لأن الغالب فيها ركوب الإبل، وقالوا: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ أي: مزدلفة، لأن من أسمائها «جمع». ولٰكن القول الأول أولىٰ.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ هٰذا جواب القسم. والمراد بالإنسان، هنا: الكافر، المنكر. ومعنىٰ كنود: جحود لنعمة ربه، غير شكور. وذٰلك بأن لا يثني بالنعمة علىٰ مسديها، ولا يستعملها في مرضاته، بل يستعملها في معصيته. فبهٰذا يكون كنودًا.

وهٰذا مثار عجب!! فهٰذا الإنسان الٰكنود، خلقه اللَّه، ويعيش في أرض اللَّه، ويأكل من رزق اللَّه، ويشرب من ماء اللَّه، ثم يعبد غير اللَّه! سبحان اللَّه! ما أشد هٰذا الجحود؟! لو كان للواحد منا عبد رقيق، اشتراه بحر ماله،

---

(١) كَداء: جبل بأعلىٰ مكة، دخل النبي ﷺ مكة منه. «القاموس المحيط» (مادة: كدا).

وألبسه، وأسكنه، وأطعمه، وسقاه، ثم ذهب يخدم غيره، لعد ذٰلك كفرانًا، وجحودًا، وأوقع فيه المثلات. واللَّه تعالىٰ رب الناس، وملك الناس، وهو خالقهم، ورازقهم، ومدبر أمورهم، فهو إلٰههم. ومع ذٰلك يعبد الكافر غيره، فلا شك أن هٰذا أعظم الجحود، وأظلم الظلم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾ [لقمان: ١٣].

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ٧﴾: اختلف في مرجع الضمير:

- فقيل: مرجعه للإنسان، يعني: إن الإنسان شهيد علىٰ كنوده، وجحده نعمة ربه. وهٰذا المعنىٰ هو المتبادر إلىٰ الذهن. والمراد بشهادته لسان الحال، لا لسان المقال، فإنه لا يكاد أحد يشهد علىٰ نفسه لفظًا بالجحود. فأفعاله، وتصرفاته، دالة علىٰ جحده لنعمة ربه، فهو لا يرىٰ للَّه فيها حقًا، ولا يرفع بطاعته رأسًا، ولا بمعصيته بأسًا. فهٰذه شهادة.

- وقيل: إن مرجع الضمير إلىٰ اللَّه ﷻ، ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ٧﴾، يعني: إن اللَّه ﷻ شهيد علىٰ كنود عبده، وجحوده. والأول أولىٰ.

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾: جملة مؤكدة بإن. والواقع شاهد بذٰلك. والمراد بالخير هنا، المال، والعرَض، والمتاع. وقوله: ﴿لَشَدِيدٌ﴾: أي شديد التعلق به، شديد الحرص عليه. ولا شك أن هٰذه صفة بشرية، طبعية. فإن الإنسان بطبعه يحب الخير، يحب المال؛ ففي حديث أَنَسٍ رضي الله عنه قال: أتي النَّبِيُّ ﷺ بِمَالٍ مِنْ الْبَحْرَيْنِ، فَقَالَ: «**انْثُرُوهُ في الْمَسْجِدِ**»، فَكَانَ أَكْثَرَ مَالٍ أتي بِهِ رَسُولُ اللَّه ﷺ إِذْ جَاءَهُ الْعَبَّاسُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَعْطِنِي، إني فَادَيْتُ نَفْسِي، وَفَادَيْتُ عَقِيلًا، قَالَ: «**خُذْ**»، فَحَثَا في ثَوْبِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ يُقِلُّهُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَقَالَ: أْمُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعْهُ إِلَيَّ، قَالَ: «**لَا**»، قَالَ: فَارْفَعْهُ أَنْتَ عَلَيَّ، قَالَ: «**لَا**»، فَنَثَرَ مِنْهُ، ثُمَّ ذَهَبَ يُقِلُّهُ فَلَمْ يَرْفَعْهُ، فَقَالَ: فَمُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعْهُ عَلَيَّ، قَالَ: «**لَا**»، قَالَ: فَارْفَعْهُ أَنْتَ عَلَيَّ، قَالَ: «**لَا**»، فَنَثَرَ مِنْهُ، ثُمَّ احْتَمَلَهُ عَلَىٰ كَاهِلِهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ، فَمَا زَالَ يُتْبِعُهُ بَصَرَهُ، حَتَّىٰ خَفِيَ عَلَيْنَا، عَجَبًا مِنْ حِرْصِهِ... الحديث. رواه

البخاري[١].

وهٰذا ربما وقع للأنبياء؛ ففي الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ، عُرْيَانًا، فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتَثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَىٰ، قَالَ: بَلَىٰ وَعِزَّتِكَ، وَلٰكن لَا غِنَىٰ بِي عَنْ بَرَكَتِكَ**» رواه البخاري[٢].

فالنفس مجبولة، ومطبوعة، علىٰ حب الخير، والاستئثار، إلا من عصمه اللَّه تعالىٰ بعصمة الإيمان، وقنعه بما أتاه، ولا شك أن القناعة كنز لا يفنىٰ. وتأمل حال أكرم الخلق علىٰ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ محمد ﷺ ففي حديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قَالَتْ لِعُرْوَةَ: «ابْنَ أُخْتِي، إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَىٰ الْهِلَالِ، ثُمَّ الْهِلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّه ﷺ نَارٌ، فَقُلْتُ: يَا خَالَةُ، مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: الْأَسْوَدَانِ، التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّه ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، كَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّه ﷺ مِنْ أَلْبَانهم، فَيَسْقِينَا» رواه البخاري[٣].

فلو كانت الدنيا علامة علىٰ كرامة، لكان أولىٰ الناس بها محمد ﷺ، وبِهٰذا تطيب نفس المؤمن، فإذا رأىٰ بهجة الحياة الدنيا، وأهلها متهافتون عليها، فليذكر حال أكرم الخلق علىٰ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ.

أما حديث: «**اللَّهم أحيني مسكينًا، وتوفني مسكينًا، واحشُرني في زمرة المساكين**»، فقد ضعفه بعض أهل العلم، وحسنه بعضُهم[٤]، لٰكن الإنسان

---

(١) صحيح البخاري (٣١٦٥).

(٢) صحيح البخاري (٢٧٩).

(٣) صحيح البخاري (٢٥٦٧).

(٤) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١/ ٥٥٥) ما خلاصته: ولا شك أن الحديث بمجموع طرقه يرتقي إلىٰ درجة الصحة، ولذٰلك أنكر العلماء علىٰ ابن الجوزي إيراده إياه في «الموضوعات»، و قال الحافظ في «التلخيص» (ص ٢٧٥): «أسرف ابن الجوزي فذكر هٰذا الحديث في «الموضوعات»، وكأنه أقدم عليه لما رآه مباينًا للحال التي مات عليها النبي ﷺ لأنه كان مكفيًّا، قال البيهقي: ووجهه عندي أنه لم يسأل حال المسكنة التي يرجع معناها إلىٰ =

يسأل اللَّه عيش الكفاف، بحيث لا يحوجه إلىٰ أحد، ولا يشغله بمتاع زائد.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩﴾ أي: أُثِير، واسْتُخْرِج من الأجساد.

﴿وَحُصِّلَ﴾: التعبير بالتحصيل، يدل علىٰ الفرز، والتنقيب.

﴿مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ يعني: ما تنطوي عليه الصدور، من العقائد، والمواجد. لأن القلوب في الصدور، فيستخرج ما فيها من بر، وإيمان، أو فجور، وكفر، وعصيان.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾: ربما يكون المراد: عموم الناس، وربما أراد هٰؤلاء المنكرين. والعموم أولىٰ. فاللَّه ﷻ رب الجميع، لٰكنه ربهم ربوبية عامة، تقتضي تربيتهم بنعمه؛ من خلق، ورزق، وإعداد، وإمداد. أما ربوبيته الخاصة: فهي لأوليائه المؤمنين، وأما ربوبية خاصة الخاصة: فهي لنبيه محمد ﷺ ولإخوانه من الأنبياء. والخبير: هو العليم ببواطن الأمور، ودقائقها.

الفوائد الْمُستنبطة:

الفائدة الأولى: فضل الخيل، وشدة بأسها، وقوة أثرها في الحروب.

الفائدة الثانية: جحود الكافر لنعم اللَّه بكفره.

الفائدة الثالثة: شهادة الأفعال علىٰ الحال.

الفائدة الرابعة: شدة تعلق الإنسان بالمال، والمتاع.

الفائدة الخامسة: إثبات البعث.

الفائدة السادسة: كمال علم اللَّه، واطلاعه.

الفائدة السابعة: إثبات اسم اللَّه تعالىٰ «الخبير»، وما تضمنه من صفة «الخبرة».

= القلة، وإنما سأل المسكنة التي يرجع معناها إلىٰ الإخبات والتواضع».

الفائدة الثامنة: إثبات الربوبية العامة.

سورة القارعة

سورة «القارعة» مقصدها الأساسي: تقرير الإيمان باليوم الآخر، وما يتضمنه.

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾:

﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ أي الساعة، وسميت بِهٰذا الاسم؛ لأنها تقرع القلوب، ومن المعلوم، أن من أشد موجعات القلب، أن يحس بالقرع.

﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾؟ هٰذا الاستفهام للتهويل.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ يعني: ما أعلمك.

﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ كررها لمزيد التهويل. ولا ريب، فما عظمه اللَّه تعالىٰ فهو عظيم، وما هوله اللَّه تعالىٰ فهو هائل.

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾: هٰذه الجملة بدل من «القارعة». أي القارعة: يوم يكون كذا وكذا. و﴿ٱلنَّاسُ﴾ هنا، كل الناس.

﴿كَٱلْفَرَاشِ﴾: ليس المراد بالفراش هنا الفراشة المعهودة، وإنما المقصود بالفراش الحشرات المتطايرة، وقيل: الجراد المنتشر، التي تملأ الجو، أو تملأ المكان، متفرقة أوزاعًا، أو جرادًا مبثوثًا، في كل مكان، كما وصف اللَّه ﷻ ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]. فالناس، كل الناس علىٰ أديم

الأرض، مبثوثون، منشورون، مفرقون، كمشهد الجراد، أو الحشرات المنثورة علىٰ صفحة الأرض. والمبثوث أي: المتفرق المنتشر. وقد وصفهم اللَّه في موضع آخر ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣]، وكذٰلك وصفه نبيه ﷺ كما في حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُول اللَّه ﷺ قَالَ: «**يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**» رواه النسائي[1].

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ﴾ الجبال الصلدة، الضخمة، الهائلة، الثقيلة، التي قد أرسىٰ اللَّه بها الأرض، تكون ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾: أي: الصوف المندوف، يعني لخفته وتطايره، تتحول هٰذه الجبال إلىٰ ما يشبه السراب؛ ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ: ٢٠] من سرعة التسيير، تتحول إلىٰ ما يشبه السراب.

قال اللَّه تعالىٰ ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] وقال: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة: ٦].

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾﴾ الفاء جاءت للتفريع، والتقسيم.

﴿ثَقُلَتْ﴾ يعني: رجحت حسناته، بسيئاته.

﴿مَوَازِينُهُ﴾ المراد بـ«الموازين»: موازين الأعمال. وهٰذا يدل أن الموازين متعددة، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وهي موازين حقيقية، كل ميزان له: لسان، وكفتان. خلافًا لما ادعت المعتزلة، من أن المراد بالميزان هو العدل، أو إقامة العدل. وأهل السنة يقولون: بل إقامة العدل تحصل بالوزن الحقيقي، بميزان حقيقي، له لسان، وكفتان، لٰكن لا نعلم كيفيته.

وقد دلت عليه النصوص كحديث «صاحب البطاقة» الذي فيه «**قَالَ: فَتُوضَع السِّجِلَّات في كِفَّة، وَالْبِطَاقَة في كِفَّة، فَطَاشَتْ السِّجِلَّات، وَثَقُلَتْ**

---

(١) سنن النسائي (٢٠٨٣) صححه الألباني.

الْبِطَاقَة» رواه الترمذي[١].

وأما الموزون فيشمل:

- العمل.
- العامل.
- الصحف.

فحديث «البطاقة» يدل علىٰ وزن الصحف.

وقول اللَّه تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٧] يدل علىٰ وزن الأعمال.

وقول النبي ﷺ: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللَّه جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**» متفق عليه[٢]، يدل علىٰ أن العامل يوزن، ويدل عليه أيضا قول النبي ﷺ في قصة عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه لما كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «**مِمَّ تَضْحَكُونَ؟**»، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّه، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ**» أحمد في «مسنده»[٣].

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ يعني: فقد نجا، وفاز.

﴿عِيشَةٍ﴾ المراد بتلك العيشة: الجنة.

﴿رَّاضِيَةٍ﴾ يعني مُرضية، فهي وإن أتت علىٰ صيغة «اسم الفاعل»: ﴿رَّاضِيَةٍ﴾، فالمراد بها اسم المفعول، أي: مرضية، هانئة، أو هنيئة.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨﴾ يعني طاش ميزان حسناته، وثقل ميزان سيئاته.

﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾: معنىٰ ﴿فَأُمُّهُۥ﴾ أي: فمأواه، ومسكنه، ومرجعه،

---

(١) سنن الترمذي (٢٦٣٩)، سنن ابن ماجه (٤٣٠٠)، ومسند أحمد (٦٩٩٤) وصححه الألباني.

(٢) صحيح البخاري (٤٧٢٩)، صحيح مسلم (٢٧٨٥).

(٣) مسند أحمد (٣٩٩١) وصححه الألباني في الصحيحة (٢٧٥٠).

ومنه سميت الوالدة «أمًّا»؛ لأن الولد يأوي إليها، وهٰذا الذي خفت موازينه، أمه التي يأوي إليها، ومسكنه، ومرجعه، ﴿هَاوِيَةٌ﴾، وهي: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ⑪﴾. وسماها ﴿هَاوِيَةٌ﴾؛ لأنه يهوي علىٰ رأسه فيها.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: شدة وقع الساعة، وهول قيامها.

الفائدة الثانية: إثبات البعث، وصفته، والرد علىٰ منكريه.

الفائدة الثالثة: إثبات الموازين، وكمال عدل اللَّه.

الفائدة الرابعة: إثبات الجنة ونعيمها.

الفائدة الخامسة: إثبات النار وعذابها.

سورة التكاثُر

هٰذه السورة مقصدها الأساس: بيان خطر الغفلة، والاستغراق في الدنيا.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾:

﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أي: شغلكم عن عبادة اللَّه.

﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ المراد به التفاخر بكثرة الأموال، والأولاد، فهم يتكاثرون في أموالهم، وأولادهم، ويفتخرون بذٰلك، ويطلبونه، كما قال اللَّه ﷻ: ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣﴾ [المدثر: ١٣].

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ يعني: أنكم ما زلتم في هٰذا اللَّهو، إلىٰ هٰذه الغاية.

قال اللَّه ﷻ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وهٰذا بيان لحقيقة الدنيا بصورتها المادية.

فهٰؤلاء المشركون المنكرون للبعث، طمس قلوبهم، وبصائرهم، انشغالهم بالتكاثر، فهم منهمكون في تحصيل الدنيا، والاستيلاد، والمباهاة، والتفاخر، فلا يدري أحدهم إلا وقد طوي بساط العمر، وأفضىٰ إلىٰ قبره.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ هٰذا كناية عن الموت، يعني حتىٰ متم، وحملتم إلىٰ القبور. وقيل زرتموها بأنفسكم!

وقد استنبط منها عمر بن عبد العزيز ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ دليلًا علىٰ إثبات البعث،

وذٰلك من معنىٰ الزيارة المستفاد من قوله ﴿زُرۡتُمُ﴾، قال: ما أرىٰ المقابر إلا زيارة وما للزائر بد من أن يرجع إلىٰ منزله[1].

فالإنسان إذا استغرق في الشهوات رشحه ذٰلك للوقوع في الشبهات؛ لأن صاحب الشهوة حينما يستكثر من الشهوات والمعاصي، يجد تأنيبا فطريا في قلبه، فهو يريد أن يتخلص من هٰذا الذي يخز ضميره، من الاعتقاد بالبعث، والجنة والنار، فيحمله ذٰلك علىٰ الوقوع في الشبهة، والشك، والتردد في قبول خبر اللَّه، وخبر رسوله ﷺ، كما وقع لصاحب الجنتين حين قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرًا مِّنۡهَا مُنقَلَبًا ٣٦﴾ [الكهف: ٣٦]، أراد أن يسوي الأمر، ويتصالح مع نفسه، بحيث لا يجد غضاضة في ركوب المنكرات، وفعل المحرمات. فالشهوات بريد الشبهات.

﴿كَلَّا﴾ معناها ـ من حيث الجملة ـ: ليس الأمر كما تزعمون، أو كما تظنون، وهي كلمة ردع ـ ولا ريب ـ لٰكن من المفسرين من يقول: ﴿كَلَّا﴾ بمعنىٰ: حقًّا، والأول أرجح.

﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ هٰذه جملة مستأنفة يعني: سوف تعلمون شؤم عاقبتكم، وفساد ظنكم، فهي جملة تهديدية.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٤﴾ هي ـ أيضًا ـ جملة تهديدية، وإنما كررها لتأكيد التهديد.

﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ٥﴾: جوابه: لما اشتغلتم بالتكاثر.

﴿عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ هو العلم المؤكد، الذي لا شك فيه، ولا تردد.

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦﴾ يعني: لو كنتم تعلمون علم اليقين، لعلمتم أنكم سترون الجحيم، وهي النار.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧﴾ الدرجة الأولىٰ كانت: علمًا يقينيًّا، والدرجة الثانية: يقينًا عينيًّا.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٤٥٩).

❊ والفرق بين «علم اليقين» و«عين اليقين»؟

أن الأول: ذهني، والثاني: حسي، بصري.

فمثلًا: لو قدرنا أن إنسانا لم يتح له أن يسافر إلىٰ مكة، ويرىٰ الكعبة، لٰكنه قد تواتر عنده وجود الكعبة، فعلمه بوجود الكعبة، علم يقين، فهومتيقن أن علىٰ وجه الأرض مكة، وأن فيها الكعبة.

فإذا أتيح له أن يذهب في حج أو عمرة، ويرىٰ الكعبة بعيني رأسه، فعلمه، حينئذ، بوجود الكعبة، عين اليقين.

فعين اليقين بجهنم، يحصل لمنكري البعث، يوم القيامة.

ولهٰذا ينبغي للإنسان أن يحقق العلم في كل شيء، وأعظم ما حقق فيه العلم: هو ما يتعلق بالإيمان باللَّه، وبالغيب حتىٰ كأنه يراه رأي العين، فهٰذا هو اليقين الذي ينفع صاحبه، ويثبت معه عند الشدائد. فلهٰذا نجد أن المرء في قبره إذا كان مؤمنا كما قال النبي ﷺ: «**يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّه. فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا دِينُكَ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلاَمُ. فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا هٰذا الرَّجُلُ الَّذِىْ بُعِثَ فِيكُمْ قَالَ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّه ﷺ فَيَقُولاَنِ: وَمَا يُدْرِيكَ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّه فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ**». وفي رواية: «**فَذٰلك قَوْلُ اللَّه** ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾» الآيَةَ. قَالَ: «**فَيُنَادِىْ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِىْ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ**». قَالَ: «**فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا**». قَالَ: «**وَيُفْتَحُ لَهُ فِيهَا مَدَّ بَصَرِهِ**».

قَالَ: «**وَإِنَّ الْكَافِرَ**». فَذَكَرَ مَوْتَهُ قَالَ: «**وَتُعَادُ رُوحُهُ فِىْ جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولاَنِ: مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِىْ. فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِىْ. فَيَقُولاَنِ: مَا هٰذا الرَّجُلُ الَّذِىْ بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِىْ. فَيُنَادِىْ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَىٰ النَّارِ**». قَالَ: «**فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا**». قَالَ: «**وَيُضَيَّقُ**

عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّىٰ تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاَعُهُ» رواه أبو داود[(١)].

﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ المقصود بـ﴿ٱلنَّعِيمِ ﴾ هنا ما يلتذ به من لذائذ الدنيا: من المأكل، والمشرب، والمنكح، والصحة، والرفعة، والفراغ، وغير ذٰلك كل هٰذه من لذائذ الدنيا.

ويشهد لهٰذا حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قال: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فِيْ سَاعَةٍ لاَ يَخْرُجُ فِيهَا، وَلاَ يَلْقَاهُ فِيهَا أَحَدٌ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ، فقال: مَا جَاءَ بِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ. فَقال: خَرَجْتُ أَلْقَىٰ رَسُولَ اللَّه ﷺ، وَأَنْظُرُ فِيْ وَجْهِهِ، وَالتَّسْلِيمَ عَلَيْهِ. فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ عُمَرُ، فقال: مَا جَاءَ بِكَ يَا عُمَرُ. قال: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّه، قال: فَقال رَسُولُ اللَّه ﷺ: «**وَأَنَا قَدْ وَجَدْتُ بَعْضَ ذٰلك. فَانْطَلَقُوا إِلَىٰ مَنْزِلِ أَبِيْ الْهَيْثَمِ بْنِ التَّيِّهَانِ الأَنْصَارِيِّ**»، وَكَانَ رَجُلًا كَثِيرَ النَّخْلِ وَالشَّاءِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ خَدَمٌ، فَلَمْ يَجِدُوهُ فَقالوا لاِمْرَأَتِهِ: أَيْنَ صَاحِبُكِ؟ فَقالتِ: انْطَلَقَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا الْمَاءَ. فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ جَاءَ أَبُو الْهَيْثَم بِقِرْبَةٍ، يَزْعَبُهَا، فَوَضَعَهَا، ثُمَّ جَاءَ يَلْتَزِمُ النَّبِيَّ ﷺ وَيُفَدِّيهِ بِأَبِيهِ وَأُمِّهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ بهم إِلَىٰ حَدِيقَتِهِ، فَبَسَطَ لَهُمْ بِسَاطًا، ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَىٰ نَخْلَةٍ، فَجَاءَ بِقِنْوٍ فَوَضَعَهُ، فَقال النَّبِيُّ ﷺ: «**أَفَلاَ تَنَقَّيْتَ لَنَا مِنْ رُطَبِهِ**». فَقال: يَا رَسُولَ اللَّه، إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ تَخْتَارُوا ـ أَوْ قال: تَخَيَّرُوا ـ مِنْ رُطَبِهِ وَبُسْرِهِ. فَأَكَلُوا، وَشَرِبُوا مِنْ ذٰلك الْمَاءِ فَقال رَسُولُ اللَّه: ﷺ: «**هٰذا وَالَّذِيْ نَفْسِيْ بِيَدِهِ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِيْ تُسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ظِلٌّ بَارِدٌ، وَرُطَبٌ طَيِّبٌ، وَمَاءٌ بَارِدٌ...**» الحديث روه الترمذي[(٢)].

وليس معنىٰ ذٰلك أنه لا يجوز للإنسان أن يتنعم بالطيبات، لٰكنه يُسأل عن شكرها، فلابد من شكر النعم، فبقدر ما ينعم اللَّه عليك، قابل هٰذه النعمة بالشكران، ولن يبلغ الإنسان شكر نعمة اللَّه قطعًا؛ لأن نعم اللَّه ﷻ لا يمكن أن تكافأ، حيث إن توفيقك للشكر يعد نعمة، وهٰذه النعمة تحتاج إلىٰ شكر، فإذا وفقت لشكر النعمة التالية، فقد نشأت نعمة أخرىٰ تحتاج إلىٰ شكر،

---

(١) سنن أبي داود (٤٧٥٥)، مسند أحمد (١٨٥٣٤) وصححه الألباني.

(٢) سنن الترمذي (٢٣٦٩) وصححه الألباني.

وهٰكذا. وأنشد بعضهم:

إذا كان شكري نعمةَ اللَّهِ نعمةً ... عليَّ له في مثلها يجبُ الشكرُ
فكيف بلوغ الشكر والشكرُ نعمةٌ ... ولو طالت الأيام واتصل العمرُ

ولٰكن علىٰ الإنسان أن يجتهد في شكر اللَّه ﷻ.

* ويكون بثلاثة أشياء:

١ ـ بالقلب.

٢ ـ باللسان.

٣ ـ بالجوارح.

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجَّبا

باليد: واليد كناية عن الجوارح، فيسخر الإنسان جوارحه في طاعة اللَّه، فيكون شاكرا بجوارحه.

وباللسان: فيلهج بشكر نعمة اللَّه ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحىٰ: ١١].

وبالقلب: الذي هو الضمير المحجب، وذٰلك بأن يمتلئ قلبه ويغتبط بنعمة اللَّه تعالىٰ. وهٰذا أمر خفيٌ بين الضلوع، فبعض القلوب تكون مغتبطة بنعمة اللَّه، تحس بحلاوة النعمة والشكر، وبعضها تحس بالمرارة، والنقمة. فيجب علىٰ العبد أن يشكر اللَّه بقلبه، ولسانه، وجوارحه.

وقد ذم اللَّه الغافلين في مواضع من كتابه. والغفلة نوعان:

١ ـ غفلة مطلقة: أن يعرض الإنسان بقلبه عن ربه فلا يرىٰ للَّه عليه حقًا، ولا يلتفت إلىٰ عبادته، فقلبه معلق بالدنيا ومتاعها. وهٰذا لا شك أنه كافر، وهو من حطب جهنم. قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٢ ـ غفلة نسبية: وهي ما قد يعتري بعض أهل الإسلام، من ذهول عارض،

وهٰذا لا يكاد ينفك عنه إنسان، ولٰكن الناس يتفاوتون فيها، قلةً وكثرةً، فمن الناس من يجاهد نفسه علىٰ الذكر، وينال درجة الذاكرين.

وقد عظم اللَّه، ونبيه، شأن الذكر، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقال نبيه ﷺ: «**أَلاَ أُنبئكم بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إنفاق الذَّهَبِ وَالْوَرِق، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟**» قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّه، قَالَ: «**ذِكْرُ اللَّه**» رواه الترمذي، وابن ماجه[١].

والذكر: أن يكون الإنسان موصول القلب باللَّه ﷻ في جميع أحواله، وتقلباته، هٰذه أعظم العبادات، ولما جاء أعرابي إِلَىٰ رَسُولِ اللَّه ﷺ، وقال: يَا رَسُولَ اللَّه، إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأخبرني بشيء أَتَشَبَّثُ بِهِ. يعني بشيء هو جماع العمل الصالح، فَقَالَ: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللَّه**» رواه الترمذي، وابن ماجه[٢].

فيجب الحذر من التكاثر، لأن التكاثر يؤدي إلىٰ الغفلة، والغفلة تؤدي إلىٰ القسوة. والتكاثر في متاع الحياة الدنيا لا حد له، كما وصف النبي ﷺ: قَالَ: «**لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ، أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ تَابَ**» متفق عليه[٣]، كناية عن الموت، حينما يُقبر ويبلغ التراب فاه. فعلىٰ الإنسان أن يضع لنفسه حدا، وألا يتمادىٰ ويترك لنفسه العنان، بل يقنع، فالقناعة كنز لا يفنىٰ.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: خطر الغفلة، والانهماك في الدنيا، والتعلق بمتاعها.

الفائدة الثانية: الترابط بين الشهوات، والشبهات.

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٧٧)، سنن ابن ماجه (٣٧٩٠) صححه الألباني.

(٢) سنن الترمذي (٣٣٧٥)، سنن ابن ماجه (٣٧٩٣) وصححه الألباني.

(٣) صحيح البخاري (٥٦٧٢)، صحيح مسلم (١٠٥٠).

الفائدة الثالثة: إثبات البعث.

الفائدة الرابعة: وجوب شكر النعم.

الفائدة الخامسة: تفاوت درجات اليقين: «علم اليقين» و«عين اليقين».



سورة العصر

تأتي سورة «العصر» في طليعة مجموعة من السور القصار في مبناها، العظيمة في معناها، ختم اللَّه بها كتابه الكريم.

وإن الإنسان ليعجب من حكمة اللَّه ﷻ بختم المصحف، حسب العرضة الأخيرة، بِهٰذه السور، السهلة الألفاظ، الجزلة المعانىٰ، البديعة التراكيب، من قصار المفصل، التي يقرأها عامة المسلمين، ويحفظونها، ويرددونها، في صلواتهم؛ فرائضهم، ونوافلهم، لما تتضمنه من المعاني الكبيرة، التي تحيي القلوب، فللَّه الحكمة البالغة فيما حكم، وقضىٰ، وقدر.

ومع قصر سورة «العصر» إلا أن الإمام الشافعي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ قال عنها: «لو ما أنزل اللَّه حجةً علىٰ خلقه، إلا هٰذه السورة، لكفتهم»[1]، أي: لكانت حجة عليهم، في بيان مقاصد الدين، وأركانه، وآدابه. وليس المراد تضمنها لتفاصيل الشريعة.

مقصد السورة الرئيس:

بيان المنهج الوحيد للنجاة؛ إذ أن اللَّه ﷻ حكم علىٰ الإنسان ـ من حيث هو إنسان ـ بالخسار، واستثنىٰ مَنْ جمع أربع خصال، يأتي بيانها.

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾:

يقول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١﴾ هٰذا قسم من اللَّه تعالىٰ بـ«العصر». والعصر:

---

(١) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/ ١٥٢) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٣)، مفتاح دار السعادة (١/ ٥٦) دار الكتب العلمية (بألفاظ مختلفة).

١ ـ قيل: هو مطلق الدهر، يعني: الزمان.

٢ ـ وقيل: هو ما بعد الزوال، الذي هو وقت العشي.

٣ ـ وقيل: إن المراد الصلاة نفسها، صلاة العصر.

والأولىٰ حمل هٰذه المعاني علىٰ أولها، وهو الدهر؛ إذ أن ذٰلك يشمل ما بعد الزوال، وهو وقت العشي، ووقت صلاة العصر، والليل، والنهار، بمعنىٰ أن اللَّه ﷻ أقسم بالعصر، الذي هو ظرف الأعمال، صالحها، وسيئها، والذي يترتب عليه إما النجاة، وإما الخسار، فمن المناسب جدًّا، أن يقسم اللَّه تعالىٰ بالزمن، الذي هو مضمار الأعمال، وظرفها، لعظيم خطره.

وبمقدار عقل الإنسان، وإيمانه، يكون اهتمامه بالوقت، قال نبينا ﷺ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**» رواه البخاري(١)، فكثير من الناس يغبن في صحته، وفي فراغه، فيمضي عليه العمر سبهللا، فلا يبالي، وهو في حال الصحة والفراغ، فإذا ما مرض، أو شغل، تمنىٰ أن لو كان صحيحًا، فارغًا، وهٰذا هو الغبن الحقيقي.

وقد كان السلف الصالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يعتنون بأوقاتهم غاية العناية، يحسبون الدقائق، والثواني، حتىٰ حفظ عن بعضهم العجب:

فقد ذكر عن المجد ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه كان يضن بوقته، حتىٰ إنه كان إذا دخل بيت الخلاء، أمر قارئًا أن يقرأ، من وراء الحائط(٢). حتىٰ لا يذهب عليه شيء من وقته، دون فائدة.

ويذكر أن الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يضن بوقته، فكان إذا حضره بعض أصحابه، الذين يتشاغلون بالأحاديث الدنيوية، ومجريات الحياة اليومية، يخصص للبقاء معهم، أوراقًا يقطعها، ويرتبها، ويعدها لكتابته، ولا يدع مجلس أصحابه.

---

(١) صحيح البخاري (٦٤١٢).

(٢) انظر: ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٢٤٩ ـ ٢٥٢).

فبمقدار ما يشعر المؤمن، باليوم الآخر، وتقوم في قلبه حقائق الإيمان، يشعر بأهمية الوقت، وإذا ضعف ذٰلك صار الوقت عنده أرخص ما يكون، حتىٰ أنك تجد بعضهم يقول: «نقتل الوقت»، سبحان اللَّه وهل الوقت يقتل؟!، الوقت أغلىٰ الأثمان، وفي هٰؤلاء يقول الشاعر:

والـوقتُ أعظـمُ مـا عُنـيتَ بحفظـهِ وأراه اســهلَ مــا علــيك يــضيعُ

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾، هٰذا جواب القسم. والمقصود: جنس الإنسان. ووقعت اللام في جواب القسم، للتأكيد. والمعنىٰ: أن الإنسان في نقص وهلاك؛ لأن في طبعه قصور، وتقصير، يستغلهما، الشيطان، والنفس، والهوىٰ، وغير ذٰلك من المؤثرات، فتفضي به إلىٰ الهلاك. فالأصل في الإنسان أن يؤول إلىٰ خسار، إلا ما استثني. والمستثنىٰ أقل من المستثنىٰ منه، فلهٰذا قال تعالىٰ، في مواضع: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقال عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣].

فتجد أن المستثنىٰ هم أهل الإيمان، مما يدل علىٰ أن الكثرة الكاثرة، تؤول إلىٰ الخسار، والبوار، ويشهد لذٰلك قول النبي ﷺ عند وصفه يوم القيامة، لأصحابه، فقال: «**ذَاكَ يَوْمٌ يُنَادِي اللَّهُ فِيهِ آدَمَ، فَيُنَادِيهِ رَبُّهُ فَيَقُولُ: يَا آدَمُ ابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ، فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُ مِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ**» رواه الترمذي[(١)].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أي صدقوا بقلوبهم، وأيقنوا بخبر اللَّه، وخبر رسوله ﷺ. كما قال ربنا ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]. فأصل الإيمان: التصديق المستلزم للقبول، والإقرار، والإذعان، والرضا. ولهٰذا ينبغي للعاقل قبل أن يشتغل بإصلاح الظاهر، والعناية بالسنن، والنوافل، أن يصلح قلبه، وأن يتعاهده، فإذا صلح قلبه، انقادت

---

(١) سنن الترمذي (٣١٦٩)، وصححه الألباني.

جوارحه، واستسهلت كل عمل صعب، بل وتلذذت به، كما قال نبينا ﷺ **«أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ: صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ: فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ: الْقَلْبُ»** متفق عليه[(١)].

ثم عطف عليه ما هو من لوازمه، التي لا تنفك عنه، ولا تتم إلا به، فقال:

﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يعني: أنهم لم يقتصروا علىٰ الإيمان القلبي، بل اتبعوا ذٰلك بالعمل الصالح. و﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: ما شرعه اللَّه تعالىٰ علىٰ لسان نبيه ﷺ، من الأقوال، والأعمال الظاهرة، الباطنة، فكل ذٰلك صالح.

ومسألة الإيمان مسألة كبيرة:

فالإيمان عند أهل السنة والجماعة: حقيقة مركبة من القول، والعمل. فالإيمان: قول القلب، واللسان، وعمل القلب، واللسان، والجوارح. ويرون أنه لا انفكاك بين العمل، والتصديق، وأن من زعم وجود تصديق في القلب لا يستلزم عملًا، فهو مخطئ.

وأما من سواهم، فإنهم أرجؤوا العمل عن مسمىٰ الإيمان، ولذٰلك سموا مرجئة؛ يعني أخروا العمل، وأخرجوه عن حقيقة الإيمان، وحده، وتعريفه.

وهٰؤلاء المرجئة علىٰ ثلاثة طبقات:

١ ـ فمنهم ـ وهم أشدهم ـ : «الجهمية»، المنسوبون إلىٰ جهم بن صفوان السمرقندي، الذين يقولون: إن الإيمان هو «معرفة القلب»، وربما عبَّر بعضهم فقال: «تصديق القلب». فيلزم من ذٰلك إثبات الإيمان للمشركين، واليهود، والنصارىٰ، بل وفرعون، بل وإبليس! لحصول المعرفة والتصديق بل واليقين عندهم.

٢ ـ الطائفة الثانية من المرجئة: «الكرامية» المنسوبون إلىٰ محمد بن كرام السجستاني، الذين يقولون: «إن الإيمان هو قول اللسان». فيلزم علىٰ قولهم

---

(١) صحيح البخاري (٥٢)، صحيح مسلم (١٥٩٩).

وصف المنافقين بالإيمان!؛ وقد قال تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١]، فكيف يجرؤون علىٰ تسمية من قال بلسانه فقط مؤمنًا، واللَّه قد أكذبه؟!.

٣ ـ الطائفة الثالثة من المرجئة: «مرجئة الفقهاء»، أصحاب أبي حنيفة، وشيخه حماد بن سليمان، وفقهاء الكوفة، وعبادها، الذين يقولون: «الإيمان: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، أو إقرار بالجنان، يعني بالقلب». فجعلوا الإيمان ركنين: اعتقاد القلب، وقول اللسان، ولٰكنهم أخرجوا الأعمال عن مسمىٰ الإيمان، إلا أنهم جعلوه من ثمراته، وأن المطيع: محمود في الدنيا، مثاب في الآخرة، وأن العاصي: مذموم في الدنيا، مستحق للعقاب في الآخرة، ولم يخرجوا مرتكب الكبيرة عن حد الإيمان. ولهٰذا قال من قال: «إن الخلاف بين مرجئة الفقهاء وأهل السنة، خلاف لفظي» صوري، والصحيح: أن منه ما هو حقيقي، ومنه ما هو صوري.

فالحق أن الإيمان لابد معه من العمل، فإن قال قائل: إذًا لماذا عطف اللَّه العمل علىٰ الإيمان في هٰذه الآية، وغيرها، والعطف يقتضي المغايرة، فدل ذٰلك علىٰ أن العمل ليس داخلًا في مسمىٰ الإيمان؟ وهٰذا من أشهر حجج المرجئة.

فعن ذٰلك جوابان:

الجواب الأول: أن يقال أن هٰذا من باب عطف الخاص علىٰ العام، كما لو قلت: «جاء الطلبة ومحمد»، مع أن محمدًا من الطلبة. فيكون من باب عطف الخاص علىٰ العام.

الجواب الثاني: أن يقال إن هٰذا من باب اختلاف المعنىٰ عند الاقتران، وعند الافتراق. فيكون للفظ الواحد معنيان: معنىٰ إذا اقترن بغيره، ومعنىٰ إذا انفرد. فالإيمان عند الانفراد يشمل الاعتقاد، والعمل. وعند الاقتران مع العمل: يختص بالاعتقاد. كما في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لما سأل عن الإيمان،

والإسلام، والإحسان، فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالعقائد الباطنة. ونظائر ذٰلك في اللغة والاصطلاح، كثير، كما في لفظ: «الفقير» و«المسكين»، و«التوبة» و«الاستغفار»، و«البر» و«التقوىٰ»، و«الإثم» و«العدوان».

﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾: صيغة مفاعلة، أي: أنها تقع من الطرفين، فيوصي بعضهم بعضًا بالحق الذي جاء عن اللَّه، ورسوله، ويحض بعضهم بعضًا علىٰ التمسك به. ولهٰذا جاء في بعض التفاسير أن «الحق» هو: كتاب اللَّه.

﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾: الصبر: في أصل اللغة: هو الحبس.

وأنواعه ثلاثة:

١ ـ الصبر علىٰ طاعة اللَّه.

٢ ـ والصبر عن معصية اللَّه.

٣ ـ والصبر علىٰ أقدار اللَّه المؤلمة.

وهو من أعلىٰ مراتب الدين، وورد ذكره في القرآن في نحو تسعين موضعًا. وجاء في الأثر «أن منزلة الصبر من الإيمان، كمنزلة الرأس من الجسد»[(١)]، وهو من أمهات الأخلاق، وأصولها.

والتواصي بين أهل الإسلام في هٰذه الأزمان ـ وللأسف ـ ، أندر من الكبريت الأحمر ـ كما يقال ـ ، قل أن يتواصىٰ الناس فيما بينهم، بل إنه يبلغ الحال عند بعض الناس، أن يغض الطرف عن خطأ الآخر، حتىٰ لا يقابله بالمثل!، وهٰذا علامة خذلان. والواجب علىٰ أهل الإيمان أن يتناصحوا، وأن يتواصوا كما أمر اللَّه ﷺ، فالمؤمن للمؤمن كالبنيان[(٢)]، والمؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرىٰ[(٣)]، ولو أن كل أحد صمت عن

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥٦٤٥).

(٢) أشارة إلىٰ قوله ﷺ «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ صحيح البخاري (٤٨١) وصحيح مسلم (٢٥٨٥).

(٣) أخرجه البيهقي عن سلمان: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْيَدَيْنِ، تَقِي إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ» برقم (٧٦٩٢).

خطأ أخيه، لضاعت السنن، ووقع التساهل. لٰكن إذا قرعت سمع الإنسان نصيحة أخيه، فربما يندهش لأول وهلة، ويزعجه ذٰلك، لٰكنه يحمد العاقبة.

فلو تأملنا في هٰذه الخصال الأربع، التي ذكر اللَّه تعالىٰ، لوجدناها أسباب النجاة، والفلاح، والفوز:

١ ـ إيمان يباشر القلب، ويرسخ فيه.

٢ ـ عمل صالح باللسان، والجوارح، تصدقه.

٣ ـ تواص بين المؤمنين بالحق، ينصره.

٤ ـ تواصٍ بينهم بالصبر، يثبته.

ولو اختل شيء من هٰذه الأربعة، لوقع الاضطراب، والخلل، فلو فسد أصله، لفسد باقيه، وفرعه، ولو وجد معرفة لا يقترن بها عمل، لما كان ذٰلك إيمانًا، ولو وجد تصديق، وعمل، لٰكن بلا تواصٍ بالحق، ولا تواصٍ بالصبر، لنشأ عن ذٰلك ملل، وفتور، وضعف، وقصور. فلهٰذا كانت هٰذه السورة حجة من اللَّه، علىٰ عباده، ولو لم ينزل اللَّه ﷻ حجة سواها، لكفتهم، كما قال الشافعي، وإنما أراد الشافعي ـ رحمه الله ـ الأصول الكبار، وإلا فإنه لا غنىٰ للعباد عن معرفة التفاصيل.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: أهمية الوقت، وأنه مضمار الأعمال، التي يترتب عليها الثواب، والعقاب.

الفائدة الثانية: أن الأصل في الإنسان حصول الخسار، بسبب القصور، والتقصير المفضي إلىٰ الهلاك، أما القصور: فإنه طبعي، وأما التقصير: فإنه كسبي، ولا يكاد أحد ينفك من هٰذين الوصفين إلا من رحم اللَّه.

الفائدة الثالثة: بيان أركان الفوز، والنجاة، وهي الخصال الأربعة المذكورة.

الفائدة الرابعة: أن الإيمان أصل الدين، يعني ما يقوم في القلب، من العقائد الصحيحة، والمعارف النافعة، المصحوبة بالقبول، والرضا، والإذعان.

الفائدة الخامسة: أن العمل داخل في حقيقة الإيمان، ومسماه، فلا يتحقق بدونه.

الفائدة السادسة: أهمية التواصي بالحق، والصبر، بين أهل الإيمان.

الفائدة السابعة: عظم منزلة الصبر من الدين.



سورة الهُمزة

مقصد السورة:

هٰذه السورة لها مقصد عظيم: وهو بيان الصلة الوثيقة بين العقيدة، والسلوك؛ إذ أن اللَّه ﷻ يكشف حال الكافر، وطبيعته النفسية، وتأثيرها علىٰ سلوكه الشخصي المشين، الناتج عن عقيدته الكفرية بالبعث.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾: ﴿وَيْلٌ﴾ كلمة وعيد، وتهديد. وقيل: إنها اسم وادٍ في جهنم. ﴿لِّكُلِّ﴾ هٰذا من ألفاظ العموم. ﴿هُمَزَةٍ﴾ أي: كثير الهمز. و﴿لُّمَزَةٍ﴾ أي: كثير اللمز. وكلًّا من: ﴿هُمَزَةٍ﴾ و﴿لُّمَزَةٍ﴾، صفة لموصوف.

فمعنىٰ ﴿هُمَزَةٍ﴾:

- قيل: هو المغتاب.
- وقيل: هو الطعان، أي: الذي يطعن في الناس، بعيبهم، وذمهم.
- وقيل: إن الهمز ما كان علىٰ سبيل المواجهة، يعني: وجها لوجه.
- وقيل: إن الهمز ما يكون باليد، إما بإشارة، أو بضرب، ودفع، وما أشبه.

ومعنىٰ ﴿لُّمَزَةٍ﴾:

- قيل ـ أيضا ـ: هو الطعان.

- وقيل: هو المغتاب. يعني: من قال إن «الهمزة» هو المغتاب، قال «اللمزة» الطعان. وبالعكس، من قال: «الهمزة» الطعان، قال: «اللمزة» هو المغتاب، وكل هٰذا مروي عن السلف.

- كما قيل ـ أيضا ـ : إن «اللمزة» ما كان من خلف، بأن ينال منه بعد انصرافه، من خلفه.

- كما قيل ـ أيضا ـ : إن «اللمزة» ما يكون باللسان.

وهٰذه السورة نزلت في شخص معين؛ قيل: الأخنس بن شريق، وقيل: الوليد بن المغيرة، وقيل: بعض سادات قريش، لأنهم كانوا يهمزون، ويلمزون النبيﷺ، في مجالسهم، وإذا قابلوه. والراجح عامة في كل كافر، اتصف بِهٰذا الوصف(١).

ولا يزال المرء يجد من الكفار، بل ومن بعض الفساق، من تشوبه هٰذه الشائبة، فتجده ينال من أهل الطاعة، والإيمان، بالهمز، واللمز، والسخرية، والتنقص، في حضورهم، وفي غيبتهم، وربما تناوله بيده، وربما تناوله بلسانه. وقد وصف اللَّه هٰذا المسلك الذميم، في سورة المطففين، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ۝٣٣﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣٣].

ومجموع ذٰلك يحكي صفة شخص، ذي أذية، بالغة، حسيةٍ، ومعنويةٍ، فهو يجابه الناس بالسوء من القول، ويهاجمهم بأقذع السباب. وإذا انصرفوا، أو انصرف عنهم، نال منهم، في غيبتهم. وربما استعمل يده، كما يستعمل لسانه، إما بإشارة ذات دلالة سيئة، أو بكلام بذيء، فلا يسلم من أذيته أحد، وهٰذه هي شخصية الكافر، الذي تمكن الشر من قلبه. ليس هٰذا فحسب، بل ذكر اللَّه من أوصافه ما يلي:

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٦١٩ ـ ٦٢٠).

﴿ٱلَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾: ﴿جَمَعَ﴾ هٰكذا قُرئت بتخفيف الميم، وقُرئت بالتشديد «جَمَّع»، فهو قد كدس الأموال.

﴿مَالًا﴾ أي: جميع أنواع المال، فيشمل: المال المضروب «النقدين»، والإبل، والبقر، والغنم، والأثاث، والعقار، وغيرها من أنواع المال.

﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾:

- إما أن يكون معناها مأخوذًا من العدِّ، أي الإحصاء.
- وإما أن يكون من الإعداد، أي أعده لحوادث الدهر.

فلا تجد الكافر إلا لاهثًا خلف الحياة الدنيا؛ لأنها غاية مراده، ومنتهىٰ أمانيه، فلذٰلك يجرون خلفها، ولا يبحثون إلا عن شهواتهم، ومتعهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ۝١٢﴾ [محمد: ١٢].

﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ۝٣﴾: ﴿يَحۡسَبُ﴾ أي: يظن.

﴿أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾ جعله خالدًا لا يموت! هٰكذا خيل إليه.

واعلم أن للعقيدة أكبر الأثر في سلوك الإنسان، فإنك تجد الإنسان، غافلًا، لاهيًا، غليظًا، فظًا، فاجرًا، فإذا ما سكن الإيمان قلبه، أكسبه تهذيبًا في الطباع، وسماحة في الأخلاق، وكرمًا في المعاملة، ورحمة بالخلق، وتورعًا عن أذيتهم، ورقة، ولينًا، حتىٰ إنه ليبكي علىٰ ما بدر منه في جاهليته الأولىٰ.

وقد جاء في حديث أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ: مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ: فَقَالَ: «**مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: «**الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَىٰ رَحْمَةِ اللَّه، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ**» متفق عليه[1].

فانظر ما أثقل وطأة الكافر، حتىٰ علىٰ الأرض! فكيف بساكنيها! الكل

(١) صحيح البخاري (٦٥١٢)، صحيح مسلم (٩٥٠).

يتأذىٰ من الكافر، الكل يلعن الكافر، حتىٰ اللقمة يرفعها إلىٰ فيه تلعنه، والشربة يرفعها إلىٰ فيه تلعنه. فالإيمان رحمة، والكفر نقمة.

وإذا كان الارتباط بين العقيدة والسلوك، بِهٰذه المكانة، فينبغي أن نفقه العقيدة لا بوصفها متون تحفظ، وتستشرح، فحسب، بل يقين في القلب، مستعلن باللسان، باعث للعمل في الجوارح والسلوك.

﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾﴾: ﴿كَلَّا ۖ﴾ كلمة ردع، ومعناها: ليس الأمر كما ظن.

﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ اللام: لام القسم، يعني: واللَّه لَيُنْبَذَنَّ، أي: يطرحن، ويقذفن، وما أشبه. والنون: هي نون التوكيد المثقلة. واللام والنون يدلان علىٰ مزيد التأكيد.

﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾: ﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾: اسم من أسماء النار، والمقصود: التي تحطم كل ما يلقىٰ فيها. فكل ما ألقي فيها يعود حطيمًا.

وما أنسب هٰذا الوصف في هٰذا السياق!! ففي حين أن هٰذا الهمزة، اللمزة، جمع مالًا، وعدده، وراكمه، وكثره، في الدنيا، حتىٰ بدا وكأنه جبل، فإذا به في الآخرة يطرح هو، وما جمع، في الحطمة، فتحطم كل ما جمع، ويذهب هباء منثورًا.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾﴾ يعني: ما أعلمك ما الحطمة؟ وهٰذا السؤال للتهويل.

﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ هٰذا جواب السؤال. وإضافة النار إلىٰ اللَّه، ليست إضافة تشريف، كبيت اللَّه، وعبد اللَّه، بل إضافة تعظيم، وتهويل.

﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾ أي: المسعرة. وأما حديث أبي هريرة، الذي رواه الترمذي، وابن ماجة: «**أُوقِدَ عَلَىٰ النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّىٰ احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّىٰ ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّىٰ اسْوَدَّتْ فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ**»[1]، فهو

---

(١) سنن الترمذي (٢٥٩١) ضعفه الألباني.

ضعيف.

والنار، كما الجنة، مخلوقتان الآن، وباقيتان، لا تفنيان.

﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ﴾ أي: تشرف.

﴿عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ أي: القلوب، فتحرقها وتشويها، داخل الأضلاع، وتؤلمها أشد الإيلام.

﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ٨﴾: فسرها السلف بقولهم: مطبقة، فهم لا يستطيعون الخروج منها، كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾ [الحج: ٢٢]. وشعور السجين، أو الأسير، بالإغلاق، يضاعف حزنه، فلربما بقي الإنسان في الموضع الواحد، أيامًا طوالًا، وهو يشعر أنه لو شاء أن يخرج لخرج، فيهون عليه الأمر. وربما استمتع بالمكث! لٰكن لو أغلق عليه، ولو في بستان، لشعر بالضيق، والكرب، بسبب الحبس، فيجتمع عليه العذاب النفسي، والعذاب الحسي ـ والعياذ باللَّه.

﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ٩﴾ هٰكذا ﴿عَمَدٍ﴾ بفتح العين والميم، وقُرئت بضمهما «في عُمُد ممددة».

أي أن النار ممتدة، داخل هٰذه الأعمدة، كما تمد الخيام علىٰ الأعمدة. وهٰذا أمر غيبي، لا ندرك كيفيته بعقولنا، ولٰكن تصوره يشعر بالرهبة، والشدة، وطول العذاب، الذي ينال الهمزة اللمزة.

الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: تفنن الكافر في أذية المؤمن، أذية حسية، ومعنوية.

الفائدة الثانية: تعلق الكافر بمتاع الدنيا.

الفائدة الثالثة: اغترار الكافر بالمتاع الزائل، وخطأ ظنونه.

الفائدة الرابعة: الوعيد الماحق للكافر.

الفائدة الخامسة: شدة عذاب النار.

الفائدة السادسة: الارتباط الوثيق بين العقيدة، والسلوك.

سورة الفيل

مقصد السورة:

هٰذه السورة مقصدها مقصد دقيق، وهو بيان حكم اللَّه الكوني، بحماية محضن التوحيد، ومنطلق الرسالة.

وهٰذا معنىٰ ينبغي التفطن له في هٰذه السورة، وفي سورة قريش التي تليها. وذٰلك لما أشار اللَّه تعالىٰ إلىٰ الموقع الجغرافي لهٰذا الدين، ولذٰلك التاريخ، العريق، العميق، من لدن إبراهيم عليه السلام، انتهاء بمحمد ﷺ.

فارتباط مقصد سورة «الفيل» بالعقيدة، والتوحيد، لابد من التنبه له، كما سنرىٰ.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني: ألم تعلم؛ لأن النبي ﷺ لم ير تلك الكيفية؛ إذ أنه ولد في ذٰلك العام. ولذٰلك فالمراد بالرؤية هنا: الرؤية العلمية.

والاستفهام هنا: استفهام تعجبي، يعني: اعجب لفعل ربك بأصحاب الفيل.

﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ نبه علىٰ الكيفية.

﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ أصحاب الفيل: هم أبرهة الأشرم، ومن معه.

وأبرهة: هو حاكم نصراني من الأحباش، كان علىٰ اليمن، إذ أن أهل

الحبشة كانوا علىٰ النصرانية آنذاك، وقد استولوا علىٰ بلاد اليمن، حينا من الدهر، فنصبوا عليها حاكما منهم، يقال له: «أبرهة».

وقد جاء في التاريخ: أن هٰذا الحاكم لما رأىٰ العرب يقصدون الكعبة، قام ببناء كنيسة، سماها «القليس»، ودعا العرب إلىٰ الحج إليها؛ ليصرفهم عن الكعبة، ولٰكن العرب علىٰ رغم ما أحدثوه من الشرك، إلا إنهم أبوا ذٰلك؛ إذ كانوا يعظمون الكعبة، ويحجون بيت اللَّه الحرام؛ إتباعا لأبيهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

حتىٰ جاء رجل من كنانة، أو من بعض قبائل العرب، فتغوط ـ أكرمكم اللَّه ـ في كنيسة أبرهة، ولطخ قبلتها بالأذىٰ، فغضب أبرهة، غضبا، شديدا، وسار بالأفيال، والرجال، يريد هدم الكعبة، وكان ذٰلك في زمن عبدالمطلب، سيد قريش، جد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلما توجه إلىٰ مكة، اعترضه بعض قبائل العرب، فهزمهم؛ لقوة جنده، وجيشه. وسار حتىٰ أقبل علىٰ مكة، وأصاب عسكره إبلا لعبد المطلب.

وقد جاء في التاريخ: أن عبد المطلب، أتىٰ أبرهة، وكان عبد المطلب رجلا، وسيمًا، قسيمًا، عظيم المنظر، والشكل والهيبة، فلما رآه أبرهة، أعجبه شكله، ومرآه، ولم يرىٰ أن يصعده علىٰ سريره، فنزل إليه واستقبله.

فقال للترجمان: قل له ما حاجتك.

فقال: أصحابك استاقوا مئة بعير لي، وأريدك أن تردها علي.

فلما سمع ذٰلك منه سقط من عينه، وقال للترجمان: قل له إني حينما رأيتك أعجبني حالك، وكنت أظن أنك ستكلمني في أمر البيت.

فقال عبد المطلب: أنا رب الإبل، وللبيت رب يحميه، فافعل ما بدا لك.

فأمر برد إبله عليه، ثم ذهب عبد المطلب، ومن معه من قريش، وأمسكوا بحلق البيت، وصاروا يدعون، ويتضرعون إلىٰ اللَّه جَلَّ جَلَالُهُ أن يدفع هٰؤلاء المعتدين، حتىٰ قال عبد المطلب:

لاهُــمَّ إن العــبد يمــنع رحلــه فامــنع رحالــك
لا يغلـــبن صـــليبهم ومحــالهم أبـدًا محالــك
إن كانـت تاركهم وكعبتنا فأمـــر مـــا بـــدا لـــك

ولهٰذا قال بعضهم: إن أول من قال بالبداء، عبد المطلب، وكان هٰذا من عقائد أهل الجاهلية.

ثم إن عبد المطلب، وأهل مكة، قد خرجوا وأخلوا مكة، وصعدوا إلىٰ الجبال، يقينا منهم بأن اللَّه تعالىٰ سيحمي بيته.

فلما بلغ أبرهة منطقة الحديبية ـ وهي الواقعة بين جدة ومكة، المسماة الآن بالشميسي ـ فلما بلغها أرسل اللَّه تعالىٰ عليهم طيرا أبابيل، تأتيهم من جهة البحر، تحمل في أفواهها حجارة، صغيرة، ثم تقصفها علىٰ أبرهة وجنوده، حتىٰ كانت الحصاة، تنزل، فتخرق بيضة الرأس، وتشق بدن الراكب، وتخرج من دبره، وتخرق الفيل حتىٰ تبلغ الأرض، حتىٰ غدو ـ كما وصف اللَّه ـ كعصف مأكول. وكان ذٰلك زمن ولادة النبي ﷺ(١).

فهٰذا الموضع اختاره اللَّه تعالىٰ عن علم، وحكمة، فهو موضع شريف، كما قال اللَّه تعالىٰ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]، وللَّه تعالىٰ أن يصطفي من الأمكنة، والأزمنة، والأشخاص، ما يشاء؛ كما قال تعالىٰ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]؛ فلهٰذا الموضع خاصية، كونية، قدرية، يجب علىٰ كل مؤمن أن يرعاها، وأن يعظمها.

ومن تعظيم اللَّه لها: أن أجرىٰ هٰذه الآية العظيمة، في زمن الجاهلية؛ لأن الأمر متعلق بِهٰذا الموقع، المعظم، المكرم، فليست هٰذه البقعة كسائر البقاع. لم يزل اللَّه تعالىٰ يحمي هٰذا الموقع، الذي حرمه، حتىٰ إنه جاء في حديث أَبِي شُرَيْح أَنَّ النبي ﷺ قام الْغَدَ مِنْ يَوْمِ الْفَتْحِ، حَمِدَ اللَّه، وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّه، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ، يُؤْمِنُ بِاللَّهِ،**

(١) انظر: البداية والنهاية (٢/ ٢١٥)، السيرة لابن هشام (١/ ١٦٧).

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، أَنْ يَسْفِكَ بها دَمًا، وَلَا يَعْضِدَ بها شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللَّه ﷺ فِيهَا، فَقُولُوا إِنَّ اللَّه قَدْ أَذِنَ لِرَسُولِهِ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نهارٍ، ثُمَّ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ، كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، وَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ» رواه البخاري[(١)].

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ﴾ هٰذا استفهام تقريري، بمعنىٰ: جعل.

﴿كَيْدَهُمْ﴾ أي: تدبيرهم لهدم الكعبة، وكان من تدبيرهم، أن يأتوا بهٰذه الأفيال، التي لا تعرفها العرب، وقد قيل: إن أبرهة كان معه فيل، كبير، يقال له «محمود» فكان إذا وجهه باتجاه مكة حسر، وامتنع عن المضي، وإذا وجهه باتجاه اليمن، مضىٰ سريعًا.

وحينما قدم النبي ﷺ مكة، عام الحديبية، خلأت ناقته، يعني حرنت؛ كما جاء في حديث المسور بن مخرمة، قال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّه ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ، حَتَّىٰ إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ في خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ، طَلِيعَةٌ فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ**»، فَوَاللَّه مَا شَعَرَ بهم خَالِدٌ، حَتَّىٰ إِذَا هُمْ بِقَتَرَةِ الْجَيْشِ، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا، بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ، فَأَلَحَّتْ فَقَالُوا: خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ، خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ وَلٰكن حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ**» رواه البخاري[(٢)].

﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾: في خسار وضياع

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني بعث عليهم. أنشأها تعالىٰ وخلقها.

﴿أَبَابِيلَ﴾ قيل في تفسيرها عبارات متقاربة:

- قيل: فرقًا.

(١) صحيح البخاري (١٠٤).

(٢) صحيح البخاري (٢٧٣١).

ـ وقيل: جماعات.

ـ وقيل: متتابعة، يعني: طيرًا متتابعة.

ـ وقيل: كثيرة.

ـ وقيل: مجتمعة.

كل هٰذه المعاني صالحة، فهٰذا الطير كان فرقًا، علىٰ شكل جماعات، كثيرة، متتابعة، مجتمعة.

ولفظ ﴿أَبَابِيلَ﴾ قيل: لا واحد له من جنسه، وقيل: مفرده «إِبيِّل»، أو «إِبَّوْل»[١].

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾: ﴿تَرْمِيهِم﴾ يعني تقذفهم ﴿سِجِّيلٍ﴾ هو الطين المطبوخ. وهو ما يسمىٰ اليوم بـ «الطوب الأحمر»، قد أُدخل في الأفران، فتحول إلىٰ حجارة صلبة.

﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ يعني: فجعل ذٰلك الجيش، وهٰذا المعسكر، الذي كان يهم بهدم الكعبة.

﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾:

ـ قيل: كورق الزرع، الذي أكلته الدواب، وداسته، وأفنته.

كما لو سلط قطيع من الغنم، علىٰ حقل فيه زرع، فجعلت تقضمه، وتلفظه، وتطأه، بأقدامها. فهٰكذا بدت هٰذه الجثث، المترامية يمنة ويسرة، ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

ـ وقيل: إنه التبن، يعني: صارت هيئتهم، كالتبن المترامي، علىٰ وجه الأرض.

ـ وقال بعض السلف: مثل قشر البُر.

ـ وقيل: كورق الحنطة.

---

(١) انظر: مختار الصحاح مادة (أبل).

وهي عبارات متقاربة، تؤول إلىٰ نفس المعنىٰ، والمقصود أنهم صاروا في هيئة وضيعة، قد دمروا تدميرا، وأوقع اللَّه تعالىٰ فيهم الهلاك الشديد.

وهٰذا المعنىٰ يجب أن يقوم في قلوبنا، فنعلم أن ربنا ﷻ يمهل، ولا يهمل، وأن أخذه أليم، شديد، وأن الكفار، والطغاة، مهما أوتوا من قوة، ومهما تسلحوا من سلاح نووي، أو غيره، أن لو شاء اللَّه لأفناهم، في لمح البصر.

وتأمل تسليط اللَّه ـ ﷻ ـ الزلازل؛ ففي ثواني معدودة، يتحطم البناء، ويقع الناس تحت ركام الخرسانات، المسلحة، يستصرخون، ولا صريخ لهم.

وكذا إذا أفاض اللَّه تعالىٰ الأنهار، والبحار، كيف تجرف الناس، وتجعلهم طافين علىٰ وجهها، هلكىٰ، صرعىٰ.

و حينما تَهب الرياح، والأعاصير، فتعصف بالناس والبيوت والمراكب، وتقلبها رأسًا علىٰ عقب، فجند اللَّه ﷻ لا حصر لها. فيجب أن يقوىٰ عند الإنسان الشعور بعظمة اللَّه، وقوته، وقدرته، وأنه لا يضاهي قوته، وقدرته، شيء ممَّا يتباهىٰ به أعداء الدين، من أنواع القوىٰ، التي يلوحون بها ويهددون.

۞ الفوائد المُسْتنبطة:

الفائدة الأولى: عظيم قدرة اللَّه، وشديد بأسه، وأخذه.

الفائدة الثانية: حماية اللَّه لبيته الحرام، وإهلاك من يريده بإلحاد، أو إفساد.

الفائدة الثالثة: الإرهاص بمولد نبيه ﷺ، وبعثته، والمقصود بالإرهاص: المقدمات السابقة لمولد نبيه ﷺ، وبعثته، فلم يكن هٰذا من باب الموافقة، والصدفة، أن يجري هٰذا الحدث في عام مولده ﷺ. كأن اللَّه ﷻ أراد أن يهيأ الناس، بِهٰذا الحدث العظيم، لأمر عظيم، وهو بعثة محمد ﷺ.

وقد رافق مولد النبي ﷺ حوادث كونية أخرىٰ، قال ﷺ: «**رَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ**» رواه أحمد[1]، حتىٰ إن أهل الكتاب شعروا بذٰلك، وعلموا أنه قد أظلهم زمان نبي.

(١) مسند أحمد (٢٢٢٦١)، المستدرك للحاكم (٤١٧٥)، صححه الألباني في الصحيحة (١٥٤٥).

سورة قريش

مقصد السورة:

تهدف هٰذه السورة إلىٰ بيان الواجب علىٰ أهل الحرم، قريش، وهو تحقيق التوحيد، شكرًا للَّه.

وقريش أشرف قبائل العرب، فقد قال نبينا ﷺ كما في حديث وَاثِلَةَ بْنَ الْأَسْقَعِ: «**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَىٰ قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**» رواه مسلم[1]، وقد أكرمها اللَّه، وأحلَّها هٰذا الموضع، وقلدها سدانة بيته.

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾:

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾: جار ومجرور، وكل جار ومجرور لابد له من متعلق:

ـ فقيل: متعلق بقوله تعالىٰ في آخر السورة ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾، يعني أن إيلافهم موجب لعبادتهم رب هٰذا البيت.

ـ وقيل: متعلق بفعل محذوف، تقديره: «عجبًا»، أو: «اعجبوا»، ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾، كما قيل في قول اللَّه تعالىٰ: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾: اعجبوا لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ.

---

(١) صحيح مسلم (٢٢٧٦).

ـ وقيل: متعلق بسورة «الفيل» ـ وهٰذا من أعجب ما قيل!! ـ يعني أن اللَّه ﷻ، لما ذكر ما ذكر في سورة «الفيل»، وأنه جعلهم كعصف مأكول، أتبعه بقوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾، يعني أن ذٰلك الذي جرىٰ وحصل لأجل إيلاف قريش.

معنىٰ «إِيلَافِ»:

١ ـ قيل: جمْع، كما تقول ـ مثلًا ـ : «آلفت بين هٰذه الأشياء، فصنعت منها كذا، وكذا» أو «آلفت بين هٰذه النصوص، فجمعت منها بحثًا أو كتابًا.

٢ ـ وقيل: من أَلِف، أي: اعتاد.

وعلىٰ هٰذا يكون معنىٰ ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ﴾ في قوله: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾:

ـ علىٰ القول الأول: جمعهم بين الرحلتين؛ رحلة الشتاء، والصيف.

ـ وعلىٰ الثاني: اعتيادهم علىٰ هاتين الرحلتين.

وبهٰذا يكون المعنىٰ الإجمالي لقوله تعالىٰ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾.

ـ اعجبوا لجمع قريش، بين رحلتي الشتاء والصيف.

ـ أو اعجبوا لاعتياد قريش علىٰ هاتين الرحلتين، في الشتاء والصيف.

ـ وثم معنىٰ ثالث، ينقدح في الذهن، وهو أن المقصود بـ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾ هو: تأليفهم لقبائل العرب، بحيث يقطعون هٰذه الرحلة، إلىٰ الشمال، وهٰذه الرحلة إلىٰ الجنوب، دون أن يتعرض لهم أحد، من قبائل العرب، مع أن العرب في أيام الجاهلية، كان قوام كسبهم السلب، والنهب، والغزو، وقطع الطريق، فاعجبوا كيف تمكنت قريش من إيجاد الألفة، والتآلف، مع هٰذه القبائل، التي تمر بها، في طريقها إلىٰ الشام، وفي طريقها إلىٰ اليمن، دون أن يقع لهم قطع طريق، أو عدوان!

﴿رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ في الشتاء، كانوا يرحلون إلىٰ اليمن؛ لدفئها.

وفي الصيف، يرحلون إلىٰ الشام؛ لبرودتها. كانوا يرحلون للتجارة، وذٰلك أن بلدهم، كما وصف اللَّه تعالىٰ: «وَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ»، فقامت معيشتهم علىٰ التجارة، في رحلتي: الشتاء، والصيف. وهٰذا الانفتاح الحضاري، بالإضافة إلىٰ وجود البيت الحرام، أدىٰ إلىٰ أن تكون مكة «أم القرىٰ»، وأن يكون أهلها، علىٰ قدر كبير من الثقافة، والاطلاع، والعلم بأحوال الناس والاتصال بهم، تمهيدًا لبعثة النبي ﷺ، وتأهيله لحمل الرسالة.

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾: لمَّا قدم اللَّه امتنانه علىٰ قريش، رتب علىٰ ذٰلك أمرهم بعبادته وحده، مقابلة للنعماء، بالشكران. فلا يليق بهم أن يجاورا بيت اللَّه، ويعبدوا غيره، ولا يليق أن ينعم اللَّه تعالىٰ عليهم، النعم العظيمة، من تيسير أرزاقهم، ومعاشهم، في رحلة الشتاء، والصيف، ثم يشركوا بعباته أحدًا.

فيجب علىٰ ساكن مكة، أن يقوم بعبادة اللَّه ﷻ، وأن يعلم أنه علىٰ بساط الملك، فالذي يعصي الملك علىٰ بساطه، ليس كالذي يعصي الملك في أطراف مملكته. ولهٰذا كان لعبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما فسطاطان: أحدهما في الحلّ، والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحلّ، فسئل عن ذٰلك، فقال: كنا نحدّث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل: كلا واللَّه، وبلىٰ واللَّهِ(١). فيجب أن يكون بيت اللَّه، وحرم اللَّه، موئلًا للتقاة، وأهل الطاعة، والورع؛ من الطائفين، والعاكفين، والقائمين، وأن يطهر من أهل الشرك، والبدعة، والفسق. ما يلي مكة، من البلدان، ولهٰذا جعل اللَّه تعالىٰ هٰذه الجزيرة، موئلًا للإسلام، يأرز إليها. والعرب هم أولىٰ الناس بدين الإسلام، والدفاع عنه. واللَّه أعلم حيث يجعل رسالته، فاختار اللَّه تعالىٰ العرب، واختار أن يكون نبيه منهم، عن علم، وحكمة، فهم حفظة دينه، الذين يجاهدون في سبيله، وينشرونه في الآفاق.

﴿هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ المشار إليه هو: ما يعرفونه، ويعهدونه، وهو الكعبة.

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٥١٠).

﴿ ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ ﴾ مع أنهم في وادٍ غير ذي زرع.

﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾: مع أنهم في بيئة جاهلية مضطربة.

اختلف في المراد بالخوف:

- فقيل: آمنهم من الغارات، والثارات، والسلب، والنهب، التي كانت سائدة في جزيرة العرب، فهٰذا أمر يدعو للعجب، ويوجب أن يقابل بالشكر.

- وقيل: آمنهم من الجذام! لٰكن تخصيص المعنىٰ بالأمن من مرض الجذام، دون غيره، بعيد؛ لأن اللَّه تعالىٰ أطلق فيدخل فيه كل خوف، سواء كان من مرض، أو عدو، أو غير ذٰلك من المخاوف. فهي القبيلة الوحيدة، التي تأمن من أن يغير عليها أحد. حتىٰ إنه إذا وقع بين قريش، وبين بعض قبائل العرب حرب، فدخلوا في حد الحرم، كفوا. لأنهم رأوا أنهم قد فجروا، وانتهكو حرمات اللَّه ﷻ، وكذٰلك بقية العرب، يلقىٰ الرجل قاتل أبيه، في الحرم، فلا يعرض له بسوء.

فالخائف، لا يمكن أن يهنأ بطعام، حتىٰ وإن كان الطعام موفورًا عنده. والجائع، لا يمكن أن يهنأ بأمن ولو كان مستتبا، فلا تتم النعمة الدنيوية، إلا بالشبع، والأمن.

وهٰذه المنة ليست خاصة بقريش، فربما ذٰلك لكثير من بني آدم، فوجب أن يقابلوها بالشكر. وتدبر هٰذا المثل الذي ضربه اللَّه في قوله: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ ﴾ [النحل: ١١٢]، فهي قرية تنعم بالأمن، والشبع، ﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾، فعوقبوا بالجوع، والخوف.

❁ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: منة اللَّه تعالىٰ علىٰ قريش، وأهل حرمه.

الفائدة الثانية: تحقق دعوة إبراهيم عليه السلام، لأهل الوادي، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فتحققت الدعوة، وصار يجبىٰ

إليه ثمرات كل شيء، ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

الفائدة الثالثة: أن تمام النعمة الدنيوية: بالشبع، والأمن. واختلالها: بفقدهما، أو فقد أحدهما، أو نقصهما، أو نقص أحدهما.

الفائدة الرابعة: أن أولىٰ الناس بعبادة اللَّه، والقيام بدينه، هم أهل حرمه.

الفائدة الخامسة: شرف البيت الحرام؛ لإضافته إليه سبحانه. والمضاف إلىٰ اللَّه نوعان:

أحدهما: أن يكون المضاف عينًا قائمة بذاتها: فيكون من باب إضافة المخلوق إلىٰ خالقه؛ إما إضافة محضة، كعبد اللَّه، أو إضافة تشريف، كبيت اللَّه، وناقة اللَّه.

الثاني: أن يكون المضاف لا يستقل بنفسه، بل يقوم بمن أضيف إليه: فيكون من باب إضافة الصفة إلىٰ الموصوف، كعلم اللَّه، وعزة اللَّه، ووجه اللَّه.

سورة الْمَاعون

سورة «الماعون» سميت بِهٰذا الاسم؛ لورود هٰذه الكلمة فيها.

ومقصد السورة:

بيان العلاقة، والصلة الوثيقة بين العقيدة، والسلوك، وذم الرياء. فالسلوك ثمرة، وأثر للعقيدة، التي تقوم في القلب، فهي تشترك مع سورة «الهمزة» في هٰذا المقصد، غير أن سورة «الماعون» يزيد في مقاصدها: ذم الرياء.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ① فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ② وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ③ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ④ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ⑤ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ⑥ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ⑦﴾:

﴿أَرَءَيْتَ﴾ هٰذا أسلوب استفهام؛ فالهمزة: همزة الاستفهام، والخطاب موجه للنبيﷺ ومعنىٰ ﴿أَرَءَيْتَ﴾: أخبِرني، وهو استفهام إنكاري، أريد به الإنكار علىٰ من يكذب بالدين.

﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ الدين: الحساب، والجزاء. فاللَّه تعالىٰ ينعي، علىٰ من ينكر البعث، وما يتلوه، من حساب، وجزاء.

ثم وصف اللَّه تعالىٰ، هٰذا المكذب بالدين، بجملة أوصاف، مسلكية، فقال:

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ②﴾ يعني: أن من شأنه، أنه يَدُعُّ اليتيم.

﴿يَدُعُّ﴾، اختلف في معناها:

ـ فإما أن تكون بمعنىٰ: يدفع، وهو ما يدل عليه، ظاهر اللفظ، كما في

قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣﴾، فـ «الدَّع»: بمعنىٰ الدفع، فكأنه باستهانته، بذٰلك اليتيم، يدفعه بيده، ولا يبالي.

ـ وإما أن تكون بمعنىٰ: يظلم ويقهر. وهٰذا أعم؛ لأن الدَّع باليد، يدخل في الظلم، والقهر، وقد نَهَىٰ اللَّه تعالىٰ، عن قهر اليتيم؛ قال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾.

و﴿ٱلْيَتِيمَ﴾: هو من مات أبوه، ولم يبلغ الحلم.

والغالب في حال اليتيم، الضعف؛ حيث لا أحد يمنعه، ولا يذب عنه. وقد كان أهل الجاهلية، يستطيلون علىٰ صنفين: المرأة، واليتيم. ولهٰذا أوصىٰ النبي ﷺ فقال: «**اللَّهم إني أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمِ، وَالْمَرْأَةِ**» رواه النسائي وابن ماجه[1].

ثم وصف ـ تعالىٰ ـ هٰذا المكذبَ، بوصف آخر، فقال: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾: يعني: لا يحث نفسه، ولا غيره.

﴿طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ يعني: إطعام المسكين.

فهو لا يحث نفسه، ولا يحث غيره، علىٰ إطعام المسكين، بل ربما تمادىٰ به الحال، فدعا إلىٰ ضد ذٰلك، كقول اللَّه تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧]، وهٰذه مرتبة أسوأ، من مجرد عدم الحض، علىٰ طعام المسكين.

ونلاحظ أن هاتين الصفتين، «ظلم اليتيم وقهره، وإطعام المسكين»، قد تكرر التنبيه عليهما، في غير ما سورة، من سور جزء «عمَّ»:

ـ ففي سورة «الفجر»، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨﴾.

ـ وفي سورة «الضحىٰ»، قال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ والسائل: هو المسكين، الذي يسأل، ويستجدي.

---

(١) النسائي في الكبرى (٩١٤٩)، سنن ابن ماجة (٣٦٧٨) وحسنه الألباني.

ـ وفي سورة «البلد»: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

فهٰذا يلفت الانتباه، إلىٰ هاتين الصفتين، الخُلقيتين، المسلكيتين، وكيف اعتنىٰ بهما القرآن العظيم، ولاسيما في العهد المكي، الذي لم تنزل فيه التشريعات بعد؛ حيث كان القرآن المكي، يركز علىٰ العقائد، والقيم، والأخلاق. فينبغي للإنسان، أن يهتم بِهٰذين الصنفين: «اليتيم، والمسكين». تعظيما لما عظم اللَّه تعالىٰ.

ثم تحول السياق إلىٰ نمط آخر، فقال ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾﴾:

﴿فَوَيْلٌ﴾: اختلفت الأقوال في معنىٰ «وَيْلٌ»:

ـ فقيل: هي كلمة ردع، وتهديد، ووعيد.

ـ وقيل: إنها وادٍ في جهنم.

﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ ليس المراد مطلق المصلين، بل المصلون الذين أتىٰ وصفهم بعد ذٰلك.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾: لم يقل اللَّه: «الذين هم في صلاتهم ساهون» وإلا لكان الأمر جد عظيم، فمن منا لا يقع له سهو في صلاته؟! فمن لطف اللَّه بعباده، أن قال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾.

﴿سَاهُونَ﴾ قيل في معناها:

ـ أي: غافلون عنها، ولا يبالون بها.

ـ وقيل: يؤخرونها، حتىٰ تخرج عن وقتها، كما وصف النبيﷺ: «**تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرني الشَّيْطَانِ قَامَ فَنَقَرَ أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا**» رواه مسلم[(١)].

ـ وقيل: يتركونها بالكلية.

---

(١) صحيح مسلم (٦٢٢).

والواقع أن هٰذه المعاني، متلازمة ـ أو متقاربة ـ ؛ فكل سهو وغفلة عن الصلاة، يؤدي إلىٰ التأخير ثم إلىٰ التَّرك، ويدل علىٰ عدم الاهتمام بِهٰذه الشعيرة، العظيمة. وذٰلك بخلاف أهل الإيمان؛ فإن الصلاة في قلوبهم، من أجِّل العبادات، ومن ألذ القربات، فنعيمهم، وقرة أعينهم، في الصلاة؛ كما في حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**وجُعلت قرة عيني في الصلاة**» رواه النسائي[1].

فهٰذا يؤكد علىٰ أهمية العناية بالصلاة، وأعظم ما في الصلاة هو الخشوع؛ فإنه لبها ﴿**قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢**﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢].

كما يؤكد يحذر من الغفلة والسهو فيها، ففي حديث عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ، وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عُشْرُ صَلَاتِهِ، تُسْعُهَا، ثُمْنُهَا، سُبْعُهَا، سُدْسُهَا، خُمْسُهَا، رُبْعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا**» رواه أبو داود[2].

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ﴾: مأخوذة من الرياء يعني: إن هم صلوا، فإنهم يقصدون بذٰلك مراءاة الناس، فهم يظهرون خلاف ما يبطنون. ويصلون لأجل نظر الناس، ويُرونهم خلاف ما هم عليه في الواقع، فهم منافقون.

ولا شك أن الرياء شرك، لٰكنه ربما في بعض الأحوال يكون شركا أصغر، وربما طغىٰ، وعم، فنقل صاحبه إلىٰ الشرك الأكبر، فقد يعرض الرياء للمسلم، فيبطل عمله الذي قارنه، وقد يقع الرياء في جميع أعماله، فينقلب كافرًا، خارجًا عن الملة.

وقد يقع المسلم الحنيف، أسير الرياء، فتغلبه نفسه، لما يرىٰ من نظر فلان، أو علان، فربما حسن صلاته، وركوعه، وسجوده، لأجل نظر فلان، فحينئذ:

ـ إن كان ذٰلك من قبيل الخاطر، الذي هجم عليه، فاستعاذ منه، لم يضره،

---

(١) سنن النسائي (٣٩٤٠) وصححه الألباني.

(٢) سنن أبي داود (٧٩٦) وحسنه الألباني.

وصحت صلاته.

ـ وإن استرسل معه، بطلت صلاته، كلها؛ لأن الصلاة عبادة، ذات هيئة مجتمعة.

ـ أما إن كان هٰذا الرياء في عبادة، ذات أجزاء متفرقة، لا ينبني بعضها علىٰ بعض، فإنه يبطل ما قارنه فقط، كما لو أخرج زكاة ماله، علىٰ دفعات، فقارنه الرياء في إحدىٰ هٰذه الدفعات، فإنها تبطل تلك الحصة، التي قارنها الرياء، وأما ما سواها فإنه صحيح(١).

وقد ذهب بعض العلماء، إلىٰ أن هٰذه السورة، ليست مكية بأكملها، وإنما المكي منها الآيات الأُول، وهي: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ① فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ② وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ③﴾، وأما قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ إلىٰ آخر السورة، قالوا: إنها مدنية؛ لأن النفاق لم يكن في مكة، وإنما نجم في المدينة بعد غزوة بدر.

ولٰكن الناظر في نسق الآيات، يجد أنها متناسبة، وأنها بمجموعها، من جنس القرآن المكي، ذي الفواصل القصيرة، ولا يمنع أن ينبه اللَّه تعالىٰ، علىٰ مسألة أصلية، ولو في العهد المكي؛ كما قال تعالىٰ في سورة مكية ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٧]، مع أن الزكاة لم تشرع إلا في المدينة. فلا يمنع أن تكون السورة، بكاملها مكية.

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ⑦﴾: قيل في تفسير ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ أقوال متعددة:

ـ فقيل: إنه مطلق المنفعة يعني: كل ما فيه نفع، فهو ماعون.

ـ وقيل: إنه العارية.

ـ وقيل: إنه الزكاة، يعني: يمنعون الزكاة.

ـ وفسر ببعض أنواعه؛ فقيل: إنه الدلو، والحبل، والقدر، والإبرة، وما أشبه.

---

(١) انظر: القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد (١١٧ ـ ١١٨).

فمن شأن هٰؤلاء المصلين ﴿عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ من شأنهم أنه لا خير فيهم، ولا نفع، فهم يحجبون نفعهم، عن غيرهم، إلىٰ حد أنهم يمنعون الأشياء البسيطة، التي تعود الناس، أن يتخادموا فيها، كإعارة الدلو، والقدر، والإبرة، وما أشبه.

فهٰذه السورة ترسم صورة منفرة، للكافر، الذي لم يحل الإيمان في قلبه، وكيف أن سلوكه، صار سلوكا مشينا:

- فهو شديد الغلظة علىٰ اليتيم، مع أن اليتيم محل الرأفة، والرحمة.
- وهو أيضًا لا يبالي بالمسكين، الذي يستدر الدمعة، ويثير العطف.
- وهو أيضًا لا يبالي بأمر الصلاة، التي هي الصلة بين العبد، وربه.
- وإن أداها، أداها علىٰ وجه المراءاة.
- وهو كذٰلك، لا خير فيه، ولا نفع متعدي، بل هو أناني.

فكل هٰذه الأوصاف، المسلكية، نتيجة، وثمرة للكفر، الذي حل في قلبه.

۞ الفوائد المُسْتنبطة:

الفائدة الأولى: إنكار اللَّه، علىٰ منكر البعث.

الفائدة الثانية: أثر إنكار البعث علىٰ السلوك، فالكافر لما كذب بالدين، جاءت تصرفاته علىٰ هٰذا النحو، ولو كان مقرا بالبعث، والجزاء، والحساب، لاستقام.

الفائدة الثالثة: أن الصلاة بغير صلة باللَّه، وإخلاص له، لا نفع فيها، فما ينتفع العبد من صلاته، إلا إذا اتصل قلبه بخالقه، وبارئه، وأخلص العبادة له. فتلكم الصلاة التي تنهىٰ عن الفحشاء، والمنكر.

الفائدة الرابعة: أن الرياء من الشرك؛ لأنه جاء في وصف المشرك، الكافر.

الفائدة الخامسة: بيان حزمة من الأخلاق الكفرية، وأن أضدادها أخلاق

إيمانية.



سورة الكوثر

مقصد السورة:

بيان كرامة النبي ﷺ عند ربه، وصنيعه بأعدائه.

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾:

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾: الضمير يرجع إلىٰ اللَّه ﷻ، وهو في أصل وضعه في اللغة، يدل علىٰ الكثرة، لٰكنه هنا يدل علىٰ التعظيم.

فلو ادعىٰ النصراني الْمُثَلِّث، الذي يقول: «اللَّه ثالث ثلاثة»، أو يقول: «الأب، والابن، وروح القدس، إلٰه واحد»، أن مثل هٰذا الضمير يدل علىٰ مبدئه الباطل، قيل له: هٰذا المتشابه عندك، يرفعه المحكم في قول اللَّه تعالىٰ ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [البقرة: ١٦٣][(١)].

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ المعطي هو اللَّه.

﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ تنوعت عبارات المفسرين في المراد به:

- فقيل: الْكَوْثَرَ علىٰ وزن فَوْعَل، صيغة مبالغة، تدل علىٰ مطلق الخير، فاللَّه ﷻ أعطاك عطاءً جمًّا كثيرًا، من النبوة، والحكمة، والتمكين، والشفاعة، والنعيم الأخروي، وغير ذٰلك، فيتناول كل خير، فله منه أكثره، وأفضله.

- وقيل: إن الْكَوْثَرَ: نهر في الجنة، ويشهد لهٰذا حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، إِذْ أَغْفَىٰ إِغْفَاءَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا: فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّه؟ قَالَ: أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ،

---

(١) الرسالة التدمرية (١٠٩).

فَقَرَأَ: بِسْمِ اللَّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ٣﴾. ثُمَّ قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟**» فَقُلْنَا: اللَّه وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي** ﷻ **عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: رَبِّ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ**» رواه مسلم[(١)].

ـ وقد عمد بعض المفسرين، إلىٰ العموم، وقال: لا يمتنع أن يدخل قول من قال: «هو نهر في الجنة»، بالقول الأول، الذي يدل علىٰ الخير الكثير؛ فإن من الخير، الكثير، هٰذا النهر العظيم، الذي أكرم اللَّه تعالىٰ به نبيه ﷺ، في الجنة، لا يحيط به وصف.

ومما جاء أن الحوض، الذي يكون في عرصات القيامة، يصب فيه ميزابان، من نهر الْكَوْثَرَ. فعن ثوبان أن النبي ﷺ سئل عن سعة الحوض فقال: «**ما بين مقامي هٰذا إلىٰ عمان ما بينهما شهر أو نحو ذٰلك**» فسئل رسول اللَّه ﷺ عن شرابه، فقال: «**أشد بياضًا من اللبن، وأحلىٰ من العسل، يصب فيه ميزابان مداده أو مدادهما من الجنة أحدهما ورق والآخر ذهب**»[(٢)]. ولما كان ماء الحوض: أحلىٰ من العسل، وأبيض من اللبن، وأطيب من ريح المسك، فلا شك أن الأصل، سيكون من هٰذا، وأعلىٰ.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ٢﴾:

ـ إما أن يراد مطلق الصلاة، يعني: صلِّ للَّه، وحده، لا شريك له، خلافًا لصنيع المشركين، الذين يركعون، ويسجدون، لغير اللَّه.

ـ وقيل: إن المراد بالصلاة، صلاة عيد النحر، خصوصًا؛ لأنه قال بعدها: ﴿وَٱنْحَرْ﴾، والصلاة يوم عيد النحر، تكون قبل النحر.

وقد وقع الخلاف في قوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾:

---

(١) صحيح مسلم (٤٠٠).

(٢) مصنف ابن ابي شيبة (٣٤١٠٤).

ـ فقيل معناها: اذبح نسكك، يوم عيد النحر.

ـ وقيل: إنها مطلق النحر، تقربًا للَّه تعالىٰ.

ـ وقيل: معنىٰ ﴿وَٱنْحَرْ﴾: «وضع اليمين علىٰ الشمال في الصلاة عند النحر»[1]. وهو مروي عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والنحر في الإنسان، تحت العنق.

ـ وقيل: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ أي: استقبل بيديك، القبلة، وارفعهما عند التكبير؛ فإن من معاني النحر، عند العرب: «المواجهة، والمقابلة» كما يقال مثلًا: «فأتىٰ إليه، في نحر الظهيرة» يعني: مستقبل الظهيرة، ومنه قولهم: «تناحر الفريقان» حينما يتقابلان، ويصير كل فريق وُجاه الفريق الأخر.

وأقرب هٰذه الأقوال ـ واللَّه أعلم ـ أن المراد بها: الذبح، سواء كان ذبح النسيكة، يوم عيد النحر، أو مطلق الذبح، تقربا للَّه عَزَّ وَجَلَّ.

وقد جمع اللَّه بين الصلاة والنحر في غير ما موضع، فقال هنا: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾. وقال في السورة الأخرىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام: ١٦٢]، فهٰذا يدل علىٰ أن هاتين العبادتين، من أجل العبادات. وصرفهما لغير اللَّه شرك أكبر.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي: مبغضك.

﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾:

ـ قيل معناها: أي المقطوع، أو المنقطع عن كل خير.

ـ وقيل معناها: المنقطع العقب، يعني: أنه ينقطع عقبه، ويندرس ذكره.

ـ وقيل نزلت في أحد كفار قريش، إما «العاصي بن وائل السهمي»، وإما «عقبة بن أبي معيط»، وكلاهما من صناديد، قريش، الذين كانوا يؤذون النبي ﷺ. وذٰلك أنه لما مات القاسم ابن النبي ﷺ، قال: «**لا يهمنكم أمر محمد؛ فإنه أبتر، لا عقب له**»[2]، أي لا يبقىٰ له عقب، وعندهم في الجاهلية، إن الذي

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٢٤٣٣).

(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٦٨٩).

لا يبقىٰ له عقب، لا يستمر أمره. فقال اللَّه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾.

فكل من عادىٰ نبينا ﷺ، فمآله إلىٰ سفال، وبوار، وخسار. شهد اللَّه بذٰلك في هٰذه الآية، وشهد التاريخ بِهٰذا، فمن تلطخ بمذمة النبي ﷺ أذله اللَّه، وانتقم منه، حتىٰ إن أحد ملوك الصليبيين، الذين هجموا علىٰ الثغور الشامية، زعم أنه يأتي المدينة، وينبش قبر النبي ﷺ، فغضب لهٰذا الأمر، الملك الصالح صلاح الدين الأيوبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلما أمكنه اللَّه، من ملوك الصليبيين، وأتي بهم أسرىٰ، موثقين، بين يديه، عفا عنهم، إلا هٰذا الشانئ البغيض، فقتله صبرًا، انتقامًا لنبيه ﷺ.

وهٰؤلاء المتطاولون، في السنيات الأخيرة، علىٰ مقام نبينا ﷺ بالرسوم المسيئة، وبالكلمات البذيئة، مآلهم إلىٰ ذٰلك، أيضًا، وقد أرانا اللَّه بعض صنيعه بهم، والبقية آتية، إن شاء اللَّه.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: المنة التامة، للَّه، تعالىٰ علىٰ نبيه ﷺ، فما من أحد نال منة من اللَّه، كما نال محمد ﷺ.

الفائدة الثانية: مقابلة المنة، بالشكر، والعبادة.

الفائدة الثالثة: أن الصلاة، أفضل العبادات، البدنية.

الفائدة الرابعة: أن الذبح، أفضل العبادات، المالية.

الفائدة الخامسة: السنة الكونية في اضمحلال، أعداء نبيه ﷺ وذهاب ريحهم ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾.

سورة الكافرون

مقصد السورة: بيان حقيقة التوحيد العملي.

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ قُرَيْشًا دَعَتْ رَسُولَ اللَّه ﷺ إِلَىٰ أَنْ يُعْطُوهُ مَالا فَيَكُونُ أَغْنَىٰ رَجُلٍ بِمَكَّةَ، وَيُزَوِّجُوهُ مَا أَرَادَ مِنَ النِّسَاءِ وَيَطَأُونَ عَقِبَهُ، فَقَالُوا: هٰذا لَكَ عِنْدَنَا يَا مُحَمَّدُ، وَكُفَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِنَا، وَلاَ تَذْكُرْهَا بِشَرٍّ، فَإِنْ بَغَضْتَ فَإِنَّا نَعْرِضُ عَلَيْكَ خَصْلَةً وَاحِدَةً، وَلَكَ فِيهَا صَلاحٌ، قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَوا: تَعْبُدُ إِلٰهنَا سَنَةً؛ اللاتَ وَالْعُزَّى، وَنَعْبُدُ إِلٰهكَ سَنَةً، قَالَ: حَتَّىٰ أَنْظُرَ مَا يَأْتِينِي مِنْ رَبِّي. فَجَاءَ الْوَحْي مِنْ عِنْدِ اللَّه تعالىٰ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون: ١ ـ ٢] السُّورَةَ، وَأَنْزَلَ اللَّه تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤﴾ [الزمر: ٦٤] ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾ [الزمر: ٦٦][1].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾:

﴿قُلْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ.

وهٰذه اللفظة جزء من السورة، كما أنها جزء من جميع القواقل، والقواقل هي: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المنادىٰ: مشركو مكة.

---

(١) المعجم الصغير للطبراني (٧٥١)، وحسنه الألباني في صحيح السيرة (٢٠٦).

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢﴾ يعني: لا أعبد في الحال، ولا في الماضي، ولا في المستقبل، ما تعبدون من الأصنام، فتبرأ من عبادة الأصنام، وغيرها، مطلقا.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣﴾ يعني: ولا أنتم عابدون، في الحال، ما أعبد. فهم في هٰذه الحال، لا يعبدون اللَّه ﷻ، وإن زعموا ذٰلك، فقد نفىٰ عنهم وقوع عبادة اللَّه، لأن عبادتهم التي يزعمون أنها للَّه، مشوبة بالشرك.

وعبادة اللَّه، لا يمكن أن تكون إلا خالصة، فعن أَبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يقولُ: «**قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**» رواه مسلم[(١)].

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤﴾: جاءت هنا بصيغة، الجملة الاسمية الدالة علىٰ الثبوت، والدوام وفي الآية الثانية من السورة، جاءت بصيغة الجملة الفعلية الدالة علىٰ الحال والمضارعة ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾. فقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ﴾ يعني في المستقبل، والمعنىٰ: اقطعوا الأمل! لا أوافقكم علىٰ عبادتكم، لا في الماضي، ولا في الحاضر، ولا في المستقبل.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥﴾ يعني: أنكم أنتم أيضا، لا في الحال، ولا المستقبل، تعبدون ما أعبد، ما دمتم مستمرين، علىٰ الشرك.

﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ﴾ وهو دين الشرك.

﴿وَلِيَ دِينِ﴾ وهو دين الإسلام، والتوحيد. هٰكذا، بحذف الياء، باتفاق القراء السبعة، وإن كان غير السبعة، قد أثبتها، فقرأ: «ديني».

ولو تأملنا في هٰذه السورة، لوجدنا فيها تكرارًا، وهٰذا التكرار، في الحقيقة، ليس متطابقًا، بل جاء مرة، بالجملة الفعلية: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢﴾، ومرة، بالجملة الاسمية: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥﴾، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤﴾ والجملة الاسمية، تدل علىٰ: الثبوت، والاستمرار.

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٨٥).

وفائدة التكرار: التأكيد علىٰ المفاصلة التامة، بين عبادته، وعبادتهم، وبين دينه، ودينهم. فهٰذه السورة، تتعلق بأمر العبادة، التي هي التوحيد العملي.

فإن التوحيد ينقسم إلىٰ قسمين:

- توحيد عملي.
- وتوحيد علمي

فالنوع الأول: التوحيد العملي، ويسمي أيضًا: توحيد العبادة، وتوحيد الإلوهية، وتوحيد القصد والطلب، وكل هٰذه الاصطلاحات الأربعة، بمعنىٰ واحد. وهٰذا النوع من التوحيد، هو ما دلت عليه سورة «الكافرون»، فهي متخصصة في توحيد العبادة.

النوع الثاني: التوحيد العلمي، ويسمىٰ أيضًا التوحيد النظري، وتوحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، فهٰذه أربعة اصطلاحات مترادفة. وهٰذا النوع من التوحيد، هو الذي تدل عليه سورة (الإخلاص) كما سيأتي إن شاء اللَّه.

فلا يتم الدين إلا باجتماع أمرين:

أحدهما: عبادة اللَّه وحده، والثانية البراءة من الشرك، كما قال تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، يعني مائلين عن الشرك، وقال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقد كان النبي ﷺ يقرن بين، هاتين، السورتين: سورة «الكافرون»، وسورة «الإخلاص»، في قراءة الصلاة، لما فيهما من الدلالة، علىٰ التوحيد، بنوعيه، فيقرأهما في:

- راتبة الفجر.
- ركعتي الطواف.

- الوتر يقرأ في الأولىٰ بـ﴿سَبِّحِ﴾، وفي الثانية بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي الثالثة بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

تنزل هٰذه الآيات علىٰ النبي ﷺ، وهو في حال استضعاف، حينما كان في مكة، ومع ذٰلك يتوجه، بِهٰذا الخطاب العقدي العظيم، الواضح، الذي لا لبس فيه، ولا غموض.

وربما قال قائل: ألا يسع في وقت الضعف، أن يُلين الداعية العبارة، ليدفع عن نفسه؟ نقول: لو ساغ ذٰلك في شيء، لم يسغ في باب الاعتقاد. لابد من الوضوح في طرح العقيدة، وبيانها، وعدم اللبس علىٰ الناس، لاسيما لأهل العلم، ومن يصدر عنهم العامة، فإن عليهم، من المسؤولية، ما ليس علىٰ غيرهم.

فالأمر ليس فيه أنصاف حلول، ولا تنازلات، ولا مماكسات! هٰذا دين اللَّه ﷻ، لا يسع أحدًا، أن يزايد فيه، وأن يتنازل عن بعض ما أمر به. قد يسع الإنسان، أن يتقي تقاة، إذا لم يستطع أن يقول كلمة الحق، ولم يطق البلاء، وله في ذٰلك سعة، كما قال اللَّه ﷻ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] لٰكن المرتبة العليا، والمقام الأسمىٰ، لمن جهر بالحق، وصدع به، وهٰذا يتأكد في حق العلماء.

ولهٰذا وقف الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في عام الفتنة، وقفة قوية، مع أنه كان يسعه، أن يتأول. دخل عليه، مرة، علىٰ بن المديني، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو من كبار المحدثين، من رجال البخاري، فروىٰ بسنده، حديث عمار: أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّىٰ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ ثُمَّ تَرَكُوهُ فَلَمَّا أَتَىٰ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: «**مَا وَرَاءَكَ؟**». قَالَ: شَرٌّ يَا رَسُولَ اللَّه مَا تُرِكْتُ حَتَّىٰ نِلْتُ مِنْكَ وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ. قَالَ: «**كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟**» قَالَ: مُطْمَئِنًا بِالإِيمَانِ. قَالَ: «**إِنْ عَادُوا فَعُدْ**»[(١)]. فتنحىٰ عنه الإمام أحمد، وولاه ظهره، وقال: لا يعرفون من الدين، إلا حديث عمار!، عمار ضرب، فأجابهم إلىٰ

---

(١) المستدرك (٣٣٦٢) وصححه الحاكم، السنن الكبري للبيهقي (١٦٦٧٣).

بعض ما طلبوا، وأنتم قيل لكم: إنكم ستضربون، فأجبتموهم، إلىٰ ما طلبوا. فقال: واللَّه ما رأت عيناك مثلك.

فمن استطاع أن يقوم بدين اللَّه، ويصدع بالحق، فهٰذا أعلىٰ المراتب، ومن ضعف عن ذٰلك، فأمره إلىٰ اللَّه ﷻ، لٰكن هٰذه السورة تؤكد أن أمر الدين، لا يجوز أن يداهن فيه، ولا أن يلبس علىٰ الناس فيه.

يجب أن يُبين الإسلام، نقيًّا، بريئًا، من كل شائبة، ولا يجوز بحال، من الأحوال، أن يمزج باليهودية، أو النصرانية، أو غيرها، من الملل الوثنية، ولا أن تجعل الأديان علىٰ حد سواء، ولا أن يُسوَّغ اعتناق أي منها، بدعوىٰ أن جميعها صحيح، وأنها توصل إلىٰ اللَّه! ولا الدعوة المطلقة إلىٰ الاعتراف بالآخر! واحترام قيم الأخر! ونحو ذٰلك من العبارات، التي توقع في نفوس الجهال، أن لكل أحد أن يتدين بما شاء! فيجب أن يبين أن دين اللَّه تعالىٰ، دين واحد، هو الإسلام، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومعنىٰ قوله ﷺ: «**وَالَّذِىٰ نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لاَ يَسْمَعُ بِىٰ أَحَدٌ مِنْ هٰذه الأُمَّةِ؛ يَهُودِىٌّ، وَلاَ نَصْرَانِىٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِىٰ أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**» رواه مسلم[(١)].

فلا يجوز أن تسمىٰ، اليهودية، والنصرانية، أديانًا سماوية؛ لأن في ذٰلك تصحيح لها، ونسبة إلىٰ دين اللَّه ﷻ. وقد قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [آل عمران: ٦٧]، وقال ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، وأنكر عليهم حينما قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة: ١٣٥].

---

(١) صحيح مسلم (١٣٥).

فلا يوجد دين سماوي، علىٰ وجه الأرض، من لدن آدم، إلىٰ محمد ﷺ إلا دين الإسلام، وهو الإسلام، بالمعنىٰ العام، الذي بعث اللَّه به، جميع أنبيائه، وخاتمهم محمد ﷺ. وأما اليهودية، فهي ما آل إليه دين موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد التحريف، وأما النصرانية، فهي ما آل إليه دين عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد التحريف، فلهٰذا برّء اللَّه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ منهما.

وليس صوابًا، أن يقال: نجتمع علىٰ المشترك، والمتفق عليه، ونقصي المختلف فيه، ما هٰذا منهج النبي ﷺ ولا منهج الصحابة، ولا التابعين، ولا علماء الأمة الراسخين، بل منهجهم ما أمر اللَّه تعالىٰ به، بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] ثم تولىٰ بنفسه سبحانه تفسير هٰذه الكلمة، ولم يدعها لتفسير مفسر، أو قول فقيه، فقال: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]. هٰذه هي الكلمة السواء، أما ما ينادي به بعض المفكرين العصرانين، من البحث، عن نقاط الاتفاق بيننا، وبين اليهود، والنصارىٰ، وإبرازها، وتحاشي نقاط الاختلاف، وإقصائها، وعدم مناقشة قضايا العقائد، فهٰذا خلاف المنهج القرآني، وخلاف المنهج النبوي، وخلاف منهج السلف الصالح، والسابقين، الأولين من هٰذه الأمة.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: وجوب المفاصلة، والبراءة من الكفار.

الفائدة الثانية: وضوح الخطاب، والبعد عن المداهنة.

الفائدة الثالثة: أن أصل العبادة: هو الإخلاص، والبراءة من الشرك.

الفائدة الرابعة: تسمية الشرك دينًا. لقوله ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ ودينهم الشرك، وقوله في قصة يوسف ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦].

الفائدة الخامسة: الحذر من لبس الحق بالباطل.

سورة النصر

مقصد السورة: بيان حال المؤمن مع النصر.

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾: النصر الغلبة والتمكين، والمراد بـ«الفتح» هنا: فتح مكة، وقد وقع في رمضان، سنة ثمان من الهجرة.

﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ﴾ يعني: قبائل العرب.

﴿يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾: جماعات تلو جماعات، وقد كان الناس يسلم الواحد تلو الآخر، وبعد فتح مكة، أقبلت قبائل العرب علىٰ الإسلام بأجمعها؛ لأن العرب كانوا ينتظرون ما يقع بين النبي ﷺ، وقومه، إذ كانت قريش أعز قبائل العرب، وتقطن مكة، مهوىٰ أفئدتهم. فلما نصره اللَّه عليهم، ودخلوا في دين اللَّه، صارت وقبائل العرب تفد إلىٰ النبي ﷺ، في العام التاسع، الوفد تلو الوفد، حتىٰ سُمي «عام الوفود».

ونصر اللَّه للمؤمنين سنة كونية، قال ربنا ﷻ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر: ٥١] فلابد من نصر اللَّه.

وتأمل حال نبينا ﷺ، حين خرج من مكة، شريدًا، طريدًا، يتعقبه الحاقدون، والطامعون، حتىٰ كان يكمن نهارًا، ويسير ليلًا، مدة أسبوع، حتىٰ بلغ المدينة، ثم بعد ثماني سنوات، يرجع فاتحًا، منتصرًا، ويدخل مكة، ويحكمه اللَّه تعالىٰ في رقابهم، ويقول: «**مَا تَرَوْنَ أَنِّىٰ صَانِعٌ بِكُمْ؟**». قَالُوا:

خَيْرًا أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ. قَالَ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»[(١)].

وفي حديث جابر بن عبد اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان من قوله ﷺ حين رقىٰ علىٰ جبل الصفا «**لاَ إِلٰه إِلاَّ اللَّه وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ**» رواه مسلم[(٢)].

فيجب الإيمان بنصر اللَّه، والثقة بموعود اللَّه، ولا يجوز القنوط من رحمة اللَّه؛ قال تعالىٰ: ﴿**قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ** ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ٥٦] وقال سبحانه: ﴿**إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ**﴾ [يوسف: ٨٧]، فيجب علىٰ المؤمن: أن يحسن الظن بربه، ولا يجوز أن يعتقد الإنسان، أن اللَّه يديل الباطل علىٰ الحق، إدالة مستمرة، فمن ظن ذٰلك، فقد أساء الظن باللَّه. نعم! قد يدال الباطل علىٰ الحق مؤقتًا، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١٤٠]، لٰكن يعقبه نصر عزيز، وفتح مبين.

فإن قال قائل: كيف استيئس الرسل من نصر اللَّه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ**﴾ [يوسف: ١١٠]؟ قيل: إن الرسل لم يستيئسوا من نصر اللَّه، وإنما استيئسوا من إيمان هٰؤلاء الأقوام المخاطبين، ولم ييئسوا من نصر اللَّه.

وهٰذا يحتاج إلىٰ يقين، وهٰذا اليقين لا يجده إلا المؤمنون؛ كما قال اللَّه ﷻ في سورة الأحزاب ﴿**وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا** ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وأما المنافقون فقالوا: ﴿**مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا**﴾ [الأحزاب: ١٢]، يقول أحدهم: ألا تعجبون! يحدِّثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل، يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرىٰ، وأنها تفتح لكم، وأنتم تحفرون الخندق من الفرق، ولا تستطيعون أن تبرزوا![(٣)].

---

(١) البيهقي في السنن الكبري (١٨٧٣٩) ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١١٦٣)، السيرة النبوية لابن هشام (٥/ ٧٤).

(٢) صحيح مسلم (١٢١٨).

(٣) تفسير الطبري (١٩/ ٤٢).

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ يعني: نزه ربك، متلبسًا بحمده، فالباء في قوله ﴿بِحَمۡدِ﴾ للملابسة، أي: اجمع بين التسبيح ـ الذي هو التنزيه ـ والحمد.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ يعني: اطلب منه المغفرة، وهي: الستر، والتجاوز. ومنه سُمي «المغفر» الذي يجعل على الرأس، لأنه يستر الرأس، ويقيه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ التوبة معناها: الرجوع. و«التواب»: اسم للرب، ﷻ، متضمن لصفة التوبة؛ أي أنه كثير العود على عباده بالصفح والعفو. و«التواب» يطلق على العبد، ويطلق على الرب، فالعبد تواب، إذا كان كثير الرجوع إلى سيده، والرب تواب، لكثرة توبته على عبده، وهي نوعان:

الأول: إذن وتوفيق: كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ [التوبة: ١١٨]، فتوبته عليهم سبقت توبتهم إليه.

الثاني: قبول واعتداد: كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾ [المائدة: ٣٩].

وعن ابن عباس قال: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هٰذا الفَتَىٰ مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: «إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ» قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَاني مَعَهُمْ قَالَ: وَمَا رُئِيتُهُ دَعَاني يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ في إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّه وَالفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ في دِينِ اللَّه أَفْوَاجًا حَتَّىٰ خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّه وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ نَدْرِي، أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَكَذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّه ﷺ أَعْلَمَهُ اللَّه لَهُ: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّه وَالفَتْحُ فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا. قَالَ عُمَرُ: «مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ» رواه البخاري[١].

---

(١) صحيح البخاري (٤٢٩٤).

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: سنة اللَّه الكونية، في إدالة الحق، علىٰ الباطل.

الفائدة الثانية: الحذر من اليأس من نصر اللَّه.

الفائدة الثالثة: أن فتح مكة، فتحٌ لما بعدها؛ لأنها أم القرىٰ.

الفائدة الرابعة: صدق وعد اللَّه.

الفائدة الخامسة: مقابلة النعم المتجددة بالتسبيح، والحمد، والاستغفار.

الفائدة السادسة: الإيذان بدنو أجل النبي ﷺ؛ لانتهاء مهمته، وأدائه رسالات ربه.

الفائدة السابعة: مشروعية الاستغفار، بعد الفراغ من العبادات.

الفائدة الثامنة: إثبات اسم «التواب» له تعالىٰ، وما تضمنه من صفة «التوبة».



سورة المَسد

مقصود السورة:

الذب عن نبينا محمد ﷺ، وتبكيت خصمه أبي لهب، وكل من ناوأ الرسل، وأتباع الرسل.

وسبب نزول هٰذه السورة: ما رواه ابْن عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: «**يَا بَنِي فِهْرٍ! يَا بَنِي عَدِيٍّ! لِبُطُونِ قُرَيْشٍ، حَتَّىٰ اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**» قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلاَّ صِدْقًا. قَالَ: «**فَإِنِي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**». فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ! أَلِهٰذا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ رواه البخاري[1]، وهو دعاء عليه، بجنس ما دعا به علىٰ النبي ﷺ وخبر، وذم، ووعيد.

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾:

﴿تَبَّتْ﴾: خسرت، فهٰذا دعاء من اللَّه ﷻ علىٰ أبي لهب بالهلاك، والخسران، والدعاء من اللَّه محقق.

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٧٠).

﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ أبو لهب: كنية عم النبي ﷺ وقد كان له تسعة من الأعمام، منهم أبو لهب. لقب بِهٰذا اللقب؛ لحمرة في وجهه، كأن في وجهه لهبة، وآسمه عبد العزىٰ بن عبد المطلب.

﴿وَتَبَّ﴾ الثانية خبر بحصول ذٰلك، يعني أنه وقع عليه التباب، والخسران.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ يعني: لن ينجيه ماله، وولده؛ لأن الولد من الكسب؛ وذٰلك أن أبا لهب قال: إن كان ما يقول ابن أخي حقًّا، فسأفتدي منه بمالي، وولدي[1]، فقال اللَّه رادًّا عليه: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾، وزاد ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾.

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا﴾ أي يدخل النار، فتحرقه، وتشويه.

﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ وصفها اللَّه بِهٰذا الوصف المناسب لكنية أبي لهب، نكايةً به، وسخرية. ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ يعني: ذات توقد، واضطرام، وتلهب.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ أي: وامرأته كذٰلك ستصلىٰ تلك النار، وهي أم جميل، وكانت تؤذي النبي ﷺ، وتسميه «مُذمَّم»، بدلًا من «محمد»، وتلقي في طريقه الشوك، ولهٰذا نبزها القرآن بِهٰذا الوصف الذميم: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾. ويجوز في ﴿حَمَّالَةَ﴾: النصب، والرفع.

وقيل: إنها وصفت بِهٰذا الوصف؛ لأنها كانت تمشي بالنميمة، والذي يمشي بالنميمة كمن يحمل الحطب، ليحرق الناس، بإيغار الصدور، وإفساد ذات البين.

وقيل: لاحتطابها؛ أي: أنها كانت تحمل الحطب. وهٰذا بعيد؛ لأنها كانت أمرأة غنية، لا تحتاج إلىٰ المهنة.

﴿فِي جِيدِهَا﴾: في عنقها.

﴿حَبْلٌ﴾ الحبل معروف.

﴿مِّن مَّسَدٍ﴾ قيل: أنه الليف، والليف علىٰ العنق شديد الأثر.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٥١٥).

وقيل: المسد: سلسلة من حديد، تكون في النار، قدرها سبعون ذراعا، علىٰ عنقها.

وقال بعض المفسرين: كان في عنقها قلادة، من ودع، فكان هٰذا من باب الذم لها، والنبذ لها، من جنس ما كانت تفعل مع النبي ﷺ حينما كانت تسميه «مذمم»، بدلًا من «محمد»، فانتصر اللَّه لنبيه، وأنزل هٰذا الوعيد، في حق من نال منه بقول، أو فعل، وهٰذا عاقبة كل من تطاول، علىٰ مقام نبينا ﷺ.

۞ الفوائد الْمُستنبطة:

الفائدة الأولى: غلظ كفر أبي لهب، وامرأته، وبؤس عاقبتهما؛ لكون اللَّه تعالىٰ أفرد سورة كاملة، في ذمهما.

الفائدة الثانية: نصرة اللَّه لنبيه ﷺ.

الفائدة الثالثة: أن الجزاء من جنس العمل.

سورة الإخلاص

ومقصد السورة: بيان التوحيد العلمي.

وقد جاء في سبب نزول هٰذه السورة عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا مُحَمَّد انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ ـ فَأَنْزَلَ اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ رواه الترمذي(١).

سورة «الإخلاص» تعدل ثلث القرآن.

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّه ﷺ، فَذَكَرَ ذٰلك لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنها لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**». رواه البخاري(٢).

وفي رواية قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ في لَيْلَةٍ؟**» فَشَقَّ ذٰلك عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: أَيُّنَا يُطِيقُ ذٰلك يَا رَسُولَ اللَّه؟ فَقَالَ: «**اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ**» رواه البخاري(٣).

وإنما كانت تعدل ثلث القرآن؛ لأن القرآن:

- إما أخبار.
- وإما عقائد.
- وإما أحكام.

فالأحكام: ما يتعلق بالحلال والحرام.

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٦٤) حسنه الألباني.

(٢) صحيح البخاري (٥٠١٣).

(٣) صحيح البخاري (٥٠١٥).

والعقائد: ما يتعلق بأصول الإيمان.

والأخبار: ما جرىٰ بين الأنبياء، وأممهم، ونحو ذٰلك.

فلما أفردت هٰذه السورة لأصل الاعتقاد؛ كانت تعدل ثلث القرآن، ولٰكنها تعدل ثلث القرآن في الفضل، لا في الأجزاء، فلو حلف إنسان، أن يختم القرآن، لم يجزئه أن يقرأ سورة«الإخلاص» ثلاث مرات. ولو قام إنسان في الصلاة، فقرأ الإخلاص ثلاث مرات، لم تجزئه عن قراءة «الفاتحة».

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾: «الأحد» من أسماء اللَّه الحسنىٰ. وهٰذا الاسم لا يطلق منكَّرًا، إلا علىٰ اللَّه ﷻ، فإذا قيل «أحد» فالمراد به اللَّه ﷻ، ولهٰذا كان يقول بلال: «أَحَدٌ أَحَدٌ» سنن ابن ماجه[(١)]، وكذٰلك لا يطلق علىٰ سبيل الإثبات، فيقال: «هو الأحد»، إلا علىٰ اللَّه ﷻ لا يقال في حق مخلوق.

أما إذا جاء في سياق النفي، أو في سياق الشرط، أو في سياق الاستفهام، فإنه قد يطلق علىٰ غير اللَّه ﷻ:

- فسياق النفي مثل: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.
- وسياق الشرط كما في قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة: ٦].
- وأما سياق الاستفهام فكقول اللَّه ﷻ: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ۝٩٨﴾ [مريم: ٩٨]. والنكرة في سياق النفي، أو الشرط، أو الاستفهام تدل علىٰ العموم.

من أرد أن يمتلئ قلبه بتعظيم الرحمن، فليكثر من قراءة هٰذه السورة، ومن خطر بباله خاطر شيطاني، فليقل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢

(١) سنن ابن ماجة (١٥٠)، مسند أحمد (٣٨٣٢) حسنه الألباني.

لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾، فينطرد ذٰلك الخاطر؛ لأن الشيطان يلقي في قلب ابن آدم، الأوهام، والوساوس، فإذا قرأ هٰذه السورة البينة، انقشع ما هجم علىٰ قلبه من الخطرات.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ من أسماء اللَّه الحسنىٰ. قيل فيه عدة أقوال:

ـ فقيل: السيد، الذي انتهىٰ سؤدده، يعني: بلغ الغاية في سؤدده، وفي شرفه، فهو السيد المطلق، كما قال النبي ﷺ حين جاءه وَفْد بَنِيٰ عَامِرٍ، فقالوا له: أَنْتَ سَيِّدُنَا. فَقَالَ «**السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ**» رواه أبو داود[1].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: هو السيد الذي قد كمُل في سُؤدَدِه، والشريفُ الذي قد كمُل في شرفه، والعظيم الذي قد كمُل في عظمته، والحليم الذي قد كمُل في حلمِه، والغنيُّ الذي قد كمل في غناه، والجبَّارُ الذي قد كمُل في جبروته، والعالم الذي قد كمُل في علمه، والحكيم الذي قد كمُل في حكمته، وهو الذي قد كمُل في أنواع الشرفِ والسُؤدَدِ، وهو اللَّه سبحانه هٰذه صفتُه، لا تنبغي إلا له[2].

ـ وقيل: الذي تصمد إليه الخلائق في حاجاتها، فجميع الخلائق من أنس، وجن، وطير، ووحش، وبهائم، كلها ترفع حاجتها إلىٰ اللَّه عَزَّوَجَلَّ.

ـ وقيل: الذي لا جوف له، يعني أنه مستغن؛ لأن الذي له جوف، محتاج، كالآدميين، والبهائم، ونحوها، فهي خلق أجوف؛ تأكل، وتشرب، وتبول، وتتغوط، ولها شهيق وزفير. أما الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو لا يطعم، ولا يشرب، سبحانه وبحمده، غني بذاته، فلهٰذا قيل في تفسير ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هٰذا المعنىٰ.

﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾ يعني أنه سبحانه لا ولد له، لا ابن، ولا بنت، كما ادعىٰ من ادعىٰ من أهل الباطل، فاليهود تقول: عزير ابن اللَّه، والنصارىٰ تقول:

---

(١) سنن أبي داود (٤٨٠٦) صححه الألباني.

(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٧٣٦).

المسيح ابن اللَّه، ومشركو العرب يقولون: الملائكة بنات اللَّه، واللَّه تعالىٰ يقول ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣﴾. يعني أنه سبحانه لم يتسلسل من أحد، ولا يتسلسل منه أحد. بل هو الأول، فليس قبله شيء، وهٰذا لا يكون إلا في حق اللَّه.

وربما يخطر في بال أحد فيقول: لماذا نفىٰ اللَّه تعالىٰ عن نفسه الولد؟ والجواب عن ذٰلك: أن يقال: إنما يُتخذ الولد للحاجة، فالناس يستولدون؛ لحاجتهم إلىٰ الولد، ولينفعوهم وقت الكبر، واللَّه غني عن ذٰلك، و ـ أيضا ـ لو كان للَّه ولد وحاشاه ـ لكان الولد من جنس أبيه، واللَّه تعالىٰ ليس كمثله شيء، لكمال وحدانيته سبحانه.

ثم ختم ذٰلك بقوله ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ يعني لا مكافئ للَّه، ولا مماثل له، ولا ند له، ولا نظير.

فاللَّه جمع فيما وصف، وسمىٰ به نفسه، بين النفي والإثبات، كما في هٰذه الآية ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢﴾ فهٰذا إثبات، وأما قوله ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ فهٰذا نفي، ولا يتم العلم باللَّه إلا بالجمع بين الأمرين، بإثبات صفات الكمال، ونفي صفات العيب والنقص، ومماثلة المخلوقين.

ومثل ذٰلك قول اللَّه تعالىٰ: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨] فـ﴿ٱلۡحَيِّ﴾ إثبات، و﴿ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ نفي.

وهٰذا إثبات بلا تمثيل: فاللَّه تعالىٰ أثبت أنه أحد، وأنه صمد، فنثبت هٰذا للَّه علىٰ وجه لا يبلغ التمثيل؛ كما نفىٰ عن نفسه الوالد والولد، فننزهه عن مماثلة المخلوقين، لٰكن هٰذا التنزيه لا يبلغ مبلغ التعطيل.

فهٰذه السورة علىٰ قصر آياتها، من أعظم سور القرآن، ولهٰذا كانت تعدل ثلث القرآن، وقد كان النبي ﷺ يقرنها مع سورة «الكافرون»، في ركعتي الطواف، وراتبة الفجر، وفي الشفع والوتر من الليل؛ لعظم هاتين السورتين.

۞ الفوائد المُستنبطة:

الفائدة الأولى: بيان صفة الرَّحمٰن.

الفائدة الثانية: إثبات الأسماء الحسنىٰ ﴿أَحَدٌ﴾ و﴿ٱلصَّمَدُ﴾.

الفائدة الثالثة: كمال وحدانية اللَّه ـ سبحانه ـ في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، فهو واحد في ذاته، واحد في أسمائه، واحد في صفاته، وأفعاله، ليس كمثله شيء.

الفائدة الرابعة: كمال غناه ـ سبحانه ـ، وافتقار الخلائق إليه، وأن جميع الخلائق تصمد بحاجاتها إليه.

الفائدة الخامسة: تنزهه ـ سبحانه ـ عن الوالد، والولد، ومماثلة المخلوقين، ومن لم يكن له ولد، فليس له صاحبة.

الفائدة السادسة: الرد علىٰ اليهود، والنصارىٰ، ومشركي العرب.

الفائدة السابعة: الإثبات بلا تمثيل، والتنزيه بلا تعطيل.

الفائدة الثامنة: الجمع بين النفي، والإثبات في صفات اللَّه تعالىٰ.



سورة الفلق

مقصد السورة:

الاستعاذة باللَّه، من الشرور الخارجية.

سورة «الفلق» وسورة «الناس»، حصنان منيعان، وحرزان عظيمان، لا يستغني عنهما مسلم؛ فسورة «الفلق» حرز من الشرور الخارجية، وسورة «الناس» حرز من الشرور الداخلية. فهما المعوِّذتان. كان النبي ﷺ يتعوذ بهما.

فعن أبي سَعِيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ رسولُ اللَّه ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الجَانِّ، وَعَيْنِ الإنْسَانِ، حَتَّىٰ نَزَلَتْ المُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتَا، أَخَذَ بهما وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا» رواه الترمذي[1].

وقد قال النبي ﷺ للصحابي الجليل ابن عابس الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يَا ابْنَ عَابِسٍ، أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ مَا تَعَوَّذَ الْمُتَعَوِّذُونَ؟**» قَالَ: قُلْتُ: بَلَىٰ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ**» رواه النسائي[2].

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾:

﴿قُلْ أَعُوذُ﴾: أي ألتجأ، وأعتصم، وأستجير.

---

(١) سنن الترمذي (٢٠٥٨) صححه الألباني.

(٢) سنن النسائي (٥٤٣٢)، مسند أحمد (١٧٢٩٧) وصححه الألباني.

﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ قيل في تفسير الفلق أقوال:

- الصبح؛ قال اللَّه تعالىٰ ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦].
- وقيل: إنه جبٌ في جهنم ـ والعياذ باللَّه ـ، يعني بئر في جهنم.
- وقيل: إنه اسم من أسماء جهنم.
- وقيل إن ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ اسم لعموم الخلق.

وأقرب هٰذه الأقوال: أن المراد بالفلق الصبح.

﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فهٰذا من إضافة المخلوق وهو الفلق، إلىٰ خالقه وهو الرب. فالمستعاذ به رب الفلق ﷻ. والمستعاذ منه هو ما يلي.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ هٰذا أولها، و«مَا» اسم موصول بمعنىٰ «الذي»، فيشمل كل مخلوق فيه شر، من إنس، أو جن، أو حيوان، أو جماد،، أو دواب، أو ريح، أو طير، ...، وكل شيء فيه شر، حتىٰ النفس فيها شر يستعاذ منه؛ فقد كان النبي ﷺ يستعيذ من شرها قائلا: «**أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ**» رواه أبو داود[1]، فكل ما خطر ببالك مما فيه شر، فأنت تستعيذ برب الفلق من شره.

وليس في الكون إلا خالق، أو مخلوق، فاللَّه الخالق، وهو المستعاذ به، وما سواه مخلوق، وهو مستعاذ من شره. لٰكن إذا كان الشيء مما يقدر عليه العبد، أو المخلوق، فلا بأس أن يستعيذ به، أما إذا لم يكن مقدورًا للمخلوق عليه، فإن الاستعاذة به: شرك. فما من شيء في الوجود، إلا واللَّه محيط به، واللَّه قادر عليه، فينبغي للعاقل أن يستعيذ بالقادر، لا يستعيذ بالعاجز، فإذا كان اللَّه خالق الأشياء جميعًا، وهو ربها، ومالكها، ومدبرها، فالاستعاذة به هي الاستعاذة النافعة.

فالذي يستعين بصاحب القبر، أو الغائب، أو نحو ذٰلك، قد وقع في الشرك العظيم. وكذٰلك من استعان بالجن، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ

---

(١) سنن أبي داود (٥٠٦٧)، سنن الترمذي (٣٣٩٢)، صححه الألباني.

ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ [الجن: ٦]، يعني زادوهم اضطرابًا، وشدة في حالهم.

لٰكن لو أن أحدًا استعاذ بحصن، فقال: «أعوذ بهٰذا الحصن» يعني: امتنع به. فلا بأس، ومنه قول النبي ﷺ: «**يَعُوذُ عَائِذٌ بِالْبَيْتِ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنْ الْأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ**» رواه مسلم[(١)]، والمراد بـ «البيت» في الحديث أي: الحرم، فإنه يعيذ من أوىٰ إليه، إلا من استثني في حديث عمرو بن سعيد حيث قال: «إِنَّ الْحَرَمَ لَا يُعِيذُ عَاصِيًا، وَلَا فَارًّا بِدَمٍ، وَلَا فَارًّا بِخُرْبَةٍ»، متفق عليه[(٢)]، والخربة ـ كما قال البخاري ـ: الجناية والبليَّة.

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ ﴾ معنىٰ «الغاسق»:

- قيل: إنه الليل.
- وقيل: إنه القمر.
- وقيل: إنه اسم لكوكب، أو نجم.

ومما يدل علىٰ أن من معانيه القمر، أن رَسُول اللَّه ﷺ عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَظَرَ إِلَىٰ القَمَرِ، فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ، اسْتَعِيذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هٰذا، فَإِنَّ هٰذا هُوَ الغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ**» رواه الترمذي[(٣)].

ويمكن أن يتسع المعنىٰ لعموم الليل، لكون القمر من جملة الليل؛ لأنه آية ليلية.

ومعنىٰ ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ ﴾ يعني:

- من شر الليل إذا أقبل بظلامه.
- أو أن يكون معناها: من شر القمر إذا طلع.
- وقيل: من شر القمر إذا غاب.

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٨٢).

(٢) صحيح البخاري (١٨٣٢)، صحيح مسلم (١٣٥٤).

(٣) سنن الترمذي (٣٣٦٦)، مسند أحمد (٢٥٨٠٢) صححه الألباني.

وحديث عائشة يدل علىٰ أنه طلع. فالشر والضرر يكون في الليل، أكثر من النهار؛ لأنه مع الظلام يحصل شرور، ولهٰذا تجد أن اللصوص يسرقون ليلا، والوحوش والهوام، إنما تخرج من بيوتها، وجحورها، ليلا، فيقع في الليل من الشر، أكثر مما يقع في النهار.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ هٰذا ثالث المستعاذ منه.

﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ هن السواحر، جمع ساحرة، اللواتي ينفثن في الخيوط، والعقد، بلا ريق ـ لأن النفث يكون بلا ريق، والتفل يكون بالريق ـ فالسواحر ـ قبحهن اللَّه ـ يعمدن إلىٰ خيوط، فيعقدنها، وينفثن فيها، بهمهمات شيطانية، ينشأ عنها السحر، الذي يمرِض، أو يقتل. وعبر بجمع المؤنث السالم، لأن السحر أكثر ما يقع من النساء. فأكثر من يتعاطىٰ السحر: النساء، ولهٰذا قال: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾، ولم يقل: ومن شر النفاثين، وإن كان في الرجال سحرة، ولا ريب، لٰكن فشوه، وانتشاره، وطلبه، في النساء أكثر، فلهٰذا عبر بـ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾، من باب التغليب.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ هٰذا رابع المستعاذ منه.

الحسد: هو تمني زوال نعمة غيره، أو كراهية حصول النعة لغيره، وهٰذا أبلغ.

ومعنىٰ ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ يعني إذا أظهر حسده. وغالبًا ما تصيب العين، حال تكيِّف النفس الخبيثة بالحسد، فيقترن بها تأثير الشيطان الحسي، فتؤذي المحسود؛ في نفسه، أو بدنه، أو ماله. لأن الحاسد ـ أجارنا اللَّه وإياكم ـ إذا اضطرم الحسد في قلبه، أراد كيد المحسود، وإزالة النعمة عنه، بتدبير المكايد، والحيل، التي يتوصل بها إلىٰ أذاه، أو يصيبه بعين، والعين حق، وذٰلك بأن تتكيف نفسه تكيُّفًا شيطانيًا، فيقع منه نظرة، يتدخل فيها الشيطان، فيصيب المُعان، أو المعيون، بنوع ضرر، قد يقتله، وقد يمرضه، فلا عصمة، للعبد إلا بِهٰذا العوذ الشرعية، كهٰذه السورة.

فهٰذه السورة العظيمة فيها فرار إلىٰ اللَّه، واعتصام بجنابه، واستجارة به،

من الشرور الخارجية، التي شملها قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، ومن زمانها، كالليل إذا أقبل، أو القمر إذا طلع، ومن أدواتها، كالسحر الذي تصنعه السواحر، في نفثهن في العقد، ومن شر الحاسد، الذي يصيب بعينه المحسود، لهٰذا كانت هٰذه السورة حرزًا عظيمًا، وحصنًا منيعًا، من هٰذه الشرور، لا يعادلها شيء.

هي أنفع مما يصفه بعض الرقاة والقراء، حين يطلبوا من المصابين، أن يقرؤوا سورة كذا عددًا معينًا، في وقت معين، علىٰ هيئة معينة لم يرد بها أثر.

وقد أمر النبي ﷺ بقراءة هٰذه السورة، مع سورة الناس، وسورة «الإخلاص» في مواضع منها:

- في طرفي النهار، في الصباح والمساء، يقولها ثلاث مرات؛ فعن عَبْد اللَّه بْنِ خُبَيْبٍ أَنَّهُ قَالَ: خَرَجْنَا فِيْ لَيْلَةِ مَطَرٍ وَظُلْمَةٍ شَدِيدَةٍ نَطْلُبُ رَسُولَ اللَّه ﷺ لِيُصَلِّيَ لَنَا فَأَدْرَكْنَاهُ فقَالَ «**أَصَلَّيْتُمْ**». فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا فقَالَ «**قُلْ**». فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا ثُمَّ قَالَ «**قُلْ**». فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: «**قُلْ**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه، مَا أَقُولُ قَالَ «**﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِيْ، وَحِينَ تُصْبِحُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**» رواه أبو داود[(١)].

- وكذٰلك كل ليلة، إذا أوىٰ الإنسان إلىٰ فراشه، جمع كفيه، وقرأ هٰذه السور الثلاث، ونفث في كفيه، ومسح من أعلىٰ رأسه، إلىٰ أخمص قدميه، يفعل ذٰلك ثلاث مرات؛ وذٰلك لما روته عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ، كُلَّ لَيْلَةٍ، جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا، فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، ثُمَّ يَمْسَحُ بهما مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بهما عَلَىٰ رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذٰلك ثَلَاثَ مَرَّاتٍ» رواه البخاري[(٢)].

ففي هاتين السورتين حفظ للعبد من جميع أنواع الشرور. وفي هٰذه

(١) سنن أبي داود (٥٠٨٢)، سنن الترمذي (٣٥٧٥)، حسنه الألباني.

(٢) صحيح البخاري (٥٠١٧).

السورة، الحفظ من الشرور الخارجية، المتمثلة بلدغ العقارب، والحيات، وهجوم سبع، أو عدو صائل، والإصابة بالسحر، والإصابة بالعين، وغيرها من الشرور التي لا حصر لها. فكانت الاستعاذة برب الفلق، منها جميعا.

۞ الفوائد المُسْتنبطة:

الفائدة الأولى: أن الاستعاذة عبادة، لا تكون إلا باللَّه، كما قال تعالىٰ ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ٢٠﴾ [الدخان: ٢٠].

الفائدة الثانية: إحاطة اللَّه بكل شيء، وقدرته عليه.

الفائدة الثالثة: كثرة الشر، والضرر، في الليل.

الفائدة الرابعة: خطر السحر، وكثرته في النساء.

الفائدة الخامسة: خطر الحسد، وما ينشأ عنه من العين، والكيد.



سورة الناس

سورة الناس هي آخر سورة بين دفتي المصحف.

ومقصدها: الاستعاذة، من الشر الداخلي، ألا وهو الوسواس.

وشر الوسواس عظيم، حتىٰ لكأن الشرور الخارجية في كفة، وهو في كفة!

فلو تأملنا لوجدنا عجبا: المستعاذ به في سورة «الفلق» اسم واحد من أسماء اللَّه الحسنىٰ، وهو رب الفلق، والمستعاذ منه أربعة أشياء: ﴿مَا خَلَقَ﴾، ﴿غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ﴾، ﴿حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾. وفي سورة «الناس» المستعاذ به ثلاثة أسماء من أسماء اللَّه الحسنىٰ: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾، ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾؛ الرب، والملك، والإلٰه، والمستعاذ منه شيء واحد، وهو ﴿شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾، مما يدل علىٰ عظم خطره، وأن أذاه بالغ جدًّا، ولا يعصم العبد من الوسواس إلا الاستعاذة برب الناس، ملك الناس، إلٰه الناس.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ الرب: هو الخالق، المالك، المدبر، الذي ربىٰ عباده بنعمه. مأخوذ من التربية، وهي التنشئة، والتنمية شيئًا، فشيئًا. ومدار الربوبية علىٰ هٰذه الأوصاف الثلاثة: الخلق، والملك، والتدبير، وإليها تؤول بقية الأوصاف. ويجب توحيد اللَّه بها.

﴿ٱلنَّاسِ﴾ اختلف المفسرون في لفظة «النَّاسِ»، هل تختص بالإنس، أم

يدخل فيهم الجن؟ قولان، حتىٰ قال إمام المفسرين ـ ابن جرير الطبري ـ: لا يبعد أن يشمل لفظ الناس الجن؛ كما قال اللَّه تعالىٰ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦][1]، فإذا كان فيهم رجال ونساء، فلا مانع أن يطلق عليهم ناس.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ أي مالكهم، ومدبر أمورهم ـ سبحانه ـ، فأزِمَّة أمورهم بيده.

﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ يعني: معبودهم؛ لأن إلٰه: بمعنىٰ مألوه، أي: معبود، فهو الرب، الملك، الإلٰه، الحقيق أن يستعاذ به من شر الوسواس، الخناس.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ قال تعالىٰ: ﴿مِن شَرِّ﴾؛ لأنه ربما يقع وسوسة في النفس، لٰكن لا تكون من قبيل الشر.

و﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ من الوسوسة، والأصل أنها الصوت الخفي؛ كما قال الأعشىٰ:

تسمعُ للحلي وسواسًا إذا انصرفت   كما استعان بريح عشرق زجل

يعني يشبه صوت الريح، حين مرورها بالشجر، والمراد بها هنا: حديث النفس، الذي يلقيه الشيطان، لا يسمعه أحد. يكون الشخص جوارك، تحدثه نفسه بشتىٰ الأحاديث، وأنت لا تسمع شيئًا، بل هو لا يسمع بأذنيه، لٰكن يعيه بقلبه كما يعي حديث الناس.

و﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ يطلق علىٰ الوسوسة ذاتها، ويطلق علىٰ الموسوس، أي: الشيطان، ولهٰذا وصفه بأنه الخناس.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ أي: أنه ينخنس، وينقبض، ويتأخر عند ذكر اللَّه تعالىٰ، فالشيطان يلتقم قلب ابن آدم، فإذا ذكر اللَّه ﷻ انقبض، وانخنس، بسبب ذكر اللَّه تعالىٰ؛ لهٰذا سمي خناسًا.

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٧٥٦).

﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ هٰذا بيان لمحل الوسوسة، وهي صدور الناس، التي فيها قلوبهم.

﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ أي من الجن، وبني آدم، ولهٰذا الآية محملان عند المفسرين:

- الأول: أن الموسوس قد يكون تارة من الجن، وقد يكون تارة من الإنس؛ واستدلوا بقول اللَّه تعالىٰ ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِى بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾ [الأنعام: ١١٢] وعليه فيكون هناك:

* شياطين إنسيون: وهم رفقاء السوء، من الآدميين.

*وشياطين جنيون، وهم الشياطين الذين لا نراهم.

فأما وسواس شيطان الجن: فهو ما يلقيه في قلب الإنسان، من خطرات. وأما وسواس شيطان الإنس: فهو ما يلقيه في الأذن، من كلمات، يزين له الباطل، ويحسن له القبيح.

- المعنىٰ الثاني: أن الشيطان يوسوس للجن، كما يوسوس للإنس، فقد يوسوس لجني مثله. واللَّه أعلم.

والجن خلق من خلق اللَّه، ومردتهم هم الشياطين، وهم ذرية إبليس، وأما بقيتهم فهم مكلفون، فمنهم المؤمنون، ومنهم القاسطون، ومنهم الصالحون، ومنهم دون ذٰلك؛ كما ذكر اللَّه تعالىٰ في سورة «الجن»: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ۝١٤﴾ [الجن: ١٤]، وقال قبلها: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ۝١١﴾ [الجن: ١١].

وهٰذا هو الاعتقاد الذي يجب أن يعتمده المؤمن، عن هٰذا العالم الغيبي، فالجن، مجتنُّون، كما أخبر ربنا: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فهم يروننا، ولا نراهم، ولذٰلك سُمي كل شيء مستخف، بأنه مستجن، كما سميت الجنة جنة، لالتفافها بالأشجار، وسمي الدرع «مِجنًّا» لأنه يستر ما تحته.

والجن عباد، مكلفون، مخاطبون بالشرع؛ قال اللَّه ﷻ: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ

نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١]، وقد عدهم ابن القيم، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في الطبقة الثامنة عشرة من «طبقات المكلفين» من كتابه: «طريق الهجرتين»، وذكر كلامًا حسنًا، وتقريرًا مفيدًا، ينبغي الرجوع إليه(١).

وقد اجتمع الجن بالنبي ﷺ في ليلة من الليالي؛ حيث قال علقمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قلت لابن مسعودٍ: هل صَحِبَ النبيَّ ﷺ ليلةَ الجِنِّ منكم أحدٌ؟ قال: ما صحبه منَّا أحدٌ، ولٰكنا كُنَّا مع رسول اللَّه ﷺ ذاتَ لَيْلَةٍ فَفَقَدناهُ، فالتمسناه في الأودية والشِّعابِ، فَقُلْنَا: اسْتُطِيرَ، أَوِ اغْتِيلَ، فبِتْنا بشرِّ لَيْلَةٍ باتَ بها قومٌ، فلما أَصبحنا إذا هُوَجَاءٍ من قِبلِ حِراءَ، قال: فقُلْنا: يارسول اللَّه، فَقَدْناكَ، فطلبناكَ، فلم نَجِدْكَ، فَبِتْنا بشَرِّ ليلةٍ باتَ بها قومٌ، قال: «**أَتَاني داعي الجِنِّ، فذَهبْتُ معه، فقرأتُ عليهم القرآن**»، قال: فانطَلَقَ بنا، فأرانا آثارهم، وآثار نِيرَانهم، وسأَلُوهُ الزَّادَ، فقال: «**لكم كلُّ عَظْمٍ ذُكر اسم اللَّه عليه يقع في أيديكم أَوْفَرَ ما يكون لَحْما، وكلُّ بَعْرَةٍ علَفٌ لِدَوَابِّكم**»، فقال رسولُ اللَّه ﷺ: «**فلا تَسْتَنْجوا بهما، فإنهما طعامُ إخوانِكم**» رواه مسلم(٢).

فنحن نؤمن، ونصدق ما دلت عليه النصوص، وأما ما يتفوه به العامة، ويحكونه من قصص، وحوادث، فلا يؤخذ به، ولا يعتمد عليه، وقد يصيبون وقد يخطئون، فينبغي أن يعرض ذٰلك علىٰ كتاب اللَّه وسنة نبيه ﷺ ولا يقطع العاقل بكل ما سمع، بل يعاملها معاملة الإسرائيليات.

۞ الفوائد الْمُستنبطة:

الفائدة الأولى: أن الاستعاذة عبادة، ولا تكون إلا باللَّه ﷻ فيما لا يقدر

(١) انظر: طريق الهجرتين (٦١٣).

(٢) صحيح مسلم (٤٥٠).

عليه إلا هو؛ كالاستعاذة من أمر خفي، أو غيبي.

الفائدة الثانية: إثبات الأسماء الحسنىٰ: الرب، والملك، والإلٰه.، وما تضمنه من صفات: الربوبية، والملك، والألوهية، خلافًا للمعطلة من الجهمية والمعتزلة.

الفائدة الثالثة: شدة خطر الوسواس.

الفائدة الرابعة: أن الوسواس قد يقع من شياطين الإنس، كما يقع من شياطين الجن.

الفائدة الخامسة: أن الجن يتعرضون للوسوسة، كما الإنس.



الخاتمة

وبِهٰذا تم الكلام بحمد اللَّه، علىٰ هٰذا التفسير ـ تفسير جزء «عم» ـ ، وتبين أن العناية بالقرآن العظيم، من أهم المهمات، ومن أوجب الواجبات، وأن طريق العلم الصحيح: أن يتوجه الإنسان، رأسًا، إلىٰ كلام رب العالمين، يتدبره، ويتفهمه، ويستنبط معانيه، فبذٰلك يحصل علىٰ العلم الرصين. وبقية العلوم فروع علىٰ علم التفسير. فلابد لطالب العلم أن يجعل لنفسه حظًا حسنًا، ونصيبًا وافرًا، من قراءة التفاسير المعتبرة، وينير عقله وقلبه بتدبر كلام اللَّه. قال ربنا ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]. فلا يكون هم أحدنا أن يكثر الختمات، ويقلب الصفحات، وحسب! ولٰكن يعمل فكره، وعقله، ونظره، في كلام رب العالمين، مستعينًا ببيان المفسرين المعتبرين، الذين يعتمدون علىٰ التفسير بالأثر، وعلىٰ رأسهم إمام المفسرين محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتفسير ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه قد لخص تفسير الطبري، وزاد عليه، وحقق كثيرًا من المسائل. فإن لم يسعفك الوقت، فلا أقل من أن تنظر في تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

نسأل للَّه ﷻ أن يرزقنا وإياكم علمًا نافعًا، وعملا صالحًا، وتجارة لا تبور، وأن يحسن عاقبتنا في جميع الأمور.

والحمد للَّه الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلىٰ اللَّه علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله، وصحبه وسلم.

فهرس الْمَراجع

١ ـ أصل صفة صلاة النبي ﷺ:

المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ـ الرياض، الطبعة: الأولىٰ ١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦ م.

٢ ـ إغاثة اللَّهفان من مصائد الشيطان:

المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، شمس الدين ابن قيم الجوزية.

الناشر: دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥، تحقيق: محمد حامد الفقي.

٣ ـ الأدب المفرد:

المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد اللَّه البخاري الجعفي

الناشر: دار البشائر الإسلامية ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩ ـ ١٩٨٩، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. (مع أحكام الألباني).

٤ ـ البداية والنهاية:

المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي.

الناشر: دار إحياء التُّراث العربي، الطبعة: الأولىٰ ١٤٠٨، هـ ـ ١٩٨٨ م، المحقق: علي شيري.

٥ ـ بدائع الفوائد:

المؤلف: محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم

الجوزية، دار النشر: دار عالم الفوائد، المحقق: علي بن محمد العمران.

٦ ـ تاج العروس من جواهر القاموس:

المؤلف: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضىٰ، الزَّبيدي، الناشر: دار الهداية، المحقق: مجموعة من المحققين.

٧ ـ التبيان في أيمان القرآن:

المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية.

الناشر: دار عالم الفوائد، المحقق: عبد اللَّه بن سالم البطاطي، بأشراف: بكر بن عبد اللَّه أبو زيد.

٨ ـ تفسير الجلالين:

المؤلف: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي.

الناشر: دار الحديث ـ القاهرة، الطبعة الأولىٰ.

٩ ـ تفسير الطبري «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»:

المؤلف: أبي جعفر محمد بن جرير الطبري.

دار: عالم الكتب، تحقيق: عبد اللَّه بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولىٰ (١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٣ م).

١٠ ـ تفسير القرآن العظيم:

المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي.

المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩ م.

١١ ـ تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم:
المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم.
الناشر: مكتبة نزار مصطفىٰ الباز ــ المملكة العربية السعودية، المحقق: أسعد محمد الطيب، الطبعة: الثالثة: ١٤١٩ هـ.

١٢ ـ تفسير مجاهد:
المؤلف: أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي.
المحقق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، الناشر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩ م.

١٣ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول:
المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير.
تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط ــ التتمة تحقيق بشير عيون، الناشر: مكتبة الحلواني ـ مطبعة الملاح ـ مكتبة دار البيان، الطبعة: الأولىٰ.

١٣ ـ الجامع لأحكام القرآن «تفسير القرطبي»:
المؤلف: أبو عبد اللّٰه محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي.
تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية ـ القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤ م.

١٤ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء:
المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد اللّٰه الأصبهاني.
الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.

١٥ ـ الدر المنثور في التفسير بالماثور:

المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي.
تحقيق: مركز هجر للبحوث، الناشر: دار هجر ـ مصر، سنة النشر: ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣م.

١٦ ـ ذيل طبقات الحنابلة:
المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي.
المحقق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة العبيكان ـ الرياض، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٥ م.

١٧ ـ الرسالة التدمرية:
المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني.
الناشر: دار المنهاج، تحقيق: محمد بن عودة السعوي.

١٨ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد:
المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية.
الناشر: مؤسسة الرسالة ـ مكتبة المنار الإسلامية ـ بيروت ـ الكويت، الطبعة الرابعة عشرة: ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.
تحقيق: شعيب الأرنؤوط ـ عبد القادر الأرنؤوط.

١٩ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها:
المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني.
الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولىٰ، (لمكتبة المعارف).

٢٠ ـ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة:
المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني.

دار النشر: دار المعارف، الرياض ـ المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م.

٢١ ـ سنن ابن ماجه:
المؤلف: ابن ماجه أبو عبد اللَّه محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد.
تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، (مع أحكام الألباني).

٢٢ ـ سنن أبي داود:
المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني.
الناشر: دار الكتاب العربي بيروت، (مع أحكام الألباني).

٢٣ ـ سنن الترمذي:
المؤلف: محمد بن عيسىٰ بن سَوْرة بن موسىٰ بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسىٰ.
الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي ــ مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م(مع أحكام الألباني).

٢٤ ـ السنن الكبرىٰ:
المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي.
حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرنؤوط.
قدم له: عبد اللَّه بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م.

٢٥ ـ السنن الكبرىٰ وفي ذيله الجوهر النقي:
المؤلف: أحمد بن الحسين بن على بن موسىٰ الخُسْرَوْجِردي

الخراساني، أبو بكر البيهقي.
مؤلف الجوهر النقي: علاء الدين علي بن عثمان المارديني الشهير بابن التُّركماني.
الناشر: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، الطبعة: الطبعة: الأولىٰ ١٣٤٤ هـ.

٢٦ ـ السيرة النبوية لابن هشام:
عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد.
تحقيق طه عبد الرءوف سعد، الناشر دار الجيل.

٢٧ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة:
المؤلف: هبة اللَّه بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم، الناشر: دار طيبة ـ الرياض، ١٤٠٢، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان.

٢٨ ـ شرح العقيدة الطحاوية:
المؤلف: صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي.
تحقيق: شعيب الأرنؤوط ـ عبد اللَّه بن المحسن التُّركي، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة: العاشرة، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٢٩ ـ شعب الإيمان:
المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ أبو بكر البيهقي.
الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول.

٣٠ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل:
المؤلف: محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم

الجوزية، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة: ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٣١ ـ صحيح البخاري:

المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبداللَّه البخاري الجعفي، الناشر: دار ابن كثير، اليمامة ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ ـ ١٩٨٧.

تحقيق: د. مصطفىٰ ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة ـ جامعة دمشق.

٣٢ ـ صحيح السيرة النبوية:

المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتبة الإسلامية ـ عمان ـ الأردن، الطبعة: الأولىٰ.

٣٣ ـ صحيح مسلم:

المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٣٤ ـ الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة:

المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية.

الناشر: دار العاصمة ـ الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٨ ـ ١٩٩٨، تحقيق: د. علي بن محمد الدخيل اللَّه.

٣٥ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين:

المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية.

الناشر: دار ابن القيم ـ الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٤ ـ ١٩٩٤، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر.

٣٦ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري:
المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني.
الناشر: دار المعرفة ـ بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي.
قام بإخراجه وصححه وأشرف علىٰ طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد اللَّه بن باز.

٣٧ ـ القاموس المحيط:
المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادىٰ.
تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي.
الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥ م.

٣٨ ـ القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد:
تأليف: العلامة محمد بن صالح العثيمين. الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، محرم ١٤٢٤هـ.

٣٩ ـ لسان العرب:
المؤلف: محمد بن مكرم بن علىٰ، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعىٰ الإفريقىٰ.
الناشر: دار صادر ـ بيروت، الطبعة: الثالثة ـ ١٤١٤ هـ.

٤٠ ـ لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف:
المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي.

الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

٤١ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد:
المؤلف: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي.
المحقق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، عام النشر: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.

٤٢ ـ مجموع الفتاوىٰ:
المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني.
المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٤٣ ـ مختار الصحاح:
المؤلف: زين الدين أبو عبد اللَّه محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي.
المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية ـ الدار النموذجية، بيروت ـ صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٤٤ ـ المجتبىٰ من السنن:
المؤلف: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب.
الطبعة الثانية، ١٤٠٦ ـ ١٩٨٦، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة. (مع أحكام الألباني).

٤٥ ـ المستدرك علىٰ الصحيحين:
المؤلف: الإمام الحافظ أبو عبد اللَّه الحاكم النيسابوري، الناشر: دار المعرفة ـ بيروت، بإشراف: د. يوسف المرعشلي.

٤٦ ـ المسند:
المؤلف: أبو عبد اللَّه أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني.
المحقق: شعيب الأرنؤوط ـ عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد اللَّه ابن عبد المحسن التُّركي.
الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م.

٤٧ ـ مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار:
المؤلف: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد اللَّه العتكي المعروف بالبزار.
المحقق: محفوظ الرحمن زين اللَّه، (حقق الأجزاء من ١ إلىٰ ٩)، وعادل ابن سعد (حقق الأجزاء من ١٠ إلىٰ ١٧)
وصبري عبد الخالق الشافعي (حقق الجزء ١٨)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة.
الطبعة: الأولىٰ، بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م.

٤٨ ـ مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي):
المؤلف: أبو محمد عبد اللَّه بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي.
تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٢ هـ ـ ٢٠٠٠ م.

٤٩ ـ المُصَنَّف:
المؤلف: أبو بكر عبد اللَّه بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي، الناشر: دار القبلة، المحقق: محمد عوامة.

٥٠ ـ معالم التنزيل في تفسير القرآن «تفسير البغوي»:
المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي.
المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠ هـ.

٥١ ـ معالم السنن، وهو شرح سنن أبي داود:
المؤلف: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي.
الناشر: المطبعة العلمية ـ حلب، الطبعة: الأولىٰ ١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٢ م.

٥٢ ـ المعجم الأوسط:
المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني.
المحقق: طارق بن عوض اللَّـه بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين ـ القاهرة.

٥٣ ـ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة:
المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٥٤ ـ مفردات ألفاظ القرآن
المؤلف: الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم، دار النشر / دار القلم دمشق.

٥٥ ـ منهاج السنة النبوية:
المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، المحقق: د. محمد رشاد سالم، الناشر: مؤسسة قرطبة، الطبعة لأولىٰ.

٥٦ ـ المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج:
المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢م.

٥٧ ـ موطأ الإمام مالك:
المؤلف: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني.
صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي.
الناشر: دار إحياء التُّراث العربي، بيروت ـ لبنان، عام النشر: ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٥ م.

٥٨ ـ نثر الدر:
المؤلف: أبو سعد منصور بن الحسين الآبي.
دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٤م، الطبعة الأولىٰ، تحقيق خالد عبدالغني محفوظ.

٥٩ ـ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:
المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي.
تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار النشر: دار القلم، الدار الشامية ـ دمشق، بيروت، الطبعة الأولىٰ: ١٤١٥هـ..

فهرسُ الْمَوضُوعات